نفحات الرحمن
في
رياض القرآن

تأليف الشيخ

محمد بن ابراهيم سعيد كعباش

الجزء الثامن

نشر جمعية النهضة
الحجاف - غرداية - الجزائر

نفحات الرحمن

في رياض القرآن

تأليف فضيلة الشيخ

محمد بن إبراهيم سعيد كعباش

الجزء الثامن

نشر جمعية النهضة

العطف- غرداية- الجزائر

طبع: المطبعة العربية 11 نهج طالبي أحمد غرداية

تخريج الأحاديث، الفهرسة والتنسيق الفني:

أ. قاسم بن عمر حاج احمد

أ. عبد الله بن موسى ابن عيسى

حقوق الطبع محفوظة

2008/1429

طبع: المطبعة العربية 11 نهج طامي أحمد - قرداية

الهاتف / الفاكس : (029) 88. 36. 53
المنطقة الصناعية : (029) 87. 34. 34

الإيداع القانوني رقم: 2008/1888

ردمك: 978-9947-845-10-3 I.S.B.N:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا
آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾

(سورة ص: آية 29)

صدق الله العظيم

سورة الإسراء مكية، وآياتها ١١١

أ)- بين يدي السورة:

سميت سورة الإسراء لورود قصة الإسراء فيها معجزة لرسول الله، وسميت سورة "بني إسرائيل" لذكر بعض أحوالهم فيها، وقد تسمى أيضا سورة "سبحان" لافتتاحها بهذه الكلمة. وهي مكية في أغلبها عند الجمهور إلا بعض آيات منها لا تتعدى الخمس. قيل: إنها مدنية لأن ما ورد فيها من أحكام لا تناسب حالة المسلمين قبل هجرتهم إلى المدينة كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ (٦٠)، وقوله: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ (٧٣)، إلى قوله: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾(٧٤). وقيل: إنها نزلت بعد سورة "القصص" وقبل سورة "يونس"، وهي السورة السابعة عشرة في ترتيب المصحف.

وفي فضلها أخرج البخاري عن ابن مسعود أنه قال في هذه السورة وفي مريم والكهف وطه والأنبياء: «إنهن من العتاق الأول، وهن من تلادي»[1]، وأخرج أحمد والترمذي عن عائشة ﵂: «أن النبي ﷺ كان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر»[2]. أما مناسبتها لما قبلها فمن أوجه كثيرة، منها:

أ)- أنه كما ذكر أصحاب السبت -وهم اليهود- في أواخر سورة النحل ذكر في أوائل سورة الإسراء أحوال بني إسرائيل، كما تعرضت لبعض ما شرع الله لهم في التوراة فقد روي عن ابن عباس أنه قال: "إن التوراة كلها في خمس عشرة

١- رواه البخاري عنه موقوفا، كتاب (٦٦) فضائل القرآن، باب (٦) تأليف القرآن، رقم ٤٩٩٤.

٢- رواه الترمذي من حديث عائشة، كتاب (٤٩) فضائل القرآن، باب (٢١) قراءة سورة بني إسرائيل والزمر قبل النوم، رقم ٢٩٢٠، ورواه أحمد في المسند، رقم ٢٣٢٥٢.

آية من سورة بني إسرائيل". أي من قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ (الإسراء:٢٣). إلى قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ (الإسراء:٣٩).

ب)- في آخر سورة النحل أمر الله رسوله بالصبر على أذى المشركين وأن يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وهنا في أول الإسراء رفع من شأنه وشرفه بالإسراء.

ج)- اشتملت السّورتان على ذكر نعم الله الكثيرة على عباده.

د)- نوّه الله تعالى في السّورتين بشأن القرآن العظيم، إذ تكرر لفظ القرآن في هذه السّورة إحدى عشرة مرة.

هـ)- بيّن في السّورتين عاقبة المكذبين، وتوعّدهم بالعذاب الأليم، وبيّن أن الرّسول بشر ليس عليه إلا البلاغ، فلا يملك أن يأتي بالآيات التي يطلبونها.

و)- تعرضت السّورتان إلى بعض القواعد الكونية والاجتماعية والاستفادة منها.

ب)- محاور السورة:

المحور الأساسيّ الذي تدور حوله أغراض هذه السّورة الكريمة هو شخص رسول الله وإثبات نبوته ﷺ وذلك ببيان منزلة القرآن الذي جاء به من عند الله وإثبات فضله على الكتب السّماوية وفضل من أنزل عليه.

وحول هذه القضية الأساسية تأتي الأغراض الأخرى ومنها:

أ)- افتتحت السّورة بتسبيح الله واختتمت بالحمد له والتكبير لعظمته، كما تكرر التسبيح خلال آياتها.

ب)- الإخبار عن حديث الإسراء وبيان حكمته مع التنويه بالمسجدين:

الحرم المكيّ والمسجد الأقصى.

ج)- التنظير بين شريعة موسى وشريعة الإسلام مع التعرّض لأحوال بني إسرائيل في عزهم وذلّهم.

د)- تركيز قاعدة التوحيد ببيان أن كل ما في السّماوات والأرض هو ملك لله يسبّح بحمده ويخضع لمشيته.

هـ)- إقامة البناء الاجتماعي وآداب السّلوك على قواعد التوحيد والتحلّي بالأخلاق الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ (الإسراء:٢٣).

و)- التذكير بنعم الله على عباده وما فيها من الدّلائل على تفرّده تعالى بتدبير شؤون الخلق.

ز)- بيان ما يقتضيه شكر النعم باحث على إقامة الصّلوات في أوقاتها وعلى المعاملة الحسنة ومراقبة الله في جميع التصرفات.

ح)- إثبات البعث والجزاء وتهديد للمشركين على تعنتهم في طلب الآيات الحسية من الرّسول ووعد الله بنصرة الإسلام.

ط)- بيان قدسية القرآن وسموّ غاياته، وقد عجز الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثله مع بيان حكمة نزوله منجّما.

وتتخلل ذلك استطرادات من المواعظ والعبر والحكم والأمثال. وفي الخلاصة يقول الدّكتور وهبة الزّحيلي: "إن السّورة اهتمت برسيخ أصول العقيدة كسائر السّور المكية، من إثبات التوحيد والرّسالة والبعث، وإبراز شخصية الرّسول ﷺ وتأييده بالمعجزات الكافية للدّلالة على صدقه، وتفنيد شبهات المشركين".[1]

١- وهبة الزحيلي، التفسير المنير: ١٥/٨.

منّا الله تعالى على محمد بالإسراء
وعلى موسى بإنزال التوراة

أ)- النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ سُبْحَانَ الَّذِي
أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا
حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى
الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي
وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾: "سُبْحَانَ": سأل طلحة بن عبيد الله عن معناه رسول الله فقال: «هو تنزيه الله من كل سوء».[1] وهو منصوب على المصدر، أي: سبحت الله تسبيحا، "الذي" اسم موصول في موضع الخفض بالإضافة، ويقال: سرى وأسرى لغتان، بمعنى: سار في الليل، فالهمزة في "أسرى" ليست للتعدية، بل "أسرى" فعل مفتتح بالهمزة هو مرادف "سرى". و"ليلا" منصوب على الظرفية، وهو يفيد أن السّير كان في جزء ليلة فهو إسراء خارق للعادة. والتنكير للتعظيم. ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: "آتينا" و"جعلنا" ينصبان مفعولين، و"الكتاب" هو التوراة، والضمير في "جَعَلْنَاهُ"

١- رواه الطبري في تفسيره من حديث طلحة بن عبيد الله موصولا، ومن حديث موسى بن طلحة مرسلا، في تفسير قول الله تعالى: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم﴾ [يونس: ١٠]

يرجع إلى الكتاب. ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾: تكون "أن" إما تفسيرية لما تضمنه لفظ الكتاب، أو تكون مصدرية مجرورة بلام محذوفة، والتقدير: آتيناهم الكتاب لئلا يتخذوا من دوني وكيلا. والوكيل هو الذي تفوّض إليه الأمور. ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾: نصب "ذرية" من أربعة أوجه: تكون نداء مضافا، أو بدلا من "وكيل"، أو هي و"وكيل" مفعولان لـ"تتخذوا"، أو يقدر لها فعل "أعني"، والحمل: وضع شيء على آخر لنقله، والمراد به الحمل في السفينة.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾: قرأ الجمهور بتاء الخطاب، وقرأ أبو عمرو وحده بياء الغيبة على حكاية القول بالمعنى.

د)- التعريف بالمسجد الحرام:

المسجد الحرام هو الكعبة والفناء المحيط بها بمكة المكرمة، والحرم المكي يختلف سعة وضيقا على اختلاف العصور، والمسجد الحرام موصوف ووصف معرفان باللام صارا له علما بالغلبة في اصطلاح القرآن، وهو لم يكن مسوّرا في عهد رسول الله، وأول من سوّره عمر بن الخطاب ﷺ، ثم جدّد وسّع غير ما مرة في عهود الدول الإسلامية المتعاقبة وبلغت أوجها في عهد المملكة العربية السعودية، وللمسجد الحرام عدة أبواب كانت في عهد الجاهلية مسالك لأحياء القبائل العربية التي بنت بيوتها حول المسجد الحرام فيقال مثلا: باب بني هاشم، باب بني شيبة، باب الصفا إلخ. وقد بنى "قصي بن حكيم" بقربه دار الندوة لقريش كانوا يجلسون فيها حول الكعبة، وللمسجد سبع منارات، ولقب بالمسجد لأن إبراهيم عليه السلام جعله لإقامة الصلاة قال تعالى في شأنه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران:٩٦). وقال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ

وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ (البقرة:١٢٥).

فما يزال المسجد الحرام قبلة للمسلمين يولّون وجوههم شطره في صلواتهم ويحجّون إليه ملبين مهللين والله تعالى يحميه من كيد المعتدين مهما حاولوا رصده من أقمارهم الصّناعية. وقديما قال عبد المطلب لأبرهة الحبشيّ: "إن للبيت ربّا يحميه".

هـ)- التّعرف بالمسجد الأقصى:

المسجد الأقصى هو المسجد المعروف ببيت المقدس، وهو ثاني مسجد بني بعد المسجد الحرام، والأقصى بمعنى الأبعد، والمراد بعده عن مكة، وهو -أيضا- وصف للمسجد، فصار بمجموع الوصف والموصوف علما بالغلبة له، وهو من مبتكرات القرآن. يقول عنها الإمام ابن عاشور: "وفي هذا الوصف بصيغة التّفضيل باعتبار أصل وضعها معجزة خفية من معجزات القرآن، إيماء إلى أنه سيكون بين المسجدين مسجد عظيم هو مسجد طيبة الذي هو قصيٌّ عن المسجد الحرام، فيكون مسجد بيت المقدس أقصى منه حينئذ، فتكون الآية مشيرة إلى جميع المساجد الثّلاثة المفضلة في الإسلام على جميع المساجد الإسلامية، والتي بيّنها قول الرّسول: «**لا تشدّ الرّحال إلا لثلاثة مساجد: المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا**»[1]"[2] بدأ بناءه داود عليه السلام وأتمّه سليمان كمعبد -أي لهيكل- ثم جدّد غير ما مرّة فتحوّل من معبد يهوديّ إلى كنيسة في عهد الرّومان إلى مسجد في عهد الإسلام.

١- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب (٢٠) فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب (١) فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، رقم ١١٨٩.

٢- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: ١٥/١٥.

ب- حادث الإسراء والمعراج:

حادث الإسراء والمعراج -وإن كان معجزة وإكراما لرسول الله- فقد وقع في شأنه خلاف كبير بين العلماء قديما وحديثا فالإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى هو المذكور في هذه الآية، وأما العروج إلى السّماوات العلى وإلى سدرة المنتهى فهو المذكور في الصّحاح مطوّلا، وقيل: إنه هو المشار إليه في سورة النجم.

وجمهور العلماء يقولون: إنه إسراء بالجسد والرّوح في اليقظة يدلّ عليه تكذيب قريش به، فلو أنه كان بالرّوح وحده لما كان للامتناء به في هذه الآية معنى، ثم إن قريشا استوصفوا من النّبي علامات على بيت المقدس فوصفها لهم كما هي، ووصف لهم عيراً قافلة في الطّريق فوجدوها كما وصفها لهم، ومن القائلين بأنه إسراء بالرّوح فقط عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها ومعاوية والحسن البصري، اعتمادا على أن رؤيا الأنبياء وحي.

وحول ذلك الجدل الطّويل في هذا الحادث واختلاف الرّوايات عليه يعلّق السّيد قطب في ظلاله بما يجب أن تكون عليه نظرة المؤمن في مثل تلك المسائل فيقول: " على أننا لا نرى محلاً لذلك الجدل الطّويل الذي ثار قديما وحديثا حول طبيعة هذه الواقعة المؤكدة في حياة الرّسول ﷺ والمسافة بين الإسراء والمعراج بالرّوح أو بالجسم، وبين أن تكون رؤيا في المنام أو رؤية في اليقظة... المسافة بين هذه الحالات كلها ليست بعيدة، ولا تغيّر من طبيعة هذه الواقعة شيئا وكونها كشفا وتجلية للرّسول ﷺ عن أمكنة بعيدة وعوالم بعيدة في لحظة خاطفة قصيرة، والذين يدركون من طبيعة القدرة الإلهية ومن طبيعة النّبوة لا يستغربون في الواقعة شيئا. فأمام القدرة الإلهية تتساوى جميع الأعمال التي تبدو في نظر الإنسان وبالقياس إلى قدرته وإلى تصوّره متفاوتة السّهولة والصّعوبة حسبما اعتاده وما رآه،

والمعتاد المرئي في عالم البشر ليس هو الحكم في تقدير الأمور بالقياس إلى قدرة الله، أما طبيعة النبوة فهي اتصال بالملإ الأعلى -على غير قياس أو العادة لبقية البشر- وهذه التحلية لمكان بعيد أو عالم بعيد، والوصول إليه بوسيلة معلومة أو مجهولة ليست أغرب من الاتصال بالملإ الأعلى والتلقي عنه، وقد صدق أبو بكر ﷺ وهو يردّ المسألة المستغربة المستهولة عند القوم إلى بساطتها وطبيعتها فيقول: إني لأصدّقه بأبعد من ذلك، أصدّقه بخبر السّماء".[1]

قلت: ويقول قطب الأئمة رحمه الله: "والإسراء ببدنه وروحه، وقيل: أسرى به قبل النبوة تمهيدا، ثم بها وبدنه يقظة، وقيل: بجسده وروحه إلى المقدس، وبروحه منه إلى السّماء، كما شنّع عليه المشركون الذّهاب إلى بيت المقدس، ولم يشنّعوا عليه الذّهاب إلى السّماء. ولا يخفى أن تسمية البدن والرّوح معا "عبدا" أحق وأظهر من تسمية الرّوح وحدها عبدا".[2]

ج)- البيان والتّفسير:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾:

افتتحت السّورة الكريمة بلفظ التّسبيح بصيغته ﴿سُبْحَانَ﴾، وهو -كما تقدم- منصوب على المصدر ومعناه كما بيّن الرّسول لطلحة: «أنزه الله من كل سوء». فاختيار هذا اللّفظ مضافا إلى الموصول دون لفظ الجلالة لإفادة التعجيب والتنبيه من الخبر المتحدث عنه، إذ هو خبر يدعو إلى الاستغراب والتعجّب عند السّامعين، وهم إذ يستبعدون وقوعه على اعتبار ما ألفوه من محدودية قدرة الإنسان

١- سيد قطب، في ظلال القرآن: ١٧/٤، ١٠.

٢- أحمد بن يوسف أطفيش، تيسير التفسير: ٨/١١٤-١١٥.

فيشكون في قدرة الله تبعا للملك، فيأتي ذلك التنزيه مقرونا بذلك الخبر العجيب ليدلّ على عظيم قدرة الله وتزيل كل شكّ في ذلك، وذلك -والله أعلم- هو وجه اختلاف التعبير في مفتتح كل من سورتي الكهف والفرقان بالحمد والمباركة إذ قال تعالى:

أ)- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾(الكهف: ١).

ب)- ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾(الفرقان: ١).

ذلك لأن إنزال الكتاب من الله على رسله ليس بمستنكر ولا مستغرب عند القوم.

﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾: أسرى فعل لازم كـ"سرى"، وهو يحمل معنى السّير بالليل، فزيادة "لَيْلًا" لإفادة تمام المسار من بدايته إلى نهايته في جزء من الليل وذلك أدعى لبيان القدرة الإلهية. واختيار وصف العبودية للرّسول مضافا إلى ضمير الجلالة هو للتشريف، وكان الرّسول يعتز بتلك العبودية، وجاء في الأثر: "أشرف العبودية ما تعبّد به". ووصف العبودية للرّسول يبعده عن كلّ تقديس يرفعه إلى مقام الألوهية كما فعلت النصارى بالمسيح.

﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾: حدّد الله مسار الإسراء من بدايته إلى نهايته ليبان طول المسافة، وأن ذلك قد تمّ بقدرة الله تعالى، وهو معجزة وتكريم لرسول الله، وفي ذلك إيماء إلى مسار موكب الإيمان والتوحيد من مقام إبراهيم في المسجد الحرام إلى مرابع ذريته في بيت المقدس ثم عودا إلى المهد الأول في مكة على عهد محمد ﷺ.

ومباركة الله لما حول المسجد الأقصى كانت بوفرة المعايش لسكانه بركة النبوءة، وهو نفس الوصف الذي أضفاه الله على الكعبة بقوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ

وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٩٦).

﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾: بيان لمقاصد ذلك الإسراء بأنها تكريم لرسول الله بما يريه الله من آيات قدرته وعظمته مما قد يخفى عن مدركات الإنسان، فإذا عرفنا أن حادث الإسراء وقع في عالم الحزن أدركنا ما في ذلك من الحكم الإلهية في تثبيت رسول الله، ففي المدركات الحسية لدى الإنسان اطمئنان ويقين، فقد قال إبراهيم عليه السلام لربّه عندما طلب منه أن يريه كيف يحي الموتى، قال: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة: ٢٦٠).

ولم يفصّل النصّ ما رآه الرّسول من تلك الآيات فلا مجال هنا للروايات التي تذكر بعض ما رآه، اللّهم إلا ما يكون قد ثبت بالأحاديث الصّحيحة، ونجد زيادة وصف "الكبرى" للآيات في سورة النّجم إذ قال تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ، لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ (١٧-١٨).

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾: جمهرة المفسرين على أن الضميرين عائدان إلى الله، بأنه سميع بصير بكل ما يثور حول هذا الحادث من مراء وجدال ممّن ينكر ذلك من المشركين، وقيل: إن الضميرين يرجعان إلى النّبي ﷺ ليكون ذلك له شهادة من الله على صدقه وأن الله تعالى أقدره على اختراق تلك الآفاق ومعاينة ما فيها من عجيب الخلق، ويؤيد ذلك قوله تعالى في سورة النّجم: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ (١٢).

وقد أعقب الله كرامته برسوله محمد ﷺ أعقب ذلك بذكر ما أكرم به موسى قبله من التّوراة، فهما منّتان عظيمتان لرسولين كريمين، قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾.

ولا شك أن أعظم آية أوتيها رسول الله بالنسبة للبشر هي آية القرآن الكتاب المعجز الخالد، فناسب أن يذكر مثل ذلك لموسى عليه السلام بأن آتاه التوراة

وهو في مساره بأهله إلى مصر إذ آنس من جانب الطُّور نارا، ووصف التوراة بأنها هدى لبني إسرائيل، جاء لتذكيرهم بنعمة الله عليهم وأنهم يكونون على هدي إن هم أحسنوا اتباع ما في كتابهم ومن ذلك الإقرار بنبوة محمد. وقد بشرت به التوراة، كما تضمنت ما أوحى الله إلى كل نبي أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وأن يكلوا أمورهم إليه وحده.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾: تقدم أن أحد أوجه النصب لـ"ذُرِّيَّةَ" هو تقدير النداء، وفي رفع انتمائهم إلى ذرية نوح ممن كان من أهله المؤمنون على ظهر السفينة، تذكير لبني إسرائيل وهم من أبناء سام بن نوح وتذكير غيرهم من البشر بأعظم نعمة أنجاها الله تعالى لذلك الجيل بالإنجاء من الغرق في الطوفان، وتذكير بطهر منتهم في الإيمان والصلاح والتقوى، إذ وصف جدهم الأعلى نوحا عليه السلام بأنه كان عبدا شكورا حتى يتشبهوا به في ذلك فلا يكفرون نعم الله عليهم. ووصفه بالعبودية جعله غير متكبّر على الله، وكان ذلك الإنجاء من الغرق ببركة تواضعه وشكره، ولا شك أن لسلف الطاهر بورث الصلاح للأبناء والأحفاد، وأن التذكير به مبعث للاعتزاز والفخر والاعتداد، والله أعلم.

تقلب أحوال بني إسرائيل بين العز والذل

وفق موقفهم من هدي كتبهم

أ)- النص:

وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ

عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾: القضاء بمعنى الحكم والتقدير، وتعديته بـ"إلى" لتضمينه معنى أبلغنا وأخبرنا. و"الكتاب" هو التوراة، أو بعض كتبهم الدينية الأخرى. ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾: جملة: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ﴾ جملة مبيّنة لجملة "وقضينا"، و"مرّتين" إشارة إلى أحداث تاريخية عظمى، كانت بين بني إسرائيل وبين البابليين في المرة الأولى، وبينهم وبين الرّومانيين في المرة الثانية. ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾: هم بختنصّر البابلي وجنوده. ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾: الجوس: التردّد في البلاد دهابا وإيابا حوس مضرّة. ﴿رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾: الكرة من الكرّ أي: العطف والرّجوع إلى المكان الذي ذهب منه، والمراد به الدّولة والغلبة. ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾: النّفير اسم جمع للجماعة التي تنفر مع المرء من قومه وعشيرته. ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾: اللاّم للتعليل، و"سوء الوجوه" كناية عن المساءة عليها بالكآبة والحزن لما يناهم من قتل وسبي. ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾: التتبير: الإهلاك والإفساد. ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾: الحصير: المكان الذي يحصر فيه فلا يستطاع الخروج منه. قال ابن عباس: هو السّجن. فهو بمعنى فاعل أو مفعول على تقدير متعلق، أي محصور فيه.

ج)- أوجه القراءة:

﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر ويعقوب "لِيَسُوءُوا" بضمير الجمع مثل أخواته الأفعال الأربعة. والضمائر راجعة إلى محذوف دلّ عليه لام التعليل في قوله: "لِيَسُوءُوا"، وقرأ ابن عامر وحمزة وأبو بكر عن عاصم وخلف قرأوا: ﴿لِيَسُوءَ﴾ بالإفراد والضمير لله تعالى. وقرأ الكسائي: "لِنَسُوءَ" بنون العظمة. وتوجيه هاتين القراءتين من جهة موافقة رسم المصحف أن همزة المفتوحة بعد الواو قد ترسم بصورة ألف، فالرّسم يسمح بقراءة واو الجماعة على أن يكون الألف ألف الفرق، وبقراءة الإفراد على أن الألف علامة لهمزة.

د)- ما وقع لبني إسرائيل في المرتين:

لقد أجمل الإمام ابن عاشور ما وقع لهم في المرتين فقال: "وهذه الآية تشير إلى حوادث عظيمة بين بني إسرائيل وأعدائهم من أمتين عظيمتين، حوادث بينهم وبين البابليين، وحوادث بينهم وبين الرّومانيين، فانقسمت هذا الاعتبار إلى نوعين: نوع منهما تندرج فيه حوادثهم مع البابليين، والنوع الآخر حوادثهم مع الرّومانيين، فعبّر عن النوعين بمرتين لأن كل مرة منهما تحتوي على عدة ملاحم". انتهى.[1]

قلت: القرآن ليس كتاب تاريخ، ولذلك أهمل النصّ ذكر من بعث الله إليهم وذكر تواريخ تلك البعوث، إذ المهمّ هو أن يعتبر المسلمون بما جرى لأمة موحّدة مثلهم، إذ سلط الله عليهم من يقهرهم ويستذلهم عندما عصوا وأفسدوا في الأرض. ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب:٦٢).

١- ثم فصّل الشيخ تلك الحوادث في الصفحات: ٢٩ إلى ٣٨، التحرير والتنوير: ج١٥.

هـ)- البيان والتفسير:

بعد أن ذكر الله تعالى ما أكرم به رسوليه محمدا وموسى بالإسراء من مكة إلى بيت المقدس، وبإعطائه التوراة لموسى وجعلها هدى لبني إسرائيل ذكر هنا موقفهم من تلك النعمة إذ تردّدت أحوالهم ما بين العزّ والغلبة وبين الذّل والقهر لهم من طرف أعدائهم، وذلك تبعا للشّكر والطّاعة والانقياد، أو للكفر والطّغيان والإفساد، وذلك بالنّسبة للجزاء الدّنيوي، ويقابله الجزاء الأخرويّ نكالا وجحيما للعتاة الكافرين.

قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾:

على بيان ما منّ الله به على بني إسرائيل من جعله التوراة هدى لهم بيّن هنا ما أخبرهم به في كتابهم من بعض الأحداث التاريخية التي يمرّون عليها في مسيرهم الطّويلة.

فقوله تعالى: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ بيان لجملة: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾، والمراد بالكتاب هو التّوراة أو أحد كتبهم الدّينية الأخرى، وذلك الإخبار من الله تعالى بما يقعون فيه من الإفساد والعلوّ في الأرض إنما يجري وفق ما في علمه الأزلي سوف ينكشف لهم في مجرى تاريخهم. والبدء بالعلوّ في الأرض وعطف الإفساد عليه هو على قاعدة ترتيب المسبّبات على الأسباب لأن المفروض في أمة تدين بالتّوحيد وشرّفها الله بالرّسالة أن تبقى مستقيمة على الهدي السّماوي، فما ينبغي أن يكون العلوّ والقوة في الأرض وسيلة للظلم والإفساد، غير أن واقع الإنسان هو كما ذكره الله -وهو أعلم بمن خلق- استكبار وفساد في الأرض كلما تقوّى واستغنى، قال تعالى:

﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى، أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ (العلق:٦-٧). والإفساد مرتين مما ثبته كتبهم الدّينية، فقد تحقق إخبار الله بذلك ليكون فيه عبرة للمسلمين ومع العلوّ والإفساد في الأرض انتقام من الله بتسليط الأعداء عليهم يقهرونهم ويغتصبون شوكتهم، وقد تمّ ذلك في المرة الأولى والثانية.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً، ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً، إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾:

يتمثل إفساد بني إسرائيل وعلوّهم في الأرض بمخالفتهم لأحكام كتابهم وقتلهم لبعض أنبيائهم بغير حق مثل أشعيا وزكريا، ويحيى عليهم السّلام، ومحاولتهم قتل المسيح عليه السلام، فما تستقيم دولة على الفساد الإداري بخيانة المسؤولين، ولا يستمرّ عمران مع الظّلم والبغي والطّغيان. فبعث الله عليهم في المرة الأولى من وصفهم بأنهم أولو بأس شديد، وهم على الأرجح البابليون بقيادة "نبوخذ نصّر" في غزوات متتالية فقتل وأسر ودمّر وخرّب وجاس خلال الدّيار فخرّبوا "أورشليم" بما فيها هيكل سليمان، وهكذا نفذ فيهم حكم الله.

ولكن الأيام دول، وقد تتعظ الشعوب بما تلاقيه من المصائب، فعندما تاب بنو إسرائيل إلى رشدهم واتعظوا مما أصابهم بعد مدة من الزّمن يدل عليها العطف بـ"ثم" في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أرجعنا لكم الغلبة والنّصر على أعدائكم فأصبحتم أمنع جانبا وأكثر عددا، والله تعالى لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم، ومن عدل الله تعالى أن يربط الجزاء بالعمل فيقول: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾، فقد ربط الله إحسانه لهم بتوبتهم ورجوعهم إليه، وهو في الواقع إحسان لأنفسهم بتغيير حالهم من العسر إلى اليسر.

فالإنسان مسؤول عن نفسه رهين بعمله فيجزى بالإحسان إحسانا وبالإساءة سوءا، فليت بني إسرائيل استبقوا تلك النعمة بدوامهم على الشكر والاستقامة، ولكنهم سرعان ما تكرّر عصيانهم من جديد فتكررت سنة الله في تسليط عباده على بعضهم بعض.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾:

وقد أساء بنو إسرائيل للمرة الثانية، فتفرع عليها ما قضى الله به في الكتاب -أيضا- من قتل وأسر وتدمير وتخريب على يدي عباد آخرين أولي بأس شديد، وهم الرّومانيون عندما تمرّد اليهود للخروج عليهم.

وقد لخّص الله تلك الوضعية المعصية التي مروا عليها في نظم بديع تتابعت فيه لامات التعليل: ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾.

فبدأ بمساءة الوجوه، بآثار الإذلال والقهر وهي الإهانة المعنوية الأليمة، وتشبيه دخول المسجد بالمرة الأولى يراد به دخول غزو وتدمير وتخريب، ويدلّ عليه قوله: ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾، فهو تدمير شامل لعمران المدينة "أورشليم".

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾:

وبعد النقمة والتأديب الإلهي ينفتح باب الأمل لعباده بالرّحمة فيأسو الجراح ويلمّ الشعث وتعود العافية إلى جسم الأمة، غير أن القاعدة الاجتماعية لا تتخلف، والله غالب على أمره يعود بالنقمة والعذاب على المفسدين الطّغاة، وصدق الله سبحانه الشعراء إذ قال:

وإنما الأمم الأحـــلاق مـــا بقيـــت فإن هم ذهبت أخلاقهـــم ذهـــبوا

وهكذا كلما عاد بنو إسرائيل إلى الإفساد في الأرض عاد الله عليهم بالخزي والنكال، كما حدث لهم مع رسول الله بإجلائهم وضرب الجزية عليهم، وهم اليوم في قوة ومنعة بدولتهم "إسرائيل" وقد عادوا إلى الإفساد والطغيان، والله من ورائهم محيط، لا تخلف سنته: ﴿وَإِنْ عُدتُمْ عُدْنَا﴾ (الإسراء:٨). وإنّ غدًا لناظره قريب.

﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾: أي إن ما أعدّ الله للكافرين من الجزاء الأخروي سجنا وعذابا هو أشدّ إيلاما من عذاب الدّنيا وأبقى ذلا وخزيا وهو لا يخصّ المخاطبين من بني إسرائيل، بل هو عامّ لكل من اتصف بالكفر وعاث في الأرض فسادا، والله أعلم.

هداية القرآن، وطبيعة الإنسان

أ)- النص:

إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ۝١١

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾: "أقوم" تفضيل القويم، وهو صفة لمحذوف دلّ عليه "يهدي"، أي: الطريق التي هي أقوم. وفيه إيجاز وتفخيم. ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾: العطف بين جملتي: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

بالآخرة﴾ يقتضي أن بشارة المؤمنين تكون بتوابهم هم وبعقاب أعدائهم. ﴿ويدعُ الإنسانُ بالشرِّ دُعاءَهُ بالخيرِ﴾: الدعاء هنا بمعنى الطلب، ﴿دُعاءَهُ بالخيرِ﴾: فيه حذف، والتقدير: يدعو الانسان بالشرّ دعاء مثل دعائه بالخير، ثم أقيمت الصفة مقام الموصوف، والمضاف إليه مقام المضاف، والباء في قوله: "بالخير" و"بالشر" هي لتأكيد لصوق العامل بمعموله، أي لتضمين مادة الدّعاء معنى الاستعجال. ﴿وكانَ الإنسانُ عَجُولاً﴾: "عجولا" صيغة مبالغة في "عاجل"، أي يسرع في ما يطلبه دون مراعاة للعاقبة.

ج)- البيان والتفسير:

زيادة على تشريف رسول الله بحادثة الإسراء، وعلى ذكر ما أكرم الله به موسى من هدي التوراة، وما سلّطه على بني إسرائيل من عذاب الدنيا جزاء مخالفتهم هدي كتابهم، فقّى الله على ذلك هنا بالثناء على القرآن الكريم، وأبان أهدافه العظيمة من الهداية والبشارة والنذارة، وأن من طبيعة الإنسان العجلة في الشّر والخير فقال جلّ من قائل: ﴿إنَّ هذا القُرْءانَ يَهْدي للتي هي أقْوَمُ ويُبَشِّرُ المُؤمنينَ الذينَ يَعْمَلُونَ الصّالحاتِ أنَّ لَهُمْ أجْراً كَبيراً، وأنَّ الذينَ لا يُؤمنُونَ بالآخرةِ أعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أليماً﴾.

التنويه بشأن القرآن هو تنويه بشأن المنزّل عليه، إذ وصفه الله تعالى بصفات ثلاث، صدّرت بالتوكيد بـ"إن" بعدها لفظ الإشارة، لأن القرآن حاضر في أذهان السّامعين ليزداد المؤمنون به إيمانا واهتماما بإرشاداته، ويدعن الكافرون إلى صدقه، وقد بدأ الله بأعظم صفاته وأبرزها:

أ)- ﴿إنَّ هذا القُرْآنَ يَهْدي للتي هي أقْوَمُ﴾: والهداية هي أعظم النّعم بعد الخلق والإيجاد، وصفة "أقْوَمُ" هي لموصوف محذوف بتقدير الطّريق أو الملّة،

وبتقدير المفضل عليه -أيضا-، لأن القرآن الكريم يشترك في الهداية مع الكتب السّماوية الأخرى، ولكنه يزيد عليها بإعجازه وبلاغته وأساليب إرشاده ومواعظه وتفاريع أحكامه وتشريعاته، لا تضاهيه في ذلك الكتب الأخرى، وهو كما قال تعالى في شأنه بعد ذكر التوراة والإنجيل في سورة المائدة: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (٤٨).

وفي هذا الوصف تعريض للمسلمين لاتباع هدي كتابهم حتى لا يقعوا في مثل ما وقع فيه بنو إسرائيل وتطمين لهم بأنهم على النهج السّوي.

ب)- ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾: لقد درج القرآن في غير ما آية أن يقرن الإيمان بالعمل الصّالح مما يؤكد أن الإيمان قول وعمل، وقد فسّر ابن عباس الأجر الكبير هنا بالجنة، ولا شك أن المؤمنين يتفاوتون في إيمانهم وأعمالهم، وبذلك تتفاوت درجاتهم في الجنة من الدّرجة الدّنيا إلى عليين.

ج)- ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: لم يرد هنا لفظ النّذارة مقابل البشارة، ويدلّ العطف على أن الوعيد للكافرين اعتبر من جملة البشارة للمؤمنين على اعتبار، والتّركيز أن عذاب العدو هو بشارة لمن عاداه، فتكون بمعنى التّهكم والسّخرية، والتّركيز على نفي الإيمان بالآخرة فهو وإن كان المقصود بهم مشركي قريش ففيه -أيضا- تعريض بأهل الكتاب لأن بعضهم ينكر العقاب الجسماني والثّواب الجسماني في الآخرة بالمرة، وبعضهم يقول: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ (البقرة: ٨٠).

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾: جاءت هذه الآية معطوفة على نذارة الذين لا يؤمنون بالآخرة، ذلك لأن الكافرين لعدم إيمانهم بها يستعجلون وقتها بقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

(الأنبياء:٣٨). والإنسان من طبعه العجلة إذ هو لا يقدّر عواقب الأمور، بل يتحدّى -أحيانا- عند المواقف التي لا يؤمن بها، كما قال الله في شأن الإنسان بالآخرة: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ (الشورى:١٨).

والتشبه بين دعائه بالشّر ودعائه بالخير هو كناية عن غلبة الطوى لدى الإنسان، فهو لا يبصّر في العواقب حين يدفعه الغضب إلى الدّعاء على نفسه أو ولده أو ماله بالشّر، ولكن الله تعالى بفضله ومنّه لا يستجيب دعاءه وقد قال: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ (يونس:١١).

وقد نهى الرّسول من أن يدعو الإنسان على نفسه أو أهله بالشّر، في ما رواه جابر أن النبي ﷺ قال: «**لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم، أن توافقوا من الله ساعة إجابة، يستجيب فيها**».[1]

وقد تكون الآية في معنى قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٢١٦). بمعنى أن الإنسان قد يبالغ في الدّعاء طلبا لشيء يعتقد الخير فيه، فيلحّ في ذلك وقد يكون ذلك الشيء منبع شرّه وهو لا يعلم، ومن هنا كان وصفه بالعجول، أي يغترّ بظواهر الأشياء.

والله أعلم

١- رواه مسلم من حديث عبادة بن الصامت، كتاب (٥٣) الزهد، باب (١٨) حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر، رقم ٣٠٠٩.

دلائل القدرة الإلهية في الآفاق، والمسؤولية الشخصية للإنسان، ولا تكليف قبل الشرع

أ)- النص:

وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ ۖ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾: مفعولان لـ"جعلنا"، كل منهما يأتي إثر صاحبه وينصرف عند مجيئه، و"الآية": العلامة، يجوز أن يكون كل من الليل والنهار آية بذاته، ويجوز أن تكون الآية ما يلازمهما من الشمس والقمر، ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾: محونا: من المحو، وهو الطمس، أطلق على انعدام النور، يقابله الإبصار في النهار، أي: ظهور الأشياء بالنور، وهو مجاز عقلي. ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾: الطائر: يطلق على السهم أو القرطاس

الذي يعين فيه صاحب الحظ في عطاء أو قرعة لقسمة، وأما الطّائر فقد استعمل لفعل الإنسان، أي: من زجر الطّير، لأن العرب كانوا يتفاءلون ويتشاءمون بزجر الطّير، والإلزام: بمعنى جعلناه لازما له لا يفارقه، أي: لزوم الطّوق بالعنق. ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾: فيه إيجاز بالحذف، والتقدير: يقال له يوم القيامة: اقرأ كتابك، أي صحيفة عملك. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾: تزر: تحمل الوزر، وهو الثقل، والوازرة: الحاملة، وتأنيثها على اعتبار النفس البشرية. ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾: فيه إيجاز بالحذف، والتقدير: أمرناهم بطاعة الله ففسقوا فيها، أي: انحرفوا عن النهج القويم. ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾: أي وعيد الله بإهلاكهم. ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾: كم: تدلّ على الكثرة، وهي موضع نصب بـ"أهلكنا"، والقرون: مفرده قرن، المدّة الطّويلة من الزّمن في الأصل، ويطلق على النّاس الذين يكونون في تلك المدة.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾: نُخْرِجُ: قرأ الجمهور بنون العظمة وبكسر الرّاء، وقرأ يعقوب بياء الغيبة وكسر الرّاء، والضّمير عائد إلى "الله" المعلوم من المقام، وهو التفات. وقرأه أبو جعفر بياء الغيبة في أوله مبنيا للنائب على أن "له" نائب فاعل. و"كتابا" منصوب على المفعولية. ﴿يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾: قرأ ابن عامر وأبو جعفر: "يُلَقَّاهُ" بضمّ الياء وتشديد القاف مبنيا للمجهول على أنه مضاعف "لقّى" تضعيفا للتعدية. ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾: "أمّرنا": قرأه الجمهور همزة واحدة وتخفيف الميم، وقرأ يعقوب: "آمّرنا" بمدّ همزتين: همزة التعدية وهمزة فاء الفعل، أي: جعلناهم آمرين، أي: داعين قومهم إلى الضّلالة.

د)- البيان والتّفسير:

على وصف الإنسان بالعجلة في تحقيق مآربه، وهو لا يتحرك إلا في الزّمان

والمكان، ذكر الله في مفتتح هذا النصّ الكريم ما هو من دلائل قدرته وصنعه العجيب في الآفاق من تسخيره اللّيل والنّهار تعالا لنشاطنا ولسلوكنا، ثم بيّن المسؤولية الشخصية للإنسان على أعماله، وهي تقوم على مبدإ التكليف بشرع الله، وأنّ الجزاء الدّنيويّ والأخرويّ لا يكون إلا بعد البيان والإنذار، فقال جلّ من قائل: ﴿وَجَعَلْنَا الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ الَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾.

لقد تكررت في القرآن منة الله خلقه في تعاقب اللّيل والنّهار واختلافهما في الظّاهرة الطّبيعية من تعاور النّور والظّلمة على وجه الأرض، وهي دليل قاطع على قدرة الخالق وتدبيره الحكيم.

﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ الَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾: وفي تعبير تصويريّ بديع تفرّع عن الجملة السّابقة فاستعار لفظ "المحو" لظلمة اللّيل ولفظ "الإبصار" لنور النّهار، وإضافة "آية" إلى كلّ من اللّيل والنّهار هو للتأكيد على قدرة الصّانع.

وقوله: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ هو تعليل لآية النّهار خاصّة، وحذف ذكر آية اللّيل للعلم بها، وهي الهدوء والسّكون بالنّوم. غير أنّ قوله تعالى: ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ فيه إشارة إلى آية اللّيل؛ لأنّ معرفة السّنين والحساب لا يتمّ إلا بهما معا.

ثم ذيّل الله كلّ ذلك بقوله: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾، وفي هذا التّذييل مناسبة لما تقدّم من وصف الإنسان بالعجلة ببيان أنّ كلّ ما قدّره الله من خير أو شرّ في ملكوته هو مضبوط في علمه بالآجال المحدودة فلا يقربه ولا يؤخره استعجال ولا استبطاء، وهذا الحكم شامل لكلّ ما خلق الله فهو كقوله تعالى في سورة الرّعد: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ (٨). وفي سورة الفرقان بقوله:

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ (٢).

ذلك هو علم الله الأزلي في أرجاء ملكوته، ومنها خاصّة ما يتعلّق بعمل الإنسان، فهي إذ تقع في مجال الزّمان المذكور فقد ففّى الله على ذلك بيان المسؤولية الشّخصية والتّبعية الفردية للإنسان على أعماله من خير وشر فقال: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً، اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾.

وهذا العطف هو من قبيل عطف الخاصّ على العامّ، للدّلالة على أنّ من علم الله الشّامل لكلّ شيء علمه بعمل الإنسان خيره وشرّه و وفق اختياره، وبحسب ما قدّره الله في ذلك لا ينفكّ عنه بحال، فهو مفصّل -أيضا- في علم الله لا يخفى منه شيء يشبه الضّبط والتّقييد بالكتابة في قرطاس.

وقوله: ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾، والإلزام جعل الشيء لازما له، وكونه في عنقه، لأن العرب كانت تضرب المثل لذلك بالشّيء الذي يوضع في العنق كالقلائد والأطواق، فيقولون: جعلت هذا في عنقك. واستعير الطّائر لعمل الإنسان؛ لأن العرب كانوا يزجرون الطّير بالسّعد أو النّحس، فأطلق الطّائر على حظ الإنسان من الخير أو الشّرّ. يقول الكنديّ في شأن قومه:

فإن زجروا بالنّحس طيرا تمرّ بي ... زجرت لهم طيرا تمرّ بهم سعدا

﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً﴾: والمقصود بالكتاب الصّحائف التي تضبط أعمال الإنسان في الدّنيا، و نشرها: إظهارها بكل ما فيها من تفاصيل ليوم الجزاء. قال تعالى في سورة التّكوير وهو يعدّد وقائع يوم القيامة: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ (١٠).

وحتى يكون الإنسان شهيدا على نفسه يقال له في ذلك الموقف: ﴿اقْرَأْ

كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾، والأمر بالقراءة أمر تسخير وإضطرار لتحصل له بذلك معرفة ما ارتكبه من أعمال ليحاسب نفسه بنفسه، وذلك أقوى لإثبات الشّهادة، قال تعالى في تصوير ضبط الأعمال على الصّحائف: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ، مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق:١٦-١٨).

ومما أن حظ الإنسان يختلف خيرا وشرّا، أو نفعا وضرّا وأنه هو المتسبّب في ذلك وفق اختياره بيّن الله ذلك فقال: ﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

جاء هذا التّعقيب لتأكيد المسؤولية الشّخصية للإنسان على أفعاله، فمن اتبع طريق الهداية فقد ابتغى الخير لنفسه، وكذا من ضلّ وغوى فلا يضرّ إلا نفسه، ثم أكّد الله معنى الجملة الثّانية ببيان أن وزر أحد لا يحمله غيره وذلك للاستقصاء في الأعذار وإبطال لمن يزعم أن أوزارهم يحملها عنهم غيرهم، أو أن يقوم بحملها عنهم آباؤهم الذين قلدوهم، فقد روي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة عندما قال: اكفروا بمحمد وعليّ أوزاركم.

غير أن الذي يتسبّب بضلاله في إيقاع غيره يتحمّل ذلك الوزر لأنه متسبّب فيه، كما قال تعالى في سورة النّحل: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾(٢٥). كما جاء في الصّحاح: «لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، وذلك لأنه

أول من سن القتل».[1]

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾: وإذ تقررت المسؤولية الشخصية للإنسان على عمله، وأنه مجازى -لا محالة- على ما اجتره لنفسه من نفع أو ضرّ، وهنا أن المقام مقام إعذار وإنذار بيّن الله هنا أنه من مقتضى عدله ورحمته أن لا يهلك قوما بالعذاب الدنيوي أو الأخروي حتى يقيم الحجة عليهم بإرسال الرسل إليهم يدعونهم إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وقد تردّد في القرآن هذا المعنى كثيرا من نحو قوله تعالى:

أ)- ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (الشعراء:٢٠٨-٢٠٩).

ب)- ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر:٢٤).

ج)- ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ (فاطر:٣٧).

د)- ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ﴾ (الزمر:٧١).

وعلى ذكر العذاب بيّن الله بعد ذلك أسباب حلوله، حيث يقوم بعد بعثة الرسول فقال: **﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾**.

ولئن كان الحكم عامّا لكل قرية يسلك أهلها مسالك الغيّ والضلالة بتسفيه الرسول وتكذيبه، فإن فيها تهديدا لمشركي مكة وتحذيرا للمسلمين، فإرادة الله تتوجّه إلى إنجاز المراد عند حصول أسبابه، وهي هنا مخالفة المترفين -وهم أهل

١- رواه البخاري من حديث عبد الله بن مسعود، كتاب (٦٠) أحاديث الأنبياء، باب (١) خلق آدم صلوات الله عليه وذريته، رقم ٣٣٣٥.

النّعمة وسعة العيش-، مخالفتهم لما أمروا به على ألسنة الرّسل من الطّاعة لله واتّباع هدي رسله، وقد وصفهم بالفسق وهو الانحراف عن الطّريق السّويّ.

وعلى قراءة: ﴿أمَرْنَاهُم﴾ يكون المعنى: جعلناهم داعين قومهم إلى الضّلالة.

﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾: وإحقاق القول بمعنى الوعيد الذي وجهه الله على ألسنة الرّسل، والتّدمير بمعنى: عذاب الاستئصال.

والتّأكيد بالمصدر للدّلالة على عظم ذلك التّدمير، فهو يشمل كل طبقات النّاس المترفين وغيرهم، وتخصيص المترفين بالذّكر لأنهم -غالبا- هم السّادة الكبراء، وغيرهم من العامّة تبع لهم، وهم يتبرأون منهم يوم القيامة فيقولون: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ، رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾ (الأحزاب:٦٧-٦٨).

ثم ضرب الله مثلا لهلاك القرى بكثير من الأمم من بعد نوح عليه السلام فقال: ﴿وَكَمَ اَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾: و"كم" تدلّ على كثرة العدد، وجمع "القُرُون" للدّلالة على الأزمنة الطّويلة المتعاقبة، والمقصود بالإهلاك هم النّاس الذين يعيشون في تلك المدد، ووجه ذكر "نوح" بالذّات وذكر البعدية من قومه للإشارة إلى أن ما حدث لهم من العذاب كان مهولا بالطّوفان، حتى لكأن عمران الأرض قد تحدد من بعد إهلاكهم، ولذلك يسمّى "نوح" بأبي البشر الثّاني. وفي ذلك تحذير للمشركين بأن عذاب الله لا حدّ له إن هم تمادوا على تكذيب رسول الله.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾: فيه التفات لخطاب الرّسول بتسليته وتطمينه على ما يلاقيه من الإذاية والمكر بأن الله مطلع على أفعال عباده ومجازيهم بما يستحقون ففي نصرة الله له كفاية عن كل نصير.

والله أعلم

الله يمدّ الإنسان على حسب همّته من إرادته للدنيا أو إرادته للآخرة

أ)- النص:

مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾: "العاجلة": صفة لموصوف محذوف، أي: الحياة العاجلة، عبّر بالوصف عن الموصوف، و"يريد" بمعنى: قصر عليها همّه لا يطلب غيرها. ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾: التقييد بمشيئة الله وإرادته لإفادة أن الإنسان لا يجد كل ما يتمناه. ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾: بدلُ بعضٍ من كلّ، من قوله: "له". ﴿يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾: يَصْلَاهَا: يقاسي حرّها، والذمّ: الوصف بالمعائب ومَدْحُورًا: مطرود من رحمة الله، و﴿مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾: منصوبان على الحال من ضمير الرفع في "يصلاها"، والجملة بيان أو بدل اشتمال لجملة: ﴿جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾. ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾: السّعي: هو المشي دون العدو، وسعي الآخرة هو القيام بالأعمال الصالحة. وزيادة "لَهَا" لإفادة النية والحرص. ﴿كُلًّا نُّمِدُّ﴾: التنوين عوض عن المضاف إليه -أي كل الفريقين-، وهو منصوب على المفعولية لنمدّ: نُمِدُّ. والإمداد: استرسال العطاء وتعاقبه. ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾: أي

ممنوعا عن أحد مؤمنا كان أو كافرا. ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: كَيْفَ: اسم استفهام مستعمل في التّشبيه منصوب بـ"فضّلنا".

ج)- البيان والتّفسير:

في هذا النصّ الكريم بيان لما ورد في النصّ السّابق من تحميل الإنسان مسؤولية نفسه في ما يصدر عنه من أفعال، وأن الله تعالى لا يأخذ النّاس على غرّة حتى يعذر إليهم بإرسال الرّسل مبشرين ومنذرين، وهنا يقسّم الله النّاس إلى قسمين:

أ)- قسم هو عبد لنفسه وشهواته لا يريد إلا متاع الدّنيا فمصيره جهنم في عذاب وهوان.

ب)- وقسم يستشرف النّعيم الأبديّ في الحياة الآخرة يعيش في الدّنيا على هدي الله ورسله، والله يعطي لكلّ فريق بمقدار همّته فينيله مبتغاه، وشتّان بين الغايتين قال تعالى:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾.

ما أروع التّعبير بالعاجلة للدّنيا، وهو يناسب ما سبق من وصف الإنسان بالعجلة، ثم إن تعليق همّته بإرادته في حبّ الدّنيا واستعجال لذاتها هو تأكيد لمسؤوليته الشّخصية في ما يقوم به من أعمال. ويدلّ اختيار فعل الكون: ﴿كَانَ يُرِيدُ﴾، يدلّ على تمحّض إرادته في ذلك كما يدل الفعل المضارع في خبر "كَانَ" على التّجدّد والاستمرار، وإسناد فعل التّعجيل للذات العلية ليس المراد به مجرّد المشاكلة اللّفظية، بل المقصود -والله أعلم- وصف متاع الدّنيا بسرعة الفناء

والزوال، كما وصفه الله تعالى في كثير من آي القرآن. وزيادة القيد بقوله: ﴿مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ هو لإفادة أن ذلك لا يتمّ إلا بإرادة الله وبالمقدار الذي حدّده هو، فقد يكون من هؤلاء المادين الدنيويين من لا ينال من رغبته شيئاً، وقد يعطى البعض منهم ما يتمنون أو بعضاً من ذلك، وأعظمهم خسراناً هم أولئك الذين خسروا الدنيا والآخرة، ولكن هذا الصنف بكل أنواعه مصيره إلى جهنم حيث يلاقون الإهانة والطرد من رحمة الله وهم فيها خالدون.

ب)- وأما القرين الثاني: فقد وصفه الله كسابقه بالإرادة، وجعل الخبر ماضياً للدلالة على رسوخ تلك الإرادة وعلى المضي عليها طيلة حياته، إذ يعتبر الدنيا معبراً للحياة الأخرى؛ ولأن الآخرة هي دار القرار، فنحصل من هذه الآية الكريمة ثلاثة شروط:

أ)- النية والرغبة الصادقة في طلب ثواب الآخرة.

ب)- ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾: أي بالأعمال الصالحة التي تقربه إلى الله، لا بمجرّد الأماني الكاذبة، لأن السّعي والعمل هما أساس النجاح في كل شيء، ورسول الله يقول: «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني**».[1]

ج)- ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: الجملة حالية من ضمير فعل: "وَسَعَىٰ"، وهي بصيغتها الاسمية تدلّ على الثبات والدوام، بحيث تكون أعماله الصالحة دوماً قائمة على الإيمان الصحيح لما جاء في الأثر: «**ليس الإيمان بالتمني، ولكن ما وقر في**

١- رواه الترمذي من حديث شداد بن أوس، كتاب (٣٥) صفة القيامة، باب (٢٥) حديث الكيس، رقم ٢٤٥٩، وقال: حديث حسن.

القلب وصدقه العمل».[1]

﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾: أشار إلى هذا الصنف بالخصوص للدلالة على أنهم جديرون بالجزاء المخبر به وهو أن سعيه كان مشكورا من قبل الله بالرضى والقبول يترتب عليه الجزاء وقد ورد معنى هاتين الآيتين بتعبير آخر كقوله:

أ)- ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ (الشورى: ٢٠).

ب)- ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء: ١٣٤).

كما وصف نفس المقابلة للدنيا والآخرة في سورة القيامة فقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ، وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ (٢٠-٢١).

وفي حوصلة لما تقدم بيّن الله تعالى أن رحمته شاملة لكل أصناف خلقه بقطع النظر عن إيمانهم أو كفرهم فقال جلّ من قائل: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾.

الإشارة إلى الفريقين المتقدّمين، وهما بدل من قوله: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ﴾، والإمداد هو الاسترسال في العطاء، وقد اقتضت حكمة الله وعدله أن لا يحرم خلقه من عطائه الواسع، لأنهم في دار العمل والتكليف بمالون حظهم من متاع الدنيا بالقدر الذي فيه مصلحتهم، ثم تختلف أحوال الفريقين في المصير والمآل مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٥٦).

وقد بيّن الله هذا الحكم لسيدنا إبراهيم عندما دعاه أن يرزق ذريته المؤمنة

١- رواه ابن أبي شيبة في المصنف من قول الحسن، رقم ٣٥٢١٦، ولفظه: "الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني، إنما الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل".

من الثمرات فأجابه تعالى: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة:١٢٦).

ومن حكمته تعالى في الإمداد والعطاء أن يجعل الناس متفاضلين في الرزق فوضح لرسوله تلك الحكمة مذكرا إياه بأن عطاء الآخرة أعظم وأفضل فقال: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

تبيّن الآية أن عطاء الله غير منوط بالصلاح والتقوى، فحكمة الله اقتضت التمايز بين الناس، فكما يكون التفاضل بين فريقي المؤمنين والكافرين فقد يكون بين أفراد الفريق الواحد، والله أعلم بما يصلح لأصناف العباد، ولكن تفاضلهم في الدار الأخرى هو أعظم وأشرف.

واقتصرت الآية على درجات النعيم الأخروي في الجنة ترغيبا في طلبها، وإلا فإن جهنم هي الأخرى دركات متفاوتة تتفاوت فيها مقاعد المجرمين، اللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم.

وفي حكمة التفاضل بين الناس جاء قوله تعالى:

أ)- ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ (الأنعام:١٦٥).

ب)- ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (الزخرف:٣٢).

والله أعلم.

أصول إصلاح المجتمع المسلم وبناء أركانه (١)

أ)- النص:

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً﴾: تَقْعُدَ: مستعار لمعنى المكث والدوام منصوب في جواب النهي، المذموم: المذكور بالسوء والعيب. والمخذول: الذي أسلمه ناصره، لأن الآلهة الباطلة لا تملك له نفعا ولا ضرا. ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾: قضى: بمعنى حكم وأمر، أن لا تعبدوا: الجملة إما تفسيرية لما في "قضى"، أو هي مصدرية مجرورة بباء مقدرة، أي: قضى بأن لا تعبدوا. ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾: إحْسَاناً: منصوب على المفعولية المطلقة وهو نائب عن فعله، أي: أحسنوا إحسانا.

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا﴾: إمّا: مركبة من "إن" الشرطية، و"ما" الزائدة المهيئة لنون التوكيد. ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾: أُفٍّ: اسم فعل مضارع بمعنى: أتضجّر. وفيه لغات كثيرة، وهو مبني إما على الكسر لالتقاء الساكنين، أو على الفتح لأنه أخفّ الحركات، أو على الضمّ للإتباع. ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾: النهر: الزجر بغلظة. ﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾: الكريم من كل شيء هو الرفيع والشريف في نوعه. ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾: يراد به التواضع والتذلل، فيه استعارة مكنية إذ شبه الذلّ بطائر ذي جناح، ثم حذف الطائر ورمز له بشيء من لوازمه وهو الجناح. ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾: أوّاب: صيغة مبالغة من آب يؤوب إلى الله بمعنى تاب ورجع إلى طاعته. ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾: التبذير: هو إنفاق المال في غير موضعه. ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾: المغلولة: أي المقيدة بالغلّ وهو القيد الذي يوضع في اليدين. والعنق: كناية للشحّ والإمساك بغلّ اليد إلى العنق. ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾: وهو ضدّ غلّ اليد أي التوسّع في الإنفاق. ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾: جواب للنهيين على طريقة التوزيع، فـ"ملوم" يرجع إلى النهي عن الشحّ. والحسور: أي نادما، وأصله: المنهوك القوى وهو يرجع إلى الإسراف. ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾: أي يوسّع في الرزق ويضيّقه لمن يشاء.

ج- أوجه القراءة:

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ﴾: قرأ الجمهور "يبلغنّ" على أن "أحدهما" فاعل "يبلغنّ"، فلا تلحق الفعل علامة لأن الفاعل اسم ظاهر. وقرأ حمزة والكسائي وخلف: "يبلغان" بألف التثنية ونون مشددة، والضمير "فاعل" عائد إلى الوالدين في قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، فيكون أحدهما أو كلاهما بدلا من ألف التثنية، تنبيها على أنه ليس الحكم لاجتماعهما فقط، بل هو للحالتين على التوزيع. ﴿أُفٍّ﴾: أشهر

اللغات فيه ضمّ الهمزة وتشديد الفاء، والخلاف في حركة الفاء، فقرأ نافع وأبو جعفر وحفص عن عاصم بكسر الفاء منوّنة، وقرأ الباقون بكسر الفاء غير منوّنة.

د)- البيان والتفسير:

بعد بيانه تعالى أن الناس فريقان اختلفت أحوالهما في عملهما للدّنيا أو الآخرة، واشترط لفوز الذين يريدون ثواب الآخرة النية الحسنة، والإيمان الصّحيح والعمل الصّالح، أتبع الله هنا ذلك ببيان حقيقة الإيمان وذكر الأعمال الصّالحة التي تركّز دعائم المجتمع المؤمن فقال جلّ من قائل: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾.

الخطاب للرسول تبعا للآية السّابقة: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، ولكن المقصود من الخطاب هم المكلفون من أمته -أي أمة الدّعوة بصفة عامّة-، ضرورة أن رسول الله لم يجعل شريكا لله -حاشاه- بل جاء لمحاربة الشّرك.

ونبذ الشّرك هو الأساس المتين الذي ترتكز عليه الأعمال الصّالحة، وذلك هو الطّريق الأقوم الذي يدعو إليه القرآن، والشّرك ضلال وتيه، يجرّ صاحبه إلى الذّمّ من أهل العقول السّليمة، إذ يعبد من دون الله ما لا ينفعه ولا يضرّه، وخذلانه من الله هو أن يكله إلى نفسه وإلى معبوداته الباطلة، لأن الله وليّ الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾: الجملة معطوفة على ما سبق تأكيدا لأساس الإيمان الصّحيح، فافتتحت بأمر القضاء من الرّبّ تعالى تنبيها لرعايته تعالى لخلقه في ما يشرّع لهم من الأحكام ليزدادوا يقينا بما هم عليه من الرّفعة والسّمو، حتى يلتزم المؤمنون:

أ)- بمضمونها: فلا جرم أن يحذرهم أولا من عبادة غير الله، إذ هو وحده المنعم المتفضل عليهم. ثم أخذ يفصّل التّشريعات التي يقوم عليها.

ب)- بناء المجتمع الإسلامي، مبتدئا بما يخصّ الأسرة وتقوية الرّوابط بين أفرادها، فقال تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً، امَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلاهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾.

التّقدير: قضى ربك أن تحسنوا بالوالدين إحسانا، جاء الأمر بصيغة المصدر: "إِحْسَاناً"، للدلالة على التّأكيد والمبالغة، ولا يتأتى ذلك إلا بأن يكون ذلك الإحسان تامّا كاملاً لا نقص فيه ولا تقصير، والإحسان ضدّه الإساءة وقد ورد النّهي عن بعض ظواهرها كقول: "أُفٍّ"، أو النّهر -كما سيأتي-.

والإحسان لا يتحقق جزاؤه إلا بإحسان مثله يقول تعالى: ﴿هَلْ جَزَآء الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ (الرّحمن:٦٠).

والمطلوب في هذا المقام من الولد هو السّعي لإرضاء والديه بما يحقق لهما من النّفع والخير سيما في حالة عجزهما كما ترشد إليه الآية الكريمة. وحسب الوالدين قدرا ومنزلة عند الله وتأكيدا لحقهم على الأولاد أن يرد أمر الله بالإحسان إليهم مقرونا بطاعته وعدم الإشراك به، وأن يجيء مكرّرا في القرآن بصيغ مختلفة كقوله تعالى:

أ)- ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ (الأنعام:١٥١).

ب)- ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا﴾ (العنكبوت:٨).

ج)- ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (لقمان:١٤).

د)- ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ (الأحقاف:١٥).

أ)- ومن السنة المطهرة جاء قوله ﷺ عن عبد الله بن مسعود ﷺ سألت رسول ﷺ أيّ الأعمال أفضل؟ فقال: «الصلاة لوقتها، قلت: ثم أي؟ قال: بر الوالدين، قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله».[1]

ب)- عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف، قيل: من يا رسول الله؟ قال: من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة».[2]

والمصدر: "إحْسَانًا" يتعدّى بحرفي الباء وإلى، فيقال: أحسن به، وأحسن إليه، وتدلّ الباء على معنى الإلصاق، وتدلّ "إلى" على الغاية والإلصاق أبلغ في تأكيد شأن العناية والإحسان إلى الوالدين.

فهذه الآية بالخصوص تعنى بشؤون الأسرة المسلمة بما يقوي روابطها ويدعّم أركانها، يقول الشيخ شلتوت في تفسيره الموضوعيّ: "والقرآن الكريم لم يعن هذه العناية كلها بحق الوالدين نظرا لشخصهما فقط، بل نظرا لأنهما عماد الأسرة، وأن الأسرة لا بدّ لها من التكوين الذي يستقل فيه أفرادها بلواء العزّة والسّعادة وتمتدّ منها إلى الأقارب والجوار، وسائر النّاس والمخلوقات حتى ملك اليمين، وبذلك

١- رواه البخاري من حديث ابن مسعود، باب (٩) مواقيت الصلاة، باب (٥) فضل الصلاة لوقتها، رقم ٥٢٧.

٢- رواه مسلم من حديث أبي هريرة، كتاب (٤٥)، باب (٣) رغم من أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر، فلم يدخل الجنة، رقم ٢٥٥١.

تمتد الفضيلة وتبسط أشعتها على الأمة كلها، وما الأمة إلا مجموعة الأسر يطلع عليها نورها إن شرًا أو خيرًا، وإن سعادة أو شقاء".[1]

قلت: يجب أن يكون ذلك الإحسان من الولد لوالديه بدافع الحبّ والرّحمة، وفي هالة من الإجلال والتقدير، كما ترشد إليه هذه الآية الكريمة، لأنه كثيرا ما تطغى النظرة المادية لدى بعض الأولاد حين يكون أحدهم غنيًا ويصاب بالحرص والشّحّ، ويكون الوالدان بحاجة إلى المعونة المادية للإنفاق على نفسيهما أو بعض من أفراد أسرهما، فيغدو ذلك الولد في موقف المتعم المتفضّل، ويعامل والديه بأسلوب المنّ والأذى. وفي الصّورة المقابلة قد يتألّى الوالدان على الولد بأسلوب القهر وإخضاع الولد لإرادتهما تجاوزا للحق المشروع وتعدّيا لحدود الله في رسم الحقوق والواجبات وكلتا الحالتين مذمومتان، ولا يتحقق الهناء العائلي والتّوازن الأسريّ إلا بتقيد ما أمر الله به في مثل تلك الحقوق المتبادلة.

وقد ساق المحدثون حادثة في هذا الشّأن للاحاة وقعت بين ولد وأبيه أمام رسول الله فروى البيهقي والطّبراني عن جابر قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن أبي أخذ مالي، فقال النبي: اذهب فأتني بأبيك -وقد أوحى الله لنبيه أن الرّجل قال في نفسه شعرا-، فلما جاء الشّيخ قال له النبي ﷺ ما بال ابنك يشكوك؟، أتريد أن تأخذ ماله؟. قال: سله يا رسول الله، هل أنفقته إلا على عماته وخالاته أو على نفسي؟، ثم قال له النبي: أخبرني عن شيء قلته في نفسك، فأنشد يقول:

غذوتك مولودا وعلتك يافعا ... تعلّ بما أدنى إليك وتنهل
إذا ليلة ضافتك بالسّقم لم أبت ... لسقمك إلا ساهرا أتململ
كأني أنا المطروق دونك بالذي ... طرقت به دوني فعيني تهمل

١- محمود شلوت، التفسير: ص٤٠٨.

تخاف الرّدى نفسي عليك وإنّما ... لتعلم أن الموت وقت مؤجّل
فلما بلغت السنّ والغاية التي ... إليها مدى ما كنت فيك أؤمّل
جعلت جزائي غلظة وفظاظة ... كأنك أنت المنعم المتفضّل
فليتك إذ لم ترع حق أبوّتي ... فعلت كما الجار المجاور يفعل
فأوليتني حق الجوار ولم تكن ... عليّ بمال دون مالك تبخل

ثم بكى الرّجل، وحينئذ أخذ الرّسول بتلابيب الولد وقال له: «**أنت ومالك لأبيك**».[1]

لم يتعرض التوجيه الإلهي في الآية الكريمة إلى وضعية الوالدين في حالة شبابهما وقوّتهما، لأن ذلك لا يحتاج إلى توصية وإرشاد، بل الحاجة تدعو إلى الإرشاد والتذكير بما أصبحا في وضعية الضّعف والعجز، فإنها تأكيد برّهما والإحسان إليهما في كل مراحل حياتهما، فإن ذلك هو أوكد عند شيخوختهما وضعفهما، ولذلك فصّلت الآية منهجية ذلك البرّ والإحسان.

أولا: أن لا يسمعا منك أدنى قول أو حركة تسيء إليهما في أيّ حال من أحوالهما، وكلمة "أفّ" تعني التضجّر والقلق، وهي أدنى ما يعبّر به الإنسان في تلك الحالة، وقد جاء عنه ﷺ أنه قال: «**لو علم الله تعالى شيئا أدنى من "الأفّ" لنهى عنه، فليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة، وليعمل البارّ ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار**».[2] ومعنى ذلك أنه كلا من البارّ والعاق سوف ينال ما

١- رواه الطبراني من حديث جابر بن عبد الله، المعجم الأوسط رقم ٦٧٥٨، وفي المعجم الصغير رقم ٩٤٤. وقال: لم يرو هذا الحديث بهذا اللفظ والشعر عن المنكدر بن محمد بن المنكدر إلا عبد الله بن نافع، تفرد به عبيد بن حفصة.

٢- أورده القرطبي في الجامع لأحكام القرآن من حديث علي بن أبي طالب، ١٠/٢٤٣، تفسير آية: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه...﴾ [الإسراء: ٢٣]

يترتب عن برّه من التوفيق أو عن عقوقه من الخذلان.

الثاني: أن لا تعاملهما بغلظة وخشونة، بأن تظهر المخالفة لهما في قول بالرّد العنيف، أو التكذيب والتسفيه مثلاً.

الثالث: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾: ويمثل القول الكريم بكل ما يطيب الخاطر ويشرح الصّدر مقرونا بالتوقير والحياء. قال عمر ﷺ في تفسير القول الكريم: هو أن يقول له: يا أبتاه يا أماه، أي لا يدعوهما بأسمائهما، ولا يرفع الصّوت أمامهما، ولا يحملق بنظره فيهما.

قلت: يؤيد ذلك ما حكاه الله عن أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام وهو يخاطب أباه المشرك بقوله في لين وأدب: "يا أبت، يا أبت". كما ورد ذلك مكرّرا في سورة مريم.

وليس من الأدب ما درج عليه كثير من الشّباب في وصف والديهم: "الشيخ" و"العجوز" عند ما يتحدثون مع أقرانهم.

الرابع: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾: وخفض الجناح كناية عن التواضع ولين الجانب تشبيها بالطّائر الذي يضمّ فراخه تحت جناحيه، أي: تذلّل لهما بالطّاعة فيما أمراك به ما لم يكن ذلك في معصية الله، وتفعل ذلك على وجه الرّحمة والشّفقة طلبا لرضى الله لا خوفا من النّاس.

الخامس: ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾، والدّعاء بالرّحمة جامع لكل الخيرات في الدّين والدّنيا، ورحمة الله: هي الكفاء العادل لجهودهما وتضحيتهما في القيام بواجب التربية.

ولما لهذا الدّعاء من الأثر في استدراج رحمة الله لهما صاغ الله تعالى بنفسه ألفاظه لتكون أدق للاستجابة والقبول.

ويلخّص رسول الله أهمّ حقوق الوالدين في ما روته عائشة ﷺ إذ قالت: «أتى رسول الله ﷺ رجل ومعه شيخ كبير، فقال له: يا فلان من هذا الذي معك؟ قال: أبي. قال الرّسول: «فلا تمش أمامه، ولا تجلس قبله، ولا تدعه باسمه، ولا تستبّ له»، أي لا تعرّضه للسبّ بأن تسبّ أبا غيرك فيسبّ أباك.[1]

وهل للوالدين حقوق بعد موتهما؟ ليست وفاة الوالدين أو موت أحدهما هي النهاية للوفاء تجاههما، فهناك صلة القربى لوالديك، وهناك عشراء وأصدقاء، وربما يكون قد ترتبت بذمتهما حقوق أو عهود، فمن المروءة والكرم والوفاء لهما أن يراعي الأولاد تلك الحقوق، لأن الولد الصّالح يعتقد أنّ كل ما بذله من البرّ والإحسان لوالديه في حياتهما لا يمكن أن يوازي ما بذلاه من تضحيات في سبيل تضحيته، ولا يساوي آلام طلقة واحدة من طلقات الوضع عند الأم، فقد أخرج أبو داود في سننه عن أبي أسيد مالك بن ربيعة السّاعديّ ﷺ قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بني سلمة فقال: يا رسول الله، هل بقي لي من برّ أبويّ شيء أبرّهما به بعد موتهما؟ قال: «نعم: الصّلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وصلة الرّحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما».[2] وروى الإمام مسلم قوله ﷺ: «إن أبرّ البرّ أن يصل الرّجل ودّ أبيه».[3]

وبعد، فإذا قدّر الولد أن عق والديه وحفاهما إلى أن ماتا فكيف يتصل من عقوقه لهما؟!

١- رواه الطّبراني في المعجم الأوسط، رقم ٤٣٠٩.

٢- رواه أبو داود من حديث أبي أسيد مالك بن ربيعة، كتاب (٤٠) الأدب، باب (١١٩) في بر الوالدين، رقم ٥١٤٢.

٣- رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمر، كتاب (٤٥)، باب (٤) فضل صلة أصدقاء الأب والأم، ونحوهما، رقم ٢٥٥٢.

في الإجابة على هذا السؤال يقول الشيخ أبو اليقظان إبراهيم في "سلّم الاستقامة" يقول: "إن توبته من ذلك هي: أن يستغفر ربّه في ما تقدم، ويندم على ما فرّط فيه من برّهما، وقصّر في أداء واجبهما عليه وقد أتى رجل إلى بعض الصّحابة، فسأله عن مثل هذا السؤال فقال: "انظر إن كان لأمّك أمت فبرّها أو أمّها فبرّها، وقد علمت أن الأخ الأكبر بمنزلة الأب عند موته، وكذلك العمّ بعده فبرّ أحدهما برٌّ للأب، ومن البرّ بعد الموت أداء ما عليهما من ديون وتنفيذ وصاياهما والصّدقات عليهما، والإحسان إلى أصدقائهما، وكف شتائم النّاس عنهما إلخ. وأمره بعد ذلك إلى الله، إن علم منه إخلاص التوبة فإنه غفور رحيم". انتهى.

قلت: ويؤيّده قول الله تعالى بعد ذلك: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾.

تغيّر أسلوب الخطاب من المفرد إلى الجمع في هذا التذييل المناسب للأمر بالإحسان إلى الوالدين، لأن المخاطبين -وهم جميع النّاس- يختلفون في القيام بحقوق الوالدين بين ملتزم بها محافظ عليها أو مقصّر ومفرّط عن قصد أو غفلة. والله أعلم بتلك الأحوال كلها إذ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصّدور.

والتعبير بـ"إن" الشرطية في كون الصّلاح يدلّ على أنه قد يكون كاملا وقد يكون مشوبا بالتقصير، ولذلك أعقبه تعالى بقوله: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾، بصيغة المبالغة لفعل "آب" بمعنى الرّجوع إلى الله بالتوبة عند التقصير وملازمة ذكر الله للمحافظة على امتثال أمره، وفي الحالتين لا ينتفي الصّلاح، وبالثاني لا تمتنع المغفرة والرّحمة من الله، وفي الآية من التحذير والتضييق ما يقي المسلم في مراقبة دائمة في معاملته لوالديه.

وروي عن أنس بن مالك ما يفتح باب الرّجاء للعاق بعد موت والديه فقال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يزال العاق يدعو لوالديه بعد موتهما ويستغفر لهما**

حتى يكتبه الله بارًا».[1] وروى الإمام الأوزاعي عن محمد بن النعمان عن النبي ﷺ قال: «من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب بارًا».[2]

ج)- ثالثا: ﴿وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾:

الجملة معطوفة على ما سبق -أي هي من جملة ما قضى به الرَّبّ تعالى-، والقرابة تتفرّع عن الأبوّة. والتعريف في "القُرْبَى" للجنس، أي: القربى منك. وهي مراتب حددت الشّريعة حقوقها ما بين واجب ومندوب، وهي مفصّلة في كتب الفقه، يقول عنها قطب الأئمة: "اجعل حق ذي القرابة منك آتيا إياه وواصلا إليه، فكأنه قيل: أعط ذا القربى حقه من جهة الأب أو الأمّ أو جهتهما احتاج أو لم يحتج من مال أو نفع أو سلام". ثم قال: "ومن حق القرابة الزّيارة وحسن العشرة. وذكر ذي القربى تعميم بعد تخصيص، فإن ذا القربى يتناول الوالدين لغة ولو لم يتناولهما عرفا".[3]

قلت: إذا كان الوالدان أولى الأرحام صلة -وهما قمة الهرم في الأسرة- قد يتعرضان للتقصير والتفريط من أولادهم، فكيف بأرحامهما، وقد لا يكلف الكثير من أبناء الأسر أنفسهم حتى لمعرفة ذوي قرباهم، ولذا فإن الشّريعة الغرّاء لم تغفل هذا الجانب الاجتماعي الهامّ. وقد وردت في ذلك نصوص كثيرة من كتاب الله وسنة رسوله تقدم البعض منها في ما سبق. ولا شك أن الصّلة تختلف درجاتها بحسب القرب كما أنها تختلف نوعا وكمّا وإيجابا وسلبا.

وجملة حقوقهم أن يحسن الإنسان إليهم وأن يواسيهم بكل ما يكفل

١- رواه البيهقي في شعب الإيمان من حديث أنس بن مالك، رقم ٧٦٦٣، وروى نحوه مرسلا من حديث محمد بن سيرين، رقم ٧٦٦٢.

٢- رواه البيهقي في شعب الإيمان من حديث محمد بن النعمان مرفوعا، رقم ٧٦٦١.

٣- أحمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير: ٨/١٦٢.

ضروراتهم إن كانوا محتاجين، ويشاركهم في أفراحهم وأتراحهم وينصح لهم ويزورهم لتفقد أحوالهم كلما قدر على ذلك، وإن منعه مانع فلا أقلّ من أن يبعث إليهم بالسّلام، سيما وقد توفرت اليوم وسائل الاتصال، يفعل المؤمن ذلك، ولو لاقى منهم إساءة وقطيعة فلا يقابلهم بالمثل، لما ورد من الإرشاد في القرآن من الدّفع بالتي هي أحسن وأخذ العفو، وللحديث الذي رواه أبو هريرة، والذي قال فيه رسول الله لسائله حين قال له: إن لي أقارب أصل ويقطعون، وأحسن ويسيئون، وأعفو ويظلمون، أفأكافيهم بما يصنعون؟. فقال ﷺ: «**إذًا يرفضكم الله جميعا، ولكن إذا قطعوا فصل، وإن أساؤوا فأحسن، وإن ظلموا فاعف، ولن يزال من الله لك عليهم ظهير**».[1]

وأما إيتاء المسكين وابن السّبيل، فالمقصد منه توفير الأمن الاجتماعي حين لا يخلو المجتمع من المشرّدين والمعوزين، وقد سبق التعرض لهذه الشّريحة في ما سبق من التفسير.

رابعا: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾، على ذكر صلة الرّحم ومواساة المسكين وابن السّبيل -وذلك يقتضي بذل المال والإنفاق- عطف عليه منع التبذير في جملة معترضة بين قوله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾، وقوله بعدها: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾.

والتبذير لغة: هو إفساد المال وإنفاقه في غير وجهه، وهو مرادف للإسراف، وحفظ المال من الكليات الخمس في المقاصد الشّرعية وهو عصب الحياة وعدّة الأمّة ودعامة مجدها، فالاعتدال في الإنفاق على مستوى الفرد والجماعة هو السّياسة الاقتصادية الحكيمة، إذ توازن بين الضّروريات والحاجيات والتحسينات

١- رواه مسلم من حديث أبي هريرة، كتاب (٤٥)، باب (٩) صلة الرحم، وتحريم قطيعتها، رقم ٢٥٥٨.

مما يضمن الكفاية لجميع المواطنين والتوازن لميزانية الدّولة مما يبعدها عن التبعية للغير.

ولتأكيد النّهي جيء بالمفعول المطلق: "تبذيراً"، وبجملة التعليل: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾، أي أنهم من أتباع الشّياطين يلازمونهم ملازمة الأخ لأخيه، فلا عجب أن يكون المبذّر لماله أخا للشّيطان، إذ ينفق ماله في الفساد والمعاصي ويستوفه في اللّذات والفواحش، والتّبذير من العادات التي قد يألفها الإنسان، فعن عبد الله بن عمرو قال: «**مرّ رسول الله ﷺ بسعد وهو يتوضأ فقال: ما هذا السّرف يا سعد؟، قال: أو في الوضوء سرف؟، قال: نعم، وإن كنت على نهر جار**»[1].

ثم أكّد الله ذلك التّحذير بقوله: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾، فيكون المعنى: إن المبذّر أخو الشّيطان، والشّيطان كفور لربه، فيكون المبذّر بالقياس إلى الشّيطان كفورا لربّه. ومن الكفر وضع نعمة الله في غير موضعها، وفي هذه الآية تعريض بمشركي مكة، إذ كانوا ينفقون أموالهم في الخمر والميسر وفي الصّدّ عن سبيل الله كما قال تعالى عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ (الأنفال:٣٦).

خامسا: وقد لا يتيسر المال لأحد فيصل به رحمه أو يواسي به محتاجا، فليكن منه الوعد الجميل بالعطاء متى أمكن له أو الرّدّ بالقول الميسور وقد أحسن الذي قال:

لا خير عندك فيها ولا مال ... فليسعد النّطق إن لم يسعف الحال

أو كالذي قال:

١- رواه أحمد في المسند، رقم ٦٦٧٦٨.

لا يعدم السّائلون الخير من خلقي إما نوال وإمـا حـسن مـردود

قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً﴾:

الخطاب لغير معيّن ليشمل كل المخاطبين، والضّمير: "عَنْهُمْ" عائـد إلى ذي القربى والمسكين وابن السّبيل. وكان الرّسول ﷺ حين لا يجد مـالا أو عطـاء يقدمه لسائل النوال كان يعرض عنه حياء، فأوشده الله إلى حسن الـرّدّ المعنـوي شريطة أن يكون ذلك الإعراض انتظارا لما يأتي به الله من رزق يرحم به لا إعراضا عن بخل وشحّ، بل يجب عليه في تلك الحالة أن يردّهم ردّا جميلا بالقول الطّيّـب. وفي هذا التوجيه الإلهيّ أدب رفيع للمؤمن أن لا ينقطـع رجـاؤه في الله لتيـسير أسباب الرّزق، حرصا على الجود والنّفع لعباد الله.

سادسا: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً﴾.

الجملة بيان لأدب الإنفاق عطفت بالواو للاهتمام بمضمونها كأنها مـستقلة بالقصد، وجاء التعبير فيها تمثيليا في غاية التصوير، ومفاده: لا تجعل يدك في الـشّح والبخل كالمغلولة بالقيد إلى العنق، ولا تتوسّع في الإنفاق فتكون يدك كالمبـسوطة التي لا تمسك شيئا، والمطلوب هو الوسطية والاعتدال كما قال تعالى في صفة عباد الرّحمن في سورة الفرقان قال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَاماً﴾ (٦٧).

وأما حجم الإنفاق وكميته فذلك يختلف بحسب مدخول الإنسان فقـرا أو غنى، فلا خير في الفقر المتطاول ولا في الغنى المسلك الشّحيح، لأن سعة الـرّزق وضيقه لا تخضع لإرادة الإنسان ولا لحيلته. بل هي من تـصاريف الله في تـدبير

شؤون خلقه. وذلك ما يفيده قوله تعالى بعد ذلك التصوير البديع لكيفية الإنفاق: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾.

ولاختيار كلمة "الرّبّ" المعنى المناسب في مثل هذا المقام، لما يتضمنه من اللّطف والعناية بالمربوبين إذ لا يرشدهم ولا يقدر لهم إلا ما فيه مصلحتهم. فليس التّفاوت في الأرزاق من عند الله يخضع لمعيار الحبّ والبغض. بل للحكمة الإلهية في رعاية مصالح العباد، كلٌّ وما يستحقه وما يكون خيرا له في تقدير علم الله الخبير البصير بطبائع عباده. ولذلك كان ذلك الإرشاد الإلهي في ما يجب أن يلتزم به المؤمنون من مراعاة مستوى كل أحد في الإنفاق إذ قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (الطلاق:٧)، والله أعلم.

أصول إصلاح المجتمع المسلم وبناء أركانه (٢)

أ)- النص:

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ

وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾: الإملاق: الفقر. خشية: منصوب على المفعول لأجله، وهو هنا الفقر المتوقع. ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾: الخطء: بكسر الخاء وسكون الطّاء، مصدر خطِىء، إذا أصاب إثما، ولا يكون الإثم إلا عن عمد. ﴿كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾: الفاحشة: الفعلة الظّاهرة القبح. ﴿سَبِيلًا﴾: نصب على التّمييز. ﴿وَسَاءَ﴾: للذّم، واستعير السّبيل للفعل الذي يلازمه المرء ويكون له دأبا. ﴿جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾: الوليّ: هنا وارث القتيل. والسّلطان: أي التّسلّط على القاتل بمؤاخذته بقتله أو أخذ الدّية. ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾: أي بما يصلح لمال اليتيم بما يحفظه وينميّه، حتى يبلغ رشده. ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾: الْقِسْطَاسِ: اسم للميزان، قيل: هو معرّب من الرّومية مركبّ من كلمتين: قسط، أي: عدل. وطاس، أي: كفة الميزان. والمستقيم بمعنى: السّوي. ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾: تأويل "تفعيل" من الأوْل، أي: الرّجوع. وأوّله: إذا أرجعه المتأمّل إلى مراجعه وعواقبه. ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾: لا تقف: من القفو، أي: الاتباع، يقال: قفوت أثر فلان. ﴿كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾: عبّر عن السّمع والبصر والفؤاد بـ"أولئك"، لأنها حواس لها إدراك فنزلت منزلة العقلاء. ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾: المرح: شدة ازدهاء المرء وفرحه بحاله

زهوا وتكبّرا. وهو منصوب على المصدر، ومن قرأ مرِحا -بكسر الرّاء- يكون منصوبا على الحال. ﴿لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ﴾: من خرق الشّيء، أي: قطعه، فخرق الأرض: تمزيق قشرة ترابها، والمراد به التّغليظ من خلق التّكبّر. ﴿مَلُوماً مَّدْحُوراً﴾: الملوم: المنكور فعله. والمدحور: المطرود من رحمة الله.

ج)- أوجه القراءة:

﴿كَانَ خِطْئاً كَبِيراً﴾: قرأ الجمهور: "خِطْئاً" بكسر الخاء وسكون الطّاء بعدها همزة، وقرأه ابن ذكوان عن ابن عامر وأبو جعفر: "خَطَئاً"، والخطأ ضدّ الصّواب. وقرأه ابن كثير: "خِطَاءً" بكسر الخاء وفتح الطّاء وبألف بعده همزة ممدودا، وهو"فِعال" من خطِيء إذا أجرم. ﴿بِالْقُسْطَاسِ﴾: قرأه الجمهور بضم القاف، وقرأه بكسر كلٍّ من حفص وحمزة والكسائي وخلف، وهما لغتان فيه. ﴿كَانَ سَيِّئَةً﴾: قرأ الجمهور: "سَيِّئَةً" بفتح الهمزة بعد المثناة التّحتية وبهاء التّأنيث في آخره وهي ضدّ الحسنة. وقرأه ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف: "كَانَ سَيِّئُهُ" بضمّ الهمزة وبهاء الضّمير في آخره، والضّمير عائد إلى: "كُلُّ ذَلِكَ"، أي: هو نفس السّيّء.

د)- البيان والتّفسير:

تتوالى الإرشادات الإلهية لقيام المجتمع الإسلامي على الأصول الأخلاقية المتينة وعلى القيم الاجتماعية الرّصينة. فبعد بيان قوام الأسرة المسلمة في الإحسان إلى الوالدين وإيتاء ذي القربى والمساكين وابن السّبيل، ثم التّعامل بالقول الميسور والقصد في الإنفاق، قفّى الله على ذلك هنا بالنّهي عن ثلاث موبقات: وهي الزّنى والقتل بغير الحق، وأكل مال اليتيم. ثم تتابعت الأوامر والنّواهي بكل ما يصلح

للمجتمع المسلم عقيدة وسلوكا ونظاما فقال جلّ من قائل: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً﴾.

هذه هي الوصية السّابعة وهي تُعنى بحقوق الأولاد، ولكن الله تعالى في معرض الإحسان إلى الأولاد لم يأمر به كما فعل بالوالدين، ولكنه نهى عن قتلهم لعلة الفقر المتوقع؛ ذلك لأن إحسان الوالدين إلى الأولاد أمر فطريّ في طبيعة الإنسان السّوية فهو لا يحتاج إلى من يذكّره بذلك. غير أن الظّروف التي قد يتعرض إليها الإنسان من جهة، وضغوط التّقاليد والعرف الفاسدة من جهة أخرى تفسد تلك الفطرة. والعرب في ذلك لم يكونوا بدعا من البشر وهم يعانون من الفقر والحرمان، ومن ضغوط العادات والتّقاليد ما جعلهم يقدمون على قتل أولادهم وعلى وأد بناتهم خاصة.

ويلاحظ في علة النّهي هنا وفي سورة الأنعام أنها اختلفت في التّعبير. فقال تعالى هنا: ﴿خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾، أي: خشية الفقر المتوقع حصوله. وأما في سورة الأنعام فقال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُمْ مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ (١٥١)، أي: الفقر الواقع بالفعل.

فمن الآيتين الكريمتين، ومن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (التكوير:٨-٩). وقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الذينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام:١٤٠). وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ (الأنعام:١٣٧). من خلال هذه النّصوص تتلخص أسباب قتل الأولاد في:

أ)- التّخوف من الفقر الواقع أو المتوقع مع الأولاد بصفة عامة.

ب)- وفي وأد البنات خصوصا خوف العار بفاحشة أو سبي، أو التّزوّج بغير الكفء في الشّرف والحسب.

ج)- قتل الأولاد تديّنا ووفاء بالنّذر للآلهة، وذلك عندما ينجب الأب كثيرا من الذّكور، كما فعل عبد المطلب بولده عبد الله والد الرّسول، ولكن فداه بمائة ناقة.

وقد قدّم الله في التّعليل بيان أن الله هو رازق الأبناء وكمّله برزق آبائهم فقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾، لأنه أزاء الفقر المتوقع كما تقدم. وقوله: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ هو لبيان ما في ذلك القتل من الإثم العظيم لما فيه من الانتقاص من قدر الله في التّكفّل بأرزاق عباده ولما فيه من تعطيل المقصد الشّرعيّ من ضمان النّسل البشريّ.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾:

الوصية الثّامنة: تحريم الزّنى، وترتيب هذا النّهي على نهي وأد البنات فيه إيماء إلى ما كان العرب يقتلون به في ذلك من خوف العار. والزنى وأد معنويّ للأولاد. وهو في عرف الجاهليين: الاتصال غير الشّرعيّ بين رجل وامرأة حرّة غير زوج له. وأما اتصاله بأمة غير مملوكة له فهو بغاء. ولما كان ذلك الاتصال غير الشّرعي لا يحدث إلا بعد مقدّمات في إثارة الرّغبة الجنسية بوسائل الإغراء جاء النّص بالنّهي عن مقاربة الزّنا سدّا لذّريعة بقطع الطّريق عن كل الأسباب الموصلة إليه.

وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ تعليل للنّهي تعليلا مبالغا فيه بوصفه:

أولا: بالفاحشة، وتشمل في مدلولها الواسع كل ما هو مستهجن في نظر العقول السّليمة، بل حتى ما هو مستقبح عرفيا، صيانة للأخلاق العامة وحفاظا على كرامة الإنسان من كل ما يفسد دينه وعقله وعرضه.

ثانيا: ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾، وساء: فعل ذمّ، واستعير السبيل للفعل الذي يلازمه

المرء حتى يصير دَأبا له.

وفي سورة الفرقان نجد الله قد نفى هذه الفعلة عن عباد الرّحمن فقال تعالى: ﴿وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ﴾ (٦٨). ونجد في كلتا الآيتين من سورة الإسراء وسورة الفرقان أن جريمتي القتل والزّنى ذكرتا في نسق واحد سواء في معرض النّهي أو النّفي، وذلك لما بين الجريمتين من الآثار الوخيمة على المجتمعات البشرية في إهدار حق الدّماء والأعراض. فبينهما صلة ومناسبة قوية أوضحها سيّد قطب في ظلاله ببيان شاف قال فيه: "وبين قتل الأولاد والزّنا صلة ومناسبة، وقد توسّط النّهي عن الزّنا بين النّهي عن قتل الأولاد والنّهي عن قتل النّفس لذات الصّلة وذات المناسبة. إن في الزّنا قتلا من نواح شتى: إنه قتل ابتداء لأنه إراقة لمادة الحياة في غير موضعها. يتبعه -غالبا- الرّغبة في التّخلّص من آثاره بقتل الجنين قبل أن يتخلق أو بعد أن يتخلّق. فإن ترك الجنين للحياة ترك -في الغالب- لحياة شرّيرة أو حياة مهينة، وهي حياة مضيعة في المجتمع على نحو من الأنحاء، وهو قتل في صورة أخرى للجماعة التي يفشو فيها، فتضيع الأنساب وتختلط الدّماء، وتذهب الثّقة في العرض والولد وتتخلخل الجماعة وتتفكك روابطها، فتنتهي إلى ما يشبه الموت بين الجماعات.

وهو قتل للجماعة من جهة أخرى؛ إذ أن سهولة قضاء الشّهوة عن طريقه يجعل الحياة الزّوجية نافلة لا ضرورة لها، ويجعل الأسرة تبعة لا داعي لها، والأسرة هي المحضن الصّالح للفراخ النّاشئة، لا تصّح فطرتها ولا تسلم تربيتها إلا فيه".[1]

قلت: إن الله العليّ القدير قد جعل من دلائل قدرته وبديع صنعه تلك المادة العجيبة في المنيّ كيف تخرج من الصّلب والتّرائب بلذة فائقة تدفع الإنسان دفعا قويا إلى طلبها لدى الجنس الآخر، وجعلها وسيلة للإنجاب واستمرار النّسل

١- سيد قطب، في ظلال القرآن: ٣٢١/١٥.

البشري فقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ، ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ، نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ، عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ، وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (الواقعة:٥٨-٦٢).

ووضع هذه المادة في غير موضعها من أعظم الكبائر عند الله، قال رسول الله ﷺ: «**ما من ذنب بعد الشّرك بالله أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في فرج لا يحلّ له**».[1]

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾:

الوصية التّاسعة: النّهي عن قتل النّفس بغير الحق، والنّهي فيها للتّحريم. وعرّفت "النّفس" بأل الجنسية لإفادة الاستغراق. وقد خصّها الله بالذّكر لما فيها من فساد عظيم أهلك المجتمع الجاهليّ بالخصوص لما درج عليه من الثّارات القديمة، أو الغزو لأجل السّلب والنّهب.

ولإهراق الدّماء بغير حق عواقبه الوخيمة في زرع الإحن والبغضاء بين الأفراد والجماعات قد لا يعفّي عليها الزّمان، ولا ينسيها الصّلح وأداء الدّيات؛ ولذا تكرر النّهي عن القتل في القرآن الكريم وفي السّنة المطهّرة؛ لأن الإقدام على إتلاف نفس بشرية هو إفساد لما أراده الله من صون النّفوس البشرية، وقد خلقها لعمارة الأرض وإصلاحها.

وقوله: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ استثناء، والباء فيه للملابسة، أي يكون ذلك الحق مستحقا إذا ما توفّر، وتعيينه موكول إلى من لهم تعيين الحقوق، على ما كان

١- أورده ابن كثير في التفسير من حديث الهيثم بن مالك الطائي مرسلا، في تفسير قوله تعالى: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلها آخر...﴾ [الفرقان:٦٨]، ٦/١٢٥.

متعارفا بين القبائل، وذلك قبل تأسيس الدّولة الإسلامية، إذ كان المسلمون مختلطين بالمشركين في مكة، وقد تقع جريمة قتل بينهم فلا يسارع المظلوم إلى أخذ ثأره بيده بل جعل الله ذلك الحق لوليّ القتيل، بأن يقتصّ من القاتل أو يأخذ عنه الدّية، لئلا تذهب بهم الغضبية إلى قتل من لم يكن جانيا حتى يتفاقم الأمر بين الجانبين فيعمّ الفساد.

وقوله تعالى: ﴿فَلاَ يُسْرِفْ فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً﴾ أي لا يتجاوز وليّ القتيل الحدّ المشروع في القصاص بأن يقتل اثنين مقابل واحد مثلا كما كانوا يفعلون في الجاهلية، بل يجب أن يكتفي بالدّية أو أن يعفو. وجملة: ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً﴾ تعليل للكفّ عن الإسراف في القتل. ويحتمل في ضمير "إِنَّهُ" أن يكون المعنى:

أ)- أن الله نصر وليّ القتيل بأن أوجب له القصاص أو الدّية.

ب)- أن المقتول ظلما هو منصور في الدّنيا بأخذ الدّية على قاتله وفي الآخرة بتكفير خطاياه وتعذيب قاتله.

﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾، وقد وردت هذه الوصية -وهي العاشرة هنا-، وردت في سورة الأنعام بنفس العبارات، وقد اختير لها ضمير الجماعة للمخاطبين؛ لأن العرب في جاهليتهم كانوا يستحلّون أموال اليتامى فحذر الله المسلمين من ذلك. وجاء النّهي فيها عن قرب مال اليتيم سدّا للذّريعة -أيضا-، وقد تقدم تفسيرها في سورة الأنعام. كما جاء الكلام وافيا عنها في كتابنا "الوصايا العشر".

﴿وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾: أمر الله بأن نَفِي بعهودنا بصفة مطلقة في هذه الآية، أما في سورة الأنعام فجاء العهد مضافا إلى لفظ الجلالة: ﴿وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُواْ﴾ (١٥٢). ويندرج في الوفاء بالعهد كلّ ما كلفنا الله به من

الأوامر والنّواهي، ومنه العهد الفطريّ الذي أخذه من أصلاب الآباء كما جاء في قوله تعالى:

أ)- ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ (الأعراف:١٧٢).

ب)- ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (يس:٦٠).

كما يندرج فيه الوفاء بكلّ العهود التي تنعقد بين النّاس في تدبير شؤونهم وفي معاملاتهم الخاصّة والعامّة. وضدّ الوفاء بالعهد الخيانة وقد ندّد الله بها وحرم المتصفين بها من محبته فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (الأنفال:٥٨).

والوفاء بالعهد هو القيام به على الوجه الأكمل وهو من الفضائل التي كان العرب يتفاخرون بها، وقد تأكد الأمر به في كثير من نصوص القرآن والسّنة.

﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾: تعليل للأمر، أظهر لفظ "الْعَهْدَ" للاهتمام به، والله تعالى سائل عنه يوم القيامة فينكث النّاكثين أمام الخلائق.

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾:

والوصية الثّانية عشرة والثّالثة عشرة: تضمنتا أمرين متكاملين، وهما إيفاء الكيل، والوزن بالعدل. وزيد قوله تعالى في الأولى: ﴿إِذَا كِلْتُمْ﴾ لإفادة تحدّد ما تضمنه الأمر من إيفاء الكيل. وإيفاء الكيل والوزن هما من الوفاء بالعهود، وخصّا بالأمر نظرا لشدة الحاجة إليهما في معاوضات البيع والشّراء، وهي تقوم كلها على السّماحة والوفاء ونبذ الغش والتّطفيف والتّزوير، والرّسول ﷺ يقول: «**المؤمن**

سمح إذا باع، سمح إذا اشترى، سمح إذا اقتضى».[1] وقد ركز القرآن على إيفاء الكيل والعدل في الوزن وتوعّد المطففين بالحساب العسير وجعل من أصحاب مدين وقصّتهم مع شعيب عليه السلام جعل منهم عبرة لأولي الألباب.

وقوله: ﴿وَزِنُواْ بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾، الباء للملابسة، والقسطاس اسم للميزان، والمستقيم بمعنى السّويّ، وهي في معنى قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُواْ الْمِيزَانَ﴾ (الرحمن:٩). فالعدل في الوزن هو أن يقوم بآلة سوية ما تبخس النّاس أشياءهم، ولذلك تقوم الحكومات منذ الأزمنة الغابرة بمراقبة المكاييل والموازين وتسلط أقسى العقوبات على الخائنين المدلسين.

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَاوِيلاً﴾: الإشارة إلى المذكور من الكيل والوزن. و"خَيْرٌ" للتفضيل، أي: هو خير لكم من التّطفيف، إذ تجنون ثقة النّاس في التّعامل معكم وتحصلون على ثواب امتثال أمر الله في الآخرة عندما ترجعون إليه في حسن مآل.

﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾:

بعد الأوامر السّابقة ترد منهيات تعنى بالسّلوك الإنساني فتقوم ما قد يعوّج منه في الجانب المعنوي منه والمادي.

أ)- ففي الجانب المعنويّ ينهى الله عن الوهم والظّن وعن التّمسّك بالشّبهة؛ لأن ذلك مفسدة للعقل وللقلب. ولا تقوم العقيدة الإسلامية الصّحيحة إلا على

١- رواه الترمذي بلفظ قريب من حديث جابر بن عبد الله، كتاب (١٣) الأحكام، باب (٧٦) ما جاء في سمح البيع والشراء والقضاء، رقم ١٣٢٠. ولفظه: «غفر الله لرجل كان قبلكم كان سهلا إذا باع، سهلا إذا اشترى، سهلا إذا اقتضى».

الاستقامة والوضوح، كما أن الأمانة العلمية -حسب مصطلحها الحديث- لا تتحقق إلا بالأمانة العقلية القلبية القائمة على التّثبت والتّمحيص وعلى الدّقة والوضوح. فقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ هو نهي عن اتّباع الخواطر النّفسانية التي تجيش في الصّدر وتلحّ في اتّباع إملاءاتها بغير دليل يثبتها، ولتلك الخواطر نماذج كثيرة في واقع النّاس.

وللجاهليين منها نصيب وافر كسوء الظّن، ومن أمثالهم المتداولة: سوء الظّن عصمة وحسن الظّن ورطة، ومنها الطّعن في الأنساب بأقلّ شبهة، ومنها القذف وشهادة الزّور... إلخ. فأراد الله تطهير المجتمع المسلم من تلك المهاترات.

يقول سيد قطب: "فالتثبت من كل خبر ومن كل ظاهرة ومن كل حركة قبل الحكم عليها هو دعوة القرآن الكريم ومنهج الإسلام الدّقيق. ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج لم يبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة، ولم يبق مجال للظن والشّبهة في عالم الحكم والقضاء والتّعامل، ولم يبق مجال للأحكام السّطحية والفروض الوهمية في عالم البحوث والتّجارب والعلوم".[1]

وقوله تعالى: ﴿انَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ تعليل للنهي وهو بيان لأمانة المسؤولية أمام الله، يسأل عنها صاحبها. وجيء بلفظ: "كُلُّ" مضافا إلى اسم الإشارة "أُوْلَئِكَ" للإحاطة وللتمييز. وجيء بـ"كان" في الخبر للدلالة على رسوخه، فلا تنفلت الحواسّ المذكورة من السّؤال، أي من الحساب والمؤاخذة، وهذا كقوله تعالى:

أ)- ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (النور:٢٤).

١- سيد قطب، في ظلال القرآن: ٣٢٦/١٥.

ب)- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (فصلت:٢٠).

وفي هذا الإرشاد القويم إصلاح نفسي للفرد المسلم في تصوراته وتوجهاته وإصلاح اجتماعي عظيم يجنّب الأمة كثيرا من المهاوي والمزالق من جراء الوقوع في المهاترات والأوهام.

﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾:

إنه نهي آخر عن خصلة جاهلية -أيضا-، وهي الكبر والخيلاء. والخطاب فيه لغير معيّن فهو يعمّ كل مخاطب.

ويأتي هذا الإرشاد في الترتيب الخامس عشر، وتترتب العجرفة والكبرياء عن الفراغ الرّوحي من العقيدة الصّحيحة حين يخلو القلب من الشّعور بجبروت الخالق وكبريائه، فيقتّر الإنسان بما عنده من مال أو جاه وسلطان، وينسى في غمرة زهوه منة الخالق المنعم. ولكن الله يقابل ذلك التّطاول الفارغ بأسلوب تصويري تهكّمي فيقول: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾، فالمتكبّر مهما علا وانتفخ فإنه لا يستطيع أن يخرق أديم الأرض بمشيه ولا يبلغ بتطاوله طول الجبال. فهو قزم حقير أمام قوة الله وعظمته الماثلة في تلك المخلوقات الضّخمة. فإن التّواضع زين لصاحبه ورفع من قدره. وجاء في الحديث: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**».[1]

وقد وصف الصّحابة مشية رسول الله -وهو المثل الأعلى للتّواضع- فقالوا

١- رواه مسلم من حديث عبد الله بن مسعود، كتاب (١) الإيمان، باب (٣٩) تحريم الكبر وبيانه، رقم ١٤٧.

عنه: "إنه ﷺ إذا زال زال تقلعا، ويخطو تكفؤا، ويمشي هونا، ذريع المشية إذا مشى كأنما يخط من صبب".

وجاء في وصية لقمان قوله تعالى:

أ)- ﴿وَلاَ تُصَاعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (لقمان:١٨).

ب)- وفي وصف عباد الرّحمن قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً﴾ (الفرقان:٦٣).

ثم لخّص الله كل ما تقدم من تلك الأوامر والنّواهي ابتداء من قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ (الإسراء:٢٣)، على اعتبار أن المأمور بالشّيء هو نهي عن ضدّه، ولذلك جاء الوصف لها بالسّيئة والمكروه فقال تعالى: **﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئَةً عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً﴾**.

ويصدق ما تقدم على مفتتح هذه الجملة بلفظ: ﴿كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ﴾ وكونها عند الله سيئات مكروهة يشي بكره من يرتكبها عند الله وذلك لزيادة التّشنيع.

﴿ذَلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾: عود إلى خطاب الرّسول ردّا إلى ما سبق من خطابه في أول الجولة بقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ (الإسراء:٢٣). والإشارة شاملة لكل ما سبق من الأوامر والنّواهي في الآيات الخمس عشرة. والحكمة هي معرفة الحقائق على ما هي عليه، وكونها مما أوحي بها إلى رسول الله هو للتدليل على صدق رسول الله؛ لأن الحكمة لا يصل إليها الأميون لولا أنها من وحي الله.

﴿وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهاً ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً﴾: لقد

وضعت الإرشادات الإلهية في إطار محكم من العقيدة الإسلامية الصّحيحة المهتمة بأمر التّوحيد والتّحذير من الشّرك في البدء والختام؛ لأن ذلك قوام الدّين ورأس الحكمة. والخطاب هنا لغير معيّن، وقد رتب عليه سوء العقبى بالرّمي في جهنم منكورا عليه ومطرودا من رحمة الله، أعاذنا الله من ذلك. والله أعلم.

التّنديد والرّدّ على من نسب الولد إلى الله

أ)- النص:

أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا ۚ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم﴾: الهمزة للإنكار والتّوبيخ، وأصفى: بمعنى الإصفاء وهو جعل الشّيء خالصا، بمعنى: اختصكم به. ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾: وأصل التّصريف: النّقل من جهة إلى أخرى، وهو هنا كناية عن التّبيين بمختلف الأساليب. وحذف مفعول "صَرَّفْنَا"؛ لأن الفعل نزّل منزلة اللازم، أي: ليذكّروا بيانه. ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾: أي بعدا عن الحق، والمراد التّعجّب من حالهم. ﴿لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾: ابتغاء السّبيل: طلب طريق الوصول إلى الشّيء. "إذن": دالة على الجواب والجزاء. و﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾: هو الله تعالى، وهو يحتمل

معنيين، والمقصود بهما معا انتفاء إلهية الأصنام والملائكة، فيكون المعنى:

أ)- يكون المراد بالسّبيل: سبيل السّعي إلى الغلبة والقهر، أي مغالبة الله تعالى.

ب)- أن يكون المراد: سبيل الوصول إلى "ذِي الْعَرْشِ" وهو الله تعالى، أي وصول الخضوع والتّقرب إليه، فإذا لم تقدر على ذلك لأنفسها، فكيف يعقل أن تقربكم إلى الله؟. ﴿عُلُوّاً كَبِيراً﴾: مفعول مطلق عامله "تعالى"، جاء على غير قياس فعله، والمراد بـ"الكبير" الكامل في نوعه. ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾، أسند التّسبيح إلى الأشياء التي لا تنطق للدلالة على التّنزيه لله تعالى عن كل ما نسبوه إليه.

ج)- أوجه القراءة:

﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾: أصله: يتذكّروا، فأدْغمت التّاء في الذّال، وهو من الذّكر المضموم الذّال، الذي هو ضدّ النّسيان. وقرأ حمزة والكسائي وخلف "لِيَذْكُرُوا" بسكون الذّال وضمّ الكاف مخففة مضارع "ذكر" الذي مصدره "الذّكر" بضمّ الذّال. ﴿كَمَا تَقُولُونَ﴾: قرأ الجمهور "تَقُولُونَ" بتاء الخطاب على الغالب في حكاية القول المأمور بتبليغه، وقرأه ابن كثير وحفص بياء الغيبة "يقولون" على الوجه الآخر في حكاية القول المأمور بإبلاغه للغير أن يحكي بالمعنى. ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾: قرأ الجمهور "عَمَّا يَقُولُونَ" بياء الغيبة، وقرأه حمزة والكسائي وخلف بتاء الخطاب على أنه التفات، أو هو من جملة المقول من قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ﴾ (الإسراء:٤٢). ﴿يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ﴾: قرأ الجمهور "يُسَبِّحُ" بياء الغائب. وقرأه أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم ويعقوب وخلف بتاء جماعة المؤنث: "تُسَبِّحُ"، والوجهان جائزان في جموع غير العاقل وغير حقيقي

التأنيث.

د)- البيان والتفسير:

انتهت الإرشادات الإلهية السابقة بالنهي عن اتخاذ الشريك والند لله تعالى، فناسب أن يندد الله هنا على من نسب لله ولدا، لأن فريقا من العرب كانوا يعبدون الملائكة، ويعتلون لذلك بأن الملائكة بنات الله، وحتى لا يتوهم هؤلاء الجهلة أن هذه العبادة يرضاها الله بدعوى أنهم يعبدون أبناءه جاء هذا التنديد والإنكار بصيغة الاستفهام التوبيخي التهكمي فقال تعالى: ﴿**أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً**﴾.

وهذا تفريع على جملة: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ (الإسراء:٣٩). ودعوى المشركين في اتخاذهم البنات لله باطلة، وقد فندها الله تعالى بقوله في سورة الزخرف: ﴿وَجَعَلُواْ الْمَلآئِكَةَ الذِينَ هُمْ عِندَ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَوشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ (١٩). ويبين الله هنا خطأهم في:

أ)- أنهم جعلوا الملائكة إناثا.

ب)- أنهم نسبوها إلى الله -حاشاه- نسبة الولد إلى الوالد.

ج)- أنهم عبدوها من دون الله.

فقوله تعالى خطابا للمشركين: ﴿**أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثاً**﴾، هو من تلوين الخطاب من مخاطب إلى مخاطب. والمعنى: أفضلكم على نفسه بأن أخذتم لأنفسكم ما تحبون من الذكور، ونسبتم إليه ما تكرهون من الإناث؟. تلك -إذن- قسمة جائرة، وقد وردت مثل هذه الاستفهامات التوبيخية في كثير من سور القرآن:

أ)- ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ (الطور:٣٩).

ب)- ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى﴾ (النجم:٢١).

ج)- ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ (النحل:٥٧).

وزيادة لتقرير الإنكار قال تعالى: ﴿أَنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً﴾، فوصف قولهم بأنه "عَظِيماً"، أي في القبح والافتراء، ونسبة الإصفاء إلى الرّبّ مضافا إلى ضمير المخاطبين هو للإمعان في بيان سفاهتهم في ذلك الادعاء المنكور؛ لأن الرّبوبية الحقة تقتضي نفي خصائص الأجسام عنها من تركيب وتولّد أو احتياج إلى الخلف إذ أن المشركين يؤمنون بألوهية الله وربوبيته. ووصف القول بالعظيم هنا هو بمعنى قوله تعالى في سورة مريم: ﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً، لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً، يَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً﴾ (٨٨-٩٠).

ومثل هذه الحقيقة الوجودية من وحدانية الله ونزاهته عن الشّريك هي بديهية لأولي الألباب يهتدون إليها بالتّأمّل الواعي في ملكوت الله ثم إن الله تعالى أنزل في قرآنه هديا كافيا بالأدلة والحجج البيّنة تذكرهم بذلك ولكنهم يعرضون عن تدبّره، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً**﴾.

أكدّ الله الجملة باللام المشعرة بالقسم و"قد"، والتّصريف في القرآن يعني به اختلاف أساليبه وتعداد حججه وتنوّع أمثاله، سيما في قضية وحدانية الله، ليذكر هؤلاء الجاحدون عساهم يزدجرون. ولكن لم يزدهم ذلك إلا إعراضا ونفورا. على أن التّفصيل في شأن قضية يقتضي من المخاطبين القناعة والرّضوخ لما يقال، فلماذا ينفر هؤلاء عن سماع الحق؟؛ لأنهم مرتبطون بمنافعهم العاجلة بما يستغلون من النّفوذ والهيمنة على الأتباع السّذج.

وكمثال على تصريف الحجج في القرآن عاد السّياق إلى الرّدّ على مزاعم المشركين في اتخاذ الأنداد والشّركاء لله فقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ ءَالِهَةٌ كَمَا تَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾.

المخاطب بالأمر بالقول هو رسول الله ليقول للمشركين في ما يقولونه على الله كذبا وافتراء. واعتراض جملة: ﴿كَمَا تَقُولُونَ﴾ هو للفرضية الجدلية وليس لها واقع في الوجود؛ لأن "لو" تفيد امتناع الجواب لامتناع الشّرط، بمعنى: لو افترضنا جدلا بوجود آلهة أخرى مع الله فأين هي؟، فإذا كانت غير موجودة فقد انتهى الأمر وحق الحق، وإن كانت موجودة فهي بين احتمالين:

أ)- إما أن تفرض وجودها بالمجابهة والمغالبة حتى تفرض سلطتها على الله ذي العرش المجيد وحتى تقتطع حصّتها من الملكوت. وهذا عبّرت عنه بوضوح آية "المؤمنون" في قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٩١).

ب)- وإما أن يبتغوا إلى الله الوسيلة تقرّبا وخضوعا واستعطافا. فإذا كان الأمر كذلك فلتتقرّبوا أنتم إليه مباشرة بدون شفعاء ولا وسائط، كما يفعله العارفون بالله والمقربون إليه، كما قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (النساء:١٧٢).

وبعد هذه المجادلة المنطقية نزّه الله ذاته العلية بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً﴾، أما وقد مُحضت الحجة على الكافرين، فقد تنزهت ذات الله العلية عما يدعونه من الصّاحبة والولد ومن النّدّ والشّريك. والتّعالي: هو الاتصاف بالعلوّ، وقد تأكد بالمفعول المطلق المفيد للنوع فوصف علوّه بالكبير، في صفة مشبهة، للدلالة على أنه علوّ كامل لا يدانيه أي علوّ. والمعنى: أن كل ما دونه صغير بالنّسبة إليه.

﴿يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾:

ومن دلائل علوّه الكبير وعظمته تعالى هذا الكون المؤار في أرضه وسمائه وما تدبّ فيهما من خلائق، إذ تسبّح له تسبيح تنزيه وتعظيم. ويتمّ التّسبيح عند العقلاء بدلالة المقال وبدلالة الحال، وهل عند غيرهم يتمّ بدلالة الحال؟.

الله أعلم كيف يحصل ذلك، فلكل شيء منطقه، ولكننا -نحن البشر- لا نفقهه، ولذلك قال تعالى: ﴿لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾. والدّليل على ذلك قوله تعالى في عبديه سليمان وداوود:

أ)- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ (سبأ:١٠).

ب)- وقال سليمان شاكرا نعمة ربّه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ (النمل:١٦).

يقول الشّيخ الشّعراويّ في تفسيره: "قوله تعالى: ﴿وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ يدلّ على أنه تسبيح فوق تسبيح الدّلالة الذي آمن بمقتضاها المؤمنون. إنه تسبيح حقيقي ذاتي ينشأ بلغة كلّ جنس من الأجناس. وإذا كنا لا نفقه هذا التّسبيح فقد قال تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ (النور:٤١). إذن كل شيء في الوجود علم كيف يصلّي لله، وكيف يسبّح لله. وفي القرآن آيات تدلّ بمقالها ورمزيتها على أن كل عالم في الوجود له لغة يتفاهم بها في ذاته. وقد يتسامى الجنس الأعلى ليفهم عن الجنس الأدنى لغته، فكيف نستبعد وجود هذه اللّغة لمجرّد أننا لا نفهمها؟. وهاهم النّاس أنفسهم ولهم في الأداء القولي لغة يتفاهمون بها، ومع

ذلك تختلف بينهم اللّغات، ولا يفهم بعضهم بعضا".[1]

قلت: إن الآيات القرآنية التي تدلّ على ما ذهب إليه الشّيخ الشّعراوي هي التي تقدم ذكرها في سورة النّمل. ويؤيّد هذا التّوجيه قوله تعالى في بيان مشهد من مشاهد القيامة في سورة فصلت: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (٢١).

ولعلّ اختيار فعل ﴿تَفْقَهُونَ﴾ عوضا عن "تعلمون" يرجّح هذا الرأي؛ لأن فعل "يفقه" يدل على الفهم الدّقيق والعميق لدقائق الأشياء، فيكون وجه الاستدلال بهذه الحجة أنه إذا كانت جميع المخلوقات تسبّح بحمد ربّها بمقتضى رضوخها للحق وأنه تعالى حقيق بالتّسبيح والعبادة، فلماذا عطّلتم أنتم تفكيركم عن الفقه والتّأمّل فلم تهتدوا إلى توحيده تعالى وتنزيهه ونشزتم عن باقي المخلوقات؟.

والتّذييل بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ يوحي بأن ذلك الموقف من الكفار يقتضي التّعجيل بعقابهم، ولكن الله تعالى أمهلهم حلما منه واستدراجا برجوعهم إلى الله وتوبتهم ليغفر لهم، والله أعلم.

تأمين الرّسول من مكر المشركين إذا قرأ القرآن

أ)- النص:

وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ

١- الشعراوي، التفسير: ١٤/ ٦٠-٨٥.

إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾

ب)- التّحقيق اللّغويّ:

﴿حِجَاباً مَّسْتُوراً﴾: الحجاب: السّتار الذي يحجب البصر عن رؤية ما وراءه. والمراد به هنا: صرف الله لأعداء الرّسول عن الإضرار به. و"مَسْتُوراً" أي ساترا لك عنهم، فهو بمعنى "فاعل" كما يقال: ماء دافق، أي مدفوق. ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾: أكنة: جمع كنان، أي الغطاء. والمعنى: صدّهم عن تدبّر القرآن حتى أصبح ذلك سجية في نفوسهم. والفقه: هو الفهم المعمّق. والمعنى: لئلا يفقهوه أو خشية أن يفقهوه. ﴿وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْراً﴾: الوقر: الثّقل والصّمم في الآذان المانع من السّماع. ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُوراً﴾: وَحْدَه: حال من "ربّك"، أو هو مصدر سدّ مسدّ الحال. فهو من: وحد يحد وحْدا وحدة. وَلّوْا: من التّولية، أي الرّجوع من حيث أتى. نُفُوراً: يجوز فيه أن يكون جمع "نافر"، أي: مترعج، فهو منصوب على الحال. ويجوز أن يكون مصدرا منصوبا على المفعولية لأجله. ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾: النّجوى: اسم مصدر للمناجاة، أي: المحادثة سرّا، فهو إما جمع "نجيّ"، كقتلى وجرحى، وإما مصدر. "هُمْ نَجْوَىٰٓ": مبتدأ وخبر. ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُوراً﴾: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: بدل من "إذْ" قبله. و"مَسْحُوراً" بمعنى: مجنون العقل. ﴿فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾: أي أخذهم الحيرة فلا يهتدون إلى سبيل الرّشاد.

ج)- البيان والتّفسير:

لما نوّه الله بشأن القرآن بما صرّف فيه من الآيات للاهتداء، وأن الكافرين لا

يزدادون به إلا إعراضا ونفورا، وهم مع ذلك لا يألون جهدا في إذايـة الرّسـول، جاءت هذه الآيات يؤمّنه الله فيها من مكرهم، إذ كان سماعهم لقراءتـه القـرآن يستفزّهم ويغيظهم، والرّسول يتوقع ذلك منهم والله تعالى يحصّنه ويثبّته بمثل هـذه الآيات إذ يقول له: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً﴾.

إن الآيات الدّالة على عظمة الله وقدرته صامتة وناطقة، فإذا كان المشركون يعرضون عن الأدلة الكونية، ولا يتدبّرون في ما خلق الله في السّماوات والأرض فهم لا ينتفعون -أيضا- بالآيات النّاطقة من القرآن الكريم. فإذا قرأه الرّسول وقد يستمعون إليه يغيظهم ذلك ويستفزّهم. إذ يقول الإمام القرطبيّ في تفسيره: "نزلت في قوم كانوا يؤذون رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن، وهم: أبو جهل وأبو سـفيان والنّضر بن الحارث وأم جميل امرأة أبي لهب وحويطب. فحجـب الله سـبحانه رسوله عن أبصارهم عند قراءة القرآن وكانوا يمرّون به ولا يرونه".[1]

قلت: وصف الله الحجاب بأنه مستور بينما هو ساتر لغيره، وذلك لقـصد المبالغة في السّتر. واستعير لصرف الأعداء عن رسول الله ومنعهم من الإضرار بـه، كما يصرفهم عن استماع القرآن وتدبّر معانيه. يقول الإمام ابن عاشور في هـذا المعنى: "وجعل الله الحجاب المذكور إيجاد ذلك الصّارف في نفوسهم بحيث يهمّون ولا يفعلون، وذلك من خور الإرادة والعزيمة بحيث يخطر الخاطر في نفوسهم ثم لا يصمّمون، وتخطر معاني القرآن في أسماعهم ثم لا يفهمون".[2]

قلت: لعل هذه الظّاهرة من حجب رسول الله عن أعدائه هـي مقدمـة وإرهاص لما يستقبله من أحداث في حادث الهجرة عند خروجه من داره، وعنـد

١- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٣٩٨/٥.

٢- محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير: ١١٦/١٥.

استخفائه في الغار، وعند لحاق سراقة بن مالك به في الطّريق، فهي كما قال الإمام البوصيري:

رعاية الله أغنـــت عـــن مـــضاعفة من الدّروع وعن عال من الأطـــم

والذي جعلهم على تلك الحالة هو عدم إيمانهم بالآخرة، فشهوة الدّنيا هـــي التي أعمت بصائرهم وتلك هي علة العلل في إعراضهم عن الرّسول.

ثم بيّن الله السّبب في استغلاقهم عن تدبّر القرآن فقال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾.

وجعل الأكنّة على القلوب والوقر في الآذان هو الحجاب المعنويّ المضروب عليهم، فلا يتدبّرون القرآن ولا ينفذ نور هديه إلى بصائرهم، لأن الله تعالى وكلهم إلى نفوسهم وما اختاروا لها من الكفر والضّلال، و لم يكن ذلك الجعل ابتداء مـــن الله، بل هو من عند أنفسهم، وقد قالوا عنها ما حكى القرآن عنهم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ (فصلت:٥). فليست هناك جبرية ولا إكراه، فالله يقضي بما يختاره العبـــد لنفسه على قدر نيته وما بادر به، وقد قال تعالى في شأن الهدى والضّلال:

أ)- ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (محمد:١٧).

ب)- ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ (البقرة:١٠).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾، فهم -إذن- يستمعون إلى بعض القرآن فيعرضون عما فيه الخير لهم، ممّـــا يركّز على وحدانية الله وإبطال إلهية معبوداتهم، لأن ذلك يعرّض مصالحهم للخطر،

ويزيل سطوة نفوذهم في أتباعهم فيولّون مدبرين، وهم بذلك يمارون على أنفسهم ويغالبون ما يستكنّ في فطرهم من الإقرار بوجود الله.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾: فإذا كان ذلك هو حال الكفار وموقفهم من الرّسول والقرآن، فما هو سبب تسلّلهم -أحيانا- لاستماع قراءة رسول الله؟. جاءت هذه الآية الكريمة إجابة على ذلك، إذ يروى أن كبار قريش كانوا يتخفون عن بعضهم بعض متسللين في جنح اللّيل بعد أن ينام أتباعهم ممن كانوا يقولون لهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ (فصلت:٢٦)، فهم وإن عاندوا وكابروا ينجذبون إلى بيان القرآن. وقد قال الوليد بن المغيرة -وقد مات كافرا- قال: "والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه".

وضمير الجلالة "نَحْنُ" في أول الآية هو للاهتمام بمضمون الجملة، واختيار اسم التّفضيل هو للدلالة على سعة علم الله إذ يعلم السّرّ وأخفى، فهو يعلم أحوالهم. ودوافعهم لذلك الاستماع:

أ)- أولاها: أنهم يستمعون إليك بإعجاب ليتلقفوا ما يخبر به القرآن مما ينكرونه من توحيد الله ومن البعث بعد الموت ليتخذوا من ذلك مادة للهزء والسّخرية مثل قول بعضهم لبعض: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (ص:٥). وقوله: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (سبأ:٧).

ب)- ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾: والإخبار بالمصدر هو للمبالغة، والتّناجي هو الكلام الخفيّ، والقصد منه تلفيق الأكاذيب لإذاية الرّسول وتوحيد الخطة الدّعائية ضدّه.

ج)- ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً﴾: وهذا القول هو مثال لتلك الدّعاية المسمومة التي باعثها الظّلم كفرا واعتداء، فوصفوه بالمسحور أي المخبول العقل بسحر غيره إياه. ومرة قالوا: هو ساحر، ومرة شاعر، ومرة مجنون.

ولهذا التخبّط المشين جاء الاستفهام التّعجّبيّ بقوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾، وضرب الأمثال هذه في كلها باطل في حق رسول الله، لأنهم بذلك مخادعون لأنفسهم في ما يعرفون عنه من صدق وأمانة كما قال الله عنهم: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام:٣٣). ولذلك فرّع الله على ذلك الاستفهام التّعجبي بأنهم على ضلال لا يجدون في حيرتهم سبيلا إلى الهدى، وبالتّالي عجزوا عن الإتيان بمثل عنك يكون صارفا للناس عن الإيمان بك. وبذلك انسدّت الطّرق أمامهم، حتى قال قائلهم بلغة التّحدّي اليائس: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأنفال:٣٢)، والله أعلم.

إنكار المشركين البعث والرّدّ عليهم

أ)- النص:

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً
أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي
فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ
قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾

ب)- التّحقيق اللّغويّ:

﴿كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً﴾: عِظَاماً: جمع عظم، أي مجردة عن اللّحوم والجلـــود، والرّفات: مفرد، وهو بقايا ما تكسّر وتفتت، وفسّره بعضهم بالتّراب لقوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً﴾ (الصّافات:١٦). وقوله: ﴿إِنَّـــا لَمَبْعُوثُـــونَ خَلْقـــاً جَدِيداً﴾: خلقا: مفعول مطلق لتضمّن البعث معنى الخلق، فكأنه قال: إنا لمخلوقون خلقا جديدا. ﴿أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾: أي مما يعظم في قلوبكم أن لا يكون قابلا للحياة، فيصعب على الخالق إحياؤه فإنه تعالى ينفخ فيه الرّوح بقدرته. ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾: ينغض رأسه: يحركها اســـتهزاء وســـخرية، أو تحريكها باضطراب. ﴿قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيباً﴾: عَسَى: تفيد الرّجاء، والرّاجي هنا هو الله، فيكون المرجوّ متحقق الوقوع. و﴿أَنْ يَكُونَ قَرِيباً﴾: خبر "عـــسى"، أي في زمان قريب. ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾: والاستجابة أبلغ من الإجابـــة، أي: تسرعون في القيام للبعث حامدين الله شاكرين له. ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾: "إن": نافية، واللّبث إما في الدّنيا أو في القبور، أي أنهم فقدوا الشّعور بالزّمن لشدة الهول.

ج)- البيان والتّفسير:

عالجت سورة الإسراء قضية الإلهيات، وتعرضت لـــشبهات المـــشركين في النّبوءات، فأتبعها الله بذكر شبهاتهم في إنكار البعث والجزاء ليدحضها ويردّ عليها فقال عزّ من قائل: **﴿وَقَالُواْ أَءِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾**.

والجملة معطوفة على ما تضمّنه النّصّ السّابق من موقف الكفار أزاء سماعهم للقرآن، وقد وصفهم الله بأنهم لا يؤمنون بالآخرة، فتكون مقولتهم هنا تعبيرا عـــن ذلك جهروا به علانية، وربما كان ذلك إثر سماعهم للقرآن وهو يذكر أمر البعـــث

والجزاء فيسارعون إلى الإنكار والسّخرية، إذ يعتقدون استحالة أن يعود الإنسان ثانية إلى الحياة بعد أن تبلى مادته الجسمية من عظام ولحم فتصير رفاتا وترابا. وكم في القرآن الكريم من نظائر هذه الاستفهامات الإنكارية يردّ الله عليها بالحجج القاطعة، كما ردّ عليهم هنا بقوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً، أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

أمر الله رسوله أن يجيبهم في إصرار وتحدّ، بأن يطرح أمامهم فرضية مما يعتبرونه في بيئتهم من أقسى الخلق وهو الحجارة والحديد. ولا يقتصر على هاتين المادتين القاسيتين وهما أبعد ما يكون عن عناصر الحياة، بل يترقى بهم إلى أبعد من ذلك في تصوّر خلق آخر يكون أبعد من الحجارة والحديد عن قبول الحياة، فإن الله تعالى لا يعجزه أن يخلق فيه الحياة. ويلاحظ أن الله تعالى لم يحدّد ذلك الخلق الآخر، بل ترك لهم الخيار في تعيينه، وقيّد بقوله: ﴿مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي تعظم خلقته في بعدها عن الحياة. ولا شك أنهم سيختلفون في تحديد ذلك الشّيء، وذلك أمعن في التّحدّي، وأدلّ على المبالغة في بيان قدرة الله على الخلق والإيجاد، وعلى إعادة ذلك، فهم لا يعجبون من الخلق الأوّل، إذ يذكر القرآن أنهم لا يشكّون في أن ذلك كان من الله إذ يقول: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤفَكُونَ﴾ (الزّخرف:٨٧).

وكان في منطق العقل أن إعادة الخلق هي أسهل من الخلق الأوّل، إذا ما قارنّا قدرة الله تعالى بقدرة الإنسان المحدودة. ومجاراة لهذه المقارنة الباطلة قال تعالى في سورة الرّوم: ﴿وَهُوَ الذِي يَبْدَؤُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٧). وكم في القرآن من ردود على هذه الشّبهة منها:

أ)- ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾

(لقمان:٢٨).

ب)- ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ (غافر:٥٧).

وأي خلق صلب شديد يختارون فتكون أجسامهم على مثل صلابته وقساوته فإنهم مع ذلك: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الذي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً﴾.

الاستفهام في قولهم: ﴿مَنْ يُعِيدُنَا﴾ تهكّمي، وجاء الجواب مناسبا لسؤالهم عن المعيد لا عن أصل الإعادة، لأن المبدئ للخلق هو الله -كما في معتقدهم-، ثم أخبر الله بما يكون من موقفهم بعد سماعهم تلك الإجابة فقال: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾، أي يحركونها سخرية واستهزاء، ويقولون: متى هو؟.

جاء الإخبار بصيغة المضارع لما يفعل الكفار ويقولونه للرّسول. وكان بوسعهم أن لا يفعلوا ذلك ولا يقولوا -وهم في موقف جدال-، ولكن الله صادق في إخباره، إذ كان منهم ذلك غفلة وغباء، إذ تركوا السّؤال عن أصل وقوع البعث إلى السّؤال عن زمن وقوعه فقالوا: ﴿مَتَى هُوَ﴾؟، فكان الجواب: ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً﴾، جاء على لسان رسول الله إبطالا لتهكّمهم. ومعنى القرب هنا أنه متحقق الوقوع؛ لأن القائل هو الله سبحانه وتعالى، فهو أمر واقع لا شكّ فيه، و لم يخبر الله بوقته أحدا من خلقه لا نبيّا مرسلا ولا ملكا مقربّا. ولذلك كان جواب الرّسول لجبريل عندما سأله بقوله: «**أخبرني عن السّاعة**». فكان جوابه ﷺ: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السّائل**»، غير أنه قد مثل لذلك القرب بقوله: «**بعثت والسّاعة كهاتين**».[1] وأشار لذلك بالسّبابة والوسطى، وكل آت قريب.

١- رواه البخاري من حديث سهل بن سعد، كتاب (٦٥) التفسير، باب (٧٩) سورة النازعات، رقم ٤٩٣٦.

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾، اليوم: هو يوم القيامة، وهو يوم التنادي لجميع الخلائق بواسطة الملائكة إلى المحشر. والاستجابة: مستعارة لمعنى المطاوعة والانقياد، إذ يسلب عن الناس الاختيار فتنفكّ الإرادة عن الجوارح فلا يبقى سلطان لأحد على نفسه بله على غيره كما كان يفعل الملوك بأتباعهم في الدّنيا، والملك يومئذ لله وحده كما قال تعالى في سورة غافر: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاَقِ، يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لاَ يَخْفَىٰ عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (١٥-١٦). فقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾: أي يدعوكم وأنتم في قبوركم عظام ورفات.

﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾: أي لا تتقاعسون في القيام من قبوركم وأنتم حامدون لله شاكرون، لأن الحقيقة قد تكشفت لكم، فرأيتم ما كنتم تنكرونه في حياتكم الأولى، وحمدهم لله هو بعد إدراكهم الحقائق وعلمهم بأنّ الحق لله. وهذا التوجيه للآية إنما هو على احتمال أن الخطاب للكافرين القائلين: ﴿مَنْ يُعِيدُنَا﴾ إلخ. وأما على احتمال أن يكون الخطاب للمؤمنين فإن حمدهم لله يكون على حقيقته في ذلك الموقف لما رواه أنس مرفوعا أن رسول الله قال: «**ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة عند الموت ولا في القبر ولا في الحشر، وكأني بأهل لا إله إلا الله قد خرجوا من قبورهم ينفضون رءوسهم من التراب يقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾** (فاطر:٣٤)».[1]

١- قال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني وفيه جماعة لم أعرفهم. ٣٣٣/١٠. ورواه ابن عدي في الكامل (٦٥/٢) والبيهقي في البعث برقم (٨٨) من طريق الحسن عن بهلول بن عبيد عن سلمة بن كهيل عن ابن عمر بنحوه، وقال البيهقي: "هذا مرسل عن سلمة بن كهيل وابن عمر، وبهلول تفرد به وليس بالقوي".

وقوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾، أي أنهم يتعجبون من تلك الحالة، فهم يظنون أنهم ما لبثوا في دار الدّنيا إلا قليلا. قال الحسن في معنى الآية: "المراد تقريب وقت البعث، فكأنك بالدّنيا و لم تكن وبالآخرة و لم تزل".

ولما كان ظنهم ذلك ظنا خاطئا كان محلّ تعجيب في كثير من آي القرآن كقوله تعالى:

أ)- ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ (النازعات:٤٦).

ب)- ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ، قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْأَلِ الْعَادِّينَ، قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(المؤمنون:١١٢-١١٤).

ج)- ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاَغٌ﴾ (الاحقاف:٣٥).

وذلك لأن الدّنيا متاعها قليل، فإذا انتهت فلا يبقى من سراب نعيمها شيء كما قال الشّاعر:

العيش نوم والمنية يقظة والمرء بينهما خيال سار.

إرشاد المؤمنين إلى مجادلة مخالفيهم باللين

أ)- النص:

وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً ﴿٥٥﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿قُل لِّعِبَادِي﴾: عبادي: جمع عبد، ويجمع على عبيد، والفرق بينهما أن "عبيد" يدل على من خضع لسيده في الأمور القهرية، وتمرّد عليه في الأمور الاختيارية. وأما "عباد" فتدلّ على من خضع لسيّده في كل أموره القهرية والاختيارية. فالمراد بـ"عباد" في الآية المؤمنون الصّادقون. ﴿يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾: يَقُولُواْ: إما مجزوم على حذف لام الأمر، وإما منصوب في جواب الأمر مع حذف مفعول القول لدلالة الجواب عليه. وأَحْسَنُ: اسم تفضيل مستعمل في قوة الحسن. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾: النزغ: أصله الطّعن السّريع، واستعمل هنا في تهييج الشرّ. ﴿عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾: الوكيل على الشّيء: هو المسؤول المفوّض إليه أمره، قدم الجار والمجرور على متعلقه للاهتمام به. ﴿زَبُوراً﴾: الكتاب الذي أنزل على داوود عليه السلام.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد أن أمر الله رسوله بالتّبليغ إلى المشركين بما يدحض شبههم في وحدانية الله، وفي قضية البعث والحساب والجزاء أعقب هنا أمره تعالى بإبلاغ المؤمنين أن يحاجّوا مخالفيهم بالتي هي أحسن وأن لا يغلظوا لهم القول حتى لا ينفروا أكثر عن دعوة الإسلام فقال تعالى: **﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً﴾**.

لا عجب من بعض المؤمنين أن تثور غيرتهم على كرامتهم وهم يمتهنون في دينهم ويسمعون من مخالفيهم ما يتأذون به فيدافعون عن أنفسهم بالمثل، كما روي عن عمر رضي الله عنه أن رجلا من المشركين شتمه فهمّ به فنزلت هذه الآية تدعو المؤمنين إلى توخّي الكلمة الطّيّبة في الرّدّ لأنها أجدى في استئناس النّفوس الشّرودة واستمالة

القلوب النّافرة.

جاء الأمر الإلهي مطلقا: ﴿يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، لتشمل كل ما يوصف بالحسن في مجال الأقوال أو الفعال، فاسم التّفضيل هنا مستعمل في قوة الحسن، وقد تقدم نظير هذا التّوجيه بأكثر تفصيلا في سورة النّحل بقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (١٢٥). وفي هذا الإرشاد أدب رفيع في ضبط اللّسان؛ لأنه كما قال رسول الله لمعاذ بن جبل ﷺ: «**وهل يكبّ النّاس في النّار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم**».[1]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ هو تعليل للأمر، ونزغ الشّيطان يعني التّهييج على الشّرّ. والضّمير في قوله تعالى: "بَيْنَهُم" عائد إلى "عبادي"، وذلك يفيد أن نزغ الشّيطان لا يقتصر على المتخاصمين، بل قد يكون بين المتوافقين وحتى بين الأهل والإخوة. أليس الشّيطان هو العدوّ الأبديّ لآدم وذريته، أليس هو القائل متحديا ربّ العزة: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ، ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف:١٦-١٧). فقد روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسّلاح، فإنه لا يدري أحدكم لعل الشّيطان أن ينزغ في يده فيقع في حفرة من النّار**».[2]

وسبب ذلك: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً﴾، فعداوة الشّيطان للإنسان قد تأصلت بينهما منذ بدء الخليقة فيجب على العاقل أن يحذر منه.

١- رواه الترمذي من حديث معاذ بن جبل، كتاب (٣٨)، باب (٨) ما جاء في حرمة الصلاة، رقم ٢٦١٦.

٢- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب (٩٢) الفتن، باب (٧) قول النبي ﷺ «من حمل علينا السلاح فليس منا»، رقم ٧٠٧٢.

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾:

يحتمل أن يكون الخطاب للمؤمنين على وجه التّمثيل لما يقولونه للمشركين من التي هي أحسن، أي قولوا لهم: ربكم أعلم بكم إلخ. وذلك لأن الرّسول كان يتأذى بما يقوله المشركون -كما تقدم غير ما مرّة-، فوجّه هذا الكلام إليه تسلية له، وأعقبه تعالى بقوله خطابا له: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾، أي ليس لك أن يتبعوك فيرحمهم الله أو يعصوك فيعذبهم، بل أرسلناك مبشرا ونذيرا، وما عليك إلا البلاغ، وليس في هذا العتاب إنقاصا من قدر رسول الله بقدر ما هو عتاب لطيف في صالحه إشفاقا عليه ورحمة به.

ويحتمل أن لا يكون هذا الخطاب تمثيلا، بل هو خطاب مستأنف للمؤمنين تمحيصا لهم في ما هم عليه من تحمل الأذى وهم في مرحلة الإعداد بمكة لا يستطيعون الدّفاع عن أنفسهم، وكلما شكوا إلى رسول الله من ذلك واقترحوا عليه الرّدّ كان يقول لهم: لم أؤمر، لم أؤمر.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾:

فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ يدلّ على أن الغرض من هذه الآية هو معالجة بعض شؤون رسول الله، ولما كان تدبيره تعالى شاملا لشؤون ملكه الواسع في السّماوات والأرض فقد مهّد لذلك بكون علمه تعالى لا يقتصر على رسوله محمد وأمته بل هو علم شامل مطلق، وبمقتضاه يقسّم الأرزاق والمواهب والحظوظ بين عباده، كلّ على قدر استعداده. وهو القائل: ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك:١٤).

ومن تلك الحظوظ اختيار من يريد لنبوءته، فهي من الأمور القهرية التي لا

اختيار لعباده فيها: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلآئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ (الحج:٧٥).

ومما قاله المشركون في نبوءة رسول الله: يبعد كل البعد أن يكون يتيم ابن أبي طالب نبيئا، وأن يكون أولئك الجوّاع العراة صحابة له دون الأكابر والصّناديد من قريش. وقد حكىٰ الله عنهم قولهم: ﴿وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف:٣١). ﴿لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلآئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ (الفرقان:٢١).

وفي هذه الآية ردّ على تلك المزاعم، بأن التّفضيل لله وحده، فهو الذي فضّل بعض الرّسل على بعض، فجعل أولي العزم منهم في المرتبة العليا، فالتّفاضل - إذن- سنة إلهية بين جميع البشر، وكذا التّفاضل بين الأفضلين من الرّسل: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (البقرة:٢٥٣).

﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾: ووجه تخصيص سيدنا داوود عليه السلام بالذّكر هنا هو لكونه قد جمع بين الملك الدّنيوي وبين النّبوءة. فذكر إتيانه الزّبور هو لإفادة أن النّبوءة هي معيار الفضل.

ويقول الإمام ابن عاشور في تنويره: "وذكر إتيانه الزّبور هو محلّ التّعريض للمشركين بأن المسلمين سيرثون أرضهم وينتصرون عليهم؛ لأن ذلك مكتوب في الزّبور، أي كما أشار الله إلى ذلك بقوله في سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء:١٠٥).

ولا شك أن الأفضلية في مجال النّبوءة هي لرسول الله وهي المشار إليها في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ (البقرة:٢٥٣)، كما تقدم في تفسير سورة البقرة، وكما رتب القرآن الخيرية لأمته. فاللّهم اجعلنا في زمرة الإخوان والأتباع، والله أعلم.

الثّناء على المقرّبين، وإنذار المشركين

أ)- النص:

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

ب)- التّحقيق اللّغويّ:

﴿الذين زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ﴾: الزّعم: القول المشكوك في صدقه. وقد يستعمل في الكذب. ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ﴾: الملك: بمعنى القدرة والاستطاعة، والكشف: مستعار للإزالة. ﴿أُولَٰئِكَ الذين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾: أولئك: مبتدأ. و"الذين" صفته: ﴿يَدْعُونَ﴾: صلة "والذين". "يدعون": صفة للمبتدأ. "يَبْتَغُونَ": خبرا لمبتدأ ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾، أي يطلبون من القربة بالطّاعة والعبادة. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾: أي حقيقا بأن ه كل أحد من خلق الله ولو كانوا رسلا أو ملائكة. ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾: المراد.

بها القرى الكافر أهلها؛ لأنه تعالى يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (القصص:٥٩). والتقييد بكون الهلاك قبل يوم القيامة لزيادة الإنذار والوعيد. ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾: أي مكتوبا في اللّوح المحفوظ، و"الكتاب" مستعار لعلم الله الأزلي في تدبير شؤون ملكه. ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ﴾: المنع: كف الفاعل عن فعل ما يريده، وذلك محال عن الله. فالمنع هنا مستعار لعدم إيقاع الفعل. والآيات: هي خوارق العادات التي يقترحها المشركون تعجيزا. ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾: الجملة في محل الحال من ضمير الجلالة في "منعنا"، ومعنى "مبصرة": واضحة الدّلالة على قدرة الله. ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾: أي هم في قبضته علما وقدرة فلا يستطيعون إذايتك أيها الرّسول. ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ﴾: الرّؤيا: أشهر استعمالها في رؤيا النّوم، وقد تستعمل رؤية العين، وهي هنا ما عاينه الرّسول ليلة أسري به. ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ﴾: وهي شجرة الزّقوم التي تنبت في أصل الجحيم، أي جعلناها أيضا فتنة للناس. ﴿إِلاَّ طُغْيَاناً﴾: تجاوز الحدّ في الكفر والضّلال.

ج)- البيان والتّفسير:

كل ما تقدم من السّورة الكريمة قد استعرض شبهات المشركين والرّدّ عليها بمختلف الأدلة تارة مباشرة وتارة بتلقين الردّ للرّسول كما ورد في هذه الآية الكريمة إذ يقول تعالى: **﴿قُلُ ادْعُواْ الذينَ زَعَمْتُم مِّن دُونه فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً، أُوْلَئكَ الذينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ، وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾**.

قيل في سبب النّزول: أن قريشا أصابهم قحط شديد، فاستغاثوا برسول الله فأنزل الله هذه الآية. واختيار اسم الموصول "الذين" الدّالّ على العقلاء يدلّ على أن الآلهة المزعومة هي من نوع العاقل كالملائكة والجنّ والمسيح وعزير. أمر الله رسوله

أن يتحدّى الكفار الذين يدعون آلهتهم الباطلة من دون الله، أن يدعوها إلى كشف الضرّ عنهم أو تحويل العذاب إلى سواهم لو شاء الله أن يعذّبهم، إنهم لا يملكون أن يفعلوا ذلك، لأن تلك الآلهة هم كذلك خلق لله، بل هم يحاولون أن يجدوا طريقهم إلى الله، ويطلبون التوسّل إليه، وحتى الأقربون إليه كالملائكة يطلبون ذلك راجين رحمة الله وخائفين من عذابه. فكيف بغير الأقرب؟. وحقيق بعذاب الله أن يُخشى، لأن العبادة الحقيقية لله لا تتمّ إلا بالخوف والرّجاء.

ويلاحظ في الرّدّ الاقتصار على نفي كشف الضرّ بالنّسبة للآلهة المدّعاة، ذلك لأن هؤلاء الطغاة المعاندون مهما أوغلوا في الكفر والعناد فهم عند الشّدّة لا يلجأون إلى آلهتهم الباطلة، بل هم يلجأون إلى الله كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّ الانسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُواْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلّهِ أَندَاداً﴾ (الزمر:٨). والإنسان لا يخدع نفسه في حالة الشّدة فيطلب الإنقاذ والخلاص ممن لا يملكه.

ثم قال تعالى: **﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾**.

على ذكر التّحذير من عذاب الله في الآية السّابقة يأتي التّهديد الشّامل لمصير كلّ البشرية بأنّ كل قرية من القرى لا يعدو أمرها في الدّنيا من حالين:

أ)- عذاب الاستئصال على القرية وأهلها.

ب)- عذاب الانتقام بالخوف والجوع والمصائب، وهذا الحكم -وإن جاء مطلقا في هذه الآية- فإن الآيات الأخرى تقيده من مثل قوله تعالى:

أ)- ﴿ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ (الأنعام:١٣١).

ب)- ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (هود:١١٧).

فالإهلاك الكليّ -أي عذاب الاستئصال- كان على الأمم الخوالي، والذي يترل تأديبا للذين عاينوا خوارق العادات فلم يؤمنوا. كما ضرب الله مثلا لذلك في ما يلي بقوم ثمود. وكان من رحمة الله على أمة الرّسول أن رفع عنها هذا النّوع من العذاب، وجعل معجزته الخالدة هي القرآن الكريم، وهو باق للأجيال كلّها تخاطب الفكر والقلب، وتساير مقتضيات التّطوّر البشري إلى يوم القيامة. وقد امتن الله على رسوله بهذه الخصوصية لأمته فقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ (الأنفال:٣٣). كما كرّم أمته بأن جعلها خير أمة أخرجت للناس تشهد عليهم يوم القيامة، ويكون الرّسول شهيدا عليها، وهي تتحمّل تبليغ دعوته من بعده إلى قيام السّاعة. ويبقى عذاب الانتقام بالخوف والجوع وغيرها من المصائب تربية لخلق الله كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم:٤١).

وقوله تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾، أي: إن ما يقدّره الله من أحداث تجري على خلقه ليست بالعشوائية، بل هي لا تقع إلاّ وفق ما سبق في علم الله الأزلي.

ثم يقول سبحانه وتعالى: **﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾**.

الجملة معطوفة على سابقتها: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾، وهي تردّ على المشركين في ما يبررون به تكذيبهم للرسول بأن ما طالبوه به من الآيات الخارقة لم يأت بها، فبيّن الله أن ذلك كان رحمة بهم، إذ أنه لو جاءتهم آية فكذّبوا بها كما فعل الأولون لأصابهم من عذاب الاستئصال ما أصاب من قبلهم. وضرب الله بذلك مثلا بناقة ثمود، وكانت آية بيّنة فكفروا بها فاستحقوا العذاب. وقد أخرج البيهقي عن الرّبيع

بن أنس قال: قال النّاس لرسول الله ﷺ: لو جئتنا بآية كما جاء بها صالح والنبيون فقال الرّسول: «**إن شئتم دعوت الله فأنزلها عليكم، فإن عصيتم هلكتم. فقالوا: لا نريدها**».(١)

ثم بيّن الله حكمة عدم إرسال الآيات إلى قريش فقال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً﴾، إذن، لم يمتنع الله عن إرسال الآيات إلى المكذبين من قريش عن عجز أو ضعف، وإنما كان ذلك لإكرام أمة الرّسول، إذ سبق في علم الله بأن الكثير من أولئك الكفار ستعييهم الحيل في معارضة الدّعوة الإسلامية فيدخلون في دين الله أفواجا وينتصر الإسلام على يد الكثير منهم.

والله تعالى لا يرسل الآيات إلا تخويفا للناس لعلهم يرجعون، وقد جاءت الآيات السّابقة معجزة لكل نبي على حسب ما يتناسب مع حالة قومه، فجاءت معجزة رسول الله في الفصاحة والبلاغة والبيان، فتحدى قومه بذلك كما تحدّى الخلق كله إلى يوم القيامة.

ثم طمأن الله رسوله بأن عصمه من النّاس حتى يمضي في إبلاغ رسالته بعزيمة وثبات فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾، والمعنى: اذكر يا محمد قدرة الله في إحاطته الشّاملة بالنّاس، فلن يبلغوا أن يضرّوك بشيء، فسيردّ كيدهم في نحورهم، وفي اختيار كلمة "الرّبّ" مضافة إلى ضمير المخاطب تشريف ودلالة على الرّعاية الإلهية لرسوله، وفي ذلك تسلية وتطمين له.

﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً﴾:

اختلف العلماء في حقيقة الرّؤيا التي جعلها الله فتنة للناس فقيل:

١- رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم ٥٧٦.

أ)- إنها الرّؤيا التي ذكرت في أول السّورة من قصة الإسراء ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وكلمة الرّؤيا هنا تستوعب ذلك الخلاف الـذي دار حول حادثة الإسراء والمعراج أكانت بالرّوح أو بالجسد أو بهما معا؟، لأن اللّفـظ "رؤيا" يستعمل في رؤيا المنام ويستعمل في رؤية العين. وأيّا كان الخلاف في ذلـك فقد كانت الحادثة اختبارا كبيرا للناس محّصتهم، فصّدق بها قوم وأنكرها آخـرون حتى ارتدّ بعضهم عن الإسلام.

ب)- وقيل: هي رؤيا مصارع صناديد قريش في بدر أُريَها رسول الله قبـل ذلك في مكة.

ج)- أو هي التي قال الله عنها في سورة الفتح: ﴿لَقَدْ صَـدَقَ اللَّهُ رَسُـولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَآءَ اللَّهُ ءَامِـنِينَ مُحَلِّقِـينَ رُءُوسَـكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ﴾ (٢٧). وتظهر فتنة النّاس في هذه الرؤيـا بـأن الرّسـول وأصحابه قد منعوا من الدّخول إلى المسجد الحرام في عام الحديبية فحـدث مـا حدث من الاضطراب بين المسلمين. ويرى المحققون من العلماء أن الأرجح -والله أعلم- أن المراد بها حادثة الإسراء والمعراج لأنها وقعت في مكة والسّورة مكيـة، وأمّا ما سواها فقد وقع في المدينة.

ولأن حادثة الإسراء والمعراج أوغل في فتنة النّاس من سواها: ﴿وَالـشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ﴾ عطف على الرّؤيا، فيكون التّقدير: ما جعلنا ذكر الـشّجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس. وهذه الشّجرة هي المذكورة في قوله تعالى:

أ)- ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ، إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّـالِمِينَ، إِنَّهَـا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ، طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ، فَـإِنَّهُمْ لآكِلُـونَ مِنْهَا فَمَالِـُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ (الصّافات:٦٢-٦٦).

ب)- ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ، طَعَامُ الأَثِيمِ، كَالْمُهْلِ تَغْلِي فِي الْبُطُونِ، كَغَلْـيِ

الْحَمِيمِ﴾ (الدّخان: ٤٣-٤٦).

ج)- ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ، لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ (الواقعة: ٥١-٥٢).

وكون هذه الشّجرة فتنة للناس: أنهم ألفوا في واقع الدّنيا أن الشّجرة نبات يعيش على الماء والهواء فكيف تنبت الشّجرة في نار جهنم؟. وفعلا فقد قال أبو جهل حين سمع بهذه الشّجرة: إن أبي كبشة توعّدكم بنار تحرق الحجارة ثم زعم أنها تنبت شجرة، وتعلمون أن النّار تحرق الشّجر. وقال عبد الله بن الزّبعرى: إن محمدًا يخوّفنا بالزّقوم، وما الزّقوم إلا التّمر والزّبد، فتزقّموا. وجعل يأكل من هذا بهذا.

وكون هذه الشّجرة فتنة للناس، أي أن المؤمنين سوف يزدادون إيمانا بقدرة الله والتّسليم بصدق كلام الله لأنهم يؤمنون بأن الله هو الواضع للنّواميس الطّبيعية فجعل للنّار طبيعة الإحراق، وحين اقتضت حكمته أن يتعطل ذلك النّاموس قال للنار: ﴿كُونِي بَرْداً وَسَلاَماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (الأنبياء:٦٩). وجعل للماء طبيعة الإغراق، وحين اقتضت حكمته جعل البحر يبسا لموسى وقومه قال له: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لاَّ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تَخْشَى﴾ (طه:٧٧). وأما الكافرون فهم أحلاس الواقع المعيش لا يخضعون إلا للتقليد والمألوف، ومن ثم لا تزيدهم مثل تلك الأخبار إلا كفرا وعنادا.

وأما كونها ملعونة في القرآن، وهي شجرة لا ذنب لها، فالمراد أن الملعون هو آكلها الكافر الأثيم كما قال تعالى: ﴿طَعَامُ الأَثِيمِ﴾. أو هو كما قال صاحب تفسير "الكشاف": تقول العرب لكل طعام حارّ: ملعون.

قوله تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً﴾، جاء التّخويف بصيغة المضارع مما يدلّ على الحاضر وعلى التّجدّد. فقيل: إن الله خوّفهم بالجوع

والقحط، وخوّفهم بأن يتعرضوا للعقوبات كما فعل الله بمن قبلهم. وفي مثل هـذا التّخويف نعمة من الله عليهم عساهم يرتدعون مما هم عليه من الكفر والعناد كما يفعله الوالد الرّحيم بولده. ولكنهم لا يزدادون بذلك التّخويف إلا طغيانا وعنادا لا عن عدم فهمهم أو عن اعتقاد الكذب في رسول الله، ولكن خوفا منـهم لـزوال سيادتهم ومكانتهم بين النّاس، وبالتّالي تقلص نفوذهم واستغلالهم الماديّ.

وفي هذا الإخبار الإلهي تسلية لرسول الله حتى لا يحزن لعدم إجابة الله لمـا يطلبه الكفار من المعجزات الخوارق، والله أعلم.

قصة آدم مع إبليس بدافع الكبر والحسد

أ)- النص:

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾: الاسـتفهام في "ءَأَسْـجُدُ" للإنكـار والتّعجب. طِينًا: إما تمييز منصوب أو حال من هاء في "خَلَقْتَ"، وهي محذوفـة. ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾: أَرَءَيْتَكَ: معناه: أخبرني عما رأيـت، وهـو

مركب من همزة استفهام. و"رأى" التي بمعنى "علم"، وتاء المخاطب وكاف خطاب زيادة على التاء. قال إبليس ذلك احتقارا لشأن آدم. ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾: الاحتناك: هو وضع الرّاكب اللّجام في حنك الفرس ليركبه ويسيّره. بمعنى: يفرض إبليس سيطرته على بني آدم بالإغواء فلا ينجو منهم إلا القليل. ﴿اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُوراً﴾: اذهب: بمعنى امض لشأنك الذي نويته. ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾: الاستفزاز: طلب الفزّ، أي الخفّة والإسراع والانزعاج، فيقال: أفزّه الخوف واستفزّه، بمعنى أزعجه واستخفّه. الصوت: استُعير لإلقاء الوسوسة والنداء إلى المعصية. ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾: الإجلاب: من الجَلَبة، وهي الصّياح، يقال: أجلب على العدوّ إذا جمع عليه الخيول والجنود، والخيل: اسم جمع للفرس، والمراد الفرسان والمشاة. ﴿وَعِدْهُمْ﴾: بمعنى: أعطهم المواعيد في ما يرغبون فيه. ﴿إِلاَّ غُرُوراً﴾: الغرور: إظهار الشيء المكروه في صورة الحسن المحبوب، والمراد: التزيين والإغواء. ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾: أي الحافظ والرّقيب، بمعنى: المؤمنون يستعيذون بالله من الشيطان فيحفظهم من فتنته.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَرَجِلِكَ﴾: قرأ حفص عن عاصم ﴿وَرَجِلِكَ﴾ بكسر الجيم، وهو لغة في رجُل مضموم الجيم، وهو الواحد من الرّجال، والمراد الجنس، والمعنى: بخيلك ورجالك، أي الفرسان والمشاة.

د)- البيان والتّفسير:

تبعا لتسلية الرّسول وتطمينه بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾، عطف الله على ذلك قوله في هذه الآية الكريمة، تذكيرا له ولقومه

بمفعول الحسد والكبر في النّاس من لدن آدم عليه السلام حين حسده إبليس اللّعين على ما كرّمه الله به فقال جلّ من قائل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾.

والتّقدير: اذكر -يا محمد- ويذكر معك قومك، عداوة إبليس وذريته لآدم وذريته، وإن تلك العداوة متأصّلة بين الفريقين من قديم الزّمان. وقصّة بدء الخليقة بآدم وزوجه وحسد الشّيطان وتحديه لأمر الله بالسّجود له مع الملائكة المقربين قد تقدمت في سور البقرة والأعراف والحجر كما ذكرت باختصار هنا في سورة الإسراء وفي سور الكهف وطه وص.

فكل من الملائكة وإبليس يمثلان في جانب الله تعالى الطّاعة والخضوع والإذعان أو التّمرّد والنّفور والعصيان، فامتناع إبليس عن السّجود كان بدافع الكبر والحسد، إذ عبّر عن امتناعه بقوله: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾، إذ جعل ذات آدم من جنس الطّين مبالغة في الاحتقار، ونسي اللّعين النّفخة العلوية فيه من روح الله، وقد فاضل بين خلقته هو وخلقة آدم إذ قال: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ (ص:٧٦). وكان في زعمه عنصر النّار أرفع من عنصر الطّين، وفي ذلك الزّعم جراءة على الله بوصفه بعدم العدل في الخلق.

ثم من قال إن النّار أكرم من الطّين؟، فهي التي تنبت الأشجار التي توقد بها النّار، بل الكلّ من خلق الله، وهو الذي يعطي لها خصائصها.

غير أن إبليس تابع جرأته على الله: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

والمعنى: أخبرني لماذا فضلته عليّ؟. وجمع في: ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ بين التّاء والكاف للخطاب ليحمل معنى التّأكيد، قال ذلك إبليس على وجه التّعجيب والإنكار، ولم ينتظر الإجابة من الله. بل استعجله الغيظ فقال: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾، فقد طلب أن يؤخّر الله أجله، لأنه يعلم أن لكل نفس أجلا، وشاءت الحكمة الإلهية أن يصادف ذلك الطّلب مراد الله منه في أن يكون مصدر فتنة وإغواء لذرية آدم إلى يوم القيامة.

وقد أقسم أنه سيحكم فيهم بالإغواء ويسيّرهم كيفما شاء كما يسيّر الفرس باللّجام، فلا ينجو منهم إلا القليل، وهم عباد الله الذي يحصّنهم بالإيمان والتّقوى، فأجابه الله إلى ما طلبه من النّظرة فقال: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُوراً، وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً﴾.

ليس المراد من قوله تعالى لإبليس: ﴿اذْهَبْ﴾، ليس المراد الانصراف بل هو للتّهديد والطّرد، فرّع عليه قوله: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُوراً﴾، أي: أنت ومن وقع في شراكك من بني آدم، فإن جزاءكم نار جهنم جزاء وافيا لا نقص فيه.

ثم تهدّده تعالى بأن يسلّط على أتباعه كل ما يملكه من وسائل الإغواء والاستحواذ على القلوب والمشاعر، فجاء التّعبير في صورة معركة صاخبة تعلو فيها الأصوات، وجلبة الخيل والأقدام، مما يرهب الخصم ويوقعه في اضطراب وحيرة فيسهل التّغلّب عليه وقهره. فجوّ المعركة ينبئ على أن لإبليس عدّته وأعوانه الكثر من شياطين الإنس والجنّ، ومن وسائل الإضلال والإفتان.

ثم يقول تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ﴾، وذلك بأن يكون للشيطان نصيب في أموالهم لآلهتهم الباطلة في الحرث والأنعام كما تقدم، وبأن يزيّن لهم كتساب المال الحرام وإنفاقها في الحرام.

﴿وَالأَوْلاَدِ﴾: وذلك بأنساب مختلطة بالفسق والزنى، أو بقتلهم ظلما

وعدوانا، أو بالتهويد والتنصير أو بتسميتهم وإضافتهم إلى الآلهة الباطلة كعبد العزى.

﴿وَعِدْهُمْ﴾: بالأماني الكاذبة في الحصول على رغباتهم وشهواتهم، وبأن الله سيعفو عنهم بشفاعة آلهتهم، أو أن الحياة الأخرى لا جنة فيها ولا نار ...إلخ.

﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً﴾: والغرور: هو تصوير الباطل في صورة الحق، ولا ينطلي الغرور إلاّ على الغافلين ممن لهم قابلية للعصيان، وقد حذّرنا الله تعالى من غرور الشّيطان ووعوده فقال:

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ، إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (فاطر:٥-٦).

- ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَآءِ وَاللهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٦٨).

ولما كانت الجملة الأخيرة لها حكم المثل الجاري أعيد فيها لفظ الشّيطان و لم يقتصر على الضّمير، وما كان للشيطان أن ينتصر في معركته لنشر الباطل فإن للحقّ أنصاره وأعوانه، ولذلك قال تعالى: **﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾**.

فأمام هؤلاء العباد المقربون إلى الله المحصّنون بهدايته وتقاه لا يجد الشّيطان فرصة لإغوائهم، بل يصبح كيده ضعيفا أزاءهم لأنهم شديدو الصّلة بالله، فكلّما خامرتهم وساوس الشّيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون.

ومن أسباب تلك الحصانة أنهم يتوكلون على الله ويلوذون بحماه، ومن كان الله وكيله فهو كافيه وحاميه، والله أعلم.

رعاية الله لبني آدم وتكريمه إياهم

أ)- النص:

رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ﴾: يُزْجِي: يسوق سوقا بطيئا، شبّه تسخير الفلك للسير في الماء بإزجاء الدّابة المثقلة بالحمل. والْفُلْك: السّفن. وهو جمع لا مفرد. والْبَحْر: مجتمع الماء الكثير فيشمل الأنهار. ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾: الابتغاء هو الطّلب. والفضل: بمعنى الرّزق هنا، أي بالتّجارة وغيرها. ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾: ضرّ البحر: هو التّعرّض للغرق بتقاذف الأمواج. ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾: ضَلّ: بمعنى غاب وانصرف عن ذاكرتكم من تدعون من آلهتكم الباطلة فلا تدعونهم. ﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾: أي تدعونه وحده في الشّدة. ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾: الإنجاء إلى البرّ بمعنى أوصلكم إلى اليابسة بأمان. والإعراض: بمعنى تركهم للدعاء. ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾:

يخْسِفَ: أي يقلب بكم ظاهر الأرض في باطنها، والاستفهام في: "أَفَأَمِنتُمْ" إنكاري. والحاصب: هو الرّامي بالحصباء كحجارة قوم لوط. ﴿قَاصِفاً مِّنَ الرِّيحِ﴾: أي التي تقصف الأشجار وتكسّرها. ﴿ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾: التبيع: مبالغة في التّابع، بمعنى: لا تجدون من يطالب لكم بثأر. ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾: التّكريم: جعله كريما نفيسا غير مبتذل. وبنو آدم: جميع النّوع البشري. ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾: حَمَلْنَاهُم: الحمل: بمعنى الوضع على المركب. وقد ألهم الله الإنسان فاخترع أنواع المراكب الحاملة له في البرّ والبحر وعلى الهواء. ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ﴾: منظور فيه إلى تشريفه على غيره. ﴿مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾: و"من" هي على التّغليب للعقلاء وغيرهم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿قَاصِفاً مِّنَ الرِّيحِ﴾: قرأ الجمهور: ﴿مِّنَ الرِّيحِ﴾ بالإفراد، وقرأ أبو جعفر: ﴿مِّنَ الرِّيَاحِ﴾ بصيغة الجمع. ﴿يَخْسِفَ﴾ و﴿يُرْسِلَ﴾ و﴿يُعِيدَكُمْ﴾ و﴿فَيُرْسِلَ﴾ و﴿فَيُغْرِقَكُم﴾ ألفاظ خمسة قرأها الجمهور بالياء التّحتية، وقرأها ابن كثير وأبو عمرو بنون العظمة على الالتفات من ضمير الغيبة الذي في قوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ إلى ضمير التّكلم. وقرأ أبو جعفر ورويس عن يعقوب: ﴿فَتُغْرِقَكُم﴾ بمثناة فوقية، والضّمير عائد إلى الريح على اعتبار التّأنيث، أو على ﴿الرِّيَاحِ﴾ على قراءة أبي جعفر.

د)- البيان والتّفسير:

يعود السّياق إلى تقرير الأدلة لانفراد الله بالتّدبير في شؤون العالم ونعمه الكثيرة على الخلق، فبعد ذكر قصة آدم مع إبليس، وأنه تعالى هو الحافظ للعباد المؤمنين من وسوسته وغوايته، عاد ليذكّر هنا بفضله على الإنسان بصفة عامّة، إذ

مكّنه من السّيادة على هذا العالم مذكّرًا إياه بدلائل قدرته في البرّ والبحر ومحذّرا من الطّغيان والكفر فقال جل من قائل: ﴿رَبُّكُمُ الذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾.

لقد افتتحت الجملة بكلمة "الرّبّ" مضافة إلى ضمير المخاطبين، لما تدلّ عليه من حسن رعاية الخالق بخلقه، فالخطاب عامّ لكلّ النّاس، وبالأخصّ المشركين منهم الجاحدين لأنعم الله، ومن أعظمها إزجاء الفلك على متن الماء، لأنّ صناعة الفلك وتطوّرها عبر التّاريخ البشريّ كان منطلقها على يد سيّدنا نوح بإلهام منه تعالى إذ قال: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ (المؤمنون:٢٧).

وإزجاء الفلك بمعنى: سوقها بطيئا وشيئا فشيئا. وإسناده إليه تعالى على اعتبار أنه هو الخالق الملهم للإنسان إلى معرفة القوانين الطّبيعية لصناعة تلك الفلك وتسييرها على سطح الماء محمّلة بالرّكّاب والأرزاق. ويذكر الله في آيات أخرى تجريتها بالرّيح على المعهود من الأشرعة والقلع. ولم يتعرّض للقوى الأخرى من البخار والكهرباء والطّاقة الذّرية مما توصّل إليه الإنسان فقد أجمل كل ذلك في قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٨).

وبما أن هذه النّعمة من ركوب البحر قد تحفّ بها الأخطار، ولا يملك درأها عن الإنسان إلا الله فقد جاء التّذييل بما يناسب ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾. التّذكير بالرّحمة هنا تأكيد لفضل الله ومنّته، وأنه هو الأجدر بالألوهية والرّبوبية.

ثم أعقبه بدليل آخر حين يقرّون لله بذلك إذا وقعوا في شدّة فقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُوراً﴾.

ومسّ الضّرّ في البحر بمعنى الإشراف على الغرق، وهنا يتعيّن الخطاب

للكفّار، إذ هم الجاحدون لفضل الله في وقت الرّخاء. وبما أنهم لا يستطيعون أن يخادعوا أنفسهم في التوجّه لغير الله وقت الشّدة، فإنهم عندما تنتابهم تلك الحالة يتيقظ فيهم نداء الفطرة فينسون تلك الآلهة الباطلة، فلا يتذكّرون إلا الله في تلك الحالة، ويعترفون بأنه وحده كاشف الضّرّ، ولكنهم بمجرّد أن يشعروا بالأمان وقد نجاهم الله من ذلك الكرب العظيم، فإنهم يعودون إلى كفرهم الأول. والكفر سجية الإنسان لا ينفكّ عنها إلا من رحم الله.

وذكر فعل "كَانَ" للدّلالة على تلك السّجية، ولذلك يعقبه مثل هذا التّحذير الإلهي بقوله: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً، أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾.

الإعراض عن ذكر الله وشكره يقتضي التّنديد والتّوبيخ، فجاء الاستفهام محذّرا من نقمة الله ومبيّنا للجاحدين خطأ اعتقادهم بأنهم عندما نجاهم الله إلى البرّ هم في سلامة وأمان، إذ لو شاء لقلب بهم ظهر الأرض في باطنها بكل ما عليها، كما أنه لو شاء لأمطر عليهم من السّماء بحجارة كما فعل بقوم لوط. ففي انفجار البراكين وقذفها بالحمم والحجارة المحماة ما يكون به هلاك كثير من القرى والمدن. وفي العواصف البَردية والثّلجية -أحيانا- ما يقدّره الله لإهلاك من شاء من عباده، فكلها أسباب مسخّرة لقدرة الله، ولا يجد المصابون بها من دونه حافظا ولا ناصرا.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾: بمعنى هل يأمن هؤلاء الجاحدون لرحمة الله -وقد أنجاهم الله من أهوال البحر- هل يأمنون أن يعيدهم الله إليه مرة أخرى فيرسل عليهم رياحا قاصفة لتدمّر مراكبهم فيغرقون جزاء كفرهم وعنادهم؟. ثم لا يجدون أحدا يطالب لهم بثأر فتهدر حقوقهم بذلك، ويكونون

كمن بحث عن حتفه بظلفه كما يقول المثل؟.ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى في سورة الملك: ﴿ءَامِنتُم مَّن فِي السَّمَآءِ اَنْ يَّخْسِفَ بِكُمُ الاَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ، أَمْ اَمِنتُم مَّن فِي السَّمَآءِ اَنْ يُّرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ (١٦-١٧).

ثم ذكّر الله بأجلّ نعمه على الإنسان إذ كرّمه ورفع درجته على غيره بأربعة أشياء فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾.

ولتأكيد هذه المنن الإلهية جاء الإخبار باللاّم المشعرة بالقسم وبـ"قد".

أ)- فالمنة الأولى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ﴾، منة التكريم للإنسان لها جوانب متعددة: في استواء خلقته، وفي استعداداته الفطرية، وفي تسخير كل ما في الوجود لخدمته، وفي استخلافه في الأرض. وللإمام الشّعراويّ ملحظ في نوع التّكريم للإنسان إذ قال في تفسيره: "إن الحق سبحانه خلق الكون كله بكلمة "كن" إلا آدم فقد خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه فقال تعالى: ﴿قَالَ يَآ إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (ص:٧٥). وقال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر:٢٩).

ب)- المنة الثّانية: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، وذلك بإلهام الإنسان لصناعة ما يحتاج إليه من المراكب وضبط النّواميس الطّبيعية وإقداره على استخدامها بما يناسب طبيعته البشرية.

ج)- المنّة الثّالثة: ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، من سائر أنواع المطاعم والمشارب والملابس وهي لا تحصى عدّا. وقد يغفل الإنسان عن شكر تلك النّعم لوفرتها ولطول الألفة بها، فلا يذكرها إلا حين يحرمها: ﴿كَلاَّ إِنَّ الانسَانَ لَيَطْغَىٰ، أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ (العلق:٦-٧).

د)- المنّة الرّابعة: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾، فالإنسان سيّد الكائنات. وفي المخلوقات من هو أفضل منه بدليل قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ﴾، إذ هناك من هو أفضل منه من خلق الله كما أن هناك من يساويهم في التّفضيل. والدخول في تفاصيل ذلك مما يلتمس من أدلة شرعية أخرى وكل ما يمكن أن يقال في هذا المجال أن الله تعالى فاضل بين الإنسان وأنواع من المخلوقات الأخرى. كما فاضل بين أفراد النّوع الواحد، والله أعلم.

وقفة تاريخية...

إنها الوقفة الخاضعة لله الشّاكرة لفضله ونعمته، إذ وفقني وأمدّ في حبل الأجل على ما أشعر به من الضّعف والوهن، ولكنني تابعت جهادي على منبر الوعظ والإرشاد في المسجد الجامع تفسيرا لكتاب الله في مسيرة تمتدّ ما يقرب من أربعين سنة وعظا وإرشادا للجمهور وتأليفا لتلك الدّروس. وكانت أغلى أمنيتي أن أنتهي إلى الجزء الخامس عشر من سورتي الإسراء والكهف، حتى أملأ بذلك الفراغ الذي تركه الشّيخ الإمام بيوض -رحمه الله- في تفسيره "في رحاب القرآن" إذ كانت تعوزه في القرارة وسائل التّسجيل ولم تتوفر إلا عندما وصل إلى هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ...﴾.

وتولّى تنسيق تلك الدّروس المسموعة فحوّلها إلى المكتوب كل من الشّيخ المرموري الحاج النّاصر والأستاذ الشّيخ بالحاج عيسى بن محمد. وحسبي بعملي هذا المتواضع أنني أرضيت شيخي عدون بن بالحاج رحمه الله، إذ بارك سعيي وتمنى لي الوصول إلى الجزء الخامس عشر وزيادة. فالله أسأل أن يوفقني لمزيد من العطاء.

العطف يوم الأحد ١٩ صفر ١٤٢٧ هـ/ ١٩ مارس ٢٠٠٦م

تفاوت أحوال الناس في الآخرة،

ومحاولة المشركين فتنة النبي وطرده من مكة

أ)- النص:

يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾: نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ: أي يقال: يا أتباع فلان يا أمة فلان، كـ"يا أمة محمد" و"يا أمة موسى". والإمام: ما يؤتمّ به من نبي أو دين أو كتاب في الحق أو في الباطل. ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾: الفتيل: الخيط المستطيل في شقّ النواة، يضرب به المثل للشيء الحقير التافه. ﴿وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾: الإشارة في "هذه" إلى الدّنيا، والمراد بالعمى عمى البصيرة أي الضّلالة في الدّين، على وجه الاستعارة. وعمى الآخرة: هو ما يقع فيه الضّالّ من الحيرة والاضطراب. ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾: الفتن

والفتون: معاملة يلحق منها ضرّ واضطراب البال و"كاد" للمقاربة. و﴿الذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾: هو القرآن. ﴿وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾: "إذا" حرف جزاء، والنون في آخرها ليست للتنوين بل هي لأصل الكلمة. الخليل: الصّديق. ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾: الرّكون: الميل بالركن، أي بالجانب من الجسم، واستعمل في الموافقة بعلاقة القرب. وضدّه: نآى بجانبه. ﴿إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾: هذه الجملة جزاء لجملة: ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ﴾، أي عذابا مضاعفا في الدّنيا بتراكم المصائب والأوزار. ﴿وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾: أي في القبر وبعد البعث. ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ﴾: الاستفزاز: الإثارة والإزعاج للحمل على التّرحل من الأرض، أي إخراجك من بلدك مكة. ﴿وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾: اللّبث: الاستقرار في المكان، أي الذين أخرجوا الرّسول من الكفار ما لبثوا أن خرجوا إلى مصارعهم في بدر. ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا﴾: السّنة: العادة والسيرة التي يلتزمها صاحبها، وانتصبت على المفعولية المطلقة أو هي منصوبة على الحال إذا اعتبرناها اسما جامدا.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾: ﴿خِلْفَكَ﴾: قرأ الجمهور ﴿خِلْفَكَ﴾ أي بعدك، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص وخلف: ﴿خِلاَفَكَ﴾، وهو لغة في: ﴿خِلْفَكَ﴾. وتقدم عند قوله تعالى: ﴿بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللّهِ﴾ (التوبة: ٨١).

د)- البيان والتّفسير:

بعد بيان فضل الله على بني آدم في الدّنيا بتكريمهم وتفضيلهم على غيرهم، انتقل السّياق إلى بيان تفاوت أحوالهم في الآخرة بين أهل السّعادة وأهل الضّلال.

مع ما يتخلله من التّحذير للسعداء أن لا يغترّوا أو ينخدعوا بمكر الأشقياء المنحرفين، ثم ذكّر الله تعالى بسنته في إهلاك الأمم التي تلجئ رسلها إلى الخروج من أرضهم فقال جلّ من قائل: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ، بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً، وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾.

﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾: يوم: منصوب بفعل مقدّر تقديره: اذكر يا محمد ذلك اليوم، والدّعاء: "نَدْعُواْ" بمعنى النّداء، وأما لفظ "الإمام" لغويا فهو المؤتمّ به، إنسانا كالأنبياء والرّسل في الصّالحات، أو من طغى وتجبّر ودعا النّاس إلى الضّلالة كفرعون وأمثاله، وقد يكون الإمام كتابا يقتدى به كالقرآن والتّوراة والإنجيل، أو الدّساتير الوضعية مما يقدّسه البشر. وقال بعض المفسّرين: إن المقصود من الإمام هنا كتاب الأعمال المتعلق بكلّ شخص. واستدلوا له بقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ (يس:١٢). على أن البعض اعتبر الباء في قوله: ﴿بِإِمَامِهِمْ﴾ أنها للمعية، أي تكون كلّ أمة مع إمامها، فينادون مثلا بـ"يا أمة محمد"، و"يا أمة عيسى" و"يا أمة بوذا"...إلخ. فكل أمة تتبع إمامها في الهدى أو الضّلالة، فهو يسأل عنها، وهي تسأل عنه. ففي القرآن أدلّة على ترجيح هذا المعنى للفظ "الإمام"، وذلك ما أورده القرآن من الحوار والتّلاوم بين الذين أُتّبِعوا -بكسر الباء- والذين اتّبَعوا -بفتح الباء- ويتفاوت الأناس المدعوون في ذلك الموقف.

﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ، بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾: بدأ الله بالصّنف السّعيد، يلهمه الله أن يتلقّى كتاب أعماله بيمينه، وتلك علامة للخير والتّوفيق، لأنه لا يؤخذ باليمين إلا ما تكون له قيمة كما يصافح بها أحباءه ويأكل بها طعامه. فالمؤمن يقبل مسرورا على كتابه يقرأه متهلّل الوجه مستبشرا وينادي في النّاس: ﴿هَآؤُمُ اقْرَءُواْ كِتَابِيَهْ، إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ (الحاقة:١٩-٢٠).

وقوله تعالى: ﴿وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾، الظّلم هنا بمعنى النّقص. والفتيل: تصوير للأمر الحقير بخيط النّواة، وتوفية المؤمن حقه من الجزاء هو من تمام العدل الإلهي، وفي مقابل هذا الصّنف الخيّر من المؤمنين يذكرالله الكافر الجاحد ولا ينصّ على قراءة كتبهم إذ هم في غمّ وحيرة ويودّون أن لم يأخذوا تلك الكتب كما قال الله عنهم: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أوتَ كِتَابِيَهْ﴾ (الحاقة:٢٥). بل يصفهم بالعمى في الدّنيا والآخرة، فالعمى هنا هو عمى البصيرة عن نعم الله وآيات قدرته، فهم وإن كانوا يتمتعون بالرّؤية البصرية فهم غافلون عن مجالات ذكر الله وشكره، كما قال عنهم تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ (الأعراف:١٧٩). وقال المتنبّي:

وما انتفاع أخي الدّنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوار والظّلم.

وهم في الآخرة أكثر عمى وأضلّ سبيلا. فقيل: إن عماهم في الآخرة أشدّ، إذ هو عمى حقيقي في الأبصار وعمى حقيقي في البصائر.

وفي القرآن آيات أخرى تدلّ على أن الكفار يحشرون عميا في الآخرة كقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ (الإسراء:٩٧).

والأرجح أن ما ورد في الآية هو كناية عن الضّلال عن سبيل النّجاة والفلاح لما يتخبطون فيه من الحيرة والاضطراب، وكان ذلك الضّلال في الآخرة أعظم لأنه قد سلب منه الاختيار في ذلك الموقف فلا يستطيع استدراك ما ضيّعه.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ، وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً، وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً، اذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾:

لقد سبق وأن حذّر الله من فتنة الشّيطان ومكائده، ثم عقّب على ذلك ببيان فضله على بني آدم بتكريمهم وتفضيلهم على كثير ممن خلق، ثم صنف الخلائق في موقف الحشر إلى فريق السّعداء وفريق الأشقياء. وتمشيا مع واقع المشركين مع رسول الله فقد ذكر وجها آخر من أوجه ضلالهم وعماهم في الدّنيا. وذلك بمحاولاتهم المتكرّرة أن يقول الرّسول في آلهتهم ما يرضيهم، أو أن يستلم آلهتهم كما كان يستلم الحجر، أو كما اشترط عليه وفد ثقيف شروطا لإيمانهم به بأن يُغيّر كثيرا من أحكام الدّين كشرط تركهم للرّكوع والسّجود في الصّلاة إلى غير ذلك مما ذكره الرّواة في السّيرة النّبوية. وخلاصة ذلك يدلّ عليه لفظ: ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾، والفتون هو معاملة يلحق بها ضرّ واضطراب النّفس للغير. ومعلوم أن رسول الله كان شديد الحرص على إيمان قومه، وقصته مع ابن أمّ مكتوم وصدوده عنه عندما أقبل إليه أشراف قومه لا يخفى فيها العتاب الإلهي اللّطيف لرسوله. وحاشا لرسول الله أن يجيب المشركين لما يطلبون، ولذلك اختيرت في هذا الإخبار الإلهي ألفاظ تدل كلّها على أن الرّكون إلى ما يرغب فيه المشركون لم يحدث إذ قال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾.

فـ"لولا" حرف امتناع لوجود، أي امتناع جوابه لوجود شرطه، فقد امتنع ركون رسول الله إلى مساومة المشركين بفضل تثبيت الله إياه، بمعنى أن الرّسول لم يغيّر من موقفه في إبلاغ ما أوحى الله بصدق وأمانة.

وقوله: ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾، و"كاد" تدلّ على المقاربة وهي غير الفعل. فهي محاولات من بعيد. والرّكون: بمعنى الميل الخفيف وأكده بقوله: ﴿شَيْئاً قَلِيلاً﴾، فالنكرة تفيد التقليل. ويفيد ذلك أن الرّسول لم يهمّ بإجابتهم لما يريدون و لم يقرب من ذلك أبدا فما هو الجزاء لو حصل منك ذلك -أيها الرّسول- فرضا؟.

الجواب هو قوله تعالى بصيغة التّهديد الشّديد: ﴿إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾، والمعنى: لو كنت قد ركنت إليهم، -وذلك غير واقع ولا قارب الوقوع-، لأذقناك العذاب في الدّنيا والآخرة مضاعفا، وذلك لأن الرّسول في مقام الإمامة والقدوة، والنّاس يقتدون بإمامهم. وفي تلك الحالة لا تجد من يمنعك أو ينصرك. والمقصود بهذا الوعيد الشّديد هم المؤمنون بالتّبع. فهم مطالبون بالثّبات على دينهم وعدم الرّكون إلى الذين ظلموا مهما قويت شوكتهم كما ورد ذلك التّحذير في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ (هود:١١٣). وقد روي عن قتادة أنه قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾: قال ﷺ: «**اللّهم لا تكلني إلى نفسي**»[1].

فعلى المسلم أن يلتزم بهذا النّهج فيستغيث بربّه متى ناوشته تلك الخواطر بمثل هذا الدّعاء: اللهم رحمتك نرجو ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾:

ونفس التّعبير بفعل المقاربة في استفزاز المشركين لرسول الله بعد أن استنفدو كل ما عندهم من مكر وكيد في محاولة إفتانه، فهاهم يحاولون إخراجه من مكة قهرا. ولكنه تعالى لم يمكنهم من ذلك، بل لم يخرج حتى أذن الله له بذلك، فلم يفلحوا في ما دبّروه لإخراجه، كما قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (٣٠). وكان من حكمته تعالى أن يأذن له في الخروج من بلده في الوقت المناسب وبالكيفية التي تكون فيها العزة والكرامة لرسوله.

١- أخرجه الطبري في جامع البيان، عند تفسير قوله تعالى: ﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا﴾، [الإسراء:٧٤].

ثم قال جوابا على ما سبق: ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: لو حدث أن أخرجوك قهرا كما دبّروا فإنهم لا يلبثون خلفك إلا قليلا؛ لأن ذلك من سنن الله في خلقه، بأن يقدّر إهلاك الذين أخرجوا رسلهم، كما فعل بالأمم الخوالي.

غير أن الله قد لطف بهم فلم يُبِدْهم عن آخرهم؛ لأنه تعالى قد قدّر أن يخرج من أصلابهم من يعبده وينصر دينه.

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾: وهكذا تتوافق الآية الكريمة مع قصة ورقة بن نوفل مع الرّسول وزوجه خديجة إذ قال: "ليتني أكون معك إذ يخرجك قومك". والله أعلم.

التّوجيه الإلهي لرسوله بالإقبال على الطّاعة، والإعلان عن إزهاق الحق للباطل

أ)- النص:

أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ۖ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾: الإقامة مجاز في المواظبة والإدامة. اللام في "لِدُلُوكِ" للتوقيت، بمعنى "عند"، والدلوك لفظ مشترك، ومن معانيه زوالها عن دائرة نصف النّهار. والغسق: شدة الظّلمة بعد غيبوبة الشّفق. ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾: ذكرت الصّلاة بلفظ القرآن وبأنها مشهودة، خصّ الله ذكر القرآن للعناية به؛ لأن الفجر وقت تشهده الملائكة، وتتجلّى فيه شواهد القدرة الإلهية. ﴿فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾: التّهجّد: هو ترك الهجود -أي النّوم للصلاة- والنّافلة: أي زيادة على الصّلوات المفروضة. ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾: المقام: محلّ القيام والمعَدّ لأمر عظيم، والمحمود ما يحمد أثره. وهو مقام الشّفاعة العظمى لرسول الله حين فصل القضاء. ﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾: المدخل والمخرج: -بضمّ الميم وفتح الحرف الثالث- اسما مكان للإدخال والإخراج، ولكنهما دخول وخروج ميسّران من الله تعالى. ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾: زهق: بمعنى زال بعد وجوده فهو مجاز في ترك النّاس للباطل، ومصدره الزّهوق والزّهق. ﴿أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾: لوى عطفه عن الطّاعة. والجانب: الجهة من الجسد التي فيها اليد. والباء في: "بِجَانِبِهِ" للمصاحبة. ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾: الشّاكلة: الطّريقة والسّيرة التي اعتادها صاحبها، أي في حالتي الهدى والضّلال. ﴿كَانَ يَؤُوسًا﴾: أي شديد القنوط واليأس.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾: "نَأَى" قرأ الجمهور بهمزة بعد النّون وألف بعد الهمزة.

وقرأ ابن عامر في رواية ابن ذكوان وأبو جعفر: "وَنَاءَ" بألف بعد النون ثم همزة، وهو من القلب المكاني؛ لأن العرب قد يطلبون تخفيف الهمزة إذا وقعت بعد حرف صحيح وبعدها مدّة، فيقلبون المدّة قبل الهمزة، لأن وقوعها بعد المدّ أخف. وقيل: معنى "نَاءَ" في هذه القراءة هو ثقل، أي عن الشكر.

د)- البيان والتفسير:

بعد ذكر مكر المشركين برسول الله وإذايتهم له وكيف عصمه الله من كيدهم، أمره هنا بشكر تلك النعمة، وذلك بقيامه بأعظم عبادة تثبّت قلبه، وهي الصلاة لأوقاتها وبالزيادة فيها تهجّدا لربه في الليل وهو يعده بالنصر في الدنيا وبالمقام المحمود في الأخرى، فقال جلّ من قائل: ﴿**أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا، وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا**﴾.

الخطاب للرسول، ومن خلاله هو لأمته جمعاء، والمعلوم من تاريخ التشريع أن الصلوات الخمس فرضت ليلة الإسراء لما لها من المنزلة عند الله، وقد تعرضت الآية باختصار إلى أوقاتها.

فمن دلوك الشمس إلى غسق الليل تكون الصلوات الأربع: الظهر والعصر والمغرب والعشاء. وهذه الأوقات قد وضّحتها السنّة بداية ونهاية قولا وعملا فأصبح مما يعلم من الدين بالضرورة عند المسلمين. ثم عطف الله على: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ قرآن الفجر، والمقصود الصلاة فيه. والعدول عن ذكرها إلى ذكر القرآن هو للتنبيه إلى أن قراءة القرآن في الصلاة واجب يعتبر من أركانها، ويجب الإكثار منها في صلاة الفجر بالخصوص، إذ السنّة تطويل القراءة عند الفجر نسبيا.

ثم بيّن الله حكمة ذلك بقوله: ﴿**إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا**﴾،

والإظهار في مكان الإضمار هو للاهتمام بالمضمون. و"مشهودا" بمعنى محضورا، تحضره ملائكة اللّيل وملائكة النّهار كما ورد ذلك في الحديث الشّريف. وأيضا هو وقت لتجلّي النّهار وعودة النّشاط للكائنات، فهو أدعى للاعتبار والتّأمّل في عظمة الكون وقدرة الخالق. وكان العرب يقولون: "اللّيل أخفى للويل". وهم يقصدون بذلك أن حوادث الإجرام والغارات على الأعداء أغلبها يقع باللّيل سيما في أواخره حيث يغلب النّوم على الكائنات. وقد أشار القرآن إلى أوقات الصّلاة في غير هذه الآية بصفة مجملة كذلك فقال:

أ)- ﴿فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً﴾ (النساء:١٠٣).

ب)- ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ (الرّوم: ١٧-١٨).

ج)- ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (هود:١١٤).

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾: "مِنَ" للتبعيض، قدم الجار والمجرور للاهتمام والتّحريض. والأمر هنا خاصّ برسول الله بأمره بالصّلاة في اللّيل بصفة مطلقة، إذ لم يخصّص له جزءا محدّدا. وقوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ بمعنى زيادة على الصّلوات المفروضة خاصّة بك دون أمتك. وهذا الإطلاق في لفظ: "اللّيل" قد بينه الله في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ، قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً، نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ (المزمل:١-٤).

ونظرا لما لهذه الصّلاة من الأجر والثّواب عند الله أعقبه الله بقوله: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾، والبعث يكون ليوم القيامة. ووصف المقام

بالمحمود هو للدلالة على عظم مكانته، تحمده الخلائق كلها، وقد فسّره أهل العلم بأنه الشّفاعة العظمى، و"عسى" في حق الله تعالى قطع ويقين.

وقد جاء في صحيح البخاري عن ابن عمر: «**أن النّاس يصيرون يوم القيامة جُثًا (بضم الجيم وتخفيف المثلثة أي جماعات)، كل أمة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان، إشفع، يا فلان، إشفع، حتى تنتهي الشّفاعة إلى النبي ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود**».[1]

وروى البخاريّ -أيضا- عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «**من قال حين يسمع النّداء: اللّهم ربّ هذه الدّعوة التّامّة والصّلاة القائمة، آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذي وعدته. من قال ذلك حلّت له شفاعتي**».[2]

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾:

الشّكر لله يتمّ بالفعل والقول، فإذا كانت الصّلاة مظهرا عمليا لإتمام الشّكر لله، فإنها تتوّج بالدّعاء اللّساني لله تعالى والابتهال إليه. وفي هذه الآية تلقين لما يقوله الرّسول مبتهلا إلى ربّه، وهو ينتظم أعظم مواقفه في مسيرته الدّعوية، وهو ما بين دخول وخروج ملاحقا ومضطرا للخروج أو مجاهدا منتصرا. وفي كلتا الحالتين يطلب من الله حسن الغاية ونبل القصد في الدّخول والخروج وتيسيرهما له في كل حاله، وذلك كخروجه من مكة ودخوله إلى المدينة، أو دخوله بعد ذلك فاتحا إلى

١- رواه البخاري من حديث ابن عمر، كتاب (٦٥) التفسير، باب (١١) قوله تعالى: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا﴾، رقم ٤٧١٨.

٢- رواه البخاري من حديث جابر بن عبد الله، كتاب (١٠) الأذان، باب (٨) الدعاء عند النداء، رقم ٦١٤.

مكة وغيرها من المواقع. ثم يسأل الله أن يمنحه السّلطة بحجة تقنع، وبقوة تـــردع، وكلتاهما وسيلة للنّصر والتّمكين. وذلك في معنى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ (الحديد:٢٥). والحكمة تقول: يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

وتقديم الدّخول على الخروج؛ لأن الدّخول إلى أي مكان لا يكون حـــسر العواقب إلا إذا عرفت إمكانية الخروج وأنت في عافية وســـلامة، كمـــا يقـــول الشّاعر: "لا تقرب الورد حتى تعرف الصّدرا"، فبالنسبة للـــدخول إلى المدينـــة . يتقرّر عند الله و لم يأذن لرسوله فيه إلا بعد تهيئة الظّروف الملائمة لنصرة الدّعوة في شخص رسول الله. كما أن الخروج من مكة كان تحت رعاية الله بما يسّره لرسوله من وسائل الحفظ والرّعاية.

ثم أعقب الله ذلك الدّعاء النّديّ بهذا الإعلان الذي جاء بـــصيغة الماضـــي للدّلالة على تحقيق الوقوع بظهور أمر الدعوة واندحار خصومها فقـــال: ﴿وَقُـــلْ جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾.

ينطوي هذا الإعلان على تهديد المشركين بظهـــور الحـــقّ عمّـــا قريـــب واضمحلال باطلهم، بل اضمحلال كلّ باطل في كل زمان ومكان. وهكذا تحقق وعد الله يوم الفتح، إذ أخذ الرّسول يشير إلى الأصنام المعبودة من دون الله، وهـــي تتهاوى واحدة تلو أخرى، والرّسول يعلن هذه الجملة على مسامع النّاس.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُومِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً﴾:

جاءت هذه الجملة معطوفة على سابقتها في إطار تأييد رسول الله وتثبيتـــه، فيشيد الله بقرآنه، وهو منزل على رسوله، ويبيّن أصناف النّاس في تلقيه بأنهم على

صنفين:

أ)- فريق المؤمنين: وهو المصدّقون به المتجاوبون مع توجيهاته وإرشاداته فيكون لهم شفاء من أمراض الزّيغ والضّلالة وأمراض الرّياء والنّفاق وهو لهم -أيضا- رحمة لما فيه من الهدى والإرشاد يحلّ مشاكلهم وينظم حياتهم ويضمن لهم رغد العيش في الدّنيا والسّعادة الأبدية في الأخرى، وفي القرآن آيات يستشفى بها.

ب)- ﴿وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً﴾: أي هم بسبب ظلمهم لا يجدون القابلية للتلقي السّليم الخيّر فلا يزدادون به إلا خيبة وخسارة. وليس في القرآن ما هو خسار، بل هو كله رحمة وشفاء، بل طرق التّلقي من الإنسان هي التي تختلف آثارها ما بين صنف المؤمنين والظّالمين. وقد ورد هذا المعنى في آيات أخرى كقوله تعالى:

أ)- ﴿قُلْ هُوَ لِلذِينَ ءَامَنُواْ هُدىً وَشِفَآءٌ وَالذِينَ لاَ يُومِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (فصلت:٤٤).

ب)- ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ، وَأَمَّا الذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة:١٢٤-١٢٥).

والتّعبير بصيغة المضارع: "وَنُنَزِّلُ" تدلّ على التّجدّد والاستمرار، فما يزال القرآن شفاء للأمراض المعنوية والمادية، وما يزال رحمة للعالمين إلا من أضلّه الله وسلكه في عداد الظّالمين.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً﴾: مناسبة هذه الآية لما قبلها واضحة. إذ أنه تعالى لما صنف الخلق أزاء تلقي القرآن إلى فريقين، وبيّن كيف يكون القرآن للظالمين خسارا، كان ذلك محلّ

تساؤل واستغراب؛ إذ العاقل السّليم لا يرضى لنفسه تلك الحالة، فبيّن الله تعالى في هذه الآية سبب وقوع ذلك -أحيانا- للإنسان بصفة عامّة بأنّه عندما تتوفّر لديه أسباب النّعمة والرّفاه فإنّه يصرفه ذلك عن تذكّر المنعم.

وللتأكيد على قوة تنكّره وإعراضه أضاف قوله: ﴿وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾، فهو لا يكتفي بالموقف السّلبيّ بالإعراض، بل هو ينأى عن عبادة وشكر المنعم، وإذا ما أصابه الضّرّ لا ينتبه لتفريطه في جنب الله فيتوب ويعود إليه، بل يركبه اليأس والقنوط، فقد ذكر الشّرّ غير مسند إلى الله على عكس إسناد الخير إليه؛ لأن ذلك من صفاته تعالى، فهو المنعم البدّاء، إذ الشّرّ يتسبّب فيه الإنسان وحده. وقد جاء في بعض أذكار الرّسول: «**الخير كله بيدك والشّرّ ليس إليك**»[1]. وكذلك جاءت كل الآيات التي تدلّ على هذا المعنى في القرآن.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً﴾: تعتبر هذه الآية فذلكة لكلّ ما تقدم من ذكر نعم الله الكثيرة على النّاس، ومن أجلّها إنزال القرآن الكريم، وكيف يتلقاه النّاس بحسب أمزجتهم واستعداداتهم بين شاكر وكافر. فجيء هنا بكلمة "كُلٌّ" الدّالة على العموم. ولما كان المقصود هو الإنسان العاقل فقد دلت كلمة: ﴿عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ على الطّريقة وعلى الطّبيعة التي نشأ عليها من الخير أو الشّرّ.

فلا سبيل لرسول الله أن يجعل النّاس على طبيعة واحدة، فليسلك هو سبيل الرّشاد، وليقابل من أساء إلى نفسه بالحسنى، والله وحده هو المتولّي لتربية خلقه فهو أعلم بمن هو أهدى سبيلا فيجازيه على حسب نواياه، وفي ذلك ترغيب للمؤمنين على الاستزادة من الخير وترهيب وتحذير للمشركين عساهم يرتدعون.

١- رواه مسلم من حديث علي بن أبي طالب، كتاب (٦) صلاة المسافرين، باب (٢٦) صلاة النبي ﷺ ودعائه بالليل، رقم ٢٠١.

حقيقة الرّوح لا يعلمها إلاّ الله تعالى

أ)- النص:

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿الرُّوحُ﴾: يرد لمعان مختلفة: للقرآن ولجبريل عليه السّلام، وللنّفس التي يحيا بها بدن الإنسان. ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾: "من" تبعيضية إذا أريد بالأمر الأمر التّكويني بقوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ (النحل:٤٠). وهي ابتدائية إذا أريد بالأمر نفس المصدر.

ج)- البيان والتّفسير:

وردت في القرآن جملة: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾، ومرجع الضّمير فيها يكون بحسب السّياق. وهم هنا نفس المعنيين من الضّمائر المتقدمة -أي قريش-. وترد في سبب النّزول روايات تجعل السّائلين هم قريش تارة وتجعلهم اليهود تارة أخرى فلا تعارض بينها، إذ أن سؤال قريش كان بإيحاء من اليهود، والعبرة في المسؤول عنه لا في السّائل. وللقرآن إجابات مختلفة على مثل تلك الأسئلة بما يكون مناسبا لكل قضية، ثم هو يراعي مستوى السّائلين وحصول الفائدة لهم من تلك الإجابة. فإن كان السّؤال عما لا يبلغ مستواهم الفكري جاءت الإجابة بالأسلوب الحكيم ليلفت أنظارهم إلى ما هو أنفع لهم كسؤالهم عن الأهلة، كيف يبزغ صغيرا ثم هو يكبر حتى يصير بدرا ثم يأخذ في التّناقص حتى يعود كما بدأ، ومعرفة ذلك ترتكز

على الاطلاع على النّظام الشّمسي ودوران القمـرين الأرض والـشّمس...إلخ. ولذلك جاءت الإجابة بقوله تعالى: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ (البقرة:١٨٩).

وفي سؤال هذه الآية الكريمة اختبار لرسول الله في صدق نزول الوحي عليه فكان ذلك التّوافق بين كفار مكة واليهود، وهم يعلمون أن المسؤول عنه -وهو الرّوح- مسألة معقدة لم يبتّ فيها العقل البشريّ منذ أقدم العصور، بل يريدون الكيد لرسول الله، ليظهر عجزه أمام سائليه، فيستغلون ذلك في صرف النّاس عنه، فكيف كانت الإجابة الإلهية؟.

كانت ضربة قاضية لمسعاهم، إذ قال ربّ العزة: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنَ أَمْرِ رَبِّي﴾. على أن الرّوح لها إطلاقات متعدّدة في القرآن منها:

أ)- أنها القوة الخفية في الذّات الإنسانية وهي التي تمدّه بالطّاقة الحيوية، وعندما تفارقها تصير جثة هامدة. ويرجّح الجمهور أنها المقصودة في السّؤال وفي شأنها يقول تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ (الحجر:٢٩). ويقول: ﴿فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ (الواقعة:٨٣). فهي تفارق البدن عند الموت، ثم تعود إليه عند البعث إذ تزوّج مرة ثانية بالبدن فيبعث للحياة الثانية. يقول تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ (التكوير:٧).

ب)- وتأتي الرّوح بمعنى أمين الوحي سيّدنا جبريل عليه السلام لقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ، عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ (الشعراء:١٩٣-١٩٤). ولقوله في شأن مريم: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴾ (مريم:١٧).

ج)- وتأتي بمعنى القرآن لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا﴾ (الشورى:٥٢). وقوله: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ (النحل:٢).

وللروح إطلاقات أخرى بمعنى التثبيت والقوة: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ (المجادلة:٢٢). كما أطلقت على عيسى بن مريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (النساء:١٧١).

وبما أن محاولة إدراك حقيقة الرّوح السّاكنة في بدن الإنسان هي محل اهتمام العقول البشرية منذ أقدم العصور، فإن أغلب المفسّرين يرجّحون أنها هي المقصود بهذا السّؤال؛ لأنها هي مناط الإرادة والإدراك، فكيف تمتزج بذات الإنسان وكيف تستلّ عنه عند الموت؟، وهي من اللّطافة والجوهرية بحيث لا يفقد الجسم عند خروجها شيئا من أعضائه أو أجهزته الدّاخلية.

وتكريسا لعجز الإنسان عن إدراك تلك الحقيقة جاءت الإجابة الإلهية أولا بأن الرّوح من أمر الله، أي إن أمرها من خصوصياته تعالى لا يمكن أن يطلع أحدا على سرّها.

وإضافة الأمر إلى كلمة "الرّبّ" فيه معنى الرّعاية بعد الخلق والإبداع، فكلاهما من أمر الله. وسيظل علم الإنسان قاصرا عن إدراك تلك الحقيقة.

ولتكريس ذلك القصور قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، والخطاب فيه للسائلين أولا وفيهم رسول الله نفسه ثم هو لسائر البشر، لأنهم وإن علموا أشياء في أغوار الذّات البشرية وفي الآفاق، فسيظل ذلك القصور وذلك التّفاوت العظيم لإدراك حقائق الأشياء بعيدا بعدا شاسعا، لا يمكن للإنسان أن يملأ فراغه إلا بما يقدره الله عليه، فيتوصّل إليه بعد أجيال وأجيال وتضافر الجهود في مجال البحث العلمي تحقيقا لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت:٥٣)، وقوله في آية الكرسي: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ (البقرة:٢٥٥).

فعلى ما نعيشه اليوم من التّقدم العلمي لسبر أغوار الكون وسبر أغوار النّفس

البشرية فإن البحث العلمي دائما يعتمد على التحليل والتركيب المادي وعلى القياس والمقارنة ومع ذلك يبقى لغز الحياة والموت محيّرا لا يعرف العلماء كنههما إلا ما يكون من الظّواهر القابلة للمعاينة والتحديد. وصدق الله الخالق العظيم إذ يقول: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم:٧).

ويعجبني في هذا المقام ما قاله أمير الشّعراء أحمد شوقي في كتابه "أسواق الذّهب" وهو يخاطب الماديّين: "لقد عرفنا كما عرفتم الهيولى، ولكننا لم نجحد اليد الطّولى، فنحن وإياكم متساوون في العجز. عجزتم أنتم فقلتم سرّ من الأسرار، وعجزنا نحن فقلنا الله وراء كل ستار".

﴿سُبْحَانَ الذي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (يس:٣٦)، والله أعلم.

إعجاز القرآن، وطلب المشركين بمعجزات أخرى

أ)- النص:

وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ

وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾

ب)- التّحقيق اللّغويّ:

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾: اللاّم الموطئة للقسم، و﴿لَنَذْهَبَنَّ﴾: جواب النّائب مناب جواب الشّرط، أي الذّهاب بالقرآن ومحوه من المصاحف والصّدور. ﴿لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً﴾: أي لا تجد مدافعا عنك أو من يتولّى استرداده بعد الذّهاب به. ﴿عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْءَانِ﴾: المراد بالمماثلة للقرآن، أي في الفصاحة والبلاغة وحسن النّظم، ثم في ما حواه من الأحكام والآداب والشّرائع إلخ. ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾: الظّهير: هو المعين والمساعد في تحقيق المراد. ﴿حَتَّىٰ تُفَجِّرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا﴾: الينبوع: العين التي لا ينضب ماؤها. والتّفجير مصدر فجّر، وهو الشّق باتساع، والمراد بالأرض مكة. ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾: الكِسَف: بكسر الكاف وفتح العين، جمع كسفة، وهي القطعة من الشّيء، كقطعة وقطع. والزّعم: القول المستبعد أو المحال. ﴿قَبِيلاً﴾: والقبيل: وهو منصوب على الحال، بمعنى مقابلة وعيانا. ﴿زُخْرُفٍ﴾: الذّهب. ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَآءِ﴾: أي ترقى متدرّجا فيها كما يتدرّج الصّاعد في السّلم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿حَتَّىٰ تُفَجِّرَ﴾: قرأ الجمهور بضمّ التّاء وتشديد الجيم على أنه مضارع "فجّر" المضاعف. وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف ﴿تَفْجُرَ﴾ بفتح التّاء وسكون الفاء وضمّ الجيم مخففة على أنه مضارع "فجر" كنصر، فلا التفات فيها

للمبالغة. ﴿كِسَفًا﴾: بكسر الكاف وفتح السّين، قرأه كذلك نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر، وقرأه الباقون بسكون السّين، بمعنى المفعول، أي المكسوف بمعنى المقطوع. ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾: قرأ الجمهور "قُلْ" بصيغة فعل الأمر، وقرأه ابن كثير وابن عامر "قَالَ" بألف بعد القاف بصيغة الماضي، على أنه حكاية لجواب الرّسول ﷺ.

د)- البيان والتّفسير:

في معرض التّنويه ببركة القرآن وأنه رحمة وشفاء للمؤمنين، جاء السّؤال عن الرّوح تعنّتا من المشركين واليهود، وأن النّاس وإن آتاهم الله علما فقد منعوا علوما أخرى. وبما أن علم النّبوءة هو من أعظم ما أوتيه رسل الله فقد امتن على رسوله ﷺ ببقاء ذلك العلم في قلبه الشّريف، وحذّره من فتنة الضّالّين إذ لو شاء تعالى لذهب به من الصّدور والمصاحف. ثم بيّن أن القرآن ذروة في الإعجاز والبلاغة يعجز الجن والإنس ولو كانوا متعاونين أن يأتوا بمثله. وأخيرا تعرّض إلى طلب المشركين بمعجزات أخرى مادية تكون باعثا لإيمانهم به تعجيزا وتحدّيا فقال تعالى: **﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا، إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾**.

نجد المناسبة كبيرة بين قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وبين هذه الآية؛ إذ أن هذا الحكم يشمل النّبي نفسه، ولذا يكون ما أنزل عليه من القرآن ليبلّغه للناس هو من ذلك العلم الذي أراد الله تعالى أن يمنحه للناس، وعلم النّبوءة هو رأس العلم كما عبّر عنه رسول الله في الحديث الذي رواه ابن عباس ﷺ قال: **«جاء أعرابيّ إلى النّبي ﷺ فقال: علّمني من غرائب العلم، قال: وما صنعت في رأس العلم حتى تسأل عن غرائبه؟. قال: وما رأس العلم؟ قال: معرفة الله حقّ معرفته. قال: وما صنعت في حقه؟. قال: ما شاء الله. قال: اذهب فاحكم ما**

هنالك ثم تعال أعلمك من غرائب العلم».[1]

فالقرآن الكريم -وإن كان فيه علم كبير للرّسول ولأمته- فما هو إلا القليل من علم الله، فهو المانح للعلم وهو المعلم الأكبر للإنسان: ﴿عَلَّمَ الانسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق:٥). وقال تعالى لرسوله ممتنا عليه: ﴿وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ (النساء:١١٣).

وبما أن العلم نعمة من الله يهبها لمن يشاء من عباده، والنّفس قد تعجب وتغترّ بما عندها من العلم، فأخبر الله تعالى بأنه هو القادر على سلبه ومحوه من الصّدور إن أراد. وخصّ رسول الله بالخطاب -وحاشاه أن يغترّ بعلمه- ولكنّ ذلك لكونه هو المختار لهذا العلم الإلهي بما تنزل عليه من الوحي، وكان عليه السّلام حريصا شديد الإشفاق على نفسه أن ينسى حرفا أو كلمة مما يوحى إليه، فكان يسابق جبريل في ترديد كلمات الوحي حتى طمأنه الله بأنه هو الذي يضمن له مهمّة الاستيعاب لما يوحي إليه فلا ينساه فقال:

أ)- ﴿فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ (طه:١١٤).

ب)- ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (القيامة:١٦-١٩).

وقد نتساءل كيف يمكن أن ينسى الإنسان ما حفظه ووعاه جيّدا؟، ثم ما الفائدة من إذهاب ذلك العلم من الأفئدة والمصاحف؟.

فالإجابة على ذلك من وجهين:

أولاً: الله تعالى ليس عليه واجب ولا يسأل عما يفعل فكلّ تصرفاته في

١- رواه الرّبيع بن حبيب في المسند: ٠٣/٢١٤.

خلقه هي لحكمة بالغة قد لا ندركها في إبّانها، ثم إن قوله تعالى: ﴿إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ يدلّ على أنه تعالى أبقى ذلك الوحي و لم يذهب به تفضّلا منه ورحمة.

ثانيا: التّعبير بـ"إن" يدلّ على أن ذلك لم يحدث؛ لأن "إنّ" تدلّ على الأمر المشكوك فيه، فالتّعبير يدلّ على إمكانية الوقوع، فالأمر كلّه بيد الله لو شاء لفعل، ولو فعل ما استطاع أحد ردّ ذلك، ولكنها الرّحمة والفضل من الله أن أرسلك للناس رسولا، وأن أبقى الوحي محفوظا في قلبك، وفي ذلك فضل عليك كبير.

إذن، نحن نخلص من هذا الإخبار الإلهي بأنّ الأمة الإسلامية -على ما اعتراها من وهن- فهي على خير وفي بحبوحة رحمة الله ما دام يتلى فيها هذا القرآن، وما دام محفوظا في المصاحف والصّدور، وقد ورد في الأثر أن القرآن سيرفع في آخر الزّمان إذ يمحى من الصّدور، ويختفي من السّطور.

ثم إن الله تعالى ينوّه بشأن القرآن لمزيد من الامتنان فيأمر رسوله بإعلان التّحديّ للعالمين بالعجز عن الإتيان بمثله فقال تعالى: ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الانسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾.

وكثيرًا ما تحدّى الله بقرآنه كفار قريش -بل العرب أجمع- تحدّاهم أن يأتوا بشيء مثله أو بسورة أو بعشر سور، والتّحدّي لا يكون إلا بجنس ما يتقنه المعارض، وكانت الفصاحة والبلاغة قد بلغت ذروتها في لسان قريش، وقد جمعوا من كل اللّهجات العربية في الجزيرة أحسنها وأفصحها، ومع ذلك عجزوا عن الإتيان ولو بسورة صغيرة من مثله، وهذا يدلّ على أن القرآن هو معجزة الرّسول الخالدة، إذ المعجزة لا تكون إلا من جنس ما نبغ فيه القوم، ثم ليست قاصرة على زمن التّنزيل، بل هي لعامّة الأمة الإسلامية إلى أن تقوم السّاعة، بل لا يقتصر التّحدّي هنا على الإنس وحدهم إذ هو موجّه إلى الثّقلين الإنس والجنّ لقصد

التعميم؛ لأنّ العرب يعتقدون أن لكل نابغ في الشّعر والأدب شيطانا يساعده وأن الجنّ أشدّ قوة من الإنس في القيام بعظائم الأعمال وفيهم من استمع إلى القرآن عند رسول الله، فتعاون الإنس والجن لمحاكاة القرآن هو أبلغ في التحدّي.

وقوله تعالى: ﴿لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾، نفي للمماثلة يقتضي أنهم عاجزون عن الإتيان بالأصل من باب أولى.

وهل ظل هذا التحدّي قائما إلى يوم النّاس؟، نعم، بدون شك، فها قد مرّت خمسة عشر قرنا على نزول هذه الآية، والقرآن ما يزال يتلى غضّا طريّا كما نزل على قلب محمد ﷺ تكسّرت على طوده كلّ الأنواء والأعاصير، ممن حاول النّيل منه بكيفية أو بأخرى، فلا عجب في ذلك، فإنّ الحق تبارك وتعالى تولّى حفظه إلا ما يشاء، وهو العليّ القدير.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً﴾.

لقد تقدم بيان معنى التّصريف في ما سبق، أي بمعنى التّنويع على وجوه مختلفة في المبنى والمعنى ليتلاءم مع كل الأذواق والأفهام. وذلك ما يفيده قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾؛ لأن المقام مقام التحدّي.

وبما أن ضرب الأمثال من الأساليب البلاغية المعروفة لدى المخاطبين فقد خصّص بالذّكر بصيغة العموم: ﴿من كُلِّ مَثَلٍ﴾. ثم إن واقع النّاس هو الإعراض واختيار الجحود والكفران: ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً﴾، وليس ذلك من نقص في كلام الله -حاشاه- وإنما هو لخبث تلك النّفوس واعتلال مزاجها، كما قال الشّاعر المتنبي:

ومن يك ذا فم مرّ مريض يجد مرّا به الماء الزّلالا.

ثم ذكر الله تعالى وجوه تعنتهم بطلب معجزات أخرى عندما أفحمتهم الحجة.

﴿وَقَالُواْ لَن نُّومِنَ لَكَ حَتَّىٰ تُفَجِّرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيراً، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَاتِيَ بِاللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَآءِ وَلَن نُّومِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً﴾:

ماذا ينتظر من الخصم بعد أن تفحمه الحجة، فهل يذعن لها ويستسلم القليل يفعل ذلك، ولكن الظّالمين -وهم أكثر النّاس- يستمرون على الكفر والجحود، وهؤلاء لا تعوزهم المبرّرات فكانت منهم تلك الطّلبات المتعنتة وحكى الله عنهم الامتناع عن الإيمان بحرف "لَن" التي تفيد تأبيد النّفي في المستقبل ويخاطبون الرّسول نفسه: ﴿لَن نُّومِنَ لَكَ﴾؛ لأن اعتراضهم كان عليه هو بذاته على الله ولا على القرآن، فهم يحسدونه على تلك المكانة التي حباه الله بها، وقد حكى الله عنهم ذلك عندما قالوا: ﴿وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ، أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ (الزّخرف:٣١-٣٢).

والسّيرة قد ضبطت القائلين، وهم بعض رؤساء قريش، منهم: عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبو سفيان، والنّضر بن الحارث، وأبو جهل، وغيرهم. وذلك بعد أن نادوا رسول الله وجادلوه في ما يدعوهم إليه، ثم أغروه بعدة مغريات من المال والجاه والأزواج، ولما وجدوه ثابتا على موقفه قدموا إليه هذه الطّلبات على وجه التّعجيز، وهي أمور تتصل ببيئتهم القاسية، منها أشياء طلبوها لأنفسهم، ومنها ما طلبوها للرّسول نفسه.

أ)- ﴿لَن نُّومِنَ لَكَ حَتَّىٰ تُفَجِّرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً﴾: طلبوا الماء

لأنفسهم أوّلا، لأنهم في أشدّ الحاجة إليه، والينبوع: هو العين التي لا ينضب ماؤها.

ب)- ﴿وَ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيراً﴾: طلب ذلك للرّسول، وخصصت النّخيل والعنب بالذّكر لأنهما الثّمرتان المعروفتان عند المخاطبين، ومن شأن الجنة الواحدة أن يمتلكها شخص معيّن، وهي لا تكون جنة ملتفة الأشجار إلا بتفجير الماء خلالها، وذكر المفعول المطلق: "تفجيراً" للدّلالة على التكثير.

ج)- ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً﴾: وهذا في مضرّتهم، وهذا الطّلب بناء على تهديد الرّسول إياهم بذلك كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ السَّمَآءِ﴾ (سبأ:٩). وكسفا: بمعنى قطعا.

د)- ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً﴾: أي تراهم مقابلة ومعاينة، قيل: إن الرّسول عندما وصلوا إلى هذا الحدّ من التّنطع كبر عليه أن يسمع ذلك فقام عنهم مغاضبا.

هـ)- ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾: الزّخرف: هو التزيين، وكان أجمل ما يكون من ذهب، وهذا -أيضا- لفائدة الرّسول وراحته.

و)- ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ﴾: لم يكتفوا بالرّقي والصّعود إلى السّماوات؛ لأن ذلك يمكن أن يحدث بوسيلة أو بأخرى فزادوا مقترحا آخر بطلب إنزال كتاب نقرأه، أي باللّغة التي نفهمها. ولو قدّر الله أن يتحقق ذلك لما صدّقوا به، قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (الأنعام:٧).

فكيف كانت الإجابة الإلهية على ذلك التنطع؟: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾، أي إنني أنزّه ربّي عن تلك النقائص، فحاشاه أن يرى أو ان يتمثل، وحاشاه أن يعجز عن الإتيان بما يقترحون، ولكن ذلك رحمة بهم من عذاب الاستئصال كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ (الأنعام:٨).

ثم قال تعالى على لسان رسوله: ﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾، الاستفهام يفيد النفي، أي لست إلا بشرا مثلكم، وكوني رسولا من الله لأبلغكم ما أمرني به ولا أفتات عليه لأسأله ما لا يحقّ لي، فالجمع بين البشرية والرسالة ليس بمستغرب، فالرسول بشر يتصف بالصفات البشرية بما لها وما عليها، وهو رسول يمتاز بكلّ ما يتصف به الرسل من الصدق والأمانة ومن العصمة من الدنايا، ولا يرفعه ذلك إلى مقام الألوهية أو الربوبية، بل يرجو رحمة الله ويخاف عذابه، والله أعلم.

من شبهات المشركين استبعاد أن يكون الرسل بشرا وإنكار البعث

أ)- النص:

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ

وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

١- التحقيق اللغوي:

﴿إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾: أي ما كان من دعوة الرّسل إلى طريق الهدى. ﴿يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾: ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾: حال. والمعنى: استقرارهم في الأرض وتمكّنهم منها. ﴿كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾: مفعول "كَفَى" محذوف تقديره: كفاني، وشهيد: بمعنى الشّاهد، وهو المخبر بالأمر الواقع كما وقع. ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾: هو صورة من صور العقاب يوم القيامة، و"عَلَى" يتضمن معنى: يمشون، وهو كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ (الملك:٢٢). ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾: عميا: جمع أعمى، فاقد البصر، وأبكم: فاقد النّطق، وأصمّ: فاقد السّمع. ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾: خبا يخبو اللّهب: سكن اشتعاله واستعاره، ثم يلتهب من جديد. ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾: الإشارة إلى ما ذكر من العقاب، والجزاء: العوض عن العمل، والباء في: "بِأَنَّهُمْ" سببية. ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾: الأجل: الزّمان المجعول غاية يبلغ إليها، ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾: لا شك. ﴿لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ﴾: الإمساك: بمعنى البخل خوف الإنفاق. ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا﴾: ﴿قَتُورًا﴾: من القتر، أي التّضييق في الإنفاق، والمعنى أن الإنسان شديد البخل.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد ذكر أشكال عناد المشركين وألوان تكذيبهم، أخبر الله هنا عن الأسباب التي تبعث النّاس على الجحود والإعراض في جميع الأمم البشرية، وهي اعتقادهم باستحالة أن يبعث الله رسولا للناس بشرا مثلهم، ثم شبهتهم في إنكار البعث، وأقام لهم المولى الحجة على عظيم قدرته في ما هو أكبر من ذلك، وأن النّاس لو ملكوا خزائن رحمة الله لبقوا على بخلهم وشحهم فقال جل من قائل: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤمِنُواْ إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَىٰٓ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَّسُولاً، قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ مَلَكاً رَّسُولاً﴾.

كانت وما تزال بشرية الرّسول مثار شبهة للناس تردّدها الأقوام كلها في حق رسل الله، ومشركو مكة ليسوا بدعا من البشر في إثارة تلك الشّبهة، أنظر إلى مقترحهم في ما سبق إذ قالوا لرسول الله: ﴿أَوْ تَاتِيَ بِاللهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً﴾، وقولهم: ﴿أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَّسُولاً﴾ هو تعبير عن معتقدهم وتوهّمهم الباطل أن لا تجتمع البشرية مع الرّسالة في شخص. وليت شعري، كيف يتمّ التّبليغ للبشر من جنس آخر؟، وكيف يمكن لبشر أن يتلقى عن الله بغير وسيط؟.

وقد حسم المولى تبارك وتعالى هذه القضية من ناحيتين:

أ)- ناحية الاختيار والاصطفاء: فإنه تعالى يختار لتلك المهمة عناصر ممتازة من البشر في الأرض ومن الملإ الأعلى في السّماء، فقال: ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلآئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾(الحج:٧٥).

ب)- ناحية الوساطة التي تقتضيها قداسة الخالق وجلال شأنه وسلطته على ملكوته أزاء طبيعة المخلوق ومحدودية طاقته، إذ قال جلّ من قائل: ﴿وَمَا كَانَ

لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (الشورى:٥١).

فالقضية -إذن- محسومة من أساسها، فالمَلَك يتلقّى عن الله، والرّسول البشر يتلقّى عن الملك ليبلغ بني جنسه، فليس في ذلك ما يشين؟، بل كان من رحمة الله بخلقه وتمشيًا مع إلفهم وطبيعتهم أنه تعالى لا يرسل رسولا إلاّ بلسان قومه ليبيّن لهم؛ فإن ذلك أدعى للفهم والتّحاوب، وهو العنصر الفعّال في التّبليغ، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (إبراهيم:٤).

وكان من المنطق المعقول أن تكون الإجابة على هذه الشّبهة بقوله تعالى لرسوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ مَلَكاً رَّسُولاً﴾، فالتّوافق في الجنس هو من البديهيات التي تتطلبها سنة الله في خلقه. وعلى فرضية أن تكون الأرض مستقرا للملائكة تطمئن لهم حياتهم فيها، لكان رسول الله إليهم ملكا مثلهم لتتمّ المخالطة وتكون المفاهمة بينهم، وحتى لو حقق الله طلبهم بإنزال ملك إلى جانب رسول الله فهو لا يتمثل لهم إلا بشرا. فتؤول القضية إلى نفس الإشكالية، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ (الأنعام:٩). وقد تمثل جبريل رجلا عندما جاء يسأل رسول الله في مجلس من أصحابه في حديث عمر ﷺ فماذا بقي من الشّبهات عند هؤلاء؟، وما حيلة الرّسول أمام ذلك التّعنّت؟.

لم يبق له إلا تفويض أمره إلى الله ليحكم بينه وبين أعدائه فأمره أن يعلن أمامهم ذلك فقال: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾.

إنه ردّ شامل جامع لكل ما اقترحوه وأثاروه من الشّبهات، وهو الفصل النّهائي بين الطّرفين: طرف محقّ له النّصر والتّأييد، وطرف آخر مبطل مدحور

بالحجة. وكفى بشهادة الله تأييدا لرسوله بالأمانة والصّدق: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾، فهو العليم بنواياهم الحقيقية والعليم بذواتهم وجميع أحوالها، وفي هذا التّعليل تهديد للمتعنتين، وتسلية للرسول.

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً﴾:

وهذا الإخبار المعطوف على ما سبقه هو زيادة في تسلية رسول الله ببيان مطلق تصرفه تعالى في خلقه، سيما في قضية الهداية والضّلالة، حتى لا يحزن الرّسول في أداء مهمته، وهي تتمثل -كما تقدم-:

أ)- مهمة دعوته لكل النّاس، فهو يدلهم بالبيان والحجة على الطّريق المستقيم كما قال له تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى:٥٢). وهو الخطّ المستقيم لا يتعدّد، كما يدلّ عليه الإفراد في الجملة الأولى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾.

وأما في مقابله من الضّلالة فقال: ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِ﴾ بصيغة الجمع؛ لأن طرق الضّلالة متعددة متنوّعة، كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ (الأنعام:١٥٣).

أما كون الهدى والضّلالة بأمر الله في قضية القضاء والقدر، فقد أشرنا من قبل أن لا تناقض بين قدر الله وعلمه الأزلي واختيار الإنسان لأحد الطّريقين، هدى أو ضلالة، وفي كلتا الحالتين فإن الله هو الخالق لذلك الفعل يوفّر له أسبابه وفق اختيار الإنسان وكسبه.

ثم قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾.

يرسم الله هنا مشهدا مروعا لنوع عقاب الضّالين من بعد أن فقدوا النّصراء في الدّنيا، فهم يحشرون يوم البعث يمشون على وجوههم منكبي الرّؤوس فاقدي حواس البصر والنّطق والسّمع. وهو الجزاء الوفاق لما كانوا يتطاولون به في الدّنيا إذ كانوا يقولون لرسول الله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾(فصلت:٥). وقد استشكل الأصحاب تلك الصّورة فقالوا لرسول الله: كيف يمشي النّاس على وجوههم؟. فقال: «**الذي أمشاهم على رجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم**».[1]

وما العجب في ذلك وفي المخلوقات أمثلة لوسائل المشي والحركة إذ قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (النور:٤٥).

وقوله تعالى: ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾، وخبت النّار: بمعنى انطفأت، والسّعير: بمعنى اللّهب المشتعل. والمأوى: هو المستقرّ. وهل خفوت النّار هو نوع من تخفيف العذاب عنهم؟. يقول الإمام ابن عاشور: "فالخبوّ وازدياد الاشتعال بالنّسبة إلى أجسادهم لا في أصل نار جهنم. ولهذه النّكتة سلّط فعل: ﴿زِدْنَاهُمْ﴾ على ضمير المشركين للدّلالة على أن ازدياد السّعير كان فيهم، فكأنه قيل: "كلما خبت فيهم زدناهم سعيرا، و لم يقل زدناها سعيرا".[2]

قلت: وهذا بمعنى قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا

١- رواه الترمذي من حديث أبي هريرة، كتاب (٤٤) التفسير، باب (١٧) من سورة بني إسرائيل، رقم ٣١٤٢، وقال: هذا حديث حسن.

٢- محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتنوير: ٢١٨/١٥.

غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ﴾ (النساء:٥٦). فليست فترة نضج الجلود فترة لانقطاع الحسّ بالألم، بل هي لدوامه واستمراره.

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا وَقَالُواْ أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾، الإشارة إلى ما تقدّم من نوع ذلك العذاب بأنّه من جنس عملهم أولا، وبسبب مقولتهم النّكراء ثانيا في إنكارهم للبعث كما تقدم في الآية السّابقة.

وهنا يجيء الرّدّ الإلهي ببيان قدرته في الآفاق، وأنها مثال لقدرته تعالى على أن يعيد خلقهم مرة أخرى فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللهَ الذي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً﴾.

الاستفهام إنكاريّ يدلّ على التّعجيب من عدم علمهم، فالرّؤية هنا اعتقادية علمية، والمثلية بمعنى إعادة الأجسام من جديد، ولكن على مثال جسده السّابق. وأما الكيفية فلا يعلمها إلا الله، فقدرته تعالى في خلق السّماوات والأرض أكبر من خلق النّاس، وقد تقدمت الآيات القرآنية التي تدعم هذه الحجة.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾، هو للرّدّ على اعتقادهم بخلود الكون وأن لا قيام للسّاعة، وهم بطبيعة الحال داخلون في ذلك الأجل المحدّد لفناء العالم، فيكون المعنى: وجعل لهم ولغيرهم أجلا لا شك فيه.

ثم فرّع على ذلك قوله: ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً﴾، أي أنهم علموا بكل ذلك، ولكن غلبة الظّلم عليهم جعلهم يجحدون ذلك، وبما أنهم طلبوا القصور والجنات والعيون. وأنهم توهّموا عدم حصولها ردّ الله شبهتهم تلك بقوله: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيَ إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ

قتوراً﴾.

أمر الله رسوله أن يبيّن لهم بأن ما طلبوه ليس بشيء أمام خزائن رحمة الله، وهي الخيرات التي بسطها لخلقه طيلة وجودهم حتى قيام السّاعة ينفق منها كيف يشاء ويترلها بقدر معلوم وعلى الكيفية التي لا تطغي خلقه كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ (الشورى:٢٧).

وقد أدمج الله في هذا الرّدّ ما يتّصف به الإنسان من الشّح والبخل، إذ لو أن الله ملّكه تلك الخزائن لأمسك الإنفاق منها خشية الإملاق، فكان من رحمته أن امتنع ذلك عنكم لأن "لَوْ" تفيد الامتناع لامتناع.

ثم بيّن الله طبيعة الإنسان بأنّه قتور بصيغة المبالغة فهو يبخل على نفسه بلّه غيره، وهو شديد الحرص على المال شديد الخوف من الفقر. يقول الرّسول: «**من أراد الله به خيرا جعل غناه في نفسه وتقاه في قلبه، ومن أراد به شرّا جعل فقره بين عينيه**»،[1] والله أعلم.

الآيات التّسع لموسى لم يهتد بها فرعون

أ)- النص:

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ

١- رواه الترمذي من حديث أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ بلفظ: «من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله و لم يأته من الدنيا إلا ما قدر له»، كتاب (٣٥) صفة القيامة، باب (٣٠)، رقم ٢٤٦٥.

الَّارَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ اسْكُنُوا۟ الْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ﴾: "آتَيْنَا" ينصب مفعولين وهما "موسى" و"تسع". ﴿بَيِّنَاتٍ﴾: إما في موضع خفض على النعت لـ"آيات"، وإما في موضع نصب على النعت لـ"تسع". والآيات البيّنات هي العلامات الواضحات الدّالة على نبوءة موسى وصدقه. ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾: أي أفسد السّحر عقلك فصرت مخبولا. ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾: هَؤُلاَء: إشارة إلى الآيات التّسع. و﴿بَصَائِرَ﴾: الحجج المفيدة للبصيرة، أي العلم. ﴿مَثْبُورًا﴾: الذي أصابه الثّبور وهو الهلاك. ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾: الاستفزاز: كناية عن النّفي والإبعاد من أرض مصر. ﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾: أي الأرض الموعودة لبني إسرائيل من طرف جدّهم إبراهيم وهي أرض الشّام. ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾: اللّفيف: الجماعات المختلطة من أصناف شتى.

ج)- أوجه القراءة:

﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾: قرأ الكسائي بضمّ التاء للمتكلم كناية على أنه واثق من نفسه بالسّلامة من السّحر، وقرأ الباقون بفتحها للمخاطب.

د)- البيان والتّفسير:

تنظيرا لما سأله المشركون من الاقتراحات، وأنهم لا يؤمنون ولو جاءهم كل

آية، ذكّر الله رسوله بما جرى لموسى مع فرعون وقومه إذ لم تُحْدِ فيهم الآيات التسع فأهلكهم الله، وفيه تسلية لرسول الله وتهديد للمشركين، فنجد تماثلا في بعض مقترحات بني إسرائيل وقريش، إذ قال الأولون لموسى: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ (النساء:١٥٣). وقال الآخرون: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ﴾ (الإسراء:٩٢). ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ (الفرقان:٢١). إذًا فلا فائدة للمشركين في ما اقترحوه من الآيات، بل تكفيهم معجزة القرآن لو كانوا صادقين.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسْأَلْ بَنِي إِسْرَآءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا، قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾:

تتوالى المقارنات في السّورة الكريمة بين رسالة محمد ﷺ وبين رسالة موسى عليه السلام بدءا بمفتتح السّورة من قوله تعالى:

أ)- ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾ (الإسراء:٢).

ب)- ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء:٩).

وهنا -أيضا- نجد المناسبة شديدة بين مقترحات المشركين السّابقة وبين ذكر الآيات التّسع لموسى واضحة بيّنة، ومع ذلك لم يؤمن به فرعون وقومه، فهم ومشركو قريش متساوون في الإعراض والإنكار تعنّتا وعنادا. وتظهر فائدة تلك المقارنة وذلك التّنظير في:

أ)- كون أهل الكتاب يظاهرون المشركين ويلقنون لهم شبه الكفر والإلحاد برسالة محمد ﷺ.

ب)- التّسلية لرسول الله ببيان أن قريشا ليسوا بدعا من البشر في محاربتهم لدعوة الله؛ لأن ذلك من سنن الله في خلقه.

ج)- التّعريض بالمشركين بأن يهلكهم الله إن هم أصرّوا على الكفر كما أهلك من قبلهم.

والسّؤال عن الآيات التّسع، فما هي؟.

لقد ذكر المفسّرون أن لموسى ست عشرة آية مما ذكر في القرآن الكريم مفرّقا في قصصه لموسى وفرعون، غير أنه يجب أن نفرق في تلك الآيات بين ما أرسل بها إلى فرعون وقومه وهي:

أ)- التّسع المذكورة في هذه الآية وفي سورة النّمل عند قوله تعالى بعد ذكره للعصا واليد: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (النمل:١٢).

فتكون التّسع المذكورة هنا هي: العصا تنقلب حية، واليد التي تخرج بيضاء من غير سوء، وأخذ آل فرعون بالسّنين ونقص من الثّمرات. ثم الخمس المذكورة في سورة الأعراف: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ﴾ (١٣٣).

ب)- وأما السّبع الباقية فهي خاصّة ببني إسرائيل:

- تلقّف العصا لما أعدّه السّحرة من العصيّ والحبال.

- انفلاق البحر بالعصا بنجاتهم وغرق فرعون.

- انفلاق الحجر على اثنتي عشرة عينا.

- نتق الجبل فوقهم كأنه ظلة.

- إنزال المنّ والسّلوى عليهم في صحراء سينا.

- إزالة العقدة من لسان موسى.

- الطّمس على أموالهم، إذ تحجّرت في مخازنهم لدعاء موسى عليهم: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَ اشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (يونس:٨٨).

قوله: ﴿فَسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، الخطاب للرسول يسألهم سؤال حجة واستشهاد في مجال المجادلة والحجاج، والمراد ببني إسرائيل الأجداد والسّلف وذريتهم من الخلف، على اعتبارهم أمّة واحدة تناقلت الأحداث التّاريخية جيلا بعد جيل.

﴿إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾: والظّن هو ما دون اليقين. والمسحور: هو من أثّر فيه السّحر فأصابه الخبل في عقله. بينما يقول عنه فرعون في مقامات أخرى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ (الأعراف:١٠٩). فكيف يتأثر بسحر غيره وهو ساحر؟، وما ظنه هذا إلا ضرب من التّخبّط يراد به البقاء على التّعنّت والمكابرة والعناد. وهو نفس الوصف الذي أعطاه المشركون لرسول الله عندما قالوا: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ (الإسراء:٤٧).

فكيف كانت إجابة موسى لفرعون؟،

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾:

لقد كشف موسى لفرعون حقيقة ما يضمره في نفسه بأنه يعلم علم اليقين بصدق تلك المعجزات، إذ لا يمكن أن تصدر من بشر، وإنما هو العناد والمكابرة كما قال عنهم تعالى في سورة النمل: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٤).

وهنا كان الحزم يقتضي أن يتحدث موسى بشيء من القوة والجرأة بعدما وضحت آيات ربّه فأتى جوابه مماثلا لكلام فرعون، وهو يتوقع هلاكه فقال:

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾، والمثبور هو الذي أصابه الهلاك.

ويبدو موسى مترفقا في إضفاء ذلك الوصف على فرعون فجاء بفعل "الظّن" تأدّبا مع الله في ما يقضيه بالفعل، تاركا تقرير ذلك إليه، فقال تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعاً، وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَآئِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً﴾.

هذا التفريع يلخّص بقية القصّة، وكيف كانت إرادة الله قاهرة لجبروت فرعون. وكثيرا ما يلتمس الجبابرة والطّغاة مبرّرات لظلمهم، وقد كان فرعون من قبل شديد الوطأة على بني إسرائيل، وكان يرفض لموسى طلبه في إرساله معه ليحرّرهم مما هم فيه، فما باله الآن يستفزّهم ليخرجوا من مصر وحدهم؟! ذلك لأنه أصبح مهدّدا ببقائهم هناك، فأراد أن يخلو له المكان.

غير أن إرادة الله قلبت عليه الوضع فخرج هو وجنوده ليلاحق بني إسرائيل بعد خروجهم فذهب برجليه إلى حتفه غرقا في البحر هو وجنوده، بعد أن أنجى الله موسى ومن معه.

وقضى الله لبني إسرائيل أن يرثوا أرض مصر بخيراتها وكنوزها وأن يعمروا أرض الشّام التي وعدوا بها عزّا وتمكينا في الدّنيا، ثم بعد ذلك يرث الله الأرض ومن عليها فيحشرهم مع الخلائق ويجمعهم بعدّوهم في جماعات مختلطة ليحكم بينهم فيجازي كل فريق بما يستحقه.

ذلك هو التّوجيه المتفق عليه بين المفسرين في ما اطلعت عليه، وينفرد الشّيخ الشّعراوي بتفسير فيه ملحظ دقيق لقوله تعالى في أول السّورة عند الكلام على وضعية بني إسرائيل عند علوّهم الأول والثّاني، فيرى أن إفسادهم الأول كان على عهد رسول الله، وأنه أخرجهم من حصونهم وجاس خلال ديارهم ونفاهم إلى أذرعات في الشّام، ويرى العلوّ والإفساد الثّاني هو ما هم عليه اليوم، وبالتّالي فهو

يفسّر: ﴿وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ بأنه ما ينتظرهم من الإبادة وإزالة دولتهم على يد المسلمين. ويرى أن قوله تعالى: ﴿اسْكُنُوا الأَرْضَ﴾ هكذا دون تقييد اللفظ لينسجم مع ما ذكره القرآن عنهم بالتفرق في كل أنحاء الأرض، بحيث يرجعون إلى ما كانوا عليه فلا يكون لهم وطن. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾، أي يتجمعون في أرض واحدة -وهي فلسطين-، ثم يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، والله وحده هو العالم بما تخبئه الغيوب، والله أعلم.

التنويه بشأن القرآن ودعاء الله بالأسماء الحسنى

أ)- النص:

وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾: الحق: هو الأمر الثابت الذي لا يزول.

وضدّه الباطل الذي يتغيّر ويتلوّن. والباء للمصاحبة. والضّمائر تعود إلى "القرآن" المعروف من المقام، وتقديم الجارّ والمجرور على عامله في الجملتين لإفادة القصر. ﴿فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾: أي جعلناه فرقًا، من: فرّق الأشياء إذا باعد بينها. والمعنى: جعلناه مفرّقا منجّما، وفيه معنى البيان والتّفصيل. على مكث: أي التّوءدة والمهل. ﴿يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾: الخرور: هو السّقوط بسرعة. واللام في "للأذقان" بمعنى: على، والأذقان: جمع ذقن، وهو مجتمع اللحيين. وسجّدا: جمع ساجد، منصوب على الحال. ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾: "إن" مخففة من الثقيلة بطل عملها، ومفعولا: بمعنى أن الله يفعل ما جاء في وعده. ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَآءُ الْحُسْنَى﴾: "أي": اسم استفهام في الأصل، فإذا اقترنت بها "ما" الزّائدة أفادت الشّرط، وجيء لها بجواب مقترن بالفاء وهي منصوبة بـ"تدعو"، وهو مجزوم بـ"أي". والأسماء الحسنى لله تعالى هي ما سمّى بها ذاته العلية أو وصفها بها مما جاء به القرآن الكريم أو السّنة المطهّرة. ﴿وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا﴾: من خفت الرّجل صوته، إذا لم يرفعه. ويقال: تخافت القوم: إذا تسارّوا بينهم وضدّه: الجهر بالصّوت. ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾: أي توسّط بين الجهر والخفوت. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾: لا يحتاج إلى ناصر من أجل مذلة به.

ج)- البيان والتّفسير:

لقد حفلت سورة الإسراء بالتّنويه بشأن القرآن وبيان منزلته، وقد تكرر ذكر اسمه فيها إحدى عشرة مرة -كما تقدم- خلال آياتها. فكأن من تأكيد الكلام في هذا النّسق أن تحفل خواتم السّورة بالحديث عن القرآن بأنه حق من عند الله، وأن الرّسول بشر به وأنذر بأمر الله فقال تعالى: **﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾**.

فالضّمير عائد إلى القرآن، وعرف ذلك من السّياق. وتكرّر لفظ "الحق"

مرّتين متصلا بالباء التي تدلّ على الملابسة والمصاحبة، كما تكرر لفظ "الإنـــزال" متعديا ولازما، فالحق هو الشّيء الثّابت الذي لا يطرأ عليه التّغيير، وهو من أسمـــاء الله الحسنى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ (النور:٢٥). فالله حقّ وكلامه حقّ لا ريب فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾ هكذا بضمير العظمة هو كقوله:

أ)- ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (القدر:١).

ب)- ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ (الدّخان:٣).

فلعل المراد -والله أعلم- هو إنزاله من اللّوح المحفوظ جملة واحدة إلى السّماء الدّنيا. وكون أنزاله بالحق، أي إن حكمة الله اقتضت ذلك، لما فيه مـــن الرّحمـــة والهداية والشّفاء للناس لا لغرض باطل، وما نزل بالحق فهو يتضمن الحق لما يشتمل عليه من الميزان والعدل، ولما فيه من الأحكام يقوم عليها صلاح النّـــاس في الـــدّنيا والآخرة وهي كلها حق وصدق لم تشب بباطل، لا في ما يتعلق بالعقيدة، ولا في ما يتعلق بالشّريعة.

ويحتمل في قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي بواسطة جبريـــل عليه السلام وهـــو الأمين المطاع في الملإ الأعلى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ، عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُـــونَ مِـــنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (الشعراء:١٩٣-١٩٤).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾، فما أروع وقـــوع هـــذه الجملة معترضة بين آيات التّنويه بشأن القرآن، يبيّن الله فيها مهمة رســـوله بأنهـــا تنحصر في مهمة البشارة والنّذارة بما في هذا القرآن فلا يحمّل نفسه فوق طاقتـــها على عدم إيمان قومه. فليس ذلك راجعا إليه كرسول مبلغ عن الله، ولا إلى الكتاب الذي نزل عليه لنقص فيه، بل أمر ذلك إلى الله وحده يهدي من يشاء ويضلّ مـــن

يشاء. وفي هذه الجملة رد ضمني على الذين يعجبون من بشرية الرسول أو يسألونه أشياء هي من خصوصيات الله وحده.

﴿وَقُرْءَاناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾:

الجملة معطوفة على قوله: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾. والتنكير في ﴿وَقُرْءَاناً﴾ للتعظيم. و﴿فَرَقْنَاهُ﴾: أي أنزلناه مفرقا منجما في ثلاث وعشرين سنة وفق مقتضيات الظروف والأحوال التي تدعو إليها حاجة التشريع للأحكام. أو الإجابة عن أسئلة يقدمونها لرسول الله. ولبيان حكمة ذلك علله بقوله: ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾، فهو قرآن يتلى، ويقرأ على الناس بتؤدة لتكون ألفاظه ومعانيه أثبت في نفوس السامعين، يتجاوبون معه، وتتشربه قلوبهم شيئا فشيئا، فإذا حياتهم كلها تجسيد لهدي القرآن كما كان عليه الأصحاب رضوان الله عليهم. وفي هذا رد لشبهة الكفار إذ قالوا: ﴿لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ (الفرقان:٣٢).

ثم أكد الله معنى التفريق والتفصيل للقرآن بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾، هكذا بالفعل المضاعف وبالمفعول المطلق.

﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً، وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً، وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾:

أمر الله رسوله أن يقول للمشركين على وجه التهديد والتسوية بين إيمانهم بالقرآن وعدمه. وفي ذلك عدم اهتمام بهم وتحقير من شأنهم، لأن القرآن معجزته قائمة فيه، وقيمته محققة في ذاته، لا ينقص منها عدم إيمانهم به، كما لا يزيد في قدره إيمانهم. فليقولوا ما شاؤوا من أراجيفهم، فإن أقوالهم تلك لا تحط من شأن القرآن إلى أبد الآبدين، ويكفيه شرفا وقدرا أن يؤمن به أولو العلم من أهل

الكتاب، فهم يتأثرون عند سماع آياته فيخرّون سجّدا لله.

وقوله: ﴿لِلأَذْقَانِ﴾ هو للدلالة على التّمكنّ في الخضوع لله ويجمعون إلى ذلك التّنزيه لله بقولهم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾، إيمانا منهم بأنّ وعد الله منجز بما يبشر به في التّوراة والإنجيل من بعثة سيّدنا محمد ومن إنزال القرآن، ثم إنهم يجهشون بالبكاء فرحا وحمدا لله، ويزيدهم القرآن خشوعا وتضرّعا لله، وفي معنى هذه الآية قوله تعالى:

أ)- ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُۥ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (الرّعد:٤٣).

ب)- ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَنْ يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ (الشّعراء:١٩٧).

قال مجاهد: "هم ناس من أهل الكتاب حين سمعوا ما أنزل على محمد خرّوا سجّدا. منهم: زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وعبد الله بن سلام.

قلت: والبكاء في الصّلاة دليل على منتهى الخشوع لله، قد امتدحه رسول الله في أحاديث. منها ما رواه التّرمذيّ عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**عينان لا تمسّهما النّار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله**».[1]

وفي التنويه بشأن المنصفين من أهل الكتاب تسلية لرسول الله وتحقير من شأن قومه الجاحدين بأنهم جهلة مغرورون.

ثم يقول تعالى: ﴿**قُلُ ادْعُواْ اللَّهَ أَوُ ادْعُواْ الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً**﴾.

١- رواه الترمذي من حديث ابن عباس، كتاب (٢٠) فضائل الجهاد، باب (١٢) ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله، رقم ١٦٣٩. وقال: حسن غريب.

ذكر المفسّرون سبب نزول هذه الآية التي تخيّر في الدّعاء بين اسم الذّات لله تعالى: ﴿اللهَ﴾ وبين صفة: ﴿الرَّحْمَنَ﴾. وفي الكشاف عن ابن عبّاس: سمع أبو جهل النّبي ﷺ يقول: يا الله يا رحمن. فقال: أبو جهل: إنه ينهانا أن نعبد إلهين، وهو يدعو إلها آخر. فجاء هذا الرّدّ الإلهي ليبيّن بأن تعدّد الأسماء لا يقتضي تعدّد المسمّى، فلله تعالى أسماء كثيرة تصل إلى تسعة وتسعين كما ورد في الحديث.

وفي قوله تعالى بصفة مجملة: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ﴾ (الأعراف:١٨٠). والاسم الجامع القطعي اليقيني للذّات العلية هو: ﴿اللهَ﴾، فهو جامع لكل الصّفات الكاملة، وهو علم لواجب الوجود وله تعالى أسماء صفات فعلية كلها حسنى وفي مقدمتها صفة "الرّحمن" وقد جاء في البسملة: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في الدّرجة الثّانية بعد لفظ الجلالة.

وسرعان ما تعلق الكفار بهذه الشّبهة من تعدّد الأسماء عند سماعهم لدعاء رسول الله، فجاء الرّدّ الإلهي حاسما بأن الله هو الرّحمن، وله الأسماء الحسنى الأخرى فادعوه بأيّ شئتم منها فأنتم على صواب، وهو سامعكم ولا حرج.

وفي مقام الصّلاة والدّعاء فقد أمر الله رسوله بالتّوسّط بين الجهر والخفوت فقال: ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾.

وقد تقدم أنّ الرّسول قد جهر بدعائه أمام المشركين حتى كان منهم تلك الشّبهة التي ردّ الله عليها بالآية السّابقة.

وحتى لا يتعرّض القرءان لسبّهم فقد أمر الله رسوله بالتّوسّط سواء في صلاته أو دعائه أو تلاوته، بل التّوسّط مطلوب في كل شيء، وهو من سمة الإسلام ومزاياه، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ (البقرة:١٤٣)؛ لأن كلاً من الخفوت والجهر له سلبياته في نفوس السّامعين إما استفزازا وتهييجا لحفيظة الكفار، وإما انتفاء للسماع الهادي الذي قد يلين القلوب.

ثم قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لله الذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرا﴾.

أي أن الله تعالى يختصّ بالحمد وهو وحده المستحق لذلك، والمحمود عليه هو صفات ثلاث:

أ)- لأنه: ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾؛ لأنه الباقي الدّائم، يطعم ولا يُطعَم، فهو لا يحتاج لعقب يخلّد ذكراه، أو يحبس إنعامه عليه.

ب)- ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾: كما قال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ (المؤمنون:٩١).

فالوحدانية هي قوام الألوهية الحقة في الهيمنة على الملك واستقراره، فإن السّفينة لا يستقيم أمرها إلا بربّان واحد.

ج)- ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾: فالضّعيف الذّليل هو بحاجة إلى وليّ ينصره ويدبّر أمره، وتعالى الله عن الذلّ والحاجة لغيره، فهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير.

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرا﴾: والتّكبير هو التّعظيم، ينشأ في نفس المؤمن باعتقاده في مولاه أنه أكبر كبير، وبوصفه بصفات الكمال المطلق، وإجلاله حبّا وتمجيدا بالقول والفعل والاعتقاد كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لله﴾ (البقرة:١٦٥).

ذلك الحبّ الخالص الذي يذوب في ذات المحبوب إجلالا وتقديسا، والذي عبّرت عنه رابعة العدوية فقالت:

كلهم يعبدونك من خوف نار ويرون النّجاة حظا جزيلا

أو بأن يسكنوا الجنان فيحظوا بقصور ويشربوا سلسبيلا
ليس لي بالجنان والنار حظ أنا لا أبتغي بحبيّ بديلا

فاللّهم ارزقنا حبّك وحبّ من يحبّك وهيئ لنا من أمرنا رشدا، آمين.

والله أعلم

تمّت

سورة الكهف مكّية، وآياتها ١١٠

أ)- بين يديّ السّورة:

سمّيت بسورة الكهف لوورد قصة أهل الكهف فيها، وهي قصة عجيبة، كانت من جملة ما أمر به اليهود مشركي مكة أن يسألوا عنها رسول الله في معرض التّحدّي ليمحّصوا بذلك صدق نبوءته، إذ روى الطّبري عن ابن عبّاس: أن اليهود أمروا المشركين أن يسألوا الرّسول عن ثلاث، فإن أخبرهم بها فهو نبي، وإلاّ فهو متقوّل كاذب، قالوا: سلوه عن فتية ذهبوا في الدّهر الأول ما كان أمرهم؟ (وهم أهل الكهف)، وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها؟، (وهو ذو القرنين وقصته معروضة في أواخر السّورة)، وسلوه عن الرّوح ما هي؟، (وقد ورد الجواب عنها في سورة الإسراء).

نزلت سورة الكهف بعد سورة الغاشية، وقبل سورة الإسراء. وعند الإمام جابر بن زيد ﷺ أنها الثّامنة والسّتون في ترتيب نزول السّور. وهي الثّامنة عشرة في ترتيب السّور بالمصحف الشّريف.

وقد وردت أحاديث وأخبار في فضلها منها:

أ)- ما رواه الإمام مسلم: «**مَن حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصم من فتنة الدّجّال**»، وفي رواية: «**من آخرها**».[1]

ب)- يقول وهبة الزّحيلي: "والسّنة أن يقرأ الشّخص الكهف يوم الجمعة وليلتها لما رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد، عن النّبي ﷺ: «**من قرأ الكهف يوم**

١- رواه مسلم بالروايتين من حديث أبي الدرداء، كتاب (٦) فضائل القرآن، باب (٤٤) فضل سورة الكهف وآية الكرسي، رقم ٢٥٧.

الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين».[1] وروى الدّارمي والبيهقي: «**من قرأها ليلة الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق».**[2]

قلت: لقد وفّق أسلافنا -رحمهم الله- إلى تطبيق ما ورد في هذا الحديث الشّريف، إذ درجوا على تلاوة هذه السّورة الكريمة في ليالي الجمع في المساجد والمصليات، وبقي ذلك سنة متبعة حتى يوم النّاس هذا والحمد لله.

وقد افتتحت السّورة بالحمد لله كما افتتحت بها كل من سور: الفاتحة، الأنعام، سبأ، فاطر. فالحمد لله بما تفيده الجملة من الحصر هي الصّيغة المفضّلة التي علمنا الله أن نحمده بها، حتى يتساوى خلقه في الثّناء عليه بما هو أهل له، إذ هو تعالى أعلم بما يليق لجلاله من الثّناء والتّعظيم كما ورد في الحديث أن رسول الله كان يقول: «**سبحانك لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك».**[3]

ونلاحظ أن حيثية الحمد تختلف في السّور الخمس، غير أن الله تعالى قد رفع شأن القرآن الكريم، إذ جعل إنزاله على روح سيّدنا محمد ﷺ مساويا في العظمة والقدر والشّأن لخلق السّماوات والأرض فقال جلّ من قائل:

أ)- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (الفاتحة:٢-٣).

ب)- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ (الأنعام:١).

ج)- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (فاطر:١).

١- رواه الحاكم من حديث أبي سعيد الخدري، رقم ٣٣٤٩.

٢- رواه البيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي سعيد الخدري، رقم ٢٩٠٣؛ ورواه الدارمي في السنن من حديثه أيضا، رقم ٣٤٧٠.

٣- رواه مسلم من حديث عائشة، كتاب (٤) الصلاة، باب (٤٢) ما يقال في الركوع والسجود، رقم ٢٢٢.

د)- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ (الكهف:١).

ذلك لأن خلق السّماوات والأرض وما بث الله فيهما من دابّة لا يستقيم أمرهما إلا بإنزال ذلك النّور المبين، لأن المادية المحضة لا يستقيم أمرها إلا بالرّوحانية الرّبانية كما قال تعالى في خلقة الإنسان: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ (الحجر:٢٩).

ب)- ما اشتملت عليه السّورة:

- كان افتتاحها بالثّناء والحمد لله بإنزاله القرآن على عبده مع بيان مهمته في الإنذار والتبشير.

- بيان قدرة الله وعظمته من خلال ما أودع في الأرض من زينة وجمال، وكيف يختبر خلقه بذلك، ثم تصير الأرض إلى فناء وزوال. وقد ضرب الله للحياة مثلا بإنزال الماء على وجه الأرض وكيف تتزين ثم تكون حطاما.

- ضرب المثل بصاحب الجنتين على طغيان المال وجحود صاحبه لكلّ القيم الخالدة سيما الإيمان بيوم البعث والجزاء، بينما كان صاحبه الفقير المؤمن يحاوره ويدعوه إلى النّهج السّويّ من الإيمان بالله وشكره على نعمه. ثم يصوّر المثل مآل ذلك الطّاغية بماله.

- يغلب على السّورة العنصر القصصي في أسلوبه الفنيّ المثير، فتجيء قصة أهل الكهف في أولها بما توحي به من التّوجّه الإيماني ومن اللّطف الرّباني على الفتية المؤمنين، وتأتي قصة آدم وإبليس للتحذير من عداوة الشّيطان لبني آدم في معرض إغراء المال والبنين، ثم تجيء قصة موسى مع الرّجل الصّالح، وفي النّهاية تأتي قصة ذي القرنين، فكلاهما ضرب في أرض الله غير أن غايتهما قد اختلفت، فالأول خرج لطلب العلم والاستزادة من المعرفة الرّبانية، والثّاني خرج لبسط نفوذه

وسلطانه في الأرض.

- تتخلل كل ذلك توجيهات لرسول الله بأن لا يضيق بما يلاقيه من جحود قومه لأنه على الحقّ المبين وأن يصبر نفسه مع القلّة المؤمنة.

- وفي ختام السّورة تركيز لوحدانية الله وإبطال الشّرك مع بيان وعيد أهله وجزاء المؤمنين، وأن علم الله محيط شامل لا حدّ له ولا نهاية.

ويلخّص سيّد قطب كلّ ذلك بقوله: "أما المحور الموضوعيّ للسّورة الذي ترتبط به موضوعاتها، ويدور حولها سياقها، فهو تصحيح العقيدة، وتصحيح منهج النّظر والفكر، وتصحيح القيم بميزان هذه العقيدة".[1]

قلت: وذلك هو القاسم المشترك لموضوعات القرآن المكّي، من التّركيز على وحدانية الله، وصدق الرّسالة والنّبوءة، والإيمان بيوم الحساب والجزاء، وتأتي تفاصيل كل ذلك من خلال البيان والتّفسير، وبالله التّوفيق والسّداد.

بيان صيغة الثّناء على الله، وبيان مهام القرآن

أ)- النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ
عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ۜ ① قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ
وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ② مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا
③ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ④ مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً

١- سيد قطب، في ظلال القرآن: ٧٢/١٥.

١- رواه البخاري م
قصة ياجوج وماجوج

تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿الْكِتَابَ﴾: هو القرآن الكريم، إذ أنّ كلّ مقدار نزل منه فهو كتاب، أو هو على تقدير إنزاله جملة واحدة من اللّوح المحفوظ إلى السماء الدّنيا. ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا﴾: جملة معترضة بين الحال ﴿قَيِّمًا﴾ وصاحبه. وقَيِّماً: أي مستقيما لا عوج فيه. وقيل: هو بمعنى السّيطرة والهيمنة على سائر الكتب الأخرى. ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾: حذف المفعول الأول لـ"ينذر". والتّقدير: لينذركم. بَأْساً: مفعول ثان. والإنذار: بمعنى التّخويف، والبأس: الشّدّة في الألم والقوة في الحرب. مِن لَّدُنْهُ: أي من قبله أو من عنده. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾: كَبُرَتْ: بضم الباء، للدّلالة على الاستفظاع والتّعجيب. وكلمة: منصوبة على التّمييز، والتّقدير: كبرت كلمتهم كلمة. ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِم﴾: جملة الصّفة لـ"كلمة". والأفواه: جمع فم. ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾: أي مهلك نفسك من شدة الحزن على توليهم وإعراضهم. ﴿أَسَفًا﴾: أي المبالغة في الحزن، وهو في موضع الحال أو مفعول لأجله. ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾: الصّعيد: التّراب. والجرز: اليابس الأجرد.

ح)- البيان والتّفسير:

تفتتح السّورة الكريمة بالثّناء والحمد لله على الصّيغة التي اختارها تعالى لتكون شاملة لكلّ أنواع الحمد واحدة في مدلولها على ألسنة الخلق جميعهم، لا

يختلفون في الإدلاء بها مهما تعدّدت ألسنتهم واختلفت مداركهم، ونجد ذلك الترابط المكين بين سورتي الإسراء والكهف بهذه الجملة العظيمة التي تملأ ما بين السّماوات والأرض، إذ ختمت بها الأولى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ (الإسراء:١١١).

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا، قَيِّمًا﴾:

لقد كان إنزال القرآن الكريم على قلب رسول الله ﷺ -كما تقدم- هو النّعمة الكبرى من الخالق لجميع خلقه؛ لأنه يرسم لهم طريق النّجاة للفلاح في الدّنيا والفوز في الآخرة، فأثبت الحمد لذاته العلية بإطلاق لفظ الجلالة موصوفا بالموصول للتّنويه بمضمون الصّلة، وأنه تعالى هو المنزل لهذا القرآن، ووصف الرّسول بالعبودية رفع لقدره إلى الحضرة العلية بأن كان محلّ رعايته باختياره صاحب رسالته. ثم وصف الله القرآن بوصفين متكاملين، فقال تعالى:

أ)- ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا﴾: والعوج أو الاعوجاج هو الانحراف عن الخطّ المستقيم، فهو بكسر العين وفتحها، ويطلق على الحقيقة في الأشياء المادية وعلى المجاز في الأحوال المعنوية. ونفي العوج عن كتاب الله هو لنفي التّناقض والبعد عن التّفاوت والاختلاف: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء:٨٢). فإن القرآن كامل في ذاته مبنى ومعنى مكمّل لغيره: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام:٣٨). وهو الصّراط المستقيم كما وصفه رسول الله. وفي هذا الوصف إبطال لما يقوله المشركون من أنه أساطير الأولين، وأنه من قول البشر. وقد ورد له نفس الوصف في سورة الزّمر فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٢٧-٢٨).

ب)- ﴿قَيِّمًا﴾: فعلى الاحتمالين لمعنى "قيّم"، فإن القرآن يتعهّد الخلق

بالإرشاد إلى الهداية والصّلاح، كما أنه قيّم على كلّ الكتب السّماوية مصدّق وشاهد عليها، والجمع بين الصّفتين هو للتأكيد؛ لأنه رُبّ مستقيم في رؤية العين لا يخلو من اعوجاج عند القياس والتّمحيص.

﴿لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُومِنِينَ الذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً، مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً﴾:

بيان لمهامّ هذا الكتاب العظيم وهو يتمثل في البشارة والنّذارة، فقدمت الثّانية على الأولى؛ لأن المقام يقتضي تهديد المنكرين لإنزال القرآن من عند الله. والمنذِر هو الله تعالى، والمنذَر به هو البأس الشّديد من عند الله خزيا ونكالا في الدّنيا وشقاء أبديا في الآخرة، وقيل: إن البأس الشّديد هو ما سيلحق بالمشركين من القتل والأسر بيد المسلمين وبأمر الله تعالى. ويلاحظ التّعميم في هذا الإنذار إذ حذف المفعول الأول -أي الكفار-، ويدلّ عليه مقابله: ﴿الْمُومِنِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُومِنِينَ الذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً، مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً﴾.

هذه هي العلة الثّانية لإنزال الكتاب، وهي البشارة للمؤمنين الذين يجسّدون إيمانهم بالعمل الصّالح جريا على عادة القرآن -غالبا- في قرن الإيمان بالعمل الصّالح، وقد جاء في الأثر: «**ليس الإيمان بالتّمني، ولكن ما وقر في القلب وصدّقه العمل**».[1] والمبشر به هو قوله: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً، مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً﴾، وذلك الأجر الحسن هو جنة الخلد، ويزيده قدرا ولذة عند المستحقين له أنهم ماكثون فيه أبدا؛ لأن الله عادل في ثوابه يعطي الجزيل من فضله فوق ما يستحقه المرء مقابل عمله، ثم هو جزاء أبدي لا نهاية له ولا انقطاع.

١- تقدم تخريجه، ص ٣٤.

﴿وَيُنذِرَ الذِينَ قَالُواْ اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا، مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لأَبَآئِهِمْ﴾: تكرّر فعل الإنذار في تعليل آخر لإنزال الكتاب مع ذكر المفعول به بصيغة الموصول، ليقابل بذلك ما بشّر به المؤمنون، والمراد بهم هنا هم المشركون الذين يزعمون أنّ لله ولدا. وخصّ بالذّكر هذا النّوع من الإشراك لأنه أعظم الظّلم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان:١٣). ويدلّ على تلك الفظاعة ما يرد في الآية اللاحقة.

وقوله: ﴿مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لأَبَآئِهِمْ﴾ أكّد نفي علمهم بـ"من"، لأنّ القول بغير علم كذب وافتراء لا أساس له في الواقع. والعلم إمّا أن يكون منقولا متوارثا أو يكون مكتسبا، وهم لا سند لهم في مقولتهم تلك من علم لا منهم ولا من آبائهم فبطلت بذلك أقاويلهم.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً﴾: جاء هذا الاستئناف زيادة في استفظاع ذلك القول الشّنيع بصيغة التّضخيم والتّعجيب: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾، وكبرها أنّها تخرج من أفواههم في وقاحة وتحدّ، ولم تبق حبيسة الخواطر، لأنّ الكلمة إذا خرجت من الفم وتلقّفتها الآذان فإنّها تفعل مفعولها في الضّمائر والأذهان، كما قال رسول الله: «**ربّ كلمة لا يأبه بها الإنسان تهوي بصاحبها سبعين خريفا في جهنم**».[1] أو كما قال.

ثم أكد الله ذلك الإنكار بقوله: ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً﴾، لأنّ كلّ كلام لا يكون له في الواقع وجود فهو كذب وافتراء. وجيء بالجملة بصيغة النّكرة في سياق النفي لتدلّ على العموم في كلّ ما يقوله الكفار في حقّ الرّسول والقرآن

١- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب (٣٤) الزهد، باب (١٠) ما جاء من تكلم بالكلمة ليضحك الناس، رقم ٣٣١٤.

والإسلام.

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾: ما أعظم على الدّاعية الملتزم أن يجد إعراضا وصدودا من قومه، وإذ كان الرّسول شديد الحزن بإعراض قومه عنه، جاءت هذه التّسلية الرّبانية له مفرّعة عما سبق بقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾، فـ"لعلّ" مستعملة هنا للاستفهام الإنكاري، يقصد به تحذير الرّسول من الاغتمام والحزن الشّديد لإعراض المشركين عن الإيمان وسماع القرآن.

وفي قوله تعالى: ﴿بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ تمثيل للحالة النّفسية التي يكون عليها رسول الله -أحيانا- كمن يحاول أن يتلف نفسه أسفا وحسرة. وقوله: ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمْ﴾، أي حزنك عليهم أيها الرّسول كحزن من يسافر عنه حبيبه فيبقى في آلام اللّوعة والفراق، وتكرر في القرآن مثل هذه التّسلية لرسول الله فيقول تعالى:

أ)- ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (فاطر:٨).

ب)- ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء:٣).

ج)- ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الحجر:٨٨).

وقد حدد الله مهمة رسوله في البلاغ والتّذكير، وليس عليه بعد ذلك أن يؤمن به النّاس أو لا يؤمنوا.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾:

جاءت هذه الآية مناسبة لسابقتها؛ إذ الكافرون قد اغترّوا بفتنة الدّنيا وزينتها، والله تعالى يختبرهم بذلك، فكانت هذه الآية كالتّعليل لسابقتها، وهي

-أيضا- تتضمن التّعريض بالكفار بأنّ الله تعالى سيسلب عنهم تلك النّعمة إن هم تمادوا في الكفر.

ولقدرة الله ونعمه مجالات مختلفة، والتّمثيل بحال الأرض وتغيّر أحوالها هو أقرب لمدارك المخاطبين وألصق بواقعهم؛ إذ أن زينة الأرض ملازمة لها منذ خلقها الله، والنّاس يتعاورونها جيلا بعد جيل، فمنهم من يعتبر بذلك فيشكر الله ويطيعه، ومنهم من يعرض ويكفر مفتونا بتلك الزّينة، وهي صائرة إلى الذبول والزّوال.

﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً﴾: أي ترابا عاريا من الخضرة والنّبات. فلا داعي إذن -أيها الرّسول- لذلك الحزن الشّديد، فإنّ ما فتن به أولئك الكفّار صائر إلى الفناء والزّوال، بينما ما أنت عليه من الحقّ باق خالد، والله هو الذي يجازيهم على أعمالهم. وسيأتي المثل المفصّل لهذا المعنى في السّورة الكريمة، والله أعلم.

قصّة أهل الكهف

أ)- النص:

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا

مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم
مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن
كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ
مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾
وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم
بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا
﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ
بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ
فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾
إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾
وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ
فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ
ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ
كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ
كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً
ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ
ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى
لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟

تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

ب)- بين يدي القصّة:

لقد وردت تفاصيل القصّة في أخبار العرب بروايات مختلفة لا تخلو من اضطراب وتناقض، إن في أحداثها وأشخاصها أو في أماكنها وأزمانها، ولم أجد في مختلف التّفاسير ما تطمئن إليه النّفس مما يمكن أن أثبته بين يدي هذه القصة العجيبة. وقد قرأت لسيّد قطب -رحمه الله- ما ارتاحت إليه النّفس من اكتفائه في الموضوع بما قصّه القرآن على طريقة أسلوبه الفنّيّ البديع في عرض تلك القصص وتركيزه على ما فيه العبرة منها دون التّعرّض إلى الجانب التّاريخي بذكر الأشخاص والأماكن...إلخ.

يقول سيّد قطب: "وفي القصة روايات شتّى وأقاويل كثيرة، فقد وردت في بعض الكتب القديمة وفي الأساطير بصور شتى، ونحن نقف فيها عند حدّ ما جاء في القرآن، فهو المصدر الوحيد المستيقن. وتطرح سائر الرّوايات والأساطير التي اندسّت في التّفاسير بلا سند صحيح، وبخاصّة أن القرآن الكريم قد نهى عن استفتاء غير القرآن فيها، وعن المراء فيها والجدل رجمًا بالغيب".[1]

قلت: لقد تقدّم بيان سبب نزول القصّة مع غيرها من الأجوبة للأسئلة الثّلاثة المطروحة من قِبل يهود المدينة لكفار قريش. فكانت الإجابة الإلهية على تلك الأسئلة دامغة لهم وحجّة عليهم لصدق رسول الله.

ولم تكن هذه القصة العجيبة إلاّ جزءا ضئيلا من عجائب صنع الله بما جعل

١- سيد قطب، في ظلال القرآن: ١٥/٧٧.

على ظهر هذه الأرض من زينة، فهي تأتي بعد التّمهيد المتقدم في أول السّورة بالثّناء على الله على ما حباه من النّعم لخلقه، وأعظمها إنزال الهداية القرآنية، وما أودع لهم على الأرض من زينة وجمال هي أدعى للعجب والاعتبار من قصة أهل الكهف، إذ قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾. وتتوفّر في القصّة كلّ العناصر الفنية للإبداع القصصي بالتّمهيد الإجمالي لها، ثم ذكر مختلف مشاهدها المختلفة، ثم استخلاص العبرة في نهايتها بما يركّز العقيدة في وحدانية الله.

مشاهد القصّة

فنظرا لتعدّد مشاهد القصّة وطول النّفس في النّصّ الكامل لها كما أثبتناه في أول هذا الدّرس، فإننا سوف نجزّئه حسب مشاهده المختلفة كما فعل سيد قطب في تفسيره ملتزمين بتلك التّجزئة، ولكن على طريقة خطتنا في هذا التّفسير من التّحقيق اللّغوي وبيان أوجه القراءة، ثم البيان والتّفصيل وبالله التّوفيق.

أ)- النصّ:

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ ٱلْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾: "أم": من حروف العطف،

يفيد الإضراب عما قبله والاهتمام بما بعده، ويقدّر معها استفهام تعجبيّ، والكهف: الشّق والفجوة في الجبل يكون متسعا، والرّقيم: بمعنى مفعول من الرّقم أي الكتابة، وربما كانت لوحة حجرية عليها أسماء أهل الكهف. قال تعالى: ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ (المطففين:٩). ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾: "أوَى": يأوي إلى المكان اتخذه مأوى ومكانا له، والاسم منه: المأوى. الفتية: مفرده فتىً، وهو الشّاب المكتمل، وهو من الفتوة، أي: القوة وسداد الرّأي. ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾: الأمر: هو حالهم الذي يكونون عليه، والرّشد: -بفتحتين- إصابة الحق والهداية إلى الطّريق السّويّ. ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾: ضربنا: من ضرب الحجاب على شيء، أي: حجب سمعهم حتى لا يترعجوا بأي صوت يفسد عليهم نومهم، أي أنهم ناموا نوما عميقا. وسنينَ عَدَداً: يدلّ على الكثرة. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾: بَعَثْنَاهُمْ: أي أيقظناهم من نومهم. والحزب: الجماعة التي يجمعها توجّه واحد. فقيل: إنهم فريقان من أهل الكهف أنفسهم. وقيل: إنهم فريقان من أهل بلدهم اختلفوا في مدة مكثهم في الكهف بين مصيب ومخطىء. ﴿أَحْصَىٰ﴾: بمعنى الضّبط لأوقات لبثهم. والأمد: المدة التي لها حدّ وغاية.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد الافتتاحية المباركة للسّورة الكريمة والتي تتضمّن الحمد والثّناء لله تعالى على إنزال القرآن هداية للخلق مستقيمة لا عوج فيها، وبعد بيان بديع صنع الله في ما أودع على الأرض من زينة ليبلو خلقه بها، وأن ذلك إلى فناء وزوال، توجّه الخطاب الإلهي إلى رسوله لغرض الانتقال إلى قصّة أهل الكهف، وهي تتضمّن غرضين:

أ)- بيان صدق رسول الله بإجابته على أحد الأسئلة الثّلاثة المطلوبة من

كفار قريش بإيحاء من يهود المدينة.

ب)- بيان قدرة الله من خلال القصة العجيبة على البعث، إذ هي مثال على ذلك. فقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا، إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.

فمن خلال الخطاب لرسول الله تتجه الإجابة لمن سألوا من قومه ومعهم اليهود الذين هم على علم بأحداث القصّة، وقد عدّ الله هذه القصّة من آياته الكثيرة في الآفاق وفي أنفس الخلق لو أنهم كانوا يتدبروها، فليس العجب مقصورا على أهل الكهف، وفي هذه الآية تمهيد مشوّق لما يليه من قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.

ففي هذه الآية والتي تليها إجمال لأحوال أولئك النّفر المؤمنين، وهم في عزّ شبابهم فرّوا بإيمانهم ودينهم من فتنة الكفر والضّلال فأووا إلى الكهف للخلوة والانزواء، والكهف هو المأوى الطّبيعي الذي لجأ الإنسان إليه من قديم الزّمان فرارا من غوائل الزّمان والوحوش. وكان ذلك مما امتنّ به الله علينا إذ قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ (النحل:٨١). ويظهر من الفتية حسن القصد وشرف الغاية بقولهم: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾، وهذا الدّعاء في مقدمة القصة -وقد بادر به الفتية في مسعاهم إلى الكهف- هو محلّ الاعتبار من جهة، وفيه القدوة لما ينبغي من المؤمن أن يكون عليه من إخلاص التّوجّه إلى الله وطلب رحمته والاستعانة بتوفيقه وألطافه، وأيّ دعاء هو أوفق في مسعى المؤمن من طلب الرّشد في الأمر كله، فهو جامع لخيري الدّنيا والآخرة، إذ لا يكون أمر المؤمن في مسعاه إليهما إلا موافقا للرّشد والصّلاح.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا، ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ

الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾:

فرغ الله على ذلك الدّعاء النّديّ بيان مجال لطفه بأهل الكهف، بأنه ضرب على آذانهم بالنّوم، والضّرب هنا تعبير تصويريّ لحجب الآذان عن سماع الأصوات، وبذلك تتجلّى رحمة الله ولطفه بهم، حتى يجدوا الرّاحة الكافية بذلك النّوم العميق الذي امتدّ لسنين طويلة، والنّوم للحيوان موت مؤقت يخلد فيه للراحة حتى يستعيد نشاطه الحيويّ في ما قدّر الله له من أجل. وحاسّة السّمع لا يستحكم فيها الإنسان كحاسّة البصر، وإن سدّ بإصبعه ثقب أذنه، فلا تتعطّل إلا بالنّوم العميق، وذلك ما متعهم الله به لسنين طويلة، ثم كانت يقظتهم بعدها بقدرة الله، ولو شاء لأنامهم نومة الموت.

وفي التّعبير: ﴿بَعَثْنَاهُمْ﴾ عوض "أيقظناهم" إشارة إلى قدرة الله على البعث الذي ينكره المشركون. وقوله تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ تعليل لذلك البعث، بأن يعلم النّاس المتنازعون في تحديد مدة نوم أهل الكهف، ليعلموا أنهم عاجزون في ذلك حتى يفوّضوا أمر ذلك إلى العليم الخبير. وفي تحديد مفهوم "الحزبين" يرد الاحتمال السّابق في كونهم فريقان من أهل الكهف أنفسهم، أو أنهم من أهل المدينة اختلفت أقوالهم في مدة مكثهم في الكهف، والله أعلم.

المشهد الأول من القصة:

اللجوء إلى الكهف، والحديث المتبادل

أ)- النص:

نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟

مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾: نَقُصُّ: من القصص، وهو سرد الأخبار، وهو من قصّ الأثر بمعنى تتبعه بدقة. والنّبأ: هو الخبر العظيم. ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: الرّبط على الشّيء: هو شدّه بإحكام لحفظ ما فيه، كما تربط القربة حتى لا يسيل ماؤها، أو الدّابة حتى لا تنفلت، والرّبط على القلب هو كناية على تثبيته على الإيمان، والصّبر على ما يلاقيه في سبيل ذلك. قال تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (القصص:١٠). ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾: الشّطط: الإفراط في تجاوز الحدّ المعقول في الشّيء. والمراد هنا: الإفراط في الكفر. ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾: "لولا" للتحضيض. و"عَلَيْهِم": الضّمير يعود إلى الآلهة المدّعاة. والسّلطان: الحجة والبرهان. والبيّن: أي الواضح الدّلالة. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾: الجملة هي من كلام الفتية لبعضهم البعض. والافتراء: الكذب. وهو هنا نسبة الشّريك إلى الله. ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ﴾: الاعتزال: التّباعد عن مخالطة النّاس. ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾: معطوف على الضّمير المنصوب في: ﴿اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾. إلا الله: استثناء منقطع؛ لأن القوم ما كانوا يعبدون الله. ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾: جواب لمعنى الشّرط في "إذ". والإيواء: اللّجوء إلى الملاذ الآمن. ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾: نشر الرّحمة بمعنى توسيعها عليهم لتغمركم جميعا في ضيق الكهف. والمرفق: بفتح

الميم وكسر الفاء، يجمع على مرافق، كلّ ما ينتفع به من مقوّمات الحياة. قرأه كذلك كل من نافع وابن عامر وأبو جعفر. والباقون قرأوه بكسر الميم وفتح الفاء.

ج)- البيان والتّفسير:

يأخذ النّصّ في تفصيل مشاهد القصة، وفي مقدمة تدلّ على أن القصة قد تداولها النّاس بصفة عشوائية لا دقّة في أخبارها، فكان من فضل الله على رسوله أن يكون تبارك وتعالى هو القاصّ عليه بالحق الذي لا خطأ فيه ولا نسيان. فيروي لك الأحداث كما وقعت بدقة؛ لأن أغلب القصّاص يدسّون في ما يروون أخبارا غير واقعية قصد الإغراب والإثارة، والله تعالى يتنزّه عن اللغو والعبث، وقد وصف ما يقصّه في القرآن بالحسن، فقال في سورة يوسف: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانَ﴾ (٣). وقال هنا بأسلوب الاختصاص (أي بتقديم المسند إليه على المسند) قال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾.

واختيار ضمير العظمة "نَحْنُ" ولفظ "النّبأ" هو للاهتمام بما يلحق من تفاصيل القصّة. وفي مقدمة ذلك ما وصف الله به الفتية من ثباتهم على الإيمان والإعلان به في عزيمة وتحدّ فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى، وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾.

الجملة بيان لسابقتها، تضفي على الفتية صفات كريمة، وقد صدّرت بالتّأكيد "إِنَّهُمْ"، وأولى تلك الصّفات أنهم:

أ)- ﴿فِتْيَةٌ﴾: جمع فتىً، أي هم في مرحلة الشّباب، وغالبا ما تكون مظنة الإقبال على الدّنيا وزينتها. بينما هؤلاء كانوا على عكس ذلك مقبلين على الله منشغلين بعبادته، ولا شك أنهم يندرجون في السّبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا

ظل إلا ظله، كما ورد في الحديث النّبويّ، إذ ذكر الرّسول من أولئك السّبعة وقال: «وشابّ نشأ في عبادة الله».[1]

ب)- ﴿ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ﴾: والإيمان أساس الصّلاح والتّقوى، فالإيمان بالرّبّ هي ميزتهم عمن سواهم من قومهم، فهي قضيتهم الأولى التي شغلتهم، وحين يقبل الشّباب على فكرة ما فإنّه يضحّي من أجلها ويوفّر لها بجهده أسباب النّجاح، ولنا في أصحاب رسول الله المثل الحيّ في ذلك لأن أغلبهم كان شبابا.

ج)- ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾: أي أنهم كانوا على نصيب من الهدى عقيدة وسلوكا فزادهم الله وفرة في ذلك الهدى، مما يدلّ على التّفاضل في ذلك بين المؤمنين المهتدين. ويؤيّد ذلك قوله تعالى:

- ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾(محمد:١٧).
- ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ (الفتح:٤).
- ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ (التغابن:١١).

د)- ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: فالقلب هو مستودع المشاعر والأحاسيس، ومعنى الرّبط عليه هو استعارة بمعنى التّثبيت والتّمكين للإيمان في شغافه، فلا شكّ ولا تردّد. وعلى قدر رسوخ الإيمان في القلب تستجيب الجوارح للإذعان والطّاعة، فالله وحده هو المانح لذلك الرّبط. والقلوب بين إصبعين من أصابع الرّحمن كما ورد في الحديث، ويؤيّد ذلك قوله تعالى في شأن أمّ موسى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (القصص:١٠).

١- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب (١٠) الأذان، باب (٣٦) من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، رقم ٦٦٠.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَّقَدْ قُلْنَآ إِذاً شَطَطاً﴾، وكالنّتيجة لذلك الرّبط الإلهي على قلوبهم بالإيمان جاء قيامهم للصدع بالحقّ الذي آمنوا به، إذ أعطاهم الله قوّة العزيمة وألهمهم الصّبر واليقين في مواجهة الباطل الذي عليه قومهم وفي مقدمتهم الملك "دقيانوس"، ذلك الجبّار الذي كان يرغم النّاس على عبادة الأصنام. وقد رجّح الإمام ابن كثير أن قصة أهل الكهف كانت قبل مجيء النّصرانية، أي في العهد الوثني للرّومان، أي قبل عهد قسنطين الذي اعتنق النّصرانية، فالقيام -إذن- مستعار للصّدع بالحق ومواجهة الكفر والظّلم، سواء كان ذلك أمام ملكهم الجبّار، أو أمام قومهم الكفار، ويتمثل الإعلان بذلك الحق في قولهم: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَّقَدْ قُلْنَآ إِذاً شَطَطاً﴾.

إنه الإعلان الحق، بتوحيد الألوهية والرّبوبية في تنزيه الخالق عن الشّريك، وفي نفي الدّعاء لغيره لما في ذلك من الإفراط في الجحود والكفران. والنّفي التّأبيدي بـ"لن" يدلّ على الدّعوة السّائدة في قومهم لعبادة الأصنام، وهم يستنكرون ذلك ويرونه مجافاة للحقّ وبعدا عن الصّواب ولذلك قال بعضهم لبعض: **﴿هَؤُلاَءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً﴾**.

والإشارة للقوم بضمير المتكلمين هي للتّعجيب من حالهم الشّائنة ببقائهم على الكفر دونما الإتيان بدليل واضح على ذلك، فلا أحد أعظم ظلماً ممن يفتري على الله الكذب باتّخاذ الأنداد له. وتذكير الفئة المؤمنة لبعضها البعض بمثل تلك المواقف الشّائنة والتّنديد بها يكون كاللّحمة القوية التي تشدّها وتقوّيها أمام التّحديات والمغريات.

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ فَأْوُواْ إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم

﴿مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾:

وهذه مقولة أخرى لبعضهم البعض على سبيل المشورة والنّصح، وقد وقع الانفصام بينهم وبين قومهم إذ اعتزلوا تلك الفتنة وفرّوا بإيمانهم، فلم يعبدوا غير الله تعالى، فإنّ الكهف هو أوفق مكان لتلك العزلة يوفّر لهم الاطمئنان والدّعة لعبادة الله، فهم لم يفرّوا إلى قصر منيف ولا إلى حديقة فيحاء، بل إلى ضيق الكهف ووحشته، وهم واثقون من رحمة الله التي يجدون فيها الرّحب والسّعة وليونة المرفق.

وتتجلى رحمته تعالى بهم في ذلك النّوم العميق وما فيه من الأحلام التي لا تحدّها حدود الدّنيا الضّيقة. ومن الأحكام الشّرعية من خلال أحداث القصة يذكر الزّحيلي نقلا عن ابن كثير أنه قال: "وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في النّاس أن يفرّ العبد منهم خوفا على دينه، كما جاء في حديث البخاري وأبي داود عن أبي سعيد الخدريّ عن النّبي ﷺ قال: «**يوشك أن يكون خير مال أحدكم غنما يتبع بها شغف الجبال ومواقع القطر يفرّ بدينه من الفتن**».[1] ففي هذه الحال تشرع العزلة عن النّاس، ولا تشرع فيما عداها، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجُمع"[2]

قلت: وفي هذا الصّدد وردت أحاديث أخرى يتنبّأ فيها رسول عما يقع في أمته، كقوله: «**بدأ الدّين غريبا وسيكون غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء**».[3]

ولكن رسول الله لم يكتف في توجيهاته بالمواقف السّلبية أزاء ذلك، بل نجد

١- رواه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري، كتاب (١) الإيمان، باب (١٢) من الدين الفرار من الفتن، رقم ١٩.

٢- وهبة الزحيلي، التفسير المنير: ١٥/٢٢٠.

٣- رواه مسلم من حديث أبي هريرة، كتاب (١) الإيمان، باب (٦٥) بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا، رقم ١٤٦.

إجابته إيجابية في الحديث الذي رواه الإمام عليّ كرم الله وجهه عندما قال له: «**ستكون فتن كقطع اللّيل المظلم**». فسأل الإمام عليّ: وما المخرج منها يا رسول الله؟، فقال: «**كتاب الله: فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم**».[1]

فالمسلم على كل حالة مطالب بالثّبات على الحق والعمل لنصرته مهما أوذي في سبيل الله اقتداء برسول الله وأصحابه الذين قال الله في أمثالهم من الرّبيين: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (آل عمران:١٤٦)، والله أعلم.

المشهد الثّاني: وضعيّتهم في الكهف

أ)- النص:

وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾

ب)- التّحقيق اللّغويّ:

﴿تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾: تَّزَٰوَرُ: أصله: تتزاور، سكنت التّاء الثّانية وأدغمت في الزّاي، وهي مضارع مشتق من الزوْر وهو الميل والانحراف، أي:

١- رواه الترمذي من حديث علي، كتاب (٤٢) فضائل القرآن، باب (١٤) ما جاء في فضل القرآن، رقم ٢٩٠٦.

جعل الله الشّمس تميل عن الكهف جهة اليمين حتى لا يزعجهم ضوؤها. ﴿تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾: تَقْرِضُهُمْ: أي تعدل عنهم وتتصرف. ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾: أي في متسع من الكهف بعيدين عن مدخله، وذلك أرفق لنومهم. ﴿وَتُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾: ذَاتَ: صفة لمحذوف، أي الجهة صاحبة اليمين. والتّعريف في اليمين والشّمال عوض عن المضاف إليه، والتّقدير: يمين الكهف وشماله. ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾: أي كلبهم مادّ ذراعيه في مدخل الكهف. ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾: مُلِئْتَ: مبني للمجهول من ملأ، بتشديد اللاّم، مضاعف ملأ، استعارة لتمكّن الخوف الشّديد من النّفس. ورُعْبًا: منصوب على التمييز.

ج)- أوجه القراءة:

﴿تَّزَاوَرُ﴾: قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح التّاء وتشديد الزّاي بعدها ألف وفتح الواو، وأصله: تتزاور، بتاءين أدغمت تاء الفاعل في الزّاي تخفيفا. وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف الزّاي، على حذف إحدى التّاءين وهي تاء المضارعة للتّخفيف اجتزاء برفع الفعل الدّال على المضارعة. وقرأه ابن عامر ويعقوب ﴿تَزْوَرُّ﴾ بفتح التّاء بعدها زاي ساكنة وبفتح الواو وتشديد الرّاء. وكلها أبنية مشتقة من الزّور، وهو الميل عن المكان. وفعل المضارعة فيه يدلّ على تكرار ذلك كل يوم. ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾: قرأ نافع وابن كثير ﴿وَلَمُلِئْتَ﴾ بتشديد اللاّم، وقرأ الباقون بتخفيف اللاّم على الأصل، وقرأ الجمهور "رُعْبًا" بسكون العين، وقرأه ابن عامر والكسائي وأبو جعفر ويعقوب بضمّ العين.

د)- البيان والتّفسير:

بعد لجوء الفتية إلى الكهف عملا بنصيحة أحدهم وهم يرجون رحمة ربهم

وما يهيّئه لهم من التيسير في أمرهم، ينتقل النصّ في هذا المشهد ليصوّر عناية الله بهم بعد استقرارهم في الكهف، وكيف استجاب دعوتهم في توفير أسباب الرّاحة والهدوء لهم فقال جلّ من قائل: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾.

الخطاب لغير معيّن، أي لكلّ مخاطب يصلح له. ولشروق الشّمس وغروبها نظام طبيعي قارّ في انعكاس أشعتها على وجه الأرض مع امتداد الظّل في سيرها من المشرق إلى المغرب.

وعندما اقتضت رحمة الله أن ينام الفتية نوما طويلا، جعل الشّمس تميل عن الكهف فلا تتسرّب أشعتها إلى داخله؛ لأن من وسائل النّوم الهادئ أن يكون المكان مظلما، سخّر الله ذلك لهم مع كونهم في متّسع من الكهف يتعرّض لأشعّة الشّمس.

﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾: الإشارة إلى ما ذكر من عناية الله بالفتية، أي أن الأفعال -وإن أسندت إلى الشّمس: طلعت، غربت، تزّاور- فإنّ يد الله الحانية وقدرته من وراء ذلك تدبّر وتصرّف، فإذا الشّمس طيّعة لما يريده الله لطفا بأولئك الرّقود المؤمنين المهتدين.

واقتضى ذكر هذه المعجزة أن تترتب عليها قضية الهداية والضّلال التي شغلت بال العلماء قديما وحديثا، فقال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾.

فأصحاب الكهف تشملهم هذه القاعدة، إذ هم داخلون في "مَنْ" الشّرطية. وإذ هم من الصّنف المهتدي فهم جديرون بالمدح والثّناء، فقد سلكوا سبيل الرّشد فهداهم الله إليه، وأمّا غيرهم ممن اختاروا الضّلال والكفر، فهم وما اختاروه لأنفسهم لا يجدون لهم وليّا مرشدا، وقد بسطنا القول في ما تقدم من التّفسير في

قضية الجبر والاختيار فليرجع إليه.

ولم تقتصر عناية الله بأهل الكهف على حجب ضوء الشّمس عنهم. فهناك حصول "قرحة الفراش" إن طال بهم النّوم على وضعية واحدة كما يحدث للمريض على أسرة المرض، فكيف وقاهم الله من ذلك؟، فلنستمع إليه تعالى يقول: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾.

وتلك منّة أخرى من الله لهم، بأن أبقى هيئتهم لمن يراها من النّاس على صورة من كان يقظا. قيل: بانفتاح أعينهم حتى لا يدركها البلى، ثم هو يقلبون في مرقدهم، وغالبا ما يستيقظ المتقلب في فراشه للحظات ثم يعاوده النّوم، فانفتاح أعينهم وتقلّبهم ذات اليمين وذات الشّمال تجعل الرّائي يظنهم على يقظة، ولو لم يتقلبوا لأكلتهم الأرض كما قال ابن عباس.

وإسناد فعل التّقليب إلى الله ثم مجيئه على صيغة المضارع يدلّ على أن تلك الوضعية هي من تدبير الله وأنها تتكرر طيلة نومهم، بينما بقي كلبهم على هيئة واحدة أمام الكهف على وضعية الحراسة.

وحتى لا يفاجئهم النّاس في رقدتهم ألقى الله عليهم المهابة والخوف، بحيث لو رءاهم أحد على تلك الهيئة لامتلكه الرّعب ففرّ مدبرا.

ويبدو من خلال التّعبير أن ذلك كان بتدبير الله العليّ القدير -أيضا- إذ لم يذكر النصّ أن هيئتهم كانت مخيفة بكثافة شعورهم مثلا أو طول أظافرهم، بل هي عناية الله كانت ترافقهم حتى يبلغ الكتاب أجله، فيستيقظون من ذلك الرّقاد الطّويل ليكونوا آية لمن بعدهم، والله أعلم.

المشهد الثالث: العبرة لأهل الكهف بأنفسهم، وطلبهم للطعام

أ)- النص:

وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ۖ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾: الإشارة إلى نومتهم الطّويلة كيف أيقظهم الله منها. ﴿بَعَثْنَاهُمْ﴾: أي أيقظناهم من نومهم الطّويل الذي يشبه الموت. ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾: تعليل لذلك البعث الخاصّ بهم، وهي أن يسأل بعضهم بعضا عن مدّة لبثهم في الكهف. ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾: كانت هذه الإجابة من بعضهم على أساس النّوم العادي. وقيل: إنهم قالوا: أو بعض يوم؛ لأنهم استيقظوا ولمّا تغرب الشّمس. ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾: الورق: الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة. و"هَٰذِهِۦٓ": إشارة إلى دراهم قديمة كانت عندهم. والمدينة هي "أفسوس"، وتسمّى اليوم "طرسوس". ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾: الطّعام الأزكى هو الأطيب والأحسن، أي من الطّعام الحلال. وانتصب "طَعَامًا" على التمييز. ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾: أي يتكلف اللّياقة في المعاملة باللّطف واللّين حتى لا يغبن ولا ينكشف أمره، والأمر في "لينظر" و"ليتلطف" هو لأحد منهم غير معيّن. ﴿إِنْ

يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ﴾: إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ: يطلعون عليكم، ويطلق الظهور على الغلبة، ومنه قوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ (التوبة:٨). والرّجم: أي يقتلوكم بالرّجم، وهو أخبث أنواع القتل. أو يعيدكم في ملتهم: أي يرجعوكم إلى دينهم الباطل من عبادة الأوثان، والأفعال الثّلاثة مجزومة بـ"إن" الشّرطية وجوابها.

ج)- أوجه القراءة:

﴿بِوَرِقِكُمْ﴾: الورِق: بفتح الواو وكسر الرّاء، كذلك قرأه الجمهور. وقرأه أبو عمرو وحمزة وأبو بكر عن عاصم وروح عن يعقوب وخلف قرأوه: ﴿وَرْقِكُمْ﴾ بفتح الواو وسكون الرّاء. وكانت تلك الدّراهم من فضة مضروبة باسم سلطان الرّوم "دقيوس" الجبار.

د)- البيان والتّفسير:

تجلّت قدرة وعظم لطف الله تعالى بالفتية في تلك الوضعية التي ناموا عليها في الكهف ليكونوا محلّ عبرة لأنفسهم ولغيرهم.

فبعد ذلك النّوم الطّويل في كنف الله وحفظه، كانت لهم تلك اليقظة المثيرة العجيبة، والتي كانت مدعاة للتّساؤل بينهم، وهم في حيرة من أمر نومهم أكان نوما عاديا لا يتجاوز يوما أو بعض يوم، أم هو طويل المدى؟، ولكن لا يبدو على أشخاصهم ما يدلّ على ذلك. وهنا -أيضا- تتجلّى قدرة الله وتدبيره الحكيم ليدركوا هم ذلك من أنفسهم فيزدادوا اطمئنانا بما هم عليه من الهدى، ويعلم النّاس من خلالهم عجيب قدرة الله في تصريف شؤون خلقه، فقال تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى۟ ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ**

أَزْكَىٰ طَعَاماً فَلْيَاتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً﴾.

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾: الإشارة إلى ما تقدم من الألطاف الإلهية في كيفية إنامتهم ووضعيتهم في الكهف، فإنّ تلك الألطاف تتشابه في عجيب صنع الله وقدرته، إذ أفاقهم بعد تلك النّومة الطّويلة. وبما أن النّائم لا يمكن أن يقدر مدة نومه، فإن الفتية أخذ يسائل بعضهم بعضا في حيرة أكان نومهم قصيرا أم طويلا؟. فكانت إجابة بعضهم وفق المألوف من النّوم ليوم كامل أو جزء منه؛ لأن طول النّوم لم يترك أثرا على أشخاصهم ولا على مداركهم، وذلك -أيضا- من لطف الله بهم. أو لم يقل الله عنهم: ﴿وَتَحْسِبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ﴾ (الكهف:١٨).

و لم يجد الفتية طائلا في ذلك التّساؤل ففوّضوا فيه أمرهم إلى الله، شأن المؤمن الوفيّ، ولكنهم إذ أحسّوا بالجوع فلا بدّ من السّعي لجلب الطّعام مدفوعين بغريزتهم الفطرية. فليقم أحدهم بذلك المسعى مزودًا بالنّقود القديمة التي حفظوها معهم، وقد عرضها أحدهم بدليل لفظ الإشارة "هَذِهِ"، ليذهب بها مبعوثهم إلى المدينة. ويلاحظ هنا أن تهيئة الأسباب والأخذ بها لا ينافي التّوكّل على الله، وقد تقدمت قصة أهل اليمن في عدم أخذهم للزّاد على طريق الحجّ فأنزل الله في شأنهم: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ (البقرة:١٩٧).

كما أن الفتية لم يطلبوا مجرّد الطّعام من أي نوع كان، بل طلبوا الزّكيّ منه، أي البعيد عن الحرام والطّيب المذاق: ﴿فَلْيَاتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً﴾. فما أبلغ هذه الوصية من قوم هربوا بدينهم من الفتنة، فهم يعتقدون أن قومهم ما يزالون على الكفر، فلا بدّ -إذن- من الحذر، فليكن الجالب للطّعام من المدينة مترفّقا لطيفا في معاملته للناس حتى لا يعلم أحد بوجودهم ومكانهم.

ثم علّلوا وصيتهم بقولهم: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُواْ إِذاً أَبَداً﴾.

هم في موقف الثّبات على الإيمان، فلا بدّ من الحذر والاحتياط؛ لأن الكفار إذا علموا بمكانهم فسيصبحون أمامهم بين أمرين:

أ)- القتل بالرجم حتى الموت، وهو أشنع القتل، ينفذ على من زاغ عن دينه في معتقد الجمهور.

ب)- وإما الارتداد إلى دين الباطل، وهو أشنع ما يبتلى به المؤمن في أوقات الفتنة، وفي ذلك الخسران المبين.

فاللّهم لا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدّنيا أكبر همّنا ولا مبلغ علمنـــا، والله أعلم.

المشهد الرّابع مع خاتمة القصة:

العثور عليهم، واختلاف النّاس في عددهم،

ثم استخلاص العبرة من القصة

أ)- النص:

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ

ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾: أعثرنا: من العثور والعثار، وهو السقوط على الوجه. وأعثر عليه: بمعنى أطلعه على أمر من غير طلب له. ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾: الجملة تعليل لسابقتها، ووَعْدَ الله: هو إحياء الموتى للبعث. والسَّاعَة: هي يوم القيامة. ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾: التنازع: التخاصم في جدال قويّ. ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا﴾: بمعنى أنهم يسدّون عليهم باب الكهف حفاظا على جثتهم من أيدي العابثين. ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾: هم ولاة الأمور في المدينة. ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾: الرّجم: هو الرّمي بالحجارة، واستعير لرمي الكلام جزافا من غير تثبت. والباء في "بِالْغَيْبِ" للتعدية. ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾: فلا تمار: من التماري، وهو الشّك، أي المحاجة والمجادلة في ما فيه شكّ وتردّد، والمراء الظّاهر: أي السّطحي الذي لا تعمق فيه. ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾: الاستفتاء: طلب الفتوى من العليم بالخبر، والضّمير في "مِنْهُم" عائد إلى المشركين. ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾: الضّمير يرجع إلى الله. وأسمع وأبصر: صيغتا تعجّب، أي: ما أسمعه وما أبصره. ﴿وَلِيٍّ﴾: هو النّاصر.

ج)- أوجه القراءة:

﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ﴾: بالتّنوين، وانتصب ﴿سِنِينَ﴾ على البدلية من اسم العدد

على رأي من يمنع مجيء تمييز المائة منصوبا أو هو تمييز عند من يجيز ذلك. وقرأه حمزة والكسائي وخلف بإضافة "مائة" إلى "سنين" على أنه تمييز للمائة، وجاء تمييز "مائة" جمعا ﴿سِنِينَ﴾. وهو نادر لكنه فصيح. ﴿وَلاَ يُشْرِكُ﴾: قرأه الجمهور برفع "يُشْرِكُ" وياء الغيبة، والضّمير عائد إلى لفظ الجلالة في قوله: ﴿قُلِ اللهُ أَعْلَمُ﴾ (الكهف:٢٦). وقرأه ابن عامر بتاء الخطاب، وجزم "تُشْرِكْ" على أن "لاَ" ناهية. والخطاب لرسول الله، والمراد به أمته، أو هو لكلّ من يصلح له.

د)- البيان والتّفسير:

تنتهي القصة في هذا المشهد الأخير الذي هو موضع العبرة للناس كافة لمن وجد في ذلك الزّمان، ولمن يأتي بعدهم، ومحلّ العبرة هو أنه تعالى أقام الدّليل على قيام السّاعة، وعلى البعث بعد الموت، وذلك بمشاهدة ما حدث لأهل الكهف من بعثهم بعد ذلك النّوم الطّويل. قال تعالى: **﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُواْ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لاَ رَيْبَ فِيهَا﴾**.

الجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾، ولكاف التّشبيه واسم الإشارة ﴿وَكَذَلِكَ﴾ معنى سابقه، ويلاحظ هنا طيّ لما حدث بعد إرسال السّاعي لجلب الطّعام من المدينة. ويفهم من السّياق أن أهلها أصبحوا منشغلين بأمر الفتية. وحكى ابن جرير أن أهل المدينة كانوا على فريقين: مسلمين وأهل شرك. وهؤلاء كانوا على شك من أمر القيامة والبعث. كما يفهم من السّياق أنّ الله قد توفّى الفتية بعد أن عرفوا من خلال صاحبهم أنّ أحوال المدينة قد تبدّلت وأنّ النّاس أصبحوا يتنازعون في شأنهم. والعبرة في أمر الفتية هي الدّلالة على البعث بواقع قريب محسوس، فيستيقن المؤمنون ويزدادون إيمانا، ويطمئن الشّاكون بأن السّاعة لا ريب فيها ويعلموا أن وعد الله حق.

﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ابْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَاناً رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الذِينَ غَلَبُواْ عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً﴾:

لقد آل أمر الفتية إلى ذكرى تاريخية تنازع قومهم في تخليدها، فرأى البعض أن يبني على كهفهم بنيانا مطلقا للمحافظة على رفاتهم، بينما رأى أصحاب النفوذ والسلطة فيهم أن يتخذ لهم معبد يكون مزارا على طريقة اليهود والنصارى، ويكون موضعا للسجود والعبادة. وجملة: ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ فيها احتمالان:

أ)- أن تكون من جملة كلام المتنازعين، لإنهاء موضوع التنازع.

ب)- أن تكون من كلام الله معترضة خلال حديث التنازع، لحسم الأمر بأن حقيقة أمرهم هي في علم الله.

واتخاذ المساجد على القبور مما نهى عنه الإسلام أشدّ النهي لأنه ذريعة لتقديس غير الله، وكان ذلك سنة لأهل النصرانية، غير أن كثيرا من المسلمين قلّدوهم في ذلك، وقد روي عن رسول الله قال: «**لعن الله الذين يتخذون المساجد على القبور**».[1]

ثم يعرض السياق ما يقع فيه الناس من فضول لمعرفة تفاصيل الأخبار، وما يشيع حولها من الإضافات والأقاويل. فقال جلّ من قائل: ﴿**سَيَقُولُونَ ثَلاَثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّيَ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ، فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَآءً ظَاهِراً وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَداً**﴾.

الضمير في ﴿سَيَقُولُونَ﴾ عائد إلى غير مذكور، ليكون أشمل لكل من خاض

١- رواه البخاري من حديث عائشة وابن عباس، كتاب (٨) الصلاة، باب (٥٥)، رقم ٤٣٦.

في هذه القضية عند وقوعها حتى زمن التّنزيل، فهو جدل لا طائل تحته، ولذلك أبهم القرآن القول فيه، وأوكل العلم إلى الله تربية للأمة الإسلامية أن لا تنشغل بما لا فائدة فيه، كما فرّع الله النّهي لرسوله عن المراء والاستفتاء في هذه القضية، وعلّق على الذين يذكرون عدّة الفتية بأنه رجم بالغيب، فحقيقة عددهم لا يعلمها إلا الله، والعلماء القليلون ممن يتثبّتون الأخبار من مصادرها الصّحيحة. فالعبرة ليست في معرفة تلك التّفاصيل، بل في استخلاص ما في القصة من الحكم والمواعظ لتزكية النّفوس وتثبيت الإيمان.

﴿فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَآءً ظَاهِراً وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَداً﴾: فرّع الله النّهي لرسوله عن المراء في معرفة عدد أهل الكهف، مما يدلّ على أن المشركين كانوا يخوضون في هذه القضية، كما ثبت أن وفد نجران لرسول الله قد سألوا عنها، فما عليه إلاّ أن يجادل فيها جدلا سهلا ليّنا، مما لا يثير حفيظة أحد، بحيث يقتصر الرّسول على ما ورد في القرآن الكريم من أخبار القصّة، دون تكذيب لأولئك المجادلين في تفاصيلها، أو استفتاء أحدهم عنها؛ لأنهم لا يعلمون عنها إلا تخرّصًا وتخمينًا. فقد أبهم الله تلك التّفاصيل لتتحقّق العبرة المرجوّة من تلك القصة فإنّ شرّ ما يبتلى به مجتمع من النّاس الوقوع في المراء والجدال وقد ورد في الأثر: "إذا أراد الله بقوم شرًا سلّط عليهم الجدل ومنعهم العمل".

وعن غيب المستقبل يقول تبارك وتعالى: **﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً، إِلاَّ أَنْ يَشَآءَ اللهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً﴾**.

مناسبة هذا الإرشاد الإلهي لرسوله هو ما تقدم في أول السّورة من سؤال المشركين عن الأمور الثّلاثة وقول الرّسول: «سأجيبكم غدا» ولم يقل: "إن شاء الله"، فلم يأته الوحي إلا بعد خمسة عشر يوما.

والآيتان معترضتان أثناء القصة لما تضمنتاه من الإرشاد الحكيم لما يجب على المؤمن من تفويض الأمور كلها إلى الله، فبعد الإجابة على الأسئلة المطروحة إثباتا لصدق رسول الله في نبوءته، يأتي هذا الإرشاد اللّطيف تذكيرا له في ما غفل عنه من التّقيّد بمشيئة الله في كلّ ما يَعِدُ به، وهو القدوة الصّالحة لأمته.

فما من حركة ولا سكنة في هذا الوجود ولا في حياة خلقه إلا وهي من تدبير الله ومشيئته، وليس معنى ذلك أن يبقى الإنسان مكتوف الأيدي لا يسعى ولا يتخذ الأسباب، كما يغالط كثير من النّاس في معنى التّوكّل على الله، ولكن قوله: إن شاء الله، في كل سعي يدبّره، أو أمر ينوي القيام به، هو استعانة بالله وتفويض الأمر إليه، وبذلك يكون المؤمن متوازنا في مجابهة واقعه، فلا ينتفش ولا يبطر إذا كتب له النّجاح، ولا ييأس ولا يقنط إذا أصابه الفشل.

وفي حالة الغفلة والنّسيان لقولك: "إن شاء الله" في البدء، فتدارك ذلك بذكر ربّك راجيا منه تعالى أن يوفقك ويهديك إلى ما هو أقرب إلى الصّواب والرّشد، وأن يلازمك ذكر الله في كل أعمالك. وقد استجاب الله دعاء رسوله، فأعطاه ما هو أعظم منفعة، وأوسع هدى من تلك القصة، بما فيه الخير لأمته من أحكام شريعته.

﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُواْ تِسْعًا﴾: وهذه لقطة تفصيلية لما أجمله الله تعالى في أول القصة بقوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ (الكهف:١١). فهو تحديد لمدة لبثهم في الكهف، وفيه احتمالان:

أ)- أن يكون ذلك التّحديد إخبارا من الله تعالى عن مدة لبثهم بتقدير السنين القمرية على ما يقوم عليه تاريخ العرب والإسلام. وعلى هذا الاحتمال يكون قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ حسما لكل خلاف يقع في تحديد مدة لبثهم.

60-56 الثناء على المقرّبين، وإنذار المشركين..... 85
65-61 قصّة آدم مع إبليس، بدافع الكبر والحسد 92
70-66 رعاية الله لبني آدم، وتكريمه إياهم 97
77-71 تفاوت أحوال الناس في الآخرة، ومحاولة المشركين فتنة النّبيّ، وطرده من مكة..... 103
84-78 التوجيه الإلهي لرسوله بالإقبال على الطاعة، والإعلان عن إزهاق الحق للباطل..... 109
85 حقيقة الروح لا يعلمها إلا الله تعالى..... 117
93-86 إعجاز القرآن، وطلب المشركين بمعجزات أخرى..... 120
100-94 من شبهات المشركين استبعاد أن يكون الرّسل بشرا، وإنكار البعث..... 128
104-101 الآيات التسع لموسى التي لم يهتد بها فرعون 135
111-105 التنويه بشأن القرآن، ودعاء الله بالأسماء الحسنى..... 141

تفسير سورة الكهف

- بين يدي السورة..... 149
08-01 بيان صيغة الثناء على الله، وبيان مهام القرآن 152
26-09 قصة أهل الكهف..... 158
12-09 مشاهد القصة 161
16-13 المشهد الأول من القصة: اللجوء إلى الكهف، والحديث المتبادل..... 164

إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾: جواب لطلب المشركين: ﴿ايتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ (يونس:١٥). والتّبديل هو التّغيير بالزّيادة والنّقص. والكلمات: هي ما ورد في القرآن من الأحكام ومن الوعد والوعيد والقصص والأمثال. ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾: الملتحد: اسم مكان ميميّ، أي مكان الالتحاد، وهو بمعنى الملجأ. ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ﴾: وَاصْبِرْ نَفْسَكَ: أي أحبسها معهم وألزمهم. و﴿الذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾: هم فقراء الصّحابة. والغداة والعشي: هما طرفا النّهار. ﴿وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾: لا تصرف عيناك عنهم إلى غيرهم من أبناء الدّنيا. ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾: الفُرُط: بضمتين، تجاوز الحدّ في الظّلم والاعتداء. ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾: أَعْتَدْنَا: بمعنى: هيأنا وأعددنا. والظّالمين: بمعنى الكافرين. والتّنوين في "نَارًا" للتضخيم والتّهويل. ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾: السّرادق: لفظ معرّب من الفارسية بمعنى الفسطاط، أي الخيمة، أي النّار تحيط بهم من كل جانب ومكان. ﴿يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ﴾: الاستغاثة: طلب الإغاثة، أي الإنقاذ من شدة أو هول. والمُهل: بضمّ الميم، هو عكر الزّيت أو ذوب

على تخطي الأسباب، ليستجيب لعبده ويفتح له مغاليق الأبواب؟.

فقال زكرياء في دعائه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّاً، وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَآئِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً، يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾.

إنه يطلب الولد، ويعلم أن ذلك له قانونه وأسبابه في وتيرة الحياة، ولكنه شديد الثّقة بربّه بأنه كريم العطاء، وهو لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السّماء، وهو عليم بذات الصّدور، فمهّد بذكر حالته الصّحية ووضعيته الزّوجية. وجاء نداؤه بصفة الرّبوبية: ﴿رَبِّ﴾؛ لأنها أدعى للرّحمة والحنان، فقال -وبدون "يا"- ليدل على القرب:

أ)- ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً﴾: والهيكل العظمي في ذات الإنسان هو قوام جسمه. ووهن العظم يستتبع وهن الجسم كله؛ لأنه هو المادة الصّلبة التي يقوم عليها بناء الجسم، فإذا ما أصابه الوهن فغيره من اللّحم والعصب والدّم من باب أولى.

ب)- ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً﴾: والشّيب هو العلامة الظّاهرية لوهن الجسم. وعلى قدر ذلك الوهن يقوى الشّيب حتى يعمّ كل أطراف الجسد، فهو كالنار التي تلتهم كومة الحطب.

ج)- ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّاً﴾: لم أكن -أي في الزّمان الماضي- لم أكن إلا مستجاب الدّعاء سعيدا بتلك المنة. فلا تخيّب دعائي الحاضر في طلب الولد؛ لأنني ما طلبته لأجل الدّنيا.

ويحتمل أن تكون الباء في قوله: ﴿بِدُعَآئِكَ﴾ تكون للسببية. فيكون المعنى:

أحد أن يبدّل أو يغيّر من كلماته، ولأنّ منزّله لا يقبل الشّريك.

كان هذا التّوجيه الإلهي لرسوله ردّا على أولئك المتطعين الذين يكرهون سماع القرآن، وكان تقوية ومساندة للرسول حتى لا يضعف أمام تحدّيهم، فإن الله ناصره، ولا ملجأ له من دونه، فليتل عليهم كلّ ما يوحى إليه دونما مواربة ولا تردّد، وعلى وجه المداومة والاستمرار.

وكان سادة المشركين قد اقترحوا على الرّسول أن يطرد من حوله فقراء الصّحابة من أمثال صهيب وبلال وعمّار وغيرهم من "أهل الصُّفّة"، لأنهم لا يدانون السّادة في مقامهم وعلوّ شأنهم، فإن فعل الرّسول ذلك فإنهم سيجلسون إليه لاستماع القرآن. فأصبح الرّسول بذلك في موقف يتطلب الحنكة والجراءة في اتّخاذ القرار، وهو يتطلع إلى إسلام القوم؛ لأنهم قالوا: نحن سادات مضر وأشرافها، فإن أسلمنا أسلم النّاس، وما يمنعنا من اتّباعك إلاّ هؤلاء، فنحّهم حتى نتبعك، أو اجعل لهم مجلسا، ولنا مجلسا. فنزل قوله تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾.

تؤكد التّوجيهات الإلهية لرسوله على القيم الرفيعة للعقيدة الصّحيحة، وهي لا تقاس بالموازين الجاهلية التي درج عليها القوم من المال والجاه والأولاد والأتباع، فكلها أعراض زائلة، كما مثل الله لها في الآيات اللاحقة. وها هي تلك القيم الرّفيعة يقيمها المولى تبارك وتعالى في أشخاص أولئك الأصحاب الأبرار، ويأمر رسوله بملازمتهم وحبس نفسه معهم، وقد وصفهم الله بما هم جديرون به من أوصاف التّقى والصّلاح فقال:

أ)- ﴿**يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ**﴾: أي يذكرون الله ويحمدونه في كل الأوقات في إجلال وتعظيم.

ب)- ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾: أي أنهم نفضوا أيديهم من الدّنيا وزينتها، مقبلين على الله مبتغين لمرضاته.

ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (٥٢).

وكان لسيّدنا نوح عليه السلام نظير هذا الموقف أزاء سخرية قومه عندما قالوا له: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ (هود:٢٧). فكانت إجابته الحاسمة: ﴿وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّهُم مُّلَاقُواْ رَبِّهِمْ﴾ (هود:٢٩).

ثم أكد الله أمره لنبيه بهذا النهي فقال: ﴿وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾.

لمّا كانت نظرة العين إلى شيء ما تجرّ -أحيانا- إلى التّعلّق به، سيما إذا استتبعت النّظرة النّظرة، وقد صرف الرّسول نظر الإمام عليّ كرم الله وجهه إلى تلك الفتاة وقال له: «الأولى لك والثّانية عليك». ولذلك نهى الله رسوله أن يصرف نظره عن أولئك الذين انقطعوا عن زينة الدّنيا ومغرياتها.

وقوله تعالى: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ حال من كاف الخطاب في قوله: ﴿عَيْنَاكَ﴾، أي لا يكون إعراضك عنهم بسبب زينة الدّنيا، كما يفعل الغافلون عن ذكر الله، ولذلك أكّد الله النّهي الأول بقوله: ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾. ولمتاع الدّنيا سحر في نفوس عاشقيها، إذ تستمكن من أحدهم الشّهوات والرّغبات حتى يصبح عبدا لها، فأنّى له أن يذكر الله، وأنّى له أن تحدّه حدوده.

وبذلك يرسم الله للرّسول والمؤمنين قاعدة التّعامل مع المشركين ومن على شاكلتهم من عبيد الدّنيا وعبّاد الشّهوات، فلا سبيل إلى الاستجابة لما يطلبونه من

المساومة والمداهنة، بل هي المفاصلة والمصارحة في طبيعة الدّعوة إذ قال: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُومِنْ وَّمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

هذا إعلان آخر يتّسم بجرّ المعاند إلى الاعتراف، فالقرآن هو الحقّ المنزل من الرّب تعالى، إذ المخاطبون يقرّون بالرّبوبية لله بأنّه الخالق الرّازق، فهو ربّ جميع الخلائق، والحق هو الأمر الثّابت الذي لا يتغيّر، وهو المنزّل من عند الله لتبليغه للناس، فيجب عليهم اتّباعه لأنّ فيه مصلحتهم، ولكن لا إكراه لهم في ذلك، فالإيمان أو الكفر به موكول إلى اختياركم؛ لأنّ الله تعالى غنّي عن العالمين، فالنّفع أو الضّرر في ذلك يعود على الإنسان نفسه. قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ اَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (فصلت:٤٦).

ويلاحظ أن الأمر في قوله تعالى: "فَلْيُومِنْ"، "فَلْيَكْفُرْ" ليس هو على حقيقته، بل هو لمعنى التّسوية؛ لأن الله لا يأمر بالكفر، وقدّم الأمر بالإيمان لأنه هو المطلوب.

ولما كان الكفر غير مرغوب فيه أعقبه الله بالتّهديد فقال: ﴿اِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً اَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَاِنْ يَّسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِيسَ الشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقاً﴾.

جاء التّهديد بتضخيم العقاب على الكفر -وهو أعظم الظّلم- فأضفى الله تعالى على النّار أوصافا مهولة من شأنها أن تردع العصاة وتبعدهم عن العناد والتّحدّي فقال تعالى:

أ)- ﴿اَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾: فاستعير السّرادق لمعنى الإحاطة والحجز، فلا يجدون متنفّسا ولا مخرجا.

ب)- ﴿وَاِنْ يَّسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِيسَ الشَّرَابُ

﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾، وتكون الإستغاثة لطلب الغوث والإنقاذ من ألم أو هول.

وقوله تعالى: ﴿يُغَاثُواْ﴾ هو للتهكّم؛ لأن الإغاثة تكون بما يخفف ذلك الألم، ولكن المغاث به هو ﴿الْمُهْلِ﴾، وهو بمعنى دردي الزّيت المغلّى، سواد في اللّون وشدّة في الحرارة، فهو -إذن- يشوي الوجوه قبل أن يجرجر إلى البطن. وقد أخرج أحمد والترمذي عن أبي سعيد الخدريّ ﷺ أن النّبي ﷺ قال: «**المُهل كعَكَر الزّيت، فإذا قرّبه إلى وجهه سقطت فروة وجهه فيه**».[1] فناسب أن يكون لذلك هذا التّذييل الذي يدلّ على الذّمّ والتّشنيع.

﴿بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾: ويا له من مرتفق يزيدهم عذابا وألما، جيء به على سبيل التّهكّم والتبكيت. أعاذنا الله من النّار وما يقرب إليها من قول وعمل ونية واعتقاد، آمين.

وفي مقابل عذاب النّار للكافرين يذكر الله وعده للمؤمنين الصّالحين ويقول: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً، أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَآئِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا**﴾.

كثيرا ما يرد الإيمان مقرونا بالعمل الصّالح في كثير من آيات القرآن، ذلك لأنّ الفائدة من الإيمان هو أن يتجسّد في سلوك المؤمن اتّباعا لمنهج الله في ما أمر به أو نهى عنه، وذلك يقتضي أن يتحمّل المؤمن تبعات الإيمان صبرا ومجاهدة وعملا دؤوبا. ويلاحظ أن الحكم عامّ في الجملة المعترضة ﴿إنا لا نضيع أجرّ من أحسن

١- رواه الترمذي من حديث أبي سعيد، كتاب (٣٧) صفة جهنم، باب (٤) ما جاء في صفة شراب أهل النار، رقم ٢٥٨١.

عملاً﴾، فكلّ من أحسن عمله فإن الله لا يضيع أجره، أي للمؤمن والكافر. غير أن نوعية الأجر تختلف بينهما، إذ ليس للكافر إلاّ الأجر العاجل في الدّنيا؛ لأن عمله -وإن كان ظاهره خيرا وصلاحا- فهو لا يثمر في الآخرة نجاة وفلاحا، فقد شبّهه الله تعالى بالسّراب والرّماد والهباء. وأمّا أجر المؤمنين فهو مضاعف في الدّنيا والآخرة؛ لأن عملهم متوجّه إلى الله الذي آمنوا به، فهم يجزون به عزّا وتمكينا في الدّنيا، ونعيما ورضوانا في الأخرى. وقد بيّن الله ذلك بقوله:

أ)- ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾: والمساكين الطّيبة المعهودة هي تلك التي يستقيم بنيانها ويطيب منظرها بما يحفّها من جنات تجري من تحتها الأنهار، فهم يقيمون فيها آمنين مطمئنين بصفة دائمة.

ب)- ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾: والتّحلية هي لباس الزّينة التي تحيط بالذّراع، ويتنوّع معدنها، وقد ذكر الله المعهود منها في الدّنيا، وهي الذّهب والفضة واللّؤلؤ.

والحديث عن المغيّبات في القرآن يجري على الألفاظ التي نتداولها بيننا لتقريب المعنى، غير أنّ حقائقها هي كما قال عنها رسول الله: «**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**».[1] ويقول عن تلك الأساور: «**تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء**».[2]

ج)- ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾: والثّياب هي الحلل التي تغطي الجسم، وأفخرها ما كان من الحرير الرّقيق أو الكثيف، وأزهى ألوانها

١- رواه الترمذي من حديث أبي هريرة، كتاب (٤٤) تفسير القرآن، باب (٣٢) من سورة السجدة، رقم ٣١٩٧، وقال: حديث حسن صحيح.

٢- رواه مسلم بهذا اللفظ من حديث أبي هريرة، كتاب (٢) الطهارة، باب (١٣) تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء، رقم ٢٥٠.

هي الأخضر منها، ويلاحظ ذلك في بيوت الأثرياء المترفين، ويلاحظ في الوصف بناء الفعل للمجهول في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾، وبناؤه للمعلوم في قوله: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً﴾.

ونكتة ذلك يقول عنها الإمام الشّعراوي: "إن التّحلية هنا للزينة وليست من الضّروريات فجاء الفعل: ﴿يُحَلَّوْنَ﴾، أي حلاّهم غيرهم و لم يقل يتحلّون، ولذلك لما تكلم بعدها عن الملبس -وهو من الضّروريات- قال: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً﴾، فأتى بالفعل مبنيا للمعلوم؛ لأن الفعل حدث منهم أنفسهم بالعمل، أمّا الأولى فكانت بالفضل من الله، وقد قدّم الفضل على العمل".[٣]

قلت: إن ذلك هو ما يطبق عادة في تزيين العرائس، فبعد أن تتخذ لباسها الضّروري تجلس إلى امرأة أخرى لتتسق على جيدها وصدرها أدوات الزّينة بما يسرّ النّاظرين.

د)- ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَآئِكِ﴾: والاتكاء هو الجلسة المريحة للإنسان، وتكون أكثر راحة إذا كانت على الأرائك، وهي السّرر المغشاة بالحلية مما يتخذه الملوك والأمراء.

﴿نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً﴾: أي إن هذه الجنات الموصوفة بما تقدم، هي نعم الثّواب للمتقين الصّالحين ونعم المستقرّ والمقام. وذلك على خلاف أهل النّار.

فاللّهم إنّا نسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ونية واعتقاد، آمين. والله أعلم.

١- الشّعراوي، التفسير: ١٤/٨٨٩٥.

مثل النموذجين من الناس: الغنيّ والفقير

أ)- النص:

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا
نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا
﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ
ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهُمَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ
صَٰحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾
لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ
ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن
جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا
فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا
وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ
يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ
عُقْبًا ﴿٤٤﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾: الضرب: أن تلمس شيئا بشيء أقوى منه،

و﴿لَهُم﴾: أي للمشركين والمؤمنين. والمثل: الشّيء الغامض الذي لا يفهم إلا بما يوضّحه. ﴿رَّجُلَيْنِ﴾: بدل من "مثل"، وهما إما مفروضان للمثل، وإما هما إخوان من بني إسرائيل، كما ذهب إليه ابن عباس. ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾: أي النّخل يحيط بجانبيها. يقال: حفّه القوم، أي طافوا به. ومنه في الحديث: «وحفتهم الملائكة». ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾: "كلتا": اسم مفرد دالّ على شيئين كزوج. ومذكّره "كلا"، والأكل: أي الثّمر. ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً﴾: أي لم تنقص من الأكل شيئا، واستعير الظّلم للنقص، نفى الله الظّلم عن الجنة وأثبته لصاحبها في قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾، فما أروع المقابلة. ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَراً﴾: أي شققنا وسطها ينبوعا من الماء. والنّهَر: بتحريك الهاء، لغة في "النّهر" بسكونها. ﴿وَكَانَ لَهُ ثُمُرٌ﴾: الثمر: أنواع المال الكثير. يقال: ثمّر الله ماله، إذا كثر. ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾: الصّاحب: المصاحب له، وهو المؤمن. "وهو يحاوره": جملة الحال من ضمير: "قَالَ"، والمحاورة: مراجعة الكلام بين متكلمين. ﴿وَأَعَزُّ نَفَراً﴾: النفر: هم عشيرة الرّجل الذين ينفرون معه، والمراد: الأولاد والأعوان. ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً﴾: الإشارة إلى الجنة، والظّن: بمعنى الاعتقاد. وتبيد: بمعنى تفنى وتهلك. ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً﴾: أي أنه كان شاكّا في البعث للآخرة. والمنقلب: المرجع والعاقبة. ويرجع الضّمير في "مِنْهَا" إلى الجنتين. وانتصب ﴿مُنْقَلَباً﴾ على التّمييز. ﴿لَّكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي﴾: أصل التّركيب في "لَكِنَّا" (لكنْ) بسكون النّون للاستدراك. و"أنا" ضمير المتكلم. وهو: ضمير الشّأن. والمعنى: أنا أقول: الله ربّي. ﴿وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ﴾: "لَوْلا" للتحريض على فعل الشّيء والتّوبيخ على تركه. ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَآءِ﴾: حُسْبَاناً: صفة لموصوف محذوف. والتّقدير: هلاكا حسبانا أي مقدّرا من الله. ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً، أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْراً﴾: أي تهلك بجائحة من السّماء فتصبح أرضا جرداء زلقة، أو يغور ماؤها في الأرض. ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾:

الإحاطة من كل جانب، والمعنى: أتلفت أمواله كلها. ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾: أي يقلبهما إلى أعلى وإلى أسفل كناية عن التحسّر والندم. ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: أي عمّها الخراب والدّمار، بأن تهدمت تلك الأعمدة التي كانت تمسك الكروم وهي العروش. ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾: اسم الإشارة مبتدأ، الولاية: خبر. والْوَلَايَةُ: بفتح الواو مصدر "ولي"، إذا ثبت له الولاء، أي النصرة. ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾: أي خير العاقبة، وهو منصوب على التمييز.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَكَانَ لَهُ ثُمُرٌ﴾: قرأ الجمهور: ﴿ثُمُرٌ﴾ بضمّ المثلة وضمّ الميم. وقرأه عاصم بفتح المثلة وفتح الميم. ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ﴾: قرأ الجمهور: ﴿لَمْ تَكُن﴾ بمثناة فوقية اعتدادا بتأنيث ﴿فِئَةٌ﴾ في اللّفظ. وقرأه حمزة والكسائي وخلف: ﴿يَكُن﴾ بالياء التحتية والوجهان جائزان في الفعل إذا رفع ما ليس بحقيقي التأنيث. ﴿الْوَلَايَةُ﴾: بفتح الواو، وقرأه حمزة والكسائي وخلف: ﴿الْوِلَايَةُ﴾ بكسر الواو وهي اسم للمصدر، أو اسم بمعنى السّلطان والملك. ﴿لِلَّهِ الْحَقِّ﴾: قرأ الجمهور: ﴿الْحَقِّ﴾ بالجرّ على أنه وصف لله تعالى. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف: ﴿الْحَقُّ﴾ بالرّفع صفة للولاية، فيكون الحق بمعنى الصّدق؛ لأن ولاية غير الله كذب وباطل. ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾: قرأ الجمهور: ﴿عُقْبًا﴾ بضمتين وبالتنوين، وقرأه عاصم وحمزة وخلف بإسكان القاف وبالتنوين.

د)- البيان والتفسير:

ما يزال موقف السّادة الكبراء من قريش في طلبهم صرف رسول الله عن أصحابه الفقراء، ما زال ذلك الموقف الشّائن يثير العجب والاستغراب، فهو يحتاج إلى مزيد من البيان والتنديد بأسلوب المثل الذي يزيد الموضوع إثارة وانتباها، إذ أنّ

واقع النّاس في الحياة أنهم على فريقين: مؤمن وكافر، ولكلّ منهما توجّه وموقف، وبالتّالي يكون لكلّ منهما مصير وعاقبة في الدّنيا والأخرى فقال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً، كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً، وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَاْ أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً، وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً، وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهُمَا مُنْقَلَباً﴾.

بعد أن أمر الله رسوله بأن يصدع بالحقّ الذي أنزله الله عليه، ثم بيّن جزاء المؤمنين والكافرين، قفّى على ذلك هنا بضرب المثل للفريقين، كيف يكون توجّههما في الحياة وكيف تكون نظرتهما إلى الوجود وخالقه؟. فضرب لذلك مثلا برجلين يحتمل أن يكونا واقعيين في بني إسرائيل كما ذهب إلى ذلك ابن عباس وكثير من المفسّرين، أو هما مفروضان للمثل.

وقوله تعالى: ﴿لَهُم﴾ مخاطبا رسوله، فإنّ الضّمير يرجع إلى المشركين المتنفشين بعزّهم وكبريائهم، أو الضّمير يعود إلى المؤمنين والكافرين على اعتبار استفادة الفريقين من المثل الذي يعكس أحوال النّاس في الطّغيان والاستكبار، أو في القناعة والتّواضع والشّكران. وبما أن المقصود الأول من المثل هو زجر المستكبرين وبيان عاقبتهم الوخيمة فقد بدأ الله بالرّجل الغنيّ المستعلي بغناه فقال: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً﴾.

رسم الله تعالى صورة بديعة للجنتين في حسن تنسيقهما بشكل يجعلهما معطاءين بوفرة غلالهما التي تجمع بين الحبوب والفواكه للقوت واللّذة. وقد تدبّرت الحكمة أو النّكتة في ذكر: ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ للرجل الغنيّ، ولم لا تكون ضيعة واحدة

واسعة الأطراف؟ فإذا بالإمام "ابن عاشور" يهتدي للحلّ إذ يقول: " ومعنى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً﴾ ألهمناه أن يجعل بينهما، وظاهر الكلام أن هذا الزّرع كان فاصلا بين الجنتين، كانت الجنتان تكتنفان حقل الزّرع فكان المجموع ضيعة واحدة".[1]

قلت: ويؤيّده قوله بعد ذلك: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾، وبنظير الجنتين جاء وصفه تعالى لحضارة "سبأ" في جنوب اليمن، وهي تقوم على الزّراعة إذ قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَاكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ (سبأ:١٥)، أي عن يمين الوادي وشماله، والذي بني عليه "سدّ مأرب" العظيم. فهي جنات وارفة الظّلال تمتد على ضفتي الوادي لحوالي ثمانين كيلومتر كما حقّقه بعض المهندسين والمؤرخين، فكان المسافر يسير أياما وليالي تحت الظّلال، فكفر القوم بتلك النّعمة إذ قالوا: ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ (سبأ:١٩).

يقول تعالى في شأن الجنتين هنا: ﴿**كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً، وَكَانَ لَهُ ثُمُرٌ**﴾، والأُكُل بمعنى الثّمار المختلفة التي تغلّها كلّ جنة. وأسند الإيتاء إليها للدّلالة على فرط الكرم حتى لكأنها تعطي من عندها. ولتركيز معنى الجود والكرم أضيفت جملة: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً﴾ أي لم تنقص من ذلك الأكل شيئا. وما أروع التّعبير بفعل الظّلم لما هو جماد كالأرض، فهي الأمّ الحنون المعطاء لا تبخس حقك أبدا حين تقوم بواجبك نحوها من حرث وزرع وسقي، بل هي تعطيك من خيراتها ما لم تبذل فيه سعيا، ولا نلت فيه تعبا.

وتفجير المياه خلال الجنتين يعني ضمان السّقي لهما، إذ لا يجرّ الماء إليهما من الخارج فيخشى انقطاعه -أحيانا- كما يحدث لكثير من الأجنة.

١- محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتنوير: ٣١٧/١٥.

و لم يقتصر صاحب الجنتين على غلال جنتيه، بل كانت له موارد أخرى من الرّزق إذ قال تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثُمُرٌ﴾، أي المال الكثير المختلف في أنواعه، ويدخل في ذلك الأولاد؛ لأن الولد من كسب أبيه، فقد كملت لهذا الرّجل الغنيّ أسباب الثّروة و لجاه، فكيف واجه تلك النّعمة، وكيف كان ينظر إلى صاحبه الفقير؟ ذلك ما بيّنه الله بقوله: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾.

والمقصود بالصّاحب: الرّجل الفقير، وقد يكون صاحبك خصما لك، فتندّ محادلته -أحيانا- إلى الملاحاة والخصام، فبادأ الغنيّ صاحبه بالمفاخرة والاستعلاء بأنه كثر مالا، وأنّه في عزة من قومه وعشيرته. والتّعاظم بالآباء والأجداد جريرة حاربها الإسلام بأن جعل العزة لله جميعا، فلا يعتز المؤمن بغير الله، لأنّه من فعل لك فهو ذليل حقير، ومن اعتزّ بغير الله ذلّ. وها هو الرّجل الغنيّ لا يقتصر على التّعالي بالكلام على صاحبه الفقير، بل استدرجه في الدّخول معه إلى جنته حتى يريّه عيانا مناظرها البهيجة وخيراتها الكثيرة قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا، وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾.

لم يكن دخوله عاديا إلى تلك الجنة، بل كان يحمل في نفسه خواطر سيّئة تنبع من الشّعور بالكبرياء أمام صاحبه الفقير الضّعيف، وللنفس الإنسانية دوافع متناقضة، فحين تتغلّب الشّهوة عليها فهي أمّارة بالسّوء، وحين تخامرها الإشراقات الإيمانية فهي لوّامة رادعة، فصاحب الجنة -وإن لم ينطق بكلمة الكفر صراحة- فهو بحاله النّفسية وأقواله المنكرة لم يكن على فطرته السّليمة، إذ تطاول على قدر الله، ونسي شكر النّعمة فحكم بدءا الجنة فقال:

أ)- ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾: فقد اغترّ بما تهيأ له من نعيم تلك الجنة،

فظنه باقيا لا يفنى، وهكذا الطّغيان في الإنسان: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ، أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ العلق: ٦-٧). ألم يغترّ فرعون بنهر النّيل وما يقوم عليه من جنات فقال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ (الزّخرف: ٥١).

وليت صاحب الجنة اكتفى بزهوه الدّنيويّ، بل انتقل إلى استبعاد قيام السّاعة، استخفافا بصاحبه الذي يعتقد ذلك ويؤمن به، وقد توقّع منه الرّدّ العاجل فبادره بقوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهُمَا مُنْقَلَباً﴾، قال ذلك سخرية وتهكّما بصاحبه، وما تأكيد كلامه بالقسم إلا مبالغة في ذلك التّهكّم.

ويستروح من قوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ اعترافه بربوبية الخالق بأنه المنعم الرّازق، ولكنه على غرار الكافرين يتخذ لله وسطاء وشفعاء، فهو يتمنّى على الله ويدّعي بأنّ ما أعطاه في الدّنيا دليل على تكريمه إياه، ولسوف يزيده تكريما في الآخرة عندما يردّ إليه، فهو لذلك ظالم لنفسه من جهتين:

أ)- اعتقاده ببقاء الجنة على حالها لا ينالها هلاك.

ب)- اعتقاده بعدم إتيان يوم القيامة، لأن تعبيره بـ"إن" يدلّ على الشّك.

ثم يستمرّ الحوار بينه وبين صاحبه بلغة الوعظ والنّصح فيقول: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً، لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً، وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾.

خاطب الرّجل المؤمن صاحبه بلغة التّعجّب والإنكار، مذكّرا إياه بقدرة الخالق في أطوار خلقته حتى استوى رجلا كاملا يخاصم الله ويكفر نعمته ويتدلّل عليه بالأماني الكاذبة. ثم يعطيه مثلا من نفسه في الإيمان الخالص لله، فعبّر بما يدلّ

على ضدّ اعتقاد صاحبه، فأتى بحرف الاستدراك "لكنّا" مدغما فيها ضمير المتكلم "أنا" بتقدير: لكن أنا أقول: ﴿هُوَ اللهُ رَبِّي﴾. فأكّد الجملة بضمير الشّأن ووصف الذّات العلية بالألوهية والرّبوبية مؤكدا ذلك بالتّوكيد اللّفظي: ﴿وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً﴾.

ولا يكتمل الإيمان إلا بنفي الإشراك جليه وخفيه عن الله، فهو إذ يعطي المثل من نفسه يعلّم صاحبه كيف يكون مؤمنا حقا؛ لأنّ من مقتضيات الإيمان الحقّ أن يحبّ المؤمن لغيره ما يحبّ لنفسه.

ثم تابع الرّجل المؤمن نصحه فقال: ﴿وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ﴾، تابع الرّجل المؤمن إنكاره على صاحبه بأداة "لَوْلا" التي تدل على التّحريض، فقدّم إليه وصفة روحية عظيمة الفائدة يقولها المؤمن عندما تهزّه نعمة أو يبهره منظر جميل. وحتى لا يفتن بذلك يقول: ﴿مَا شَآءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ﴾. وبذلك يكون قد ربط النّعمة بمصدرها، فيستديمها بالشّكر، وقد اعترف بقدرة الله وقوته وحكمته في تدبير شؤون خلقه. وما تلك الجنة إلا نتيجة لما أقدر عليه الإنسان بتسخير قواه البدنية والعقلية في الإنجاز والتّنسيق، فقد روى أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول: "ما شاء الله لا قوة إلا بالله"، فيرى فيه آفة دون الموت**».[1]

وأزاء ذلك التّعبير المشين من صاحب الجنة للرّجل الفقير يجيء هذا الرّدّ المتواضع الذي ينمّ عن خلق رفيع وإيمان عميق في رجاء واعتزاز بربوبية الخالق أن يغيّر من أحوال الرّجلين، إذ قال الفقير لصاحبه، وهو يعظه: ﴿**إِن تَرَنِ أَنَآ أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً، فَعَسَىٰ رَبِّيَ أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً، أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً**﴾.

١- رواه البيهقي في شعب الإيمان من حديث أنس، رقم ٤١٩٩.

إنها الرّؤية الخاطئة في الرّجل المنتفش بماله، والعين تعكس ما في النّفس من خواطر تحسن أو تسوء وفق ما طبع عليه الإنسان من عجب وكبرياء أو من رقة وتواضع. فقد واجه الفقير صاحبه بهذا الرّجاء الخالص لربّه أن يقلب الوضعية بين الرّجلين فيصير الغني فقيرا والفقير غنيا، بل توجّه الرّجاء إلى أن يمنحه الله خيرا من جنة صاحبه، أي جنة في دار الخلد؛ لأنّ جنة الدّنيا معرّضة للفناء والزّوال، فالله قادر أن يهلكها بإحدى الآفتين:

أ)- ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾: بنحو وابل مدرار أو صاعقة مقدّرة محسوبة على قدر تلك الجنة حتى تصبح ترابا أملس تزلق عليه الأرْجل.

ب)- ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾:أي يغور ماؤها في جوف الأرض، ثم هو لا يملك لأن يطلبه بوسيلة من الوسائل كالتّخزين أو الحفر. ونلاحظ دقة التّعبير عن الخوالج النّفسية للإنسان، فنحن أمام نموذجين من النّاس اختلفت نظرتهما للحياة والوجود والإنسان:

أ)- النّموذج الأناني المادي، كيف تستحوذ عليه النّظرة الفردية المتطرفة، فلا يعبد إلا نفسه، ولا يعترف إلا بمواهبه مغترا بقوته زاهيا بحظه.

ب)- النّموذج الرّباني المعتز بجلال خالقه القانت المخبت، يقنع بالكفاف، ويرضى بقضاء الله، وتغلب عليه النّظرة الإنسانية الكريمة.

وفي تقلّب أحوال الدّنيا يقول الشّاعر الحسين بن مطير الأسدي:

وقد تغدر الدّنيا فيمسي غنيّها ... فقيرا، ويغنى بعد بؤس فقيرها
وكم قد رأينا من تكدّر عيشة ... وأخرى صفا بعد إنكدار غديرها
وكم طامع في حاجة لا ينالها ... وكم آيس منها أتاه بشيرها

وهكذا تحقق ما رجاه المؤمن الفقير. قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثُمُرِهِ فَأَصْبَحَ

﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً﴾.

استجاب الله دعوة المؤمن وحقّق رجاءه، وكم لله من ألطاف خفية تجري بقدره ويستشفّها عباده الصّالحون.

جاء التّعبير بالإحاطة بالثّمر، فالجائحة كانت شاملة محيطة بكلّ ما اكتسبه الرّجل الغني من تلك الجنة أو غيرها، ولم يذكر الله وسيلة الإتلاف -إذ لا فائدة بذكر الجزئيات- ولكن فرّع على ذلك ذكر الحالة النّفسية للرّجل وهو يرى خراب ماله بكيفية شاملة بحيث أصبحت الجنة خاوية على عروشها. وهذا التّعبير المكرّر في القرآن يجسّد الخراب التّام، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِيرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ (الحج:٤٥).

وتقليب الكفين كناية عن النّدم والتّحسّر، فقد عبّر الرّجل الكافر على ذلك بالفعل والقول، فتمنّى أن لم يكن قد أشرك بربّه أحدا، وقد أيقن عندئذ أن لا أحد ينفعه في محنته: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً﴾.

إذ أنه من طبيعة المتملّقين للسّادة الكبراء أنهم سرعان ما يتنكّرون لهم عند تغيّر أحوالهم من الغنى إلى الفقر، فقد ذهب المال والولد وغاب النّصير، ولم يبق إلا الله العليّ القدير.

﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً﴾: فالنّصرة من الله وحده، فلا يوليها أحدا إلا بالتّقوى والعمل الصّالح. فـ"هنالك" تستعمل للأمر العجيب. والولاية بفتح الواو وكسرها، تعني الولاء والنّصرة أو الملك، فكلاهما لله وحده، وقد وصف ذاته العلية بالحق، إذ غيره باطل، كما قال الشّاعر:

ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم -لا محالة- زائل

فالله خير مجاز على الأعمال الصّالحة، ومنه حسن العاقبة في الدّنيا والآخرة، وإلى الله عاقبة الأمور.

ذلك هو المثل الرّائع لعاقبة الشّكر والكفر، فليختر الإنسان لنفسه ما شاء، فطوبى لعبد قنّعه الله بما قسم له فصبر وشكر، وأما المتهافتون على زينة الدّنيا فليتهم تدبّروا هذه الآية الكريمة ليعرفوا وسيلة التّقرب إلى الله فيكفكفون من غلوائهم. قال تعالى جوابا للذين اغتروا بأموالهم وقالوا: ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (سبأ:٣٥).

فأجابهم الله تعالى بقوله: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ (سبأ:٣٧)، والله أعلم.

مثل الحياة الدّنيا، وبيان عاقبة الأعمال الصّالحة

أ)- النص:

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ﴾: مَثَلَ: مفعول لـ"اضرب". كَمَاءٍ: إمّا أن يكون مفعولا ثانيا، أو هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هي كماء. ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾: الهشيم: هو النّبات اليابس المتكسّر، تفرّقه وتنثره الرّياح. ﴿زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: الزّينة: ما يتزيّن به من حليّ ومتاع. ﴿وَالْبَاقِيَاتُ

الصَّالِحَاتُ﴾: صفة لموصوف محذوف تقديره: الأعمال الباقيات الصّالحة. وهي كلّ عمل في عبادة والبرّ، وكل قول طيّب. ومنها ما بيّنه الرّسول بأنها قول المؤمن: "سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، الله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله".

ج)- البيان والتّفسير:

إكمالا للتوجيهات الإلهية وزيادة تثبيت للرسول ﷺ في ملازمة الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ، مع ما توحي به قصة الرّجلين مع الجنتين، مما يجسّد واقع المشركين في انهماكهم وإقبالهم على زينة الدّنيا، في ختام ذاك العرض الشّيق يأتي هذا المثل المضروب للحياة الدّنيا بصفة أعمّ يغطّي الأرض وما عليها، ليقرّر الله بعده القيم الحقيقية للحياة وما بعدها فقال جلّ من قائل: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا**﴾.

نحن بأزاء صورة تمثيلية رائعة منتزعة من متعدّد، تتحرك فيها كثير من الأشياء لتبلور حقيقة وجودية هي طابع الحياة الدّنيا في سرعة الفناء والزّوال، غير أن كثيرا من النّاس يغفلون عنها مبهورين بتلك الزّينة الظّاهرية. وكان مشركو مكة على تلك الحالة من الانهماك والغرور بمفاتن الدّنيا، فكذّبوا بوحدانية الله وقالوا ساخرين:

أ)- ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (ص:٥).

كما كذّبوا بالبعث والنّشور فقالوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ (الجاثية:٢٤).

يقول تعالى مخاطبا رسوله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، والقول في

هذه الجملة ومعاد ضمائرها هو كسابقه في ضرب المثل بالرّجلين. ووصف هذه الحياة بـ"الدّنيا" إما لكونها هابطة منحطّة لسرعة زوالها وضدّها الحياة العليا، وإما لكونها قريبة حاضرة، احترازا من الحياة الآجلة المنتظرة وهي الآخرة. والحياة الدّنيا تطلق على مدة بقاء الأنواع كلّها على وجه الأرض إلى أن تفنى، وتطلق على مدة حياة كلّ فرد. ويعبّر العلماء على فناء الحياة كلّها بقيام السّاعة الكبرى، وعلى نهاية حياة كلّ فرد بذاته بقيام السّاعة الصّغرى.

ثم يذكر الله المشبّه به المتعدّد بقوله: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾.

لقد تكرّر مثل هذا التّشبيه في القرآن الكريم مفصّلا ومجملا بنفس التّصوير، وأكثره تفصيلا وأبلغه تصويرا هو ما تقدم في سورة يونس عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَآ أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَآ أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ (يونس:٢٤).

وتتحرك المشاهد بسرعة في هذا المثل من سورة الكهف، يدلّ عليها فاء التّعقيب، فما أن يستقرّ الماء في الأرض حتى يربو ويزهو نباتها ويختلط بعضه ببعض بسبب ذلك الماء، وسرعان ما يصوّح ويبيس، فإذا هو يتناثر مع هبوب الرّياح. وهكذا تتناسق هذه الصّورة البديعة مع الجوّ الفني الذي رسمه الله للجنتين انتقالا من الصّورة الجزئية إلى الصّورة الكلية في فناء الأرض وما عليها.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً﴾، هو للتذكير بقدرة الله المطلقة لا في هذا المثل وحده، بل هي في كل شيء بهذا الوجود المؤار، فهو القادر على الإيجاد والإفناء وعلى الإعطاء والمنع، وعلى الإعزاز والإذلال...، إلى غير ذلك من الأشياء والأضداد، فما هو هذا الذي يفتن النّاس عن الصّلاة وعن ذكر

الله واستحضار الموت والفناء؟. ذلك هو ما بيّنه الله بقوله: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾.

الزّينة قيمة فانية، وهي مظهر برّاق لا يقوم عليه الكيان، ولا يؤسس عليه بنيان، ولكن النّاس يفتتنون بها كما حدث لكبراء قريش إذ قالوا: ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (سبأ:٣٥). ولما كانت هذه هي النّزعة البشرية العامّة فقد أوردها الله تعالى على عمومها وفق النّظرة العاجلة للناس. وقد مثل الله تلك الزّينة بالزّهرة إذ تبدو حلوة جميلة زاهية ولكن سرعان ما تتصوّح وتذبل فتذهب تلك الزّينة. وذلك في قوله تعالى لرسوله: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (طه:١٣١).

وهنا يذكر الله وسائل تلك الزّينة فيبيّن أنها المال والبنون، وبدأ بالمال لأنه العامل الأقوى، وهو في متناول أيدي كل النّاس قلّ أو كثر، وهو المرغوب فيه من جميع الأطراف، وأما البنون فهم هبة من الله لمن يشاء من عباده، ولابد للإنسان أن يتخذ الأسباب لوجودهم بالزّواج أو بالتّسرّي ولا يتأتى ذلك إلا بالمال. وأيّا كان افتتان النّاس بهما فهما زينة وزخرف وقد يكونان سببا لشقاء الإنسان. ولذلك قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ، نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ (المؤمنون:٥٥-٥٦). والإسلام في توجيهاته الحكيمة قد خفّف من شهوة المال والبنين بما يجعل المؤمن متوازنا أمامهما، فلا يغلو في حبّهما بما ينسيه ذكر ربّه أو يصل به إلى حدّ الطّغيان والبطر.

فما هي -إذن- القيمة الحقيقية الباقية عند الله؟، إنها كما قال تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾.

قدّم الله وصف ﴿الْبَاقِيَاتُ﴾ على ﴿الصَّالِحَاتُ﴾ وكلاهما وصف لمحذوف

مقدّر بـ "الأعمال"، فما دامت الزّينة عرضا زائلا، فإن نفس السّامع تتوق إلى معرفة القيمة الباقية فقال تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾، والوصف الأخير أصبح متداولا معروفا لدى المسلمين، إذ يركّز القرآن عليه كثيرا عند ترتيب الجزاء الدّنيوي والأخروي. وقد رتب عليهما هنا خير الثّواب وخير الأمل، وعند من؟. عند الرّبّ جل جلاله، فالصّالحات إذن هي كل أعمال الخير والبرّ من أنواع الطّاعات والقربات، وهي الأمل الحقيقي الذي تتعلق به همّة المؤمن، لأنّه تعالى لا يخلف وعده، ولا يبخس النّاس أشياءهم.

وقد ورد في الحديث أن الباقيات الصّالحات هي: «**سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله**».[1] فهي من الباقيات الصّالحات، ولا يقتصر تفسير الآية عليها، والله أعلم.

من مشاهد يوم القيامة

أ)- النص:

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

١- رواه أحمد في المسند من حديث عثمان بن عفان موقوفا، رقم ٤٨٣؛ ورواه مرفوعا من حديث أبي سعيد الخدري، رقم ١١٢٨٨، ومن حديث النعمان بن بشير، رقم ١٧٦٣٠.

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾: "يوم" منصوب بفعل مقدّر بـ "اذكر". نُسَيِّرُ الْجِبَالَ: بمعنى إزالتها عن أماكنها، وذلك بنسفها وجعلها هباء منثورا، وقد تعددّت أوصاف ذلك المشهد المرعب فقال تعالى:

أ)- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً﴾ (طه:١٠٥).

ب)- ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً، فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنْبَثّاً﴾ (الواقعة:٥-٦).

ج)- ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ (القارعة:٥).

د)- ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ (المرسلات:١٠).

هـ)- ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾(النمل:٨٨).

﴿وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً﴾: أي ظاهرة بسطحها، قد زال كل ما على ظهرها، كقوله تعالى في سورة طه: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً، لاَّ تَرَىٰ فِيهَا عِوَجاً وَلاَ أَمْتاً﴾ (١٠٦-١٠٧). ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾: الحشر: هو الجمع ليوم الحساب، المغادرة: إبقاء الشّيء وتركه، ومنه: الغدير، الماء المتروك في المجاري. ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّاً﴾: العرض: إحضار الشّيء ليرى حاله وما يحتاجه كعرض الجيش على القائد. والصّفّ: الوقوف واحدا حذو آخر في نظام. ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: لقَدْ جئتُمُونا: على إضمار القول، أي قائلين. ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُم﴾: واقع موقع المفعول المطلق. ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾: الْكِتَابُ: للجنس، المراد به كتب أعمال البشر. ﴿وَوُضِعَ﴾: مبنى للمجهول بمعنى: وضعته الملائكة. ﴿يَا وَيْلَتَنَا﴾: نداء بالويل: وهو ندبة التّوجّع، وتأنيثه للمبالغة. ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾: الاستفهام للتعجّب، والصّغيرة والكبيرة وصفان لموصوف محذوف وهي الأعمال. والإحصاء: العدّ والحساب.

﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً﴾: الجملة في موضع الحال من ضمير "يقولون"، أي: وجدوا أعمالهم كلّها مثبتة في صحائفهم يحاسبون عليها دون ظلم أو بخس لحقهم في الثّواب والعقاب.

د)- أوجه القراءة:

﴿نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾: قرأ الجمهور بنون العظمة. وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو: ﴿وَيَوْمَ تُسَيَّرُ الْجِبَالُ﴾ بمثناة فوقية وبالبناء للمجهول ورفع ﴿الْجِبَالُ﴾.

هـ)- البيان والتّفسير:

بعد أن بيّن الله حقارة الدّنيا، وأن القيمة الحقيقية عند الله هي للباقيات الصّالحات، وبعد أن ذكّر المشركين بأنّ ما هم عليه من التّرف والنّعيم هو إلى فناء وزوال، أعقبه هنا بذكر مشاهد مرعبة من فناء العالم وأهوال البعث والنّشور فقال جلّ من قائل: **﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً، وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّاً لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِداً﴾.**

هي مشاهد مرعبة تتوالى، وقد انفرط ذلك النّظام الرّتيب الذي ألفه النّاس من آلاف السّنين، والذي أجمله الله تعالى إجمالا بديعا في قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ (إبراهيم:٤٨).

ويقال في متعلق الظّرف هنا "يَوْمَ" ما قيل في مثله مما تقدم، أي: أذكر يا محمد للنّاس هول اليوم الذي نسيّر فيه الجبال. وتسييرها بمعنى نسفها وإزالتها من أماكنها. وهو المشهد العظيم الذي جابهه سيّدنا موسى فخرّ صعقا من هول ما رأى. فكيف بغيره من النّاس العاديين؟. والجبال هي أقوى وأصلب ما على وجه

الأرض، هي لها بمثابة الأوتاد التي ترسيها كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً، وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾ (النبأ:٦-٧). وقال: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ (النازعات:٣٢).

فإذا زالت الجبال على ضخامتها، فكيف بغيرها مما على وجه الأرض؟. ولذلك قال بعد ذلك: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً﴾، الخطاب للرائي أيّا كان، وبروز الأرض بمعنى ظهورها وانكشافها، فلا شيء يبقى على ظهرها يخفي بعض معالمها بل تكون قاعا صفصفا مستوية الأديم لتكون موقفا لحشر الخلائق كلها من الأولين والآخرين. قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾، والحشر هو الجمع، وجيء بصيغة الماضي للدّلالة على تحقق الوقوع في المستقبل.

وبما أن النّاس يموتون على فترات مختلفة في المسيرة البشرية، فربّما يظن السّامع أنّ حشرهم يتمّ على ذلك النّمط، فقال تعالى: ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾، أي لا يترك أحد يندّ عن الموكب البشري في ذلك اليوم كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ (الواقعة:٤٩-٥٠).

وأخرج البخاري وغيره عن عائشة ﷺ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يحشر النّاس يوم القيامة حفاة عُراة غرلا، فقلت: يا رسول الله، الرّجال والنّساء جميعا ينظر بعضهم إلى بعض؟، فقال: الأمر أشدّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض»**.[1]

وبعد الحشر يتمّ عرض الخلائق أمام الربّ تعالى للحساب كما يستعرض القائد جنده فلا يختفي أحدٌ وراء صاحبه، إنها عملية منتظمة. وحتى ملائكة الله تأتي صفوفا صفوفا، قال تعالى: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّاً﴾، حتى لكأنهم جناة يقفون أمام المحكمة الإلهية. وقوله تعالى: ﴿صَفّاً﴾ لا يعني صفّا واحدا كما ذهب

١- رواه البخاري من حديث عائشة، كتاب (٨١) الرقاق، باب (٤٥) الحشر، رقم ٦٥٢٧.

إليه بعض المفسّرين، بل هي صفوف منتظمة، بدليل ما ورد في الحديث الشّريف عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ فقال: «**يحشر الله الخلق ثم ينادي: يا عبادي، أحضروا حجتكم ويسّروا جوابكم، فإنكم مجموعون محاسبون، يا ملائكتي أقيموا عبادي صفوفا على أطراف أنامل أقدامهم للحساب**».[1]

وتبدو ملاحظة في وجه اختيار كلمة "الرّب" مضافة إلى كاف الخطاب لرسول الله، فهي أوّلا لتشريف الرّسول في ذلك الموقف المهول الذي يحظى بالشّفاعة العظمى للخلائق، ثم لما في معنى "الرّبّ" من الرّحمة والإشفاق بمجموع الخلائق، والله أعلم.

﴿**لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُمْ مَّوْعِداً**﴾: أكّد الله هذا الإخبار باللام المشعرة بالقسم للتّهديد والتّوبيخ ما يدلّ عليه الالتفات من ضمير الغائب إلى ضمير الخطاب، من العناية والاهتمام لإبلاغ ذلك التّهديد وهو موجّه إليهم من قبل الله تعالى. والتّشبيه في قوله: ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ هو للتّعريض بالمشركين في إنكارهم للبعث بعد أن تأكّدوا من قدرة الله في إعادة خلقهم من جديد. وآية سورة الأنعام أكثر تفصيلا لهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ (الأنعام:٩٤). وقوله تعالى هنا: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُمْ مَّوْعِداً﴾: الإضراب بـ"بل" يدلّ على زيادة التّغليظ على اعتقادهم الباطل بإنكار البعث.

﴿**وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ**

١- أورده القرطبي في الجامع لأحكام القرآن، نقلا عن ابن منده في كتاب التوحيد، ١٠/٤١٧، في تفسير قوله تعالى: ﴿وعرضوا على ربك صفا﴾ [الكهف:٤٨].

هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾:

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾: والمراد بالكتاب الجنس، أي كتب أعمال البشر كما تدلّ على ذلك آيات أخرى، فبعد الوقوف والاستعراض تأتي قراءة المحضر لا من المدّعي العام، بل من كلّ واحد من خلق الله ليكون شاهدا على نفسه كما قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً، اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ (١٣-١٤).

جاءت الجملة هنا مختصرة وقد فصّلتها آيات أخرى تبيّن كيف يتلقّى النّاس كتبهم عن اليمين بالنّسبة للصالحين، وعن الشّمال ووراء الظّهر بالنّسبة للمجرمين الذين تظهر على وجوههم علامات الإشفاق والخوف وهم يستعرضون صحائفهم. ثم لا يلبثون أن يعبّروا على ذلك بالقول بنداء النّدبة والفجعة لما صدموا به من محتوى ذلك الكتاب الذي لم يترك شاردة ولا واردة إلا عدّها وضبطها.

ولمّا كان ضبط الصّغيرة أدعى للعجب فقد بُدِيء بها حتى لا تبقى عند العصاة محلّ إهمال ولا مبالاة. ولتأكيد الدّقة والضّبط لما في الكتب جاءت جملة: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً﴾، أي أنهم في حالة قولهم ذلك يجدون ما في الكتاب هو استنساخ لأعمالهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الجاثية:٢٩).

وبذلك يتبيّنون عدل الله المطلق، وأن لا ظلم في ذلك اليوم، فهو تعالى لا يؤاخذهم بما لم يقترفوه، بل كانت أوامره ونواهيه مضبوطة في مجال التّكليف الدّنيوي. وقد رتب عليها الوعد والوعيد، فبشر وأنذر، ولات اليوم غفلة أو سهو، إذ يقال لكل عبد: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ

﴿الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق:٢٢).

فاللّهم أنر بصائرنا واهدنا سبل رشدنا وأخرجنا من الظّلمات إلى النّور، والله أعلم.

قصة آدم وإبليس عند بدء الخليقة

أ)- النص:

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۚ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۖ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ۖ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَ ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَٰقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾: إبْليس: رمز للشّر في مصطلح القرآن، ويسمّى "الشّيطان"، واختلف العلماء في ماهيته. وتوضّح الآية أنه من الجنّ، وهم خلق مكلّف مثلنا. وفَسَقَ: خرج عن طاعة الله، يقال: فسقت الرّطبة، إذا خرجت عن قشرها، فاستعمل مجازا لكل تجاوز. ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾: بئسَ: للذّم. وبدلا: منصوب على التّمييز، أي: بدلا عن الله. ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾: عضد الإنسان: ما بين المرفق إلى الكتف، ويطلق مجازا

على المعين والمساعد. ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَّوْبِقًا﴾: الموبق: مكان الويوق، أي الهلاك. وقيل: إنه واد في جهنم. ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾: المصرف: الملجأ الذي ينصرفون إليه.

ج)- أوجه القراءة:

﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ﴾: قرأ الجمهور: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ﴾ بضمير المتكلم المفرد. وقرأ أبو جعفر: ﴿مَّا أَشْهَدْنَاهُمْ﴾ بنون العظمة. وقرأ أبو جعفر أيضا: ﴿وَمَا كُنتُ﴾ بفتح التّاء على الخطاب للنبي ﷺ. ﴿عَضُدًا﴾: هو بفتح العين وضمّ الضّاد المعجمة في الأفصح. وبالفتح وسكون الضّاد في لغة بني تميم. وقرأه أبو عمرو بضم العين وضمّ الضّاد، ولكنها قراءة غير مشهورة. ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾: قرأ الجمهور: ﴿يَقُولُ﴾ بياء الغيبة وضمير الغائب، عائد إلى الله. وقرأ حمزة: ﴿نَقُولُ﴾ بنون العظمة.

د)- البيان والتّفسير:

تتناسق النّصوص في ارتباط بعضها ببعض ووجود المناسبة بينها، فإنّ المشركين في تفاخرهم بأموالهم وأولادهم وتعاظمهم على فقراء المسلمين، هم في ذلك يشبهون إبليس في افتخاره بأصله وتكبّره وتمرّده عن أمر الله في السّجود لآدم عليه السلام، وللتّذكير بعواقب ذلك جاءت قصة آدم وإبليس هنا كما ذكرت في كثير من سور القرآن، وفي كلّ منها تذكير لفائدة معيّنة، وتعطي لنا مشهدا خاصّا. وهنا يقول المولى تبارك وتعالى: **﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ**

عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾.

جاء التّحذير من إبليس وأعوانه في القرآن الكريم بأساليب متنوعة، وإبليس أو الشّيطان هو رمز للشّرّ ومصدر للإغواء والإفتان، والمولى تعالى يذكّر بني آدم بما حدث بينه وبين أبيهم في بدء الخليقة، وكيف أنظره إلى يوم يبعثون، بعد أن استحكمت العداوة بين ذريتهما، فكان من تمام موعظة الله تبارك وتعالى لنا بعد تذكيرنا بيوم البعث والحساب أن يذكّرنا بعداوة إبليس لنا لنتحصّن ضدّ إغرائه بطاعة الله وإخلاص العبادة له، وجعل لنا الملائكة المقرّبين مثلا لذلك إذ استجابوا لأمر الله بالسّجود لآدم، ممّا يدلّ على أنه تعالى قد جعلهم في خدمة هذا الإنسان ليكون خليفة الله في الأرض كما فصّلته سورة البقرة.

ونحن -البشر- إذ نحسّ بنوازع الخير أو الشّرّ في نفوسنا نؤمن بتلك الأرواح الغيبية التي تلابس أرواحنا وإن كنا لا نعرف كيف يتمّ ذلك، وقد بيّنه لنا رسول الله حين قال: «**إن للشّيطان لَمّة بابن آدم، وللملك لَمّة، فأما لَمّة الشّيطان فإيعاد بالشّرّ وتكذيب بالحق، وأما لَمّة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، وليحمد الله على ذلك، ومن وجد الأخرى فليتعوّذ بالله من الشّيطان الرّجيم. ثم قرأ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَآءِ﴾** (البقرة:٢٦٨)»[1]

قلنا: إنّ لقصص القرآن في كل سورة فوائد تعطينا لقطات معينة في كل سورة، ولا تأتي لمجرّد التّكرار. وفي هذه السّورة جاءت لتحسم الخلاف الكبير بين العلماء في تحديد ماهية الشّيطان وأصله، إذ قال تعالى: ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ

١- رواه الترمذي من حديث عبد الله بن مسعود، كتاب (٤٤) تفسير القرآن، باب (٢) من سورة البقرة، رقم ٢٩٨٨، وقال: حسن صحيح.

فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾، فثبت بالنّصّ القطعي أنه لم يكن من جملة الملائكة، وأن الاستثناء في الآية منقطع. ويمكن أن يكون الله أمره بالسّجود كما أمر الملائكة، ولكنّه عصى وتمرّد؛ إذ الجنّ خلق مكلّف مثلنا فيهم الصّالحون وفيهم دون ذلك كما صرّحت به سورة الجنّ.

فقوله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾، والفسق هو الخروج عن الطّاعة، وإضافة الأمر إلى لفظ "الرّبّ" عوضا عن الضّمير هي للدّلالة على فظاعة الجريمة التي ارتكبها إبليس في حقّ من تجب عليه طاعته.

وبما أن المخاطبين هم على دراية من قصة إبليس وآدم، وكانوا شديدي الخوف من الجنّ والشّياطين، حتى عبدوهم من دون الله، فإنّه تعالى عقّب بهذا التّعجيب الذي يتضمن التّحذير فقال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾.

فالاستفهام للتّعجيب والإنكار أن يعبدوا الشّيطان وذريته بعد الذي يعرفونه من العداوة بينه وبين أبيهم آدم. والذّرية تطلق على النّسل، كما تطلق مجازا على الأتباع، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام:١٢١).

وجملة: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ مستأنفة للذّم من اختيارهم لذلك البدل عن الله، باتّخاذهم شركاء له من إبليس وذريته، فقد وصفهم بـ"الظّالمين"؛ لأنّ الشّرك أعظم الظّلم، وفي ذلك تفظيع لأمرهم.

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾:

الإشهاد هنا بمعنى الحضور، والضّمير يرجع إلى أقرب مذكور وهم الشّيطان وذريته، نفى الله أن يكون أولئك الذين اتخذتموهم أولياء من دونه قد حضروا خلق السّماوات والأرض وما كان من أسرار التّكوين، ولا أشهدهم خلق بعضهم بعض بل هم من سائر مخلوقات الله، خلقها وأوجدها بعد خلق السّماوات والأرض كما تدلّ على ذلك الآيات الكثيرة، منها قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ (٢١-٢٢). فإذا انتفى الحضور والمشاركة في الخلق فقد انتفى وجود المساعد والمعين لله تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا.

وقد جاء التّذييل بقوله: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾، واختيار وصف "الإضلال" مكان الإضمار هو لتأكيد الذّم السّابق، وفي الكلام مجال لأوهام المشركين، وإلاّ فإنّ الله غنيّ عن الأعضاد سواء المضلّين أو غيرهم. و الآية تثبيت للرّسول حتى يعرض عن أولئك المتعجرفين من السّادة والكبراء.

وتؤيّد ذلك القراءة ﴿كُنتَ﴾ بفتح التّاء، ومن خلال الرّسول هي تثبيت لجميع المؤمنين أن يلتزموا التّوجّه إلى الله وإخلاص العبادة له، لأنّ الشّركاء يتبرّؤ بعضهم من بعض يوم الحشر قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾.

الجملة معطوفة على قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾، بمعنى: واذكر لهم يا محمد. ثم يعرض الله مشهدا من مشاهد الحشر، يوم ينادى بالمشركين على رؤوس الأشهاد بالأمر التّوبيخي: ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾، فهم شركاء عديدون ممّا عبده البشر إلى جانب عبادتهم للشّياطين والجنّ، فما أحوج ذلك اليوم إلى النّصير، فهم يلبّون الأمر الإلهي على خلاف عادتهم في الدّنيا بالعصيان والتّمرّد.

﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾، فأنّى لهم أن يستجيبوا، والكلّ موقوف عند ربّه للحساب: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ (فصلت:٤٨).

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَّوْبِقًا﴾: أي مهلكة، تفصل بين الفريقين العابدين والمعبودين، ولا شك أنّ تلك المهلكة هي المقدمات للنّار التي تنتظرهم وهم منها على مشهد ومرأى إذ يقول تعالى: ﴿وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّواْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾.

رأوها رأي العين وتحققوا من وقوعهم فيها، فهم مجرمون تمّت إدانتهم من قبل الحق تعالى، فهو لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، وقد عبّر بـ"المواقعة" دون "الوقع" لقصد المبالغة، وأن ذلك حاصل لا مفرّ منه إذ قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾، أي أنهم قد حاولوا ذلك فلم يستطيعوا، أعاذنا الله من النّار، وما قرب إليها من قول وعمل ونية واعتقاد.

والله أعلم

التّنويه بهدي القرآن، وبيان مهمّة الرّسل، وحكمة تأخير العذاب عن المعرضين

أ)- النص:

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ

الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن
ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن
يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ
الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن
يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم
مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ﴾: التصريف تحويل الشيء إلى أشـ
متعددة. وتصريف الأمثال معناه: الإتيان منها بصور شتّى، والمراد بـ"النّاس": ،
من يبلغه القرآن في العصور المختلفة ﴿وَكَانَ الانسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾: المقص
بـ"الإنسان": جنسه من ذرية آدم. والجدل: المماراة والخصومة في الرّأي. ﴿وَمَا
مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤمِنُواْ إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَى﴾: لفظ "النّاس" و"الهدى" للعموم يشمل
كفّار قريش وغيرهم، كما يشمل لفظ "الهدى" القرآن وغيره من الكتب المنزلة.
وجملة: ﴿أَنْ يُؤمِنُواْ﴾ مفعول ثان لفعل "منع". ﴿أَوْ يَأتِيَهُمُ الْعَذَابُ قِبَلاً﴾: قِبَل
حال من العذاب، جمع قبيل، أي: أنواعا، في القراءة بضمتين. ومعناه: المقابل
والظّاهر في القراءة بكسر القاف وفتح الباء. ﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ الْحَقَّ﴾: مر
الإدحاض: وهو الانزلاق، واستعمل مجازا في الإزالة والتّعطيل، ودحض الحجة
بمعنى: ردّها وتزييفها. قال تعالى: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ (الشّورى:١٦). ﴿وَنَسِيَ مَا
قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾: بمعنى: لم يتذكر ما اقترفه من المعاصي والذّنوب. ﴿جَعَلْنَا عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾: الأكنة: جمع كنان، وهو الغطاء، ويجمع على أكنان.
﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾: بمعنى يفهموه. والتّقدير: من أن يفهموا القرآن، أو خشية أن

يفهموه. ﴿وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾: الوقر: هو الثّقل يسدّ آذانهم فلا يسمعون. ﴿لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾: الموئل: الملجأ والمنجى. يقال: وَأَلَ فلان إلى كذا. ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾: الإشارة إلى مقدّر في الذّهن، إذ العرب يعرفون ديار عاد وثمود ولوط ومدين وغيرها، وقع الهلاك على أهلها.

ج)- أوجه القراءة:

﴿قِبَلًا﴾: قرأه الجمهور بكسر القاف وفتح الباء، بمعنى: المقابل الظّاهر. وقرأه حمزة وعاصم والكسائي وأبو جعفر وخلف: ﴿قُبُلًا﴾ بضمتين، وهو جمع قبيل، أي: أنواعا. ﴿وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا﴾: قرأ الجمهور: ﴿هُزُوًا﴾ بضمّ الزّاي، وقرأه حمزة: ﴿هُزْوًا﴾ بسكون الزّاي. ﴿وَجَعَلْنَا لِمُهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾: المُهلَك بضم الميم وفتح اللاّم، هي قراءة الجمهور، وقرأه حفص عن عاصم بفتح الميم وكسر اللاّم، على أنه اسم زمان على وزن "مفعل"، وقرأه أبو بكر عن عاصم بفتح الميم وفتح اللاّم، على أنه مصدر ميمي.

د)- البيان والتّفسير:

يجيء التّنويه بهدي القرآن في المكان المناسب بعد ضرب تلك الأمثال البديعة، وما في قصة أهل الكهف من حكم ومواعظ، وقد أمر الله رسوله خلال ذلك أن يتلو ما أوحي إليه ويصدع بالحق، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. وها هو القرآن يقرع آذان النّاس بتلك الأمثال المختلفة، وبشتى الأساليب التي تسع كل النّاس على قدر مداركهم ومعارفهم. ولكن الإنسان يترع إلى كثرة الجدل والمنازعة في الرّأي، فما يمنع النّاس عن الإيمان والاستغفار لربهم إلاّ أن يحلّ بهم ما

حلّ بسابقيهم من عذاب الاستئصال. ثم بيّن أن مهمة الرّسل تتمثل في البشارة والنّذارة، وأنّ أفدح الظّلم أن يعرض أحدهم عن هداية القرآن بعد أن ذكّر به، ولله الحكمة وله الفضل والمنة في تأخير العذاب عن النّاس، ولكنّه جعل لذلك موعدا محدّدا عساهم يعودون إلى الله.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾:

الجملة مصدرة باللاّم المشعرة بالقسم معطوفة على سابقتها بالواو، لتأخذ حيزا مستقلا، وقدّم ذكر القرآن على النّاس هنا على عكس ما تقدم في سورة الإسراء من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً﴾ (٨٩)؛ لأنّ الكلام هنا جاء للتنويه بشأن القرآن. ولفظ النّاس عامّ لكل من يسمع القرآن في حاضر التّنزيل أو في مستقبل الأمة، فإذا كان ذلك هو فضل القرآن في نوره وهديه، فإنّ واقع الإنسان هو كثرة الجدل والعناد، حتى في ما هو واضح كالشّمس، بل يجادل حتى في ذاته ونفسه، ألم يقل الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ (النحل:١١١)، كما يجادل في ألصق النّاس به كالزّوج والأب والولد كما قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ (المجادلة:١).

والجدال لا ينكر على عمومه، بل منه محمود، إذا كان لتوضيح الحقّ ونصرة المظلوم، ومنه ذميم إذا كان في الباطل اتّباعا للأهواء، وانتصارا لرأي ولو كان على خطأ. فالله تعالى قد أمر رسوله ودعاة المسلمين أن يمارسوا الجدل المحمود لنصرة دين الله فقال:

أ)- ﴿وَلاَ تُجَادِلُواْ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت:٤٦).

ب)- وقال: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل:١٢٥).

ونلاحظ إضافة: ﴿أَكْثَرَ شَيْءٍ﴾ لتدل على أنّ الإنسان على ما ميّزه الله به من ذكاء وفطنة فهو لا يعدو شيئا من الأشياء التي خلقها الله، فلا يزهو بما خصّه به، وقد استدلّ الرّسول بهذه الآية عندما راجعه الإمام عليّ عند إيقاظه هو وزوجه فاطمة ذات يوم للصّلاة، فقد ثبت في الصّحيح عن الإمام عليّ أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة ليلا فقال: «**ألا تصليان؟، فقال عليّ: يا رسول الله، إنما أنفسنا بيد الله، إن شاء أن يبعثنا بعثنا. قال: فانصرف رسول الله حين قلت ذلك ولم يرجع إليّ شيئا، ثم سمعته يضرب فخذه ويقول: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾**».[1]

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤمِنُواْ إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قِبَلاً﴾:

لقد كانت الآية السّابقة تمهيدا لهذه الآية التي تأتي عامة في لفظي: "النّاس" و"الهُدَى"، إذ تشملان موكب الهداية الرّبانية بجميع كتبها المنزلة، كما تشمل كلّ القوم الذين امتنعوا عن الإيمان بالله في دعوات رسلهم وعن التّوبة والاستغفار. ما الذي يمنعهم إلاّ أن يكون أحد أمرين:

أ)- ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾: بمعنى: من أن تأتيهم سنة الأولين، فهو في محلّ رفع فاعل لـ"منع" بعد الاستثناء المفرّغ. وسنّة الأولين هي هلاك الاستئصال الذي حاق بالأمم السّابقة.

١- رواه البخاري من حديث علي بن أبي طالب، كتاب (١٩) التهجد، باب (٥) تحريض النبي ﷺ على قيام الليل والنوافل من غير إيجاب، رقم ١١٢٧.

ب)- ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قِبَلاً﴾: أي العذاب الحاضر الذي يعاينونه مباشرة، كما كان يتحدّى المشركون رسول الله إذ قالوا:

- ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (العنكبوت:٢٩).

- ﴿وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأنفال:٣٢).

فهم على سنن من قبلهم في المكابرة والتّعنّت، فليحذروا أن يحلّ بهم ما حلّ بمن قبلهم؛ لأنّ سنة الله لا تتخلف.

ثم تجيء التّسلية لرسول الله بعد ذلك التّحذير والإنذار فيقول تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُواْ آيَاتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا﴾.

ليس في القرآن ولا في الكتب السّماوية الأخرى ما يمنع النّاس من الإيمان والاستغفار لله، بل هي المكابرة والعناد مما هو من طبع الإنسان. وعلى كل حال، فإنّ مهمة رسل الله أن يبشّروا وينذروا، ولكن الذين كفروا يجادلون بالباطل، لا يريدون كشف الحقيقة، ولكن يسعون لإزالة الحقّ، فذلك ديدنهم لا ينفكّون عنه. ونراهم يسخرون ويستهزءون بكل آية جعلها الله دليلا على وحدانيته وربوبيته سيما الآيات التي تذكر البعث والنّشور. وتلاوة: ﴿قِبَلاً﴾ بضمتين، تدلّ على نزول العذاب في صور شتى، فلا تعارض بين القراءتين للكلمة.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُواْ إِذاً أَبَدًا﴾: تدلّ "مَن" على الاستفهام الإنكاري، وبعد "مَن" الموصولة المجرورة تدلّ على العموم، فهي وإن كانت لغير معيّن، فأولى المقصودين بها هم

مشركو مكّة، فهذا الاستفهام الإنكاري يقتضي حتما الإقرار من طرف هؤلاء وغيرهم بأن لا أظلم ممن تحققت فيه الصّفات المذكورة وهي:

أ)- ﴿ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾: أي قامت عليه الحجة بالنّصح والتّذكير، فالرّسول لم يأل جهدا في ذلك، كما أن القرآن في متناول أيديهم تلاوة وفهما. ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (القمر:١٧).

ب)- ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾: الرّبط بفاء التّعقيب يدلّ على سرعة الإعراض منهم، وعلى أنهم لم يتركوا لأنفسهم فسحة للتدبّر والنّظر، بل هم عبّروا على ذلك بأنفسهم عندما قالوا لرسول الله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ (فصلت:٥). ويقول بعضهم لبعض: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت:٢٦).

ج)- ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾: أي لا يقيّمون أعمالهم لمعرفة الصّالح من الفاسد، وإسناد الأعمال إلى الأيدي يأتي في القرآن -غالبا- للتعبير عن الأعمال السّيئة، ونسيانها من طرف مقترفيها يعني التّغافل عنها إما سهوا أو عمدا. فلا أظلم -إذن- ممن جمع تلك الصّفات، وفي كل حالة فإن ذلك الظّلم ينصبّ على صاحبه أولا وبالذات، والإنسان ظالم لنفسه كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (فصلت:٤٦).

ولا يتعارض هذا الحكم مع التّعليل الذي عقّب به ذلك النّسيان وذلك الإعراض إذ يقول تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾؛ ذلك لأنّ الله تعالى يجيء حكمه وقضاؤه على مقتضى اختيار الإنسان وقابليته للهدى والضّلال، فجعل الكنّ على القلب والوقر على السّمع هو على التّعبير المجازي للدّلالة على الاستغلاق الكليّ لأولئك المتكبرين الجاحدين كما وصفهم الله تعالى إذ قال: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (البقرة:١٨). وقد

جعل الله العلاقة وصيدة بين تلك الجوارح إيجابا وسلبا، والقلب هو مستودع المشاعر والأحاسيس إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله كما ورد في الحديث.

﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾: الخطاب لرسول الله ينفي الله فيها هداية القوم مهما اجتهد الرّسول في التّذكير والنّصح، فرّع الله ذلك النّفي المؤكّد، فلاسطمع في إيمانهم بعد أن أوضح الله الأسباب وأغلق الأبواب، ولكنه على ذلك غفور رحيم يمهل ولا يهمل.

استهلت الجملة بما يناسب خصوصية الخالق من الحلم والرّحمة، استهلت بصفة الرّبوبية المضافة إلى رسول الله تشريفا وتسلية له لما يتصف هو الآخر به من الإشفاق على أولئك الطّغاة من قومه. فمن رحمته تعالى بهم أن لا يعاجلهم بعذاب الاستئصال، بل يستدرجهم ويملي لهم لمراجعة أمرهم، فهم وإن لم تقدر لهم التّوبة والإنابة مع الإمهال، فإنّ لهم موعدا لن يفلتوه إذا حلّ ولن يجدوا ملاذا يقيهم منه وهكذا تجمع الآية الكريمة بين التّرهيب والتّرغيب والوعد والوعيد.

ثم يأتي المثل على ما تقدم فيقول تعالى: ﴿**وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا**﴾، الإشارة إلى مستحضر في الذّهن، والمشار إليه هي القرى البائدة مما يمرّ عليه العرب في أسفارهم من قوم ثمود وصالح ومدين كما قال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ،وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. (١٣٧-١٣٨)، أي لكم فيها عبرة كيف أهلكناهم بظلمهم، وكان لمهلكهم موعد لا محيد عنه، ولا ملجأ لهم منه يلوذون به، أفلا تكون لكم في ذلك عبرة؟. وفي الآية تعريض بالمشركين أن يصيبهم مثل ما أصاب تلك القرى من الهلاك والدّمار. سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا.

والله أعلم

قصة موسى مع الخضر عليهما السّلام

أ)- النص:

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا
مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ
لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ
فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ
عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ
عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ
أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾
وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ
أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا
﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا
لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى
بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ
أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ
لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ
مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾

ب)- التّحقيق اللّغويّ:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ﴾: الفتى من الفتوة: الشّاب القويّ. مؤنثه فتاة، ويستعمل في التّابع والخادم. قال رسول ﷺ: «**لا يقل أحدكم: أطعم ربك، واسق ربك. وليقل: سيّدي، مولاي. ولا يقل: عبدي، أمتي. وليقل: فتاي، وفتاتي، وغلامي**».(1) ﴿لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾: أي لا أزال سائرا، ومجمع البحرين: حيث يلتقي بحران، وفيه خلاف في تحديد الموضع. ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾: حُقُبًا: بضمتين، جمع حقبة، وهي الفترة الطّويلة من الزّمان. ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾: الحوت: جمعه حيتان، السّمكة كبرت أو صغرت. ﴿سَرَبًا﴾: أي المسلك الذي لا نفاذ له، يقال: تسرّب الماء من القربة. وهو منصوب على الحال. وقيل: مفعول ثان لـ"اتّخذ". ﴿لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾: النّصب: التّعب والإعياء. ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾: يحكي الفتى ما حدث متعجبا. ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾: رجعا في الطّريق الذي جاء منه يقصّان الأثر. قصصا: منصوب على المصدر بفعل مقدّر. ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾: لدُن: كـ"عند" كلاهما اسم مكان قريب، ويستعملان مجازا في اختصاص المضاف إليه بموصوفهما، والعلم اللّدني: هو علم خاصّ يمتاز بالمكاشفات. ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾: الرّشد: إصابة الخير وحسن التّصرّف في الأشياء، وانتصب على المفعولية. ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾: الخبر: العلم بالشّيء ومعرفته. ومنه الخبير: العالم بدقائق العلم. والخُبْر: بضم الخاء وسكون الباء، منصوب على التّمييز. ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾: أي أبتدئك أنا ببيانه وتوضيحه. ﴿خَرَقَهَا﴾:

١- رواه مسلم من حديث أبي هريرة، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب حكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولى والسيد، رقم ٢٢٤٩.

أي: أحدث فيها ثقبا بأن اقتلع منها لوحا من جهة البحر ليدخلها الماء. ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً﴾: أتيت أمرا فظيعا منكرا. ﴿وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنَ أَمْرِي عُسْراً﴾: أي تكلفني في صحبتي إياك عسرا ومشقة. ﴿أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾: زاكية: بمعنى طاهرة؛ لأنها نفس غلام لم يبلغ الحلم، قتلتها بغير حقها. ﴿بَلَغْتَ مِن لَّدُنِي عُذْراً﴾: أي ليس لي عذر بعد ذلك إن تماديت في السّؤال.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَمَآ أَنسَانِيهُ﴾: قرأ الجمهور بكسر هاء الضّمير بعد الياء، وهو الأشهر، وقرأ حفص عن عاصم بضمّ الهاء على أصل الضّمير وهي لغة. ﴿رُشْداً﴾: قرأ الجمهور بضمّ الرّاء وسكون الشّين، وقرأه أبو عمرو ويعقوب بفتح الرّاء وفتح الشّين، وهما لغتان. وعن ابن عباس بضمّ الرّاء والشّين. ﴿نَبْغِ﴾: قرأ نافع وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر بحذف الياء في الوقف، وبإثباتها في الوصل. وقرأ عاصم وحمزة وابن عامر بحذف الياء في الوصل والوقف. وقرأ ابن كثير ويعقوب بإثباتها في الحالين. ﴿فَلاَ تَسْأَلْنِي﴾: قرأ نافع بالهمز وفتح اللاّم وتشديد النّون، على أنه مضارع "سأل" المهموز مقترنا بنون التّوكيد الخفيفة المدغمة في نون الوقاية وبإثبات ياء المتكلم. وقرأ ابن عامر مثله، لكن بحذف ياء المتكلم. وقرأ الباقون: ﴿تَسْأَلْنِي﴾ بالهمز وسكون اللاّم وتخفيف النّون، وأثبتوا ياء المتكلم. ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾: قرأ الجمهور: ﴿لِتُغْرِقَ﴾ بمثناة فوقية مضمومة على الخطاب. وقرأه حمزة والكسائي وخلف: ﴿لِيُغْرِقَ﴾ بتحتية مفتوحة، ورفع: ﴿أَهْلُهَا﴾ على إسناد فعل الغرق للأهل. ﴿نَفْساً زَاكِيَةً﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس عن يعقوب: ﴿زَاكِيَةً﴾ بألف بعد الزّاي، اسم فاعل من "زكا"، وقرأ الباقون: ﴿زَكِيَّةً﴾ وهما بمعنى واحد. ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِي عُذْراً﴾: في لفظ: ﴿لَّدُنِي﴾ قراءات، قرأ نافع وأبو بكر في بعض الرّوايات عن عاصم: ﴿مِن لَّدُنِي﴾ بتخفيف

النّون وضمّ الدّال. وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم: ﴿لَدُنِّي﴾ مشددة النّون وضم الدّال. وقرأ أبو بكر عن عاصم بالإشمام وغير إشباع. وعن عاصم في بعض الرّوايات بضمّ اللاّم وسكون الدال.

د)- بين يدي تفسير النص:

تطرح أسئلة على ما في النّصّ من ذكر أسماء أشخاص وأماكن فيقال:

أ)- من المراد بموسى في النّص؟

ب)- من هو فتاه؟.

ج)- من المراد بقوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَآ﴾؟.

د)- أين يقع مجمع البحرين؟.

وللإجابة على هذه الأسئلة ننقل -باختصار- ما أورده المفسرون في الموضوع فنقول:

أ)- من هو موسى المذكور في النص؟.

أغلب المفسرين على أن موسى المذكور في هذه القصة هو موسى بن عمران رسول بني إسرائيل كليم الله وصاحب التوراة؛ لأنه تعالى ما ذكر في كتابه بهذا الاسم إلا هذا الرّسول الكريم. والذين يزعمون أن موسى صاحب الخضر ليس بموسى رسول بني إسرائيل هم يكذبون كما ثبت ذلك عن ابن عباس. فلا عبرة -إذن- بذلك القول الذي لا يستند إلى دليل، سيما والمخاطبون لا يعرفون إلا موسى الذي تعدّدت في القرآن قصصه من ميلاده إلى وفاته.

ب)- من هو فتى موسى؟.

والفتى بمعنى الخادم، وليس شرطا أن يكون عبدا. يقول عنه الشّيخ المراغي:

"هو يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف عليه السلام وقد كان يخدمه ويتعلم عنه".[١]

وقد أفاض الشّيخ ابن عاشور في ترجمته فقال ما مختصره: "كان يوشع أحد الرّجال الإثني عشر الذين بعثهم موسى عليه السلام ليتجسّسوا في أرض كنعان في جهات حلب وحبرون، وهو أحد الرّجلين اللّذين شجّعا بني إسرائيل على دخول أرض كنعان، اللّذين ذكرهما القرآن في آية: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ (المائدة:٢٣).

كان ميلاد يوشع في حدود سنة ١٤٦٣ قبل المسيح ووفاته في حدود ١٣٥٣، وعمّر مائة وعشر سنين. وكان موسى عليه السلام قد قرّبه إلى نفسه واتخذه تلميذا وخادما. أمر الله موسى بأن يعهد إليه بتدبير أمر الأمة الإسرائيلية بعد وفاة موسى عليه السلام فصار نبيا من يومئذ".[٢]

ج)- من هو العبد الصّالح ؟.

يقول عنه الإمام بيوض -رحمه الله- ما مختصره: "يكاد ينعقد الإجماع أنه الخضر عليه السلام، وإنما الخلاف في نسبه من هو؟، ومن أين هو؟، كم عمره؟، هل هو من بني إسرائيل؟. وإذا كان من بني إسرائيل فإنه يكون من الذين أرسل إليهم موسى. فموسى -إذن- نبيه ورسوله، فكيف يكون هو أفضل من نبيه ورسوله؟. وقال آخرون: سمّي بالخضر؛ لأنّ الأرض تخضرّ حيثما جلس فيها للصلاة. وجعله صاحب العقيدة عندنا "الشّيخ أبو حفص عمرو بن جميع الجربي" جعله من الأربعة الذين لم يموتوا إلى الآن: عيسى وإدريس في السّماء والخضر وإلياس في الأرض".[٣]

١- المراغي، التفسير: ص١٧٢.

٢- محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير: ١٥/٣٦٠.

٣- إبراهيم بن عمر بيوض، في رحاب القرآن (تفسير سورة الكهف): ٢٧٨-٢٧٩.

قلت: كذلك ومع لاختلاف في تحديد اسمه، فنقل الشّيخ اطفيش -رحمه الله- روايات كثيرة فسأل في مقدمة تحقيقه لذلك: "والعبد المذكور هو الخضر، بفتح الخاء وكسر الضّاد أو إسكانها أو بكسرهما أو بكسرها وإسكان الضّاد، أو أبو العباس يليا، بفتح فإسكان وقصر أو مدّ، وقيل: إيليا، وقيل: اسمه عامر، ويضعف القول أنه أحمد". ثم يقول بعد تفصيل أكثر: "ولا أعرف صحة شيء من هذه الأقوال".[1]

د)- أين يقع مجمع البحرين؟.

كذلك اضطربت في تحديده أقوال العلماء فقال البعض: هو في باب المندب في مجمع بحر فارس وبحر الرّوم. وقال الإمام القرطبي: هو في صخرة جبل طارق حيث يلتقي المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط. واشتط آخرون فقالوا: هو في مضيق الدردنيل أو مضيق البوسفور. ويقول الإمام بيوض: "والذي رجّحه بعض المتأخرين أن مجمع البحرين: هو مجمع خليج العقبة وخليج السّويس. ثم قال: ويبدو أن الأرجح هو هذا؛ لأنه مضطرب بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر".[2]

ويقول عنه الإمام ابن عاشور: "ومجمع البحرين لا ينبغي أن يختلف في أنه مكان من أرض فلسطين، والأظهر أنه مصبّ نهر الأردن في بحيرة "طبرية"، فإنه النهر العظيم الذي يمرّ بجانب الأرض التي نزل بها موسى عليه السلام وقومه. وكانت تسمّى عند الإسرائيليين "بحر الجليل"، بلغ إليها بعد مسير يوم وليلة راجلا، فعلمنا أنه لم يكن بعيدا جدّا، وأراد موسى أن يبلغ ذلك المكان؛ لأن الله أوحى إليه أنه

١- احمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير: ٣٨٧/٨.

٢- إبراهيم بن عمر بيوض، المصدر السابق: ص٢٦٧.

يجد فيه العبد الذي هو أعلم منه فجعله ميقاتا له".[1]

هـ)- البيان والتّفسير:

نحن بإزاء قصّة انفردت في القرآن الكريم بذكر حلقة من سيرة موسى عليه السلام وهي سفره إلى لقاء الرّجل الصّالح الخضر عليه السلام ليتعلّم منه. فهي وإن جاءت قصّة مستقلة بمشاهدها وأحداثها، لا تخلو من مناسبة بين ما سبق وما لحق من قصة أهل الكهف وقصّة ذي القرنين. وكيف أنّ الباعث في سؤال كفار قريش للرّسول عن القصتين هو المكابرة والعناد والحسد، وذلك من أخلاق الشّياطين.

وبطريق الإيحاء والتّعريض جاءت هذه القصة العجيبة في أطوارها ومشاهدها لتبيّن لليهود ولكفار قريش أن موسى الذي يتعصبون له لم يأخذه الكبر والعجب بما خصّه الله به من كلامه ووحيه، ولم يمنعه ذلك أن يركب الأهوال، ويدمن التّطواف والتّرحال بحثا عمّن هو أعلم منه ليتواضع أمامه ويتعلم منه، بعد ما أخبره الله بأن هناك في الأرض من هو أعلم منه. كما أن قصة ذي القرنين تدلّ على ما يمكن أن يستفيده الإنسان من السّير في الأرض طلبا للعزة والمجد، ونصرة الحق والعدل.

يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾.

والتّقدير في جملة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ هو كسابقه، أي: أذكر يا محمد حين قال موسى لفتاه. فقد أعدّ موسى لهذه الرّحلة المباركة عدّتها من رفيق مخلص يخدمه ويأنس به ومن زاد يكفيهما مؤونة السّفر. وأعظم من ذلك تلك العزيمة وتلك الإرادة في الوصول إلى مبتغاه وإن كلّفه ذلك جهدا كبيرا وزمنا طويلا. وذلك ما

١- محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتنوير: ٣٦٢/١٥.

عبّر عنه موسى لفتاه: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾.

لا أبرح بمعنى: لا أتخلّى عما أنا بصدده من السّفر إلى مجمع البحرين ولو تطلبّ ذلك مني وقتا طويلا. وعلى الخلاف الذي وقع بين العلماء في تحديد مكان البحرين، فإنّ الأرجح هو أن لا يتعدّى مضطرب بني إسرائيل بين مصر وفلسطين -كما تقدم-، ونجد في السّنة من حديث أخرجه البخاري وأحمد ومسلم عن أبيّ بن كعب عن رسول الله ﷺ قال: «**إن موسى قام خطيبا في بني إسرائيل، فسئل: أيّ النّاس أعلم؟. فقال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يردّ العلم إليه. فأوحى الله إليه أن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال موسى: يا ربّ فكيف لي بـه؟. قال: تأخذ حوتا فتجعله في مكتل، فحيثما فقدت الحوت فهم ثمّ**».[1]

فإذا صحّ هذا الحديث فليس في ادّعاء موسى انفراده بالعلم أمام أتباعه ما يعاب عليه، عندما غفل أن يردّ العلم إلى الله تعالى. ولكن المولى -جلّت حكمته- قرّر أن يعلّمه ما ينبغي أن يكون عليه من الأدب النّبوي الرّفيع من خلال وقائع هذه القصة العجيبة. وللإمام الشّعراوي ملحظ دقيق في ذكر سبب القصة. وهذا مختصر ملاحظته إذ يقول: "وسبب قصة موسى عليه السلام يقال: إنه سأل الله -وكان له دلال على ربّه- والذي أطمعه في هذا المطلب أن الله كلّمه، فأطال موسى الكلامَ مع ربّه، فأراد أن يطيل أمد الأنس بكلام الله والحديث معه لذلك سأله: يا ربّ أيوجد في الأرض أعلم مني؟، فأجابه تبارك وتعالى: نعم في الأرض من هو أعلم منك، فاذهب إلى مجمع البحرين، وهناك تجد عبدا من عبيدي هو أعلم منك".[2]

١- رواه البخاري من حديث أبي بن كعب، كتاب (٦٠) أحاديث الأنبياء، باب (٢٧) حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، رقم ٣٤٠٠.

٢- تفسير الشعراوي: ١٤/٨٩٨٤.

قلت: مثل هذا السّعي الحثيث من موسى عليه السلام لمعرفة العلم اللّدنّي الـذي خصّ الله به العبد الصّالح الخضر عليه السلام يدلّ على شرف ذلك العلم، وأنـه غـير النّبوءة التي تأتي بواسطة الملك جبريل، وبواسطة الرّسول المختار. فقد وضّح الشّيخ الشّعراوي الفرق بينهما فقال: "علينا أن نفرّق بين علم وفيوضات تأتي عن طريـق الرّسول وتوجيهاته، وعلم وفيوضات تأتي من الله تعالى مباشرة لمن اختـاره مـن عباده؛ لأنّ الرّسول يأتي بأحكام ظاهرية تتعلق بالتّكاليف: افعل كـذا، لا تفعـل كذا. لكن هناك أحكام أخرى غير ظاهرية لها علل باطنة فوق العلـل الظّاهريـة وهذه هي التي اختصّ الله بها هذا العبد الصّالح "الخضر" كما سمّاه النّبي ﷺ".[1]

إذًا لقد تحدّد المكان ورسم الهدف، وعرف المسافر أنّ العلامة التي تـدلهما على المكان هي فقدان الحوت من المكتل. قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَـا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ، فِي الْبَحْرِ سَرَبًا، فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ ءَاتِنَا غَـدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا، قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى الصَّخْرَةِ فَـإِنِّي نَـسِيتُ الْحُوتَ وَمَآ أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ، فِي الْبَحْرِ عَجَبًا**﴾.

نفهم من السّياق أنّ موسى وفتاه سارًا في منطلق رحلتهما صوب مجمع البحرين حيث دلّهما الله إليه، ولكن نسيا حوتهما في بعض الطّريق، وكـان حوتا مشويا في المكتل. وقد نسب الله إليهما النّسيان معا، بينما المهمة كانت موكلة إلى الفتى حامل المكتل، غير أن موسى -باعتباره رئيس الموكب- كان عليه أن يتفقد أحوال الرّحلة، وهو إذ لم يفعل ذلك فإن لـه قـسطا مـن المسؤولية.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ، فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أي: تسرّب الحـوت في الماء جريا على طبيعته المائية. وعودة الحياة إلى الحوت المشويّ هـو معجـزة

١- تفسير الشّعراوي: ١٤/٨٩٤٥.

خارقة للعادة مما خصّ الله به موسى من المعجزات، جعلها الله لـه علامـة للموعد مع الرّجل الصّالح، ولكنهما جاوزا ذلك المكان وأحسّا بالجوع مـن طول المشي. وعند ذلك انتبه موسى لتجاوز مكان الموعد، فطلب من فتـاه الطّعام، فاعتذر هذا بنسيان الحوت عند الصّخرة، وأنّ الشّيطان هـو الـذي شوّش عليه أفكاره فنسي مهمته. متعجّبا ممّا حدث.

﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصاً، فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾:

ونون العظمة في قوله: "نبغي" أهي للتعظيم يقصد بها موسى نفسه، أم هي لمشاركة فتاه معه في ذلك المبتغى فيكون الفتى على علـم مـن غـرض السّفر؟. وعلى أيّ احتمال فإن الفتى عند الارتداد إلى موضع الصّخرة يختفي من مسرح الأحداث في ما ذكره النّصّ القرآني، ومن ثمّ يبقى ذلك اللّقاء مع العبد الصّالح على انفراد لموسى. ويطوي النّصّ مصير الفتى.

ثم تتتابع المحاورة وتجري فصول المشاهد بعدها بين موسى ومعلّمه العبد الصّالح، والذي وصفه الله بقوله: ﴿ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾.

فالصّفة التّشريفية الأولى أنّه عبد من عباد الله الأوفياء، وعلى ما خصّه به من كرامات فهو من عباد الله الكثيرين.

ب)- والصّفة الثّانية: ﴿ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾، ومن معاني الرّحمة: النّبوءة، في قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ (الزّخـرف:٣٢). إمـا لكونه رحيما بالنّاس، أو هو مرحوم بعناية الله له؟. وعلى أي احتمال فهـي رحمة خاصة له من عند الله مباشرة، كما أعطاه العلم اللّدني.

ج)- ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾: وهو علم المكاشفات الغيبية -كما تقدم- فهو إذن في هذا المجال أعلم من موسى كما أخبره الله، فنجده يتودّد إليه ويتلّطف بأدب رفيع، وهو مثال نموذجي لما يجب أن يكون بين التّلميذ ومعلّمه.

﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً، قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً، وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً، قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَآءَ اللَّهُ صَابِراً وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً، قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً﴾:

دارت هذه المحاورة الشّيّقة بين موسى ومعلّمه، فنلاحظ ذلك الأدب النّبويّ الرّفيع من موسى إذ وجّه طلبه بصيغة الاستفهام الدّالّ على العرض. وطلب العلم في مصاحبة للمعلّم الرّاشد ممّا خصّ الله به العبد الصّالح زيادة على ما يتمتع به موسى من علم النّبوءة، مما يدلّ على الطّموح الذي ينبغي أن يكون عليه طالب العلم على قاعدة: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (يوسف:٧٦). وقاعدة: علمت شيئا وغابت عنك أشياء.

وبما أن العلم اللّدنّي ليس هو بالعلم البشريّ الواضح الأسباب، والذي جاء به موسى في مجال التّكليف، فإنه يكون أمام أسرار العلم اللّدنّي عاجزا حائرا في فكّ ألغازه، ومن ثمّ لا يطيق صبرا أمام ما سيشاهده من تصرّفات العبد الصّالح الذي بادره بقوله: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً، وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً﴾.

تأكدت هذه الإجابة بمؤكدات تدلّ على الشّروط الصّعبة لتلك الصّحبة المطلوبة، وكان العبد الصّالح يعتذر لموسى إن لم يطق صبرا لما سيشاهد من أفعال هي منكر في حكم شريعته ولكنها معروفة باعتبار حكمتها ومآلها فقال

له معلّمه: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾، ولكن موسى عقد عزمه على الاطّلاع والتّعلّم فجاءت إجابته مقرونة بمشيئة الله تأدّبا واستمالة لقلب المعلّم، ووفاء بواجب المتعلّم، والذي يتمثل في أمرين:

أ)- ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾: فالصّبر هو سلاح المتعلم، سيما إذا كان يزاول موضوعات تتّسم بالصّعوبة والمشقّة، كما يحدث لكثير من الطّلبة مثلا في علوم الرّياضيات والفيزياء، ويقتضي هذا الصّبر المطلوب أن يكون الطّالب طائعا لمعلمه. وذلك ما عبّر عنه موسى بقوله:

ب)- ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾: وهذا أبلغ من قوله: "ولا أعصي أمرك"؛ لأنّ إيراد النّكرة أمرا في سياق النّفي هو للشمولية والاستغراق.

ولمزيد من تأكيد شروط الصّحبة قبل بدء الرّحلة فرّع العبد الصّالح على وعد موسى بالصّبر والطّاعة، فرّع شرطا آخر يلتزم به المتعلم فقال له: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾، أكد النّهي لتحقيق حصول ما التزم به موسى فلا يسأل معلمه عن شيء وقت قيامه بأيّ تصرّف يبدو له غريبا حتى يكشف له عن سرّ ذلك بعد الحادثة، ويرضى موسى بتلك الشّروط ثم تبدأ الرّحلة، فينطلق الرّجلان معا صوب سفينة لنقل الرّكاب، فيأخذان مكانهما، وتبدأ المفاجآت المحيّرة لموسى وينسى وعده لمعلمه.

قال تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾:

فنحن أمام المشهد الأول من رحلة المصاحبة المباركة، وها هو العبد الصّالح يبادر بخرق السّفينة، وجاء التّعريف فيها للعهد الذّهني، والتّعبير بـ"إذا" يدل على القيام بالخرق إثر الرّكوب مباشرة، فلم يطق موسى صبرا

على ما رآه ناسيا شرط الصّحبة أمام ذلك التّصرّف العجيب الذي يعني غرق السّفينة، فقال مستنكرا: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً﴾.

فلم يكتف موسى بالاستنكار، بل اتهم معلمه باقتراف منكر فظيع، مما يدلّ على حدّة الطّبع، والحالة الانفعالية التي كان عليها.

يقول سيد قطب معلقا على هذا الموقف: "والإنسان قد يتصوّر المعنى الكليّ المجرّد، ولكنّه عندما يصطدم بالتطبيق العملي لهذا المعنى والنّموذج الواقعي منه يستشعر له وقعا غير التّصوّر النّظري، فالتّجربة العملية ذات طعم آخر غير التّصوّر المجرّد".[1]

ذلك ما حدث لموسى وهو يحاول أن يوائم بين ما شاهده وبين الحكم الشّرعي في إتلاف مال الغير، ولكنه اصطدم بتصرفات معلّمه الذي لاطفه مرة أخرى وذكره بالشّرط الذي التزم به فقال: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً، قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً﴾.

يعتذر موسى بأدب إذ نسي التزامه بالشّرط، ويلتمس من معلّمه عدم المؤاخذة على ذلك، وأن لا يرهقه في المعاملة بكثرة التّذكير.

وإذ قبل المعلم الاعتذار ينتقل الرّجلان إلى المشهد الثّاني: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلاَماً فَقَتَلَهُ، قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً﴾.

وهذه المبادرة أغرب وأعجب في نظر موسى، نظرا لحرمة النّفس البشرية أن تزهق بغير حقّ، وذلك محرّم في جميع الشّرائع السّماوية. ومرة أخرى لم يملك موسى نفسه في اللّوم والعتاب الذي وجّهه إلى معلّمه قصدا

١- سيد قطب، في ظلال القرآن: ٣٩٧/١٧.

من غير نسيان وبلهجة أعنف من الأولى؛ لأنّ الغلام المقتول ذو نفس زكية طاهرة، إذ لم يبلغ رشده فيحاسب على ما يفعل.

وهنا يأتي ردّ المعلم بالتعيين المباشر للمخاطب: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ﴾، وبنفس التّذكير في المرة الأولى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

وكان موسى قد راجع نفسه للمرّة الثّانية بمخالفة الوعد، فلا يرى إلا أن يقطع الطّريق على نفسه ويجعلها محاولة أخيرة إن أخلّ بالشّرط مرة أخرى: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾.

إنه الفراق بين الرّجلين إن تمادى موسى على قلة صبره وإخلاله بالشّرط، وإنها الفرصة الأخيرة.

شاءت حكمة الله أن تكفي النّماذج الثّلاثة لتكون المكاشفة الغيبية بعدها للرّجل الصّالح، وقد تمنّى رسول الله أن لو صبر موسى عليه السلام حتى نعرف الكثير من تلك الأخبار العجيبة، والله أعلم.

المشهد الثّالث من قصة موسى مع الخضر، مع تأويل تلك التّصرّفات

أ)- النص:

فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم

مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾: أي طلبا منهم الطّعام للضيافة. ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾: أي امتنعوا أن يقدموا لهما كل واجبات الضّيافة من الطّعام والإيواء وغيرهما، وذلك منتهى اللّؤم. ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾: أي حائطا يوشك على الانهيار، استعيرت الإرادة للمقاربة. أقامه: الضّمير يرجع إلى الخضر، أي أصلح ما كان فيه من خلل. وقيل: نقضه تماما وأعاد بناءه. ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾: القول لموسى، تحريض منه للخضر أن يأخذ جعلا على عمله. ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾: أي نسب الخضر اتخاذ الخرق في السّفينة إلى نفسه لتكون معيبة في نظر الملك الغاصب الجبار. ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾: تقدر صفة محذوفة للسفينة، أي: كل سفينة صالحة. وغَصْبًا: مصدر مبيّن للنوع، مفعول مطلق منصوب، والغصب هو الأخذ بغير حق. ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾: أي باعتبار ما يكون عليه ذلك الغلام مستقبلا مما سبق في علم الله أن يكون طاغيا كافرا في بيت مؤمن صالح. فإما أن يشقى والداه بتمرده وعصيانه، وإما يخشى عليهما من الارتداد إلى الكفر بسببه. ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾: الزّكاة هنا بمعنى الصّلاح والتّقوى. و﴿رُحْمًا﴾: بمعنى الرّحمة، أي يكون البديل بارًا بوالديه. ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾: الكنز: هو المال

المدفون. ﴿أَنْ يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾: أي يأنسان رشدهما في تدبير شؤونها.

ج)- أوجه القراءة:

﴿لاتَّخَذتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾: قرئ: ﴿اتَّخَذ﴾ على وزن "افتعل" كقولنا: ﴿اتَّبعَ﴾ (آل عمران:١٦٢). وقرئ: ﴿لَتَخَذتَ﴾ من "تخذ"، والتاء فيه أصلية. ﴿أَنْ يُبْدِلَهُمَا﴾: قرأ نافع وأبو عمرو: ﴿يُبدِّلَهُمَا﴾ بفتح الباء وتشديد الدّال، وقرأ الباقون بياء ساكنة خفيفة الدّال. ﴿رُحْماً﴾: قرأ ابن عامر في إحدى الرّوايتين عن أبي عمرو: ﴿رُحُماً﴾ بضمّ الحاء، والباقون بسكونها وهما لغتان.

د)- البيان والتّفسير:

نحن بإزاء المشهد الثّالث من قصة موسى مع العبد الصّالح، وتتوالى المفاجآت في صحبتهما، وقد قطع موسى على نفسه أن لا يسأل صاحبه عن تصرفاته، فإذا بهما يحسّان بالجوع، والسّير الطّويل مدعاة لذلك. حتى إذا وصلا إلى قرية طلبا من أهلها الطّعام، وليس في ذلك غضاضة. قال تعالى: **﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ اَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ، قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾**.

ما يزال جوّ الغموض والمفاجأة يسود جوّ القصّة في جميع مشاهدها، فلم يذكر فيها إلا اسم موسى؛ لأنه محلّ الاهتمام في طلب هذا العلم الخاصّ، وعتّم النّص في بيان اسم صاحبه كما عتّم في المشهد الثّالث عن ذكر اسم القرية وعن المسافة التي قطعها الرّجلان وعن موعد وصولهما إليها، وكل ذلك يناسب حالتنا النّفسية، ونحن نتابع مشاهد القصة، وننتظر بشوق فكّ ألغازها.

فهذان الرّجلان عابرا سبيل، ومن حقّهما أن يطلبا الطّعام لسدّ

حاجتهما، فليس ذلك من السّؤال المنهيّ عنه شرعا؛ لأن حقوق الضّيافة متعارف عليها عند النّاس منذ الزّمن القديم.

غير أن التّعبير بقوله تعالى: ﴿أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ فيه من التّصوير البديع لمدى لؤم وبخل أهل القرية. وذلك بالتّأكيد على لفظ "الأهل" بتكراره، والرّبط بالفاء يدلّ على أن البخل كان فيهم سجية، إذ كان منعهم الطّعام مباشرة بعد طلب الرّجلين. ويؤيّده قوله تعالى: ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾، ففعل الإباء يكون متعمّدا، ثم إن اختيار صيغة الجمع: "فَأَبَوْا" يؤكد ذلك أيضا، ضرورة أن الرّجلين لم يطلبا جميع أهل القرية، حتى لكأنهم مجمعون على ذلك اللّؤم والبخل.

ثم يقول تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾، أي أن الرّجلين عاينا معا ذلك الجدار الذي هو على وشك السّقوط، ولكن الله أسند فعل التّرميم والإقامة إلى العبد الصّالح، لأنه صاحب المكاشفات الغيبية، ولم يبيّن النصّ كيف أقام ذلك الجدار وهل رمّمه أو جدّد بنيانه كلية؟ لا يهمّ ذلك التّفصيل فهو يفعل ذلك بأمر الله، وهو الذي ييسّر عليه أمره.

ولكن موسى لم يتمالك مرة أخرى أمام ما يراه من التّناقض في أفعال صاحبه، فالسّفينة السّالمة خرقها، بينما هنا يقيم الجدار المائل، حقا إنها تصرّفات عجيبة تبعث على التّساؤل فقال موسى لصاحبه: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾.

نلاحظ الأدب العالي في تعبير موسى بـ"لو"، إذ ليس في كلامه عتاب مباشر لصاحبه، عندما قابل إساءة أهل القرية بذلك الإحسان، إذ لا بدّ للجهد البدني من عوض. فملاحظة موسى كانت وفق المألوف العرفي عند النّاس، بل حتى الحكم الشّرعيّ العادل. ولكن العبد الصّالح ينهي حيرة موسى

بما وعده به من تأويل ما رأى فقال له: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴾.

هكذا كانت المفاصلة بين الرّجلين ضربة لازب، إذ اشترط موسى على نفسه إن سأل الرّجل في المرة الثّالثة أن ينهي صحبته به. وها هو يسأله فليس -إذن- إلا الفراق بينهما. ولكن العبد الصّالح يريد أن يوفّي بوعده لموسى فيبيّن له ما غمض عليه، فلم يتركه في حيرته. إذ قال له: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴾.

ونعمت الخاتمة لهذه الصّحبة، إذ انتهت بتمام المفاهمة والوفاق على ما لكلّ من الرّجلين من توجّه متناقض، ولكن يلتزم كلّ منهما حدود ما علّمه الله.

ثم أخذ العبد الصّالح يكشف ما غمض على موسى من تصرفاته فقال: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُمْ مَّلِكٌ يَاخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾.

السّفينة هي ملك لمساكين -هكذا بصيغة الجمع- دون ذكر العدد، وأقل الجمع ثلاثة، كما أنه لم يفصّل طبيعة ذلك العمل، وهو بالطّبع للكسب والارتزاق، وكان أمامهم ملك جبّار يغتصب كلّ سفينة صالحة، فإحداث العيب فيها من طرف العبد الصّالح إنما هو لاتّقاء ما هو أضرّ بأولئك المساكين من الاستيلاء عليها كلّها لو بقيت سليمة.

والأخذ بالغصب يستلزم القوة، وقد يدافع المالك الشّرعيّ عن حقه، ولكن هؤلاء المساكين ليست لهم تلك القوة، فكان ذلك العطَب الجزئي في سفينتهم هو الحائل عن غصبها، ممّا يمكن أن نستخلصه من ذلك التّصرّف العجيب للعبد الصّالح في المحافظة على المال ولو بمختلف الحيل التي تفوّت على

الظّالم أو السّارق انتهاك حرمة ذلك المال، سيما إذا كان ليتيم عاجز كما قرر العلماء.

واستنتج بعض العلماء من هذه الآية التّعريف الصّحيح للمسكين، بأنه هو الذي يملك شيئا ولكنه لا يكفيه، بينما الفقير هو الذي لا يملك شيئا. غير أن قطب الأئمة -رحمه الله- لا يرى في الآية دليلا على ذلك، فهو يقول في تيسيره: "فلا حجة في الآية لمن يقول: إن المسكين من له شيء لا يكفيه، ولا على من يقول: إن المسكين لا يملك شيئا أصلا؛ لأنّ هذه السّفينة عارية في أيديهم، أو يعملون فيها بأجرة، لكن الظّاهر أنها لهم، فالمسكين من له ما لا يكفيه، ويمكن أن يتزلوا منزلة من لا شيء له أصلا".[1]

قلت: إن افتراض الشّيخ بكون السّفينة عارية في أيدي المساكين ليس له في النّصّ ما يسنده، بل اللاّم في قوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ﴾ تدلّ على الملك فترجّح بذلك قول القائلين بأنّ المسكين هو من يملك شيئا ولكنه لا يكفيه، ولعلّ البدء بالفقراء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ (التوبة:٦٠) يدلّ على أن الفقير هو الذي لا يملك شيئا أصلا، فهو -إذن- أشدّ حاجة من المسكين.

وفي تأويل المشهد الثّاني يقول تعالى: **﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُومِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً، فَأَرَدْنَآ أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾**.

الغلام: هو الصّبيّ الذي لم يبلغ سنّ التّكليف، فظاهره أنه ما يزال زكيّا طاهرا كما وصفه موسى بأنّه "نفس زاكية"، وأنّه نشأ في فتنة لأبويه كما قال

١- احمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير: ٨/٤٠٨.

تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ (التغابن:١٥).

وقد سبق في علم الله أن هذا الولد يكون في مستقبله طاغيا كافرا، ممّا يرهق والديه المؤمنين إذ يكون سببا في فساد دينهما، فكان من الخير لهما، ومن رحمة الله بهما أن يبدلّهما الرّبّ تعالى ولدا أطهر وأقرب رحمة لوالديه. واختير ضمير العظمة في: ﴿خَشِينَا﴾ وفي: ﴿أَرَدْنَا﴾؛ لأن العبد الصّالح يتكلم بلسان الحق تبارك وتعالى.

ومحلّ الواجب لموسى وفق أحكام شريعته أن لا تقتل نفس بغير حقها، ولكن حكم الغيب الذي لا يعرفه إلا الله ولا يظهره إلا لمن ارتضى من عباده قد كشف عن الطّبيعة المكنونة في نفس ذلك الغلام، بأنها كفر وطغيان. فكان من الخير له ولوالديه أن يقضي الله بما تمّ على يد العبد الصّالح من قتل ذلك الغلام قبل أن تحصى أعماله، وبالتّالي فقد تخلّص الوالدان المؤمنان من الرّهق الذي يلحقهما من ذلك الولد لو بقي حيّا.

ثم يقول الله تعالى عن المشهد الثّالث: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

اجتمع في الغلامين ضعفان: ضعف الطّفولة البريئة وضعف اليتم، ومن تمام صلاح أبيهما أن ادّخر لحاجتهما مالا تركه لهما كنزا مدفونا تحت جدارهما. وكاد ينكشف ذلك الكنز لميلان الجدار، وليس للغلامين حول ولا قوة لإقامته، فقيّض الله العبد الصّالح للقيام بذلك العمل حفظا لمال اليتيمين حتى يبلغا أشدّهما، بحيث يملكان حينئذ القوة على استخراج ذلك الكنز، ولابدّ أن يكون الأب الصّالح قد أوحى بذلك أو ترك علامة تدلّ على الكنز.

١- رواه البخاري من
قصة ياجوج وماجوج،

ونلاحظ أن العبد الصّالح كان على المستوى في الأدب الرّفيع مع ربّه عندما أسند الإرادة إليه في مثل هذا العمل الخيريّ الكبير، كما أن النصّ لم يذكر أيّ مشاركة لموسى في العمل الذي قام به العبد الصّالح في المشاهد الثّلاثة، اللّهم إلا ما كان يبديه موسى من الملاحظات في كل مرّة، مما حدا بصاحبه بعد كشفه لأسرار ما قام به أن يرجع الفضل إلى الله، وأن ما فعله لم يكن بمحض اختياره وإرادته ولكنه كان بأمر من الله تعالى.

ثم بأسلوب التّعريض المتضمن للعتاب اللّطيف قال لموسى: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾؛ لأن تكرار ذلك الموقف في كلّ مرة بعد أن تعهّد أن لا يتعجّل في السّؤال هو مدعاة للنقد والعتاب.

أما التّعبير هنا بقوله: ﴿مَا لَمْ تَسْطِعْ﴾، بينما قال قبل التّوضيح والبيان: ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾، ففيه نكتة بلاغية قال عنها ابن كثير في تفسيره: "لما أن فسّره وبيّنه ووضّحه وأزال المشكل قال: ﴿تَسْطِعْ﴾، وقبل ذلك كان الإشكال قويًا ثقيلا فقال: ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع﴾ فقابل الأثقل بالأثقل والأخفّ بالأخف".[1]

قلت: بمثل ذلك البيان توادع الصّاحبان، فرجع موسى إلى قومه معتزا بما علمه الله، وبقي الخضر يسيح في أرض الله، يهيم في سبحاته اللّدنية.

والله أعلم

١- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ٠٣/١٠٠.

١- رواه البخاري من
قصة ياجوج وماجوج،

قصة ذي القرنين

أ)- النص:

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا
لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ
مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا
ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ
نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ
صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا
سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا
بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا
ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ
أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ
أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ـ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ
قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟
أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ
رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً﴾: مِنْهُ: "من" للتبعيض، فالقصة لا تذكر تاريخ ذي القرنين كله. و"الذِّكر" يرد في القرآن بمعان متعدّدة، وبينها قاسم مشترك في الشّرف والرّفعة وفي التّذكّر والاعتبار. والمراد هنا: الصّيت الحسن والشّرف بذكر القرآن لهذا الاسم. ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ﴾: أي سخّر الله إمكانيات يتصرف بها كيف يشاء في أموره. ﴿وَءَاتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾: أي أنه تعالى وفّر له الوسائل في كل شيء يريد أن يصل إليه. ﴿بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾: أي مكان غروبها حسبما تبدو لعين الرائي، وإلا فإن الشّمس لا تغرب من الأفق الفسيح. ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾: أي عين ماء ذات طين أسود، وهو الحمأ المسنون. ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً﴾: أي وجد عند تلك العين قوما وثنيين. ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً﴾: أي ألهمه الله بما يجب أن يعاملهم به، ولكن بعد أن يبيّن لهم وجه الصّواب ثم يحكم على تصرفاتهم بعد ذلك. ﴿فَلَهُ جَزَآءُ الْحُسْنَى﴾: الْحُسْنَى: مؤنث لحسن. والتّقدير: المثوبة الحسنى. ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْراً﴾: أي لا يسترهم عن الشّمس ساتر طبيعي من جبال أو أشجار، أو لأنهم عراة الأجسام كبعض قبائل إفريقيا. وهناك احتمال: أن ذا القرنين بلغ أقصى شمال الأرض عند الدّائرة القطبية حيث لا تغيب الشّمس لمدة أشهر في السّنة. ﴿بَلَغَ بَيْنَ السُّدَّيْنِ﴾: السّدّ هو الحاجز بين شيئين، والحاجز الطّبيعي هو الجبل، فيكون بينهما فجوة هي التي ردمها ذو القرنين. ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾: أي لا يكادون يفصحون عن مرادهم لأنهم لا يفهمون ما يقال لهم إلا بصعوبة. ويبدو أن ذا القرنين تحدث معهم بالإشارة. ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً﴾: الخرج والخراج: ما لزم أداؤه للعامل مقابل عمله. أو ما قد نتبرّع به من أموالنا. ﴿ائْتُونِي زُبَرَ

١- رواه البخاري من
قصة ياجوج وماجوج، و

الْحَدِيدِ﴾: زبر: جمع زبرة، قطعة الحديد الكبيرة. ﴿سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾: واحدها صدف، وهو جانب الجبل، أي جعل جانبي الجبل مساويا لهما. ﴿أَفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾: أي النحاس المذاب، يفرغ على الحديد فيزيده صلابة وقوة. ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾: أي لا يستطيعون تسلّقه والنفوذ من أعلاه. ولا هم يستطيعون إحداث ثقب فيه للولوج منه.

ج)- أوجه القراءة:

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: ﴿فَأَتَّبَعَ﴾ بتشديد التاء. وكذلك ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ﴾ بمعنى سلك وسار. وقرأ الباقون: ﴿فَأَتْبَعَ﴾ بقطع الألف وسكون التاء مخففة. ﴿فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾: قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم: ﴿فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ بالألف من غير همزة، أي حارّة، وهي قراءة ابن مسعود. وقرأ الباقون: ﴿حَمِيئَةٍ﴾ وهي قراءة ابن عباس، والحميئة: ما فيه ماء وحمأة سوداء، فلا تنافي بين القراءتين. ﴿فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾: قرأ حمزة والكسائي وحفص بالنصب والتنوين، والباقون بالرّفع والإضافة. فعلى القراءة الأولى يكون التقدير فله الحسنى جزاءً، وأمّا على القراءة الثّانية ففيها احتمالان:

أ)- فله جزاء الفعلة الحسنى، أي الإيمان والعمل الصّالح.

ب)- أن يكون التقدير: فله جزاء المثوبة الحسنى.

﴿يُسْرًا﴾: بسكون السّين، وقرئ: "يُسُرًا" بضمتين. ﴿بَيْنَ السُّدَّيْنِ﴾: قرأ حمزة والكسائي: ﴿السُّدَّيْنِ﴾ بضم السّين، و"سَدًا" بفتحها حيث كان، وقرأ حفص عن عاصم بالفتح فيهما في كل القرآن. وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بالضّمّ فيهما في كل القرآن. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿السَّدَّيْنِ﴾، و"سدًا" هاهنا بفتح السّين فيهما وبضمّها في "يس" في الموضعين. قال الكسائي:

١- رواه البخاري من
قصة ياجوج وماجوج، و

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً﴾: مِنْهُ: "من" للتبعيض، فالقصة لا تذكر تاريخ ذي القرنين كله. و"الذِّكر" يرد في القرآن بمعان متعدّدة، وبينها قاسم مشترك في الشّرف والرّفعة وفي التّذكّر والاعتبار. والمراد هنا: الصّيت الحسن والشّرف بذكر القرآن لهذا الاسم. ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ﴾: أي سخّر الله إمكانيات يتصرف بها كيف يشاء في أموره. ﴿وَءَاتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾: أي أنه تعالى وفّر له الوسائل في كل شيء يريد أن يصل إليه. ﴿بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾: أي مكان غروبها حسبما تبدو لعين الرائي، وإلا فإن الشّمس لا تغرب من الأفق الفسيح. ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾: أي عين ماء ذات طين أسود، وهو الحمأ المسنون. ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً﴾: أي وجد عند تلك العين قوما وثنيين. ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً﴾: أي ألهمه الله بما يجب أن يعاملهم به، ولكن بعد أن يبيّن لهم وجه الصّواب ثم يحكم على تصرفاتهم بعد ذلك. ﴿فَلَهُ جَزَآءُ الْحُسْنَى﴾: الْحُسْنَى: مؤنث لحسن. والتّقدير: المثوبة الحسنى. ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْراً﴾: أي لا يسترهم عن الشّمس ساتر طبيعي من جبال أو أشجار، أو لأنهم عراة الأجسام كبعض قبائل إفريقيا. وهناك احتمال: أن ذا القرنين بلغ أقصى شمال الأرض عند الدّائرة القطبية حيث لا تغيب الشّمس لمدة أشهر في السّنة. ﴿بَلَغَ بَيْنَ السُّدَّيْنِ﴾: السّدّ هو الحاجز بين شيئين، والحاجز الطّبيعي هو الجبل، فيكون بينهما فجوة هي التي ردمها ذو القرنين. ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾: أي لا يكادون يفصحون عن مرادهم لأنهم لا يفهمون ما يقال لهم إلا بصعوبة. ويبدو أن ذا القرنين تحدث معهم بالإشارة. ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً﴾: الخرج والخراج: ما لزم أداؤه للعامل مقابل عمله. أو ما قد نتبرّع به من أموالنا. ﴿ائْتُونِي زُبَرَ

١- رواه البخاري من
قصة ياجوج وماجوج، و

وقد قام الأستاذ الكبير أبو الكلام أزاد -وهو عالم معاصر هندسي- ببحث دقيق نشره في مجلة العربي ١٩٥٤ فبيّن أن ذا القرنين هو ملك فارسي يسمّى "قورش"، وأنه مؤسّس الدّولة الفارسية الكبرى. وهو الذي حرّر بيت المقدس من ظلم بختنصّر البابلي وأعاد بناء هيكل سليمان. أما تسميته "بذي القرنين" فقد نسجت حوله -أيضا- أساطير. وأوفق ما قيل في ذلك: أنه كان يضع على رأسه تاجا عليه قرنان رمزا للقوة والتّمكين. ويقول الأستاذ "أزاد" أنه عثر على تمثال حجري للملك "قورش" وله قرنان، عثر عليه في الحفريات على عاصمة الفرس القديمة.

وكونه عبدا صالحا مسلما فإن الإمام الشّيخ بيوض -رحمه الله- يرجّح أنه كان على الديانة اليهودية الصحيحة، إذ كان محرّراً لليهود من جبروت "بختنصر"، وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً، ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ (الإسراء:٥-٦). والله أعلم.

- من هم ياجوج وما جوج؟.

ذكرهم الله في القرآن مرتين:

أ)- في قصة ذي القرنين من سورة الكهف.

ب)- في سورة الأنبياء من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَاجُوجُ وَمَاجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ (الأنبياء:٩٦). وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن زينب بنت جحش زوج النّبي ﷺ قالت: «**استيقظ الرّسول من نومه وهو محمّر الوجه وهو يقول: ويل للعرب من شرّ قد اقترب، فتح اليوم من ردم ياجوج وما جوج مثل هذا - حلّق بإصبعيه السّبابة والإبهام-.قلت: يا رسول**

١- رواه البخاري من
قصة ياجوج وماجوج،

الله: أنهلك وفينا الصّالحون؟، قال: نعم، إذا كثر الخبيث».[١]

يعلّق الأستاذ سيّد قطب على هذا الحديث فيقول: "وقد كانت هذه الرّؤيا منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن، وقد وقعت غارات التّتار بعدها، ودمّرت ملك العرب بتدمير الحضارة العباسية على يد "هولاكو" في خلافة المستعصم -آخر ملوك العباسيين-، وقد يكون هذا تعبير رؤيا رسول الله ﷺ، وعلم ذلك عند الله". [٢]

ويقول وهبة الزّحيلي: "إن ياجوج وما جوج هما اسمان أعجميان ممنوعان من الصّرف، وهما قبيلان من ولد يافث بن نوح، فياجوج هم التّتار، وماجوج هم المغول، وأصلهما من أبٍ واحد يسمّى "ترك"، وكانوا يسكنون الجزء الشّمالي من "آسيا"، وتمتدّ بلادهم من التبت والصّين إلى المحيط المتجمّد الشّمالي، وتنتهي غربا بلاد التّركستان".[٣]

قلت: لا نجد في القرآن تحديدا لهوية هؤلاء القوم ولا لمكان ذلك السّدّ الذي طلبوا من ذي القرنين أن يقيمه في فجوة الجبلين. ولا نعرف عن موعد فتحه شيئا، أهو اندفاق التتار على الممالك وتدميرها، ومنها الممالك العربية، كما جاء في رؤيا رسول الله؟، أم هم قوم آخرون سيفعلون ذلك مستقبلا كما يقال اليوم عن العملاق النائم، وهو الصّين؟. والعلم عند الله في كل ذلك، فيجب أن نقف عند حدود النصّ القرآني، أو ما ورد في الحديث الصّحيح، والله المستعان.

١- رواه البخاري من حديث زينب بنت جحش، كتاب (٦٠) أحاديث الأنبياء، باب (٧) قصة ياجوج وماجوج، رقم ٣٣٤٦.

٢- سيد قطب، في ظلال القرآن: ٤١٤/١٧.

٣ - وهبة الزحيلي، التفسير المنير: ٢١/١٦.

هـ)- البيان والتفسير:

يفتتح النصّ بجملة: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾، وقد وردت هذه الجملة عدة مرات في القرآن الكريم. وقد يكون السّائلون كفارا -كما في هذه القصة- يسألون سؤال تعجيز وتحدّ لرسول الله. وقد يكون السّائلون مؤمنين كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ (البقرة:٢١٥). وورد في سورة البقرة بصيغة الماضي مسبوقا بالشّرط: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ (البقرة:١٨٦). كما ورد في سورة الأحزاب بالاسم الظّاهر: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾ (الأحزاب:٦٣). ويجيء الجواب مختلفا حسب موضوع السّؤال.

وهنا قال تعالى: **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً، إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾**.

فالسّؤال عن ذي القرنين إنما يعني معرفة أخباره وسيرته في الزّمان والمكان...إلخ. ويلاحظ في الإجابة توجيه أمر الله للرّسول بأن تكون أخبار ذي القرنين ذكرا يتلى في القرآن، مما يعدّ شرفا وفخرا له على مرّ الأزمان؛ لأنه كان عبدا صالحا جديرا بأن يخلّد ذكره ويذاع صيته.

وقد حباه الله بنعمتين في غاية التّكريم:

أ)- **﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ﴾**: والتّمكين هو التّثبيت والتّرسيخ، أي: أعطيناه أسباب القوة والمنعة لبسط سلطته في الأرض بالقهر والغلبة.

ب)- **﴿وَءَاتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾**: أي: وفرنا له الإمكانيات والوسائل التي يحقق بها غرضه في بسط نفوذه وتوسيع عمرانه. فخالق تلك الأسباب هو الله تعالى، وما الإنسان في ذلك إلا آخذ بتلك الأسباب لتحقيق أغراضه، وقد لا ينجح في ذلك؛ لأنّ المسبّب الحقيقي هو الله تعالى، كما ورد

في الأثر: عليّ أن أسعى وعلى الله نجاح المسعى. ومن معاني الأسباب: الطّرق الموصلة إلى الغاية المقصودة.

وهاهو ذو القرنين يستعمل تلك الأسباب بحذق ومهارة ويمضي لترسيخ قواعد ملكه في رحلات فتح لمشارق الأرض ومغاربها ناشرا ألوية الحق والعدل حيثما حلّ وارتحل، إذ قام بثلاث رحلات تاريخية كبرى:

أ)- الرحلة الأولى:

قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَباً،حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً﴾.

جعل الغاية في منطلق رحلته هذه هي مغرب الشّمس، أي بحسب عين الرائي؛ لأنّ الشّمس في مسارها بالآفاق لا تغرب كلية، وإنما تتعدّد مشارقها ومغاربها بحسب مختلف البقاع على وجه الأرض، فهي إذ تغرب على قوم تشرق على آخرين.

قال الحق تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾، أي يختفي قرص الشّمس في عين حمئة بها ماء وطين أسود، هكذا تراءت الشّمس لذي القرنين. فأين تقع تلك العين الحمئة؟. لا يزيد النصّ على ذلك الوصف، والتّعبير بالعين الحمئة يوحي أنها تقع في أحد الأنهار الجارية التي تصبّ -غالبا- في البحار. فهل وصل ذو القرنين في هذه الرّحلة إلى ساحل المحيط الأطلسي عند المغرب الأقصى كما فعل عقبة بن نافع ﷺ، أم انتهى إلى المغرب الأدنى في آسيا الصغرى؟.

وقد رجح الأستاذ أبو الكلام آزاد أنه انتهى إلى بلدة "أزمير". والله

أعلم بالمكان الحقيقي، غير أنّ الله أخبرنا بأنّ ذا القرنين وجد عند العين الحمئة قوما، هكذا بصيغة النّكرة عارية من أيّ وصف، إذ عادة ما يقوم العمران البشري على شواطئ البحار والأنهار، فهم بالطّبع من بني آدم استوطنوا ذلك المكان. وتدلّ الآية على أنهم ليسوا على دين.

وغرض ذي القرنين أن يدعو النّاس إلى عبادة الله، فجاء السّؤال من الحق تعالى عما تكون معاملته لهم: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾. فهو تفويض من الله له على التّصرّف -وهو الصّالح العادل-، فلا تخلو تلك المعاملة من انتقام وتعذيب، أو مسامحة ومعاملة بالحسنى.

وهنا يعلن ذو القرنين عن دستوره في الحكم وعن السياسة التي ينتهجها فقال: **﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا، وَأَمَّا مَنْ -امَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾**.

أدّت هذه المحاورة الكريمة ببعض المفسّرين إلى القول بنبوّة ذي القرنين ولكن ليس في ذلك ما يثبت نبوّته؛ وقوله تعالى: "قلنا" يعني نوعا من الإلهام والإرشاد، كما حدث ذلك مع أمّ موسى ومريم العذراء، وكلّ ما في الأمر أنه ملك صالح فتح المماليك للدعوة إلى الإيمان ونشر الحق والعدل. فهو يعلن عن دستوره في ذلك بأنه ينتقم من الظّلمة بما يستحقونه من الجزاء في الدّنيا، حفظا لأمن المجتمع وتوازنه، ومن لم يرتدع، فهناك عذاب أشدّ وأخزى عند الله في الآخرة.

وفي المقابل يوضّح سياسته مع الفريق المؤمن الذي يجسّد إيمانه بالعمل الصّالح، وذلك ما تركزه كل الدّيانات السّماوية، إذ تتفق كلّها في العقائد

والأخلاق الكريمة. ويبقى جانب التّشريع العملي، فلم توضّح الآية نوع التّشريعات التي يتبعها ذو القرنين، إلا أنها تنبني على تطبيق الموازين العادلة في سياسة المجتمع بوضع العقوبات والزّواجر على الظّلمة المعتدين، وتعيين الحوافز والتّشجيعات للعاملين المحسنين: ﴿فَلَهُۥ جَزَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾.

ب)- الرّحلة الثّانية:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا، حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا، كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾.

ما قيل في مغرب الشّمس يقال في مطلعها، إذ هو نسبيّ لعين الرّائي، غير أنّ الحقّ تعالى يقول: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾، والسّتر هو الحاجز، فهو بالنّسبة للإنسان إما صناعي كأنواع الثّياب التي يقول الله في شأنها: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ (النحل:٨١). وإما طبيعية كالجبال والكهوف والأشجار، ويقول تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ (النحل:٨١). فهؤلاء الذين وجدهم ذو القرنين في رحلته إلى مشرق الشّمس لا يسترهم عن الشّمس ساتر، ولذلك عدّة احتمالات:

أ)- إمّا أنهم يسكنون بطحاء عارية من الجبال والأشجار، إمّا في صحراء عارية، أو في سهل منبسط على شاطىء بحر من البحار.

ب)- وإمّا هم قوم بدائيون يعيشون عراة الأجسام كبعض الهنود الحمر، أو القبائل الإفريقية البدائية.

ج)- والاحتمال الثّالث البعيد: أن يكون ذو القرنين قد انتهى إلى الدّائرة القطبية حيث يدوم النّهار ستة أشهر، فلا يشاهد للشمس غروبا هناك. وهو احتمال بعيد.

ولم يذكر النصّ شيئا عن هؤلاء القوم: كيف كان معتقدهم وسلوكهم؟، وكيف عاملهم ذو القرنين؟، اكتفاء بما سبق في الرّحلة إلى مغرب الشّمس، إذ يرى أغلب المفسّرين أن القوم كانوا بدائيين وثنيين، وأن ذا القرنين عاملهم بنفس الخطة التي وضعها لدستور حكمه: زجرا للمفسدين، وإحسانا بالمصلحين؛ لأن السّياسة الرّشيدة لدى الحاكم المؤمن لا تتغيّر مع النّاس، ولا مع الزّمان والمكان. وتلك هي العبرة والفائدة العظمى التي نستخلصها من القصة كلّها. فما أحوج حكام المسلمين اليوم لانتهاج تلك السّياسة الرّشيدة، حتى يمكن لهم الله في الأرض كما مكّن لذي القرنين.

وكلّ ما كان من التّعقيب الإلهي على هذه الرّحلة الثّانية أنه تعالى قال: ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾، فعلم الله يحيط بنوايا ذي القرنين وبأعماله وتصرفاته في الحكم. والتّشبيه بـ"كذلك" هو للتّنسيق الفني بين انكشاف تلك الأرض العارية طبيعيا، وبين انكشاف الحقائق والأسرار لعلم الله الشّامل، والله أعلم.

ج)- الرّحلة الثّالثة:

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا، قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾:

العطف بـ"ثم" في كلّ رحلة يدلّ على أنه كان بين كلّ رحلة وأخرى

فترة للإعداد والتّخطيط من طرف ذي القرنين، وهو في كل حالة يتبع الطّرق اللازمة للبلوغ إلى غايته. وها هو ذا يسلك طريقا وسطا بين المشرقين، فيتّجه نحو الشّمال حتى يبلغ بين السّدين، وهما حاجزان طبيعيان بينهما فجوة، هي التي ردمها ذو القرنين بطلب من القوم السّاكنين هناك.

وعلى أسلوب القرآن في الاكتفاء بما فيه العبرة من القصة لم يحدّد بالضّبط ذلك المكان، ولا جنس القوم؛ ولذلك اختلف المفسّرون في تحديده، وإن كانوا يتفقون أنّه يقع في شمال فارس. وتراوحت تحديداتهم بين جبال أرمينيا وأذربيجان، أو في سلسلة جبال بين البحر الأسود وبحر الخزر، بينهما فجّ، حيث بنى ذو القرنين سدّه. ويعلق سيّد قطب على هذه الآية بعد أن اتّبع منهجيته في مثل هذه القصص بأن يقتصر على ما يثبته النصّ القرآني دون أن يرجّح شيئا من خلافات المفسّرين. يقول معلقا: "كشف سدّ بمقربة من مدينة "ترمذ" عرف بـ "باب الحديد"، وقد مرّ به في أوائل القرن الخامس عشر الميلاديّ العالم الألماني "سيلد برجر" وسجّله في كتابه. وكذلك ذكره المؤرخ الأسباني "كلا فيجو" في رحلته سنة ١٤٠٣ وقال: إن سدّ مدينة "باب الحديد" على طريق سمرقد والهند، وقد يكون هو السّدّ الذي بناه ذو القرنين".[1]

ومهما يكن من أمر في تعيين المكان، فنحن لا نجزم بأحد الأقوال، إذ ربما كان هناك ملوك آخرون قاموا بمثل ذلك العمل في مختلف جهات مماليكهم. وما نقوله في مكان السّدّ يقال في القوم الذين وجدهم هناك ذو القرنين، والله تعالى لم يزد على أن وصفهم بقوله: ﴿لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾، أي أن لغة ذي القرنين كانت مخالفة للغتهم فهم لا يفهمون ما يقوله

١- سيد قطب، في ظلال القرآن: ٤١٢/١٦.

وفي اختيار كلمة "العدّ" إيماء إلى قصر المدّة فقيل: إنّ المراد به هو هلاكهم في "بدر" وذلك هو العذاب العاجل، وأما الآجل فقد بيّنه الله بقوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً، وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْداً، لاَّ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾.

هذه صورة مختصرة من مشاهد القيامة تكمّل ما تقدم عن الكافرين من النّفور والتّضادّ بينهم وبين آلهتهم. فبيّن الله هنا كرامة المؤمنين، وهوان الكافرين. فصوّر المؤمنين في صورة وفد مكرّم يغدون على الرّحمن ركبانا على نوق من الجنة، وقد جرت عادة النّاس أنها تفد على ملوكها وأمرائها في مواكب مزدانة لبسط حاجاتها أو أخذ عطاياها. فعن علي كرّم الله وجهه قال سألت رسول الله ﷺ عن الآية فقلت: هل الوفد إلا الرّكب؟ فقال: «**والذي نفسي بيده إنهم إذا خرجوا من قبورهم استقبلوا بنوق بيض لها أجنحة، عليها رحال الذّهب**».[1]

وأما المجرمون فهم على العكس من ذلك يساقون كالأنعام مشاة عطاشا ويسقون من ماء الحميم وبئس الورد المورود.

﴿لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾: ففي أتون العذاب يطمع المجرم في شفاعة ينالها من مؤيّد أو نصير. ولكن هيهات، فإن الآلهة التي كانوا يستنصرون بها قد تنكرت لهم، فلا تكون الشّفاعة يومئذ عند الله إلا لمن أخذ الإذن، وهم الأنبياء والملائكة.

وقيل: إن الاستثناء متصل يرجع للعباد أو المتقين، فيدخل في من يتخذ عند الرّحمن عهدا من بلغ درجة الإحسان مع الله تعالى فيشفع لجماعات من

١- أورده ابن كثير في تفسيره.

عنهم ويلات ياجوج وماجوج، مقابل أجر يدفعونه له من أموالهم، ولكن ذا القرنين أجابهم بقوله: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً، ـ ائْتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُواْ حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً، فَمَا اسْطَاعُواْ أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾.

كانت إجابة ذي القرنين للعَرض الذي قدمه المستغيثون به، كانت تنمّ عن مدى صلاح وهمّة الرّجل القويّ الفاتح، فلم تأخذه نشوة الغلبة والانتصار، و لم تمتدّ يده للاستيلاء على أموال القوم ولا على ممتلكاتهم كما يفعل الغزاة المتجبّرون، بل عفّ حتى على ما عرضوا عليه من الأجر للقيام بذلك المشروع العظيم من سدّ فجوة الجبلين شاكرا لنعمة ربّه بما مكّن له من القوة، وبما وفّر له من الأسباب، شأنه في ذلك شأن الملك الرّسول سليمان عليه السلام في رفضه للأموال التي عرضتها عليه الملكة "بلقيس" عند ما قال لرسلها: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ (النمل:٣٦).

ولكن ذا القرنين أنبأهم بأنّه في حاجة إلى قوّتهم البدنية والعضلية يساعدونه بها في عمله، وتتمثل مساعدة القوم له لردم تلك الفجوة في أمور ثلاثة، هي كلها مواد وأعمال فنية أساسية في إنجاز المشاريع الضّخمة كما نعهدها اليوم:

أ)- ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾: أي التّركيز والجدية في العمل مع بذل الجهد والتزام النّظام الجماعيّ.

ب)- ﴿ائْتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُواْ﴾: والزُبَر هي القطع الضّخمة من الحديد تكون بمثابة اللّبنات التي تسدّ

تلك الفجوة وقد سوّاها بجانبي الجبلين الطّبيعين بحيث تصبح كلها سدّا واحدا.

ج)- ﴿قَالَ انفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾: وقيل: إن معنى الصّدفين عبارة عن حائطين: أمامي وخلفي في تلك الفجوة، ثم ردم ما بينهما كما يفعل المهندسون اليوم بالأسوار الحصينة. فقد أمرهم بتحمية الحديد حتى يصّب عليه ذوب النّحاس ليزيده التحاما وتماسكا.

فكان من نتيجة هذا العمل الضّخم أن أصبح السّدّ بين القوم وياجوج وماجوج حصينا منيعا صلبا أملس، فلا هم يستطيعون تسلّقه ليسوّروه من أعلى، ولا هم يستطيعون إحداث ثقب فيه يكون نفقا يتسللون منه.

ولنا أن نتصوّر -ونحن في عصر الصّناعات المعدنية الثّقيلة- مدى الجهد والفن اللذين تمّ بهما بناء هذه الأعجوبة بمثل تلك الكيفية التي لا تتوفّر فيها الوسائل التي يعرفها العصر الحديث، والأعجب من ذلك أن يتمّ لوجه الله وشكرا لنعمه دون مقابل أجر معقول ومشروع.

ويقف ذو القرنين أمام ما أنجزه موقف الشّاكر الحامد لفضل ربه ورحمته، وأنه تعالى سوف يدكّ ذلك السّدّ كبقية الجبال والأشياء الأخرى على ظهر الأرض، فهو مؤمن بقدرة الله وأن الأمر يرجع إليه كلّه. فما هو إلا منفذ لما قدره الله، يحمده تعالى أن جعله وسيلة لإنجاز ذلك المشروع الضّخم، فهو لا يزهو ولا يتعاظم بقوته كما يفعله المغرورون بقوتهم وحظوظهم. يعبّر عن اعتزازه بربّه وإجلاله له بترديد كلمة: ﴿رَبِّي﴾ ثلاث مرات في جملة واحدة.

وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ هو تعبير صادق عن إيمانه بوقوع السّاعة، وأن من أشراطها اندكاك ذلك السّدّ

وانفتاحه لهجمات ياجوج وماجوج.

ونتساءل هنا: هل تمّ ذلك في الواقع التّاريخي، وكيف تمّ؟. فعلى افتراض أن ياجوج وماجوج هم التّتار والمغول، فإنّ التّاريخ قد سجّل هجماتهم المفسدة واكتساحهم لمماليك الأرض تصديقا لرؤيا رسول الله كما ورد في الحديث المتقدم عندما استيقظ من نومه وهو يقول: «**ويل للعرب من شرّ قد اقترب**».

وهل جاء وعد الله واندكّ ذلك السّدّ في ما مضى من تاريخ البشر؟. الله أعلم بذلك؛ لأن النّصّ لا يحدّد زمان ذلك، ولأنّ اقتراب الوعد الحق يعني اقتراب قيام السّاعة. ويقول الرّسول: «**بعثت والسّاعة كهاتين فقرن السّبابة بالوسطى**».[1]

ولا يعلم إلا الله كم من قرون تسع ذلك الفارق الضئيل في الطّول بين السّبابة والوسطى، وها نحن نعدّ اليوم خمسة عشر قرنا بيننا وبين بعثة رسول الله، ولا يزال الفلك يدور كما خلقه الله من ملايين السّنين؛ ذلك لأن الحساب الإلهي في عمر الكون غير الحساب البشري الضّيق المحدود: ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحج:٤٧).

وهكذا تنتهي رحلات ذي القرنين بما مكّن الله له في الأرض وبما يسّره له من الأسباب، ونحن نستنتج منها فوائد جمّة نلخّصها في ما يلي:

أ)- يقتضي العمران البشريّ أن يقوم على شؤون المجتمعات البشرية أصحاب الحلّ والعقد والذين وصفهم الله بأولي الأمر وجعل طاعتهم واجبة

١- رواه البخاري من حديث سهل بن سعد لساعدي، كتاب (٦٨) الطلاق، باب (٢٥) اللعان، رقم ٥٣٠١.

بعد طاعة الله ورسوله.

ب)- لا تستقيم أمور الرّعية إلا بصلاح الرّاعي وقيام مسؤوليته على الحق والعدل، فلا يستذلّ العباد ولا يرهقهم بما لا يطيقون في جهدهم وأموالهم.

ج)- إذا مكّن الله لحاكم في الأرض فيجب عليه أن يقيم مشاريع عمرانية تكفل أرزاق العباد وتؤمّن حياتهم من الفتن الدّاخلية والاعتداء الخارجي، وكذا المحافظة على ثروات البلاد فلا ينفقها إلا في ما يعود على الجميع بالخير العميم، وأن يستعفف الحاكم عن الأموال العمومية كما فعل ذو القرنين مع القوم المستغيثين به.

د)- يستعين الحاكم بجهود مواطنيه في المشاريع الضّخمة سواء بالأعمال التّطوعية أو بقسط من أموالهم على قدر الضّرورة والحاجة.

هـ)- زاد الإمام القرطبيّ في فوائد هذه القصة فقال في هذه الآية: "آية السّدّ" دليل على اتخاذ السّجون وحبس أهل الفساد فيها، ومنعهم من التّصرّف لما يريدونه، ولا يتركون وما هم عليه بل يوجعون ضربا ويحبسون، أو يكفلون ويطلقون كما فعل عمر ﷺ".[1] وهي ملاحظة دقيقة.

والله أعلم

١- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٥٩/١١.

وضعية الخلائق بعد انهدام السّد،
وعاقبة الكفّار يوم القيامة

أ)- النص:

وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾: أي إنّ جموع يأجوج وماجوج بعد اندكاك السّدّ يخرجون في أمواج بشرية مزدحمين ويختلطون بغيرهم من الأجناس في تدافع وكرّ وفرّ كما يفعل الموج. ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾: يكون النّفخ في البوق من طرف إسرافيل عليه السلام لقيام السّاعة، فتجمع الخلائق كلّها على صعيد واحد للحساب والجزاء. ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي

غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي﴾: الجملة بدل من "الكافرين" في محلّ جرّ، أي: على عيونهم غشاوة فلا يرون الآيات الدّالة على توحيد الله، وبالتّالي هم لا يذكرونه. ﴿أَفَحَسِبَ الذِينَ كَفَرُواْ أَنْ يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيَ أَوْلِيَآءَ﴾: الاستفهام للإنكار. "الذِينَ كَفَرُواْ" فاعل لـ "حَسِبَ"، و﴿أَنْ يَتَّخِذُواْ عِبَادِي﴾: "أن" وصلتها في موضع نصب سدّ مسدّ المفعولين لـ "حَسِبَ"، و"عبادي" مفعول أول لـ "يَتَّخِذُواْ"، و"أَوْلِيَآءَ" مفعول ثان له. والمقصود بـ"عِبَادِي": المعبودات كالملائكة والجن والمسيح ...إلخ. ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً﴾: أعتدنا: بمعنى أعددنا وحضّرنا. والنزل: مكان النّزول المعدّ للضيف. وفي الأسلوب تهكّم، فيا له من نُزُل. ﴿فَحَبِطَتْ اَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً﴾: ﴿فَحَبِطَتْ اَعْمَالُهُمْ﴾: بمعنى بطلت؛ لأن الحبط نبتة سامّة تنتفخ بها بطون الحيوانات فتموت. والوزن: بمعنى القدر والقيمة، فهم مزدرون من كل الخلائق.

ج)- أوجه القراءة:

﴿اَفَحَسِبَ﴾: قرأ أبو بكر -ولم يرفعه إلى عاصم- ﴿اَفَحَسِبَ﴾ بسكون السّين ورفع الباء. وهي من الأحرف التي خالف فيها عاصما. وعلى هذا التّقدير يكون "حسب" مبتدأ، و"أَنْ يَتَّخِذُواْ" خبرا. والمعنى: أفكافيهم وحسبهم. وقرأ الباقون: ﴿أَفَحَسِبَ﴾ على لفظ الماضي. وعلى هذا التّقدير يكون فيه حذف، والتّقدير: أفحسب الذين كفروا اتخاذ عبادي أولياء نافعا؟.

د)- البيان والتّفسير:

انتهت قصة ذي القرنين عند قوله: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً﴾. فانّدكاك السّدّ وخروج ياجوج وماجوج هو من أشراط السّاعة واقترابها، يؤمن بذلك هذا

الملك الصّالح ويعلن بأنّ كلّ ما وعد به ربنا كان حقا. وبعد ذلك يبتدئ كلام الله تعالى بقوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾، فالجملة معطوفة على قوله: ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾. والنّون للعظمة، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم مجيء وعد الله. والضّمير في: ﴿بَعْضَهُمْ﴾ اختلفت آراء المفسّرين في معاده إلى الاحتمالات التّالية:

أ)- أن المراد بـ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم أتمّ ذو القرنين بناء السّدّ ترك النّاس أمامه في اضطراب منبهرين به.

ب)- أنه ترك ﴿يَأجُوجَ وَمَأجُوجَ﴾ وراء السّدّ يموج بعضهم في بعض متدافعين لكثرتهم. وعلى هذين الاحتمالين يكون قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾، يكون من جملة ما قاله ذو القرنين.

ولكن الأوفق والأرجح أن تكون هذه الجملة من كلام الله تعالى، والضّمير في قوله: ﴿بَعْضَهُمْ﴾ يرجع إلى سائر الخلق، وقد اندكّ ذلك السّدّ على الكيفية التي قدّرها الله، واندفق السّيل العرم من أمواج ياجوج وماجوج واختلطوا بسائر البشر في مشارق الأرض ومغاربها، فكثرت الحروب والفتن واستحرّ القتل والتّخريب في كل مكان، سيما وقد انكسرت السّدود والحواجز وتلاحمت أجزاء المعمورة بوسائل المواصلات، فأصبح العالم كلّه يموج بعضه في بعض حتى كادت الأرض تضيق بسكانها، وامتدت طموحات الخلق إلى غزو الفضاء. ففي ذلك كلّه علامات لاقتراب السّاعة، كما أفصح عنه القرآن، سيما في هذه الآية الكريمة إذ يقول تعالى على إثر ذلك: **﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً، وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضاً، الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُواْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً﴾**.

فعلى بيان وضعية الخلق في الحياة الدّنيا، وقد أخذت الأرض زخرفها

وازيّنت وظن أهلها أنهم قادرون عليها، وكما رسم الله هنا صورة بديعة لتماوج الخلق في تدافع وصراع على فتنة الدّنيا، إذا بالنفخة الأولى للفزع والصّعق عند قيام السّاعة. فيكتمل بذلك مشهد الاضطراب والتّماوج، ثم تكون النّفخة الثّانية للبعث والحشر كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ (الزّمر:٦٨). يقومون ويعرضون صفوفا منتظمة أمام ربّ العالمين كما قال: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ (الكهف:٤٨).

وبما أن الموقف موقف الخوف والفزع، فإنّ صورة جهنّم هي الأنسب للعرض في ذلك المشهد المهول، وتتبدّى في أبشع صورها للمعرضين الكفّار، وقد أكّد الله فعل: ﴿عَرَضْنَا﴾ بالمصدر: "عرضا"، ليواجه بذلك إعراضهم وعدم إيمانهم بها. وهو تعالى يصوّر حالتهم تلك بقوله: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾.

ونفي القدرة عنهم في السّمع والبصر يصوّر كراهيتهم الشّديدة لسماع الحقّ حتّى لكأنهم عمي وصمّ، وبالتّالي لا يجد نور الهداية إلى قلوبهم سبيلا، وهم الذين وضعوا على أعينهم وآذانهم تلك الحوائل من اللّغو والباطل كما يقرون بذلك بمثل قولهم لرسول الله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ (فصلت:٥).

وقد بيّن الله أن سبب تلك الحالة الضّنكة لهؤلاء هي الكفر، وهي حالة نشاهدها حتى عند بعض الذين يدّعون الإسلام، ولكنهم غافلون عن ذكر الله فتراهم ينفرون من سماع النّصح والإرشاد ممن يصدق فيهم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ (البقرة:٢٠٦).

وللتركيز على صفة الكفر، أظهر الله مكان الإضمار فقال جلّ من قائل: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا

أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً﴾.

و"حسب" هنا بمعنى "ظن"، واتخاذ العباد أولياء من دون الله ما يزال موجودا قديما وحديثا فقد عبد النّاس الملائكة والجن وجعلوا لله -سبحانه- أولادا وبنات، وعبد أهل الكتاب أحبارهم ورهبانهم كما يعبد اليوم كثير من النّاس "بوذا"...إلخ، أضف إلى ذلك من يتوسل من المسلمين بالأولياء ويقيمون على أضرحتهم طقوسا ما أنزل الله بها من سلطان يستنصرون ويستغيثون بهم، وكل ذلك مظاهر للشّرك جليّه وخفيّه، وما جزاء من يفعل ذلك إلاّ جهنّم أعدّها الله نُزُلاً لكلّ كافر. والنّزل: هو المكان المعدّ للضيف، ويا له من نُزُل يجدون فيه العذاب والنّكال فبئس القرار.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً، الذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً، أُوْلَئِكَ الذِينَ كَفَرُواْ بِئَايَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً، ذَلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَاتَّخَذُواْ ءَايَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً﴾:

في خواتم السّورة الكريمة تتلخّص المقاصد المرجوّة من خلال تلك القصص المعروضة، وكلّها تركّز على بيان القيم الإسلامية عقيدة وشريعة، والله تعالى يأمر رسوله أن يبيّن ذلك للنّاس:

أ)- ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾.

ب)- ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي﴾.

ج)- ﴿قُلِ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

ويأتي مضمون القول في الأمر الأول مصدّرا بالاستفهام التّوبيخي: ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾، هكذا بصيغة التّفضيل: ﴿الأَخْسَرِينَ﴾، ومن شأن

ذلك أن ينبّه السّامعين إلى الاهتمام بما يخبَرُون به لما له من الأهمية في حياتهم. ولا شكّ أنّ النّاس يتّخذون معايير للفوز والخسارة وفق منهجيتهم في الحياة ونظرتهم إلى الوجود. ومهما يقم الإنسان من موازين لذلك، فإنّ الميزان القّريس هو الميزان الذي يقيمه الله، وهو القائل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد:٢٥). ويقول: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ (الرحمن:٧).

وعلى قاعدة: يُعرَف السّمّ ليتقى، فإنّ الله أمر رسوله أن يبيّن للناس أسباب الخسارة الفادحة للإنسان في حياته فقال:

أ)- ﴿**الذينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً**﴾، وجملة الصّلة هنا هي على الأرجح صفة أو بدل: ﴿الأَخْسَرِينَ﴾، ويكون جواب الاستفهام هو قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الذينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِ﴾، والأخسر: هو الأكثر خسارة، إذ يجتمع فيه وصفان:

أ)- ﴿**الذينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾: لأنهم ساروا على نهج الضّلال والكفر في الحياة الدّنيا -وهي محكّ الاختبار والابتلاء ودار التّكليف-. وبما أنهم كذبوا برسل الله واتّبعوا أهواءهم، فإنّ كلّ ما يأتون به من أعمال -وإن كان ظاهرها خيرا ونفعا- أنها تردّ عليهم، ولذلك أضاف الله لهم الوصف الثّاني فقال:

ب)- ﴿**وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً**﴾: وهذا من أفدح الخسارة، إذ يعتقد الإنسان الضّالّ أنه على الصّواب، وأنّ ما يأتيه هو الأنفع والأصوب؛ ذلك لأنّ الحسن والقبح تتعدّد أوجههما في نظر النّاس بحسب مألوفهم ومعتقداتهم، ولا نحتكم في تمحيص معاييرهما إلا لما حسّنه الله أو قبّحه في كتابه العزيز؛ لأنه الفيصل العادل الذي لا تلتبس به الأهواء، ولا تناوشه الشّهوات.

فكيف ينتصح ويتعظ من تكون هذه حالته؟. ولذلك جاءت تسلية الله لرسوله بأن لا يحزن لإعراض هؤلاء فقال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (فاطر:٨). وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

يُغمى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن.

فمثل هؤلاء لا يكونون في حالاتهم العادية من التفكير السليم والتأمل الواعي؛ وسبب ذلك هو ما ذكره الله في جواب الاستفهام إذ قال: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا**﴾:

الإشارة إلى الأخسرين، جعل الله الكفر به وبلقائه علة لتلك الخسارة التي مُنوا بها في دنياهم. والإيمان بالله واليوم الآخر هما الركنان الأساسيان في العقائد السماوية الصحيحة، فمتى زاغ الإنسان وعطّل أحدهما فإنه لا يستقيم إيمانه، وبالتالي لا تصلح أعماله -وإن كان ظاهرها خيرا وصلاحا-؛ لأنه تكون محبطة باطلة، وبالتالي يأتون يوم القيامة خالي الوفاض لا قيمة لهم عند الله، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلّة. وما أروع التعبير بالوزن لقيمة الإنسان؛ لأنّ هؤلاء كانوا في دنياهم متجبّرين متعالين يزنون أنفسهم بالأطنان، وهم لا يساوون عند الله جناح بعوضة، كما جاء في الحديث الذي أخرجه الترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن النبي ﷺ قال: «**يحشر المتكبّرون يوم القيامة مثل الذرّ يطؤهم الناس بأقدامهم**».[1]

١- رواه الترمذي بلفظ قريب من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، كتاب (٣٥) صفة القيامة، باب (٤٧) ما جاء في شدة الوعيد للمتكبرين، رقم ٢٤٩٢، وقال: هذا حديث

فماذا يكون جزاء هؤلاء، وقد طارت أعمالهم هباء منثورا؟ إنّه -ولا شك- جهنم وبئس المصير: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾.

وسبب ذلك المصير المشؤوم هو الكفر بالله والاستهزاء بما أنزل الله وبالرّسل، وعبّر بالمصدر: ﴿هُزُوًا﴾ للمبالغة.

وقد يصل المتجرّئ على الله أن يعتزّ بكفره وضلاله، فلا يقتصر تطاوله على ما هو عليه في سيرته الذّاتية، بل يسلّط لسانه وتمتدّ يده إلى الصّالحين من المؤمنين يتخذهم سخرية ويعتبرهم سذّجا متخلّفين، وربّما كان هذا الموقف حتى من الذين لا يصرّحون بالكفر، بل قد يدّعون الإسلام مظهريا، ولكنّهم لغرورهم بثقافة أو بمنصب أو مال، فتراهم ينظرون إلى الصّلحاء من مواطنيهم بتلك النظّرة الشّوهاء.

وبناء على هذا الواقع المعيش فإنّ الله تعالى اختار وصف "الإجرام" عوضا عن "الكفر" في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ، وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ، وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَٰكِهِينَ، وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ، وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾ (المطففين:٢٩-٣٣).

فاللّهم يا قويّ يا عزيز إنك تدافع عن الذين آمنوا، ربّنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا، واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم، والله أعلم.

- حسن صحيح. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يجاء بالجبارين والمتكبرين رجالا في صور الذر يطؤهم الناس من هوانهم على الله حتى يقضى بين الناس ثم يذهب بهم إلى نار الأنيار. قيل: يا رسول الله، وما نار الأنيار؟ قال: عصارة أهل النار».

جزاء المؤمنين، وبيان سعة علم الله، والدّعوة إلى توحيده

أ)- النص:

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾: جَنَّاتُ الْفِرْدَوْس: الإضافة للبيان. والفِرْدَوْس: هو لأعلى مراتب الجنة. وأصله: البستان الملتفّ بأنواع الفاكهة. ﴿لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾: لا يطلبون تحوّلا وانتقالا إلى غيرها مما تنازع إليه النّفس. وقد بالغ أمير الشّعراء في حق الوطن حين قلب هذا المعنى فقال:

وطني لو شغلت بالخلد عنه ... نازعتني إليه في الخلد نفسي.

والرّسول قال: «**إذا سألتم فاسألوا الله الفردوس الأعلى، فإنه وسط الجنة وأعلاها، ومنها تفجّر أنهار الجنة**».[1]

١- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب (٥٦) الجهاد، باب (٤) درجات المجاهدين في سبيل الله، رقم ٢٧٩٠.

﴿لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي﴾: المداد هو الحبر الذي يكتب به، والمداد مأخوذ من المدد، و"كلمات ربّي": هي علم الله الشّامل اللامتناهي. ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾: من النّفاد، أي الفراغ، و"البحر" للجنس. ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ﴾: الرّجاء: تأمّل شيء في المستقبل. ولقاء الله: أي في البعث وتوابعه.

ج)- أوجه القراءة:

﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ﴾: قرأ حمزة والكسائي: ﴿ينفَدَ﴾ بالياء، لتقدم الفعل على الجمع. وقرأ الباقون: ﴿تَنفَدَ﴾ بتاء التّأنيث.

ج)- البيان والتّفسير:

قابل الله ما أعدّه للكافرين بما أعدّه للمؤمنين على قاعدة التّرهيب والتّرغيب والوعد والوعيد. وقد بيّنا حكمة البدء بالوعيد في ما سبق. وتختتم السّورة ببيان سعة علم الله اللامتناهي، وبالتّنبيه على بشرية الرّسول، وأنّ النّجاة في الآخرة لا تتحقّق إلاّ بالتّوحيد والإخلاص في العبادة فقال جلّ من قائل: **﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً، خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾**.

في مقابل النُّزُل الوخيم للكافرين، وإزاء تعاستهم وانحطاط قدرهم، يأتي هذا التّنويه بشأن المؤمنين الذين عملوا الصّالحات بأنّ أجرهم هي جنّات الفردوس، وأنّها نِعْم النّزل بما يتوفّر فيه من أنواع الرّاحة والنّعيم الدّائم. والتّعبير بالكينونة له ملحظه الدّقيق في مقام التّشريف والتّكريم، يقول عنه قطب الأئمة -رحمه الله-: "لم يقل: "أعتدنا"؛ لأنّ ما أعتيد قد تمّ وادّخر، وخير الجنة لا يزال يزداد قبل الموت وبعده، وبعد الدّخول فيها، كما ورد أنه:

من فعل كذا لم تزل الملائكة تغرس له؛ ولأنّ ما أعتيد قد لا يصل من ادّخر له في الجملة، وما ثبت أحد في القضاء واللّوح لا يخطئه".[1]

قلت: التّعبير بـ "لَهُمْ" بعد "كَانَ" تدلّ على معنى الملكية والاستحقاق، فكأنّهم لعقيدتهم الصّحيحة وعملهم الصّالح في الدّنيا قد اشتروا تلك الجنات لتكون مستقرّهم في دار البقاء، والله تعالى قد غمرهم برحمته وفضله، إذ هداهم إلى ذلك.

وقوله تعالى: ﴿لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾، أي: إذا كان من طبيعة الإنسان الملل في الحياة الدّنيا، فإن أحكام تلك الدّار ليست كهذه؛ لأنّ من خصائص الجنة الاستقرار، كما وصف المولى تبارك وتعالى وضعية أصحابها إذ قال عنهم في سورة الحجر: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ، وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ، لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (الحجر:٤٥-٤٨).

فإذا كانت طبيعة الحياة الدّنيا متقلبة من حال إلى حال في مظاهرها المادية والمعنوية، وكان الإنسان خلالها ذا طبع ملول لا يرضى بحال واحد، فإن دار النّعيم على ما خصّها الله به من الدّوام والبقاء، فكذلك يكون أصحابها منعّمين؛ لأنّ طبيعة الأرض قد انسلخت عنهم، فلا غلّ ولا حسد، ولا ضيق ولا ملل، ولا خوف ولا وجل، فهم في دار النّعيم والكمال المطلق، فلا تنازعهم نفوسهم إلى شيء وراءه، اللّهم إلاّ طلب الرّضوان من الله تعالى كما قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة:٧٢).

١- احمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير: ٨/٤٤٣.

وقبل اختتام السّورة بتقرير المنهج الإلهي الذي هو طوق النّجاة للإنسان، وعلى ذكر الأخسرين من النّاس بكفرهم وضلالهم، يضرب الله المثل لسعة علمه اللامتناهي في تصوير بديع بمثال محسوس يتضاءل أمامه العلم البشري المحدود، حتى ينكشف لذهن الإنسان المعنى الكليّ المجرّد في صورة محسوسة يعيشها ويدرك أبعادها. والبحر هو الخلق العظيم الذي يمثل للإنسان السّعة والعظمة في ما يعرفه من أجزاء الأرض المحدودة، كما أنّ الكتابة هي وسيلته المثلى لتسجيل الحقائق العلمية التي يتوصّل إليها فقال تعالى: ﴿**قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً**﴾.

وما روي في سبب نزول هذه الآية يعطينا نموذجا ملموسا لغرور هذا الإنسان -أحيانا- بما أوتيه من العلم، فقد أخرج الحاكم وغيره عن ابن عباس قال: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئا نسأل عنه هذا الرّجل. فقالوا: سلوه عن الرّوح، فسألوه، فنزلت: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء:٨٥). وقالت اليهود: أوتينا علما كثيرا، أوتينا التّوراة، ومن أوتي التّوراة فقد أوتي خيرا كثيرا. فنزلت: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾.

قلت: كان اليهود يشيرون بقولهم ذلك إلى ما قاله المولى في سورة البقرة: ﴿يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَّشَآءُ وَمَنْ يُؤتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ (٢٦٩). فيزعمون أن بين هذه الآية وبين قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء:٨٥)، يزعمون أنّ بين الآيتين تناقضا، ولكنه المراء الكاذب، إذ ليس بين الآيتين تناقض إطلاقا.

ولدفع ذلك اللّبس تجيء هذه الآية الكريمة لتبيّن بجلاء سعة علم الله اللامحدود -ومنه سرّ الرّوح المسؤول عنه- إذ أغلق الله باب معرفته عن علم البشر؛ لأنّه قليل محدود لا يقاس بعلم الله اللامتناهي، وقد يغترّ النّاس بما عندهم من العلم ممن تنكشف لهم بعض الحقائق العلمية في الآفاق وفي أنفسهم. فيحسبون أنّهم بذلك قد علموا كلّ شيء. فيقال لأمثال هؤلاء: "علمت شيئا وغابت عنك أشياء".

وبهذا المثل الحيّ الذي ضربه الله لسعة علمه يتضاءل غرور الإنسان حين يعلم أن أقصى ما يمكن أن يبلغه من العلم كما يشاء الله إلى قيام السّاعة، فسيظل أن يكون علم الله أمامه كما يكون البحر مدادا لقلمه، ويمدّه الله ببحر آخر من المداد، فسينفد البحر ولا تنفد كلمات الله، فشتان شتان، فليطامن هذا الإنسان من كبريائه، فإذا اغترّ بعقله فمن الذي سخّر له ذلك العقل وقد خرج من بطن أمّه لا يعلم شيئا؟. فالعلماء الحقيقيون الذين قال الله في شأنهم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر:٢٨) إنّما هم ذلك الصّنف من العلماء الذين طال باعهم وعظمت حصيلتهم في المجال العلمي فأوصلهم إلى الإيمان اليقين في الله وكتبوا في ذلك ما يكفكف من غلواء المتعالمين المتفيقهين. وذلك ما حدا بالعالم الفيزيائي "أنشتاين" أن يقول: "قليل من العلم يوصل إلى الكفر والإلحاد، وكثير من العلم يوصل إلى الإيمان".

ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة لقمان: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٧).

ولما كان رسل الله محلّ امتياز بما حباهم الله من الرّسالة والوحي، فربّما يظنّ ظانّ أنّ أفقهم يرتقي فوق أفق البشرية لاتصالهم بالملإ الأعلى، فبيّن الله

أنهم لا ينفكون -أيضا- عن بشريتهم المحدودة بالقياس إلى أفق الألوهية فأمر الله رسوله أن يقول للناس: ﴿قُلِ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، فالمثلية في البشرية تقتضي أن يكون الرّسول في وجوده المادي تجري عليه نفس الأحكام التي تجري على سائر البشر، فهو مخلوق من أب وأمّ ويمرّ بمراحل العمر مثل غيره من النّاس، وتتعاوره الحالات النّفسية من حزن وسرور وانشراح وضيق ولذّة وألم ...إلخ. إلاّ أنّه ميّزه الله بالعصمة من الخطايا، وقوّى فيه الجانب الرّوحي ليتّصل بالملإ الأعلى.

﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾: والوحي هو الكلام الخفيّ يتلقاه الرّسول على الحالات التي بيّنها القرآن فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (الشّورى:٥١).

وبما أن القاعدة الأساسية التي جاء وحي الله لتركيزها هي وحدانية الله فقد أجمل ذلك في قوله: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، فكل معبود سواه مما عبدتم من دونه فهو كفر وضلال.

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾:

فإذا كانت مهمّة رسل الله على اختلاف شرائعهم هي أن يرتقوا بهذا الإنسان ليبلغ ذاك الأفق السّامي في جوار الله ونعيم رضوانه، فإنّ المرقاة التي تسمو بهم إلى الحظيرة القدسية هي:

أ)- الإيمان الخالص بوحدانية الله، والابتعاد عن الشّرك بكلّ أنواعه جليّه وخفيّه؛ لأنه تعالى غنيّ عن الشّركاء، فلا يقبل إلا ما كان خالصا لوجهه الكريم، فقد روى ابن عباس في سبب نزول هذه الآية قال: نزلت في جندب بن زهير

العامريّ قال: يا رسول الله، إني أعمل العمل لله تعالى، إلاّ أنه إذا اطّلع عليه سرّني. فقال النّبي ﷺ: «**إن الله طيّب، ولا يقبل إلاّ الطّيب، ولا يقبل ما شورك فيه**».[1]

ب)- الإتيان بالعمل الصّالح: وهو كل ما شرعه الله في كتابه من الأحكام العملية في العبادات والمعاملات، أو ما وصف به المتقين من الأخلاق الفاضلة، يلخّصها قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ (الأنعام:١٥٣).

وهكذا تأتي السّورة على ختامها، وقد لخّص الله بهذه الآية الكريمة كلّ ما انبثّ في خلالها من عبر القصص ومعاني الأمثال لتركيز العقيدة الصّحيحة في النّفوس ومحاربة البدع والضّلالات، والحمد لله أولا وآخرا.

والله أعلم

تمّت

١- رواه مسلم من حديث أبي هريرة، كتاب (١٢) الزكاة، باب (١٩) قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، رقم ١٠١٥.

سورة مريم مكية، وآياتها ٩٨

أ)- بين يديّ السّورة:

سمّيت بـ"مريم" لاشتمالها على قصة مريم العذراء عليها السلام في ولادتها لعيسى عليه السلام من غير أب، وما كان لذلك من ردود فعل في أوساط بني إسرائيل، وكيف أجرى الله على يد عيسى من أمور عجيبة لطمأنة والدته ولتبكيت قومه.

والسّورة شديدة التّناسب لما قبلها وما بعدها من السّور، إذ تشتمل كلّها على قصص عديدة لإثبات قدرة الله ووحدانيته، وهي التّاسعة عشرة في ترتيب السّور بالمصحف الشّريف من القرآن المكيّ، وآياتها ثمان وتسعون.

يمتاز أسلوبها بإيقاع فنيّ بديع يقول عنه سيد قطب: "كذلك نحسّ أن للسورة إيقاعا موسيقيا خاصًا، ففي جرس ألفاظها وفواصلها رخاء وفيه عمق: رضيا، سريا، خفيا، نجيًا، فأمّا المواضع التي تقتضي الشّدّ والعنف فتجيء فيها الفاصلة مشدّدة ودالاً في الغالب: مدًا، ضدًا، هدًا. أو زايا: عزًا، أزًا...الخ. وتنوّع الإيقاع الموسيقي والفاصلة والقافية بتنوّع الجوّ والموضوع يبدو جليا في هذه السّورة"[1]

ويقول الشّيخ محمد الغزالي في تفسيره الموضوعي: "وقد لوحظ أن اسم "الرّحمن" من أسماء الله الحسنى تكرر في هذه السّورة ستّ عشرة مرّة". ثم ذكر الآيات التي ورد فيها. ثم قال: "ومن اللّطائف أن تفتتح السّورة بكلمة "الرّحمة": ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾، وقد تكرّرت الكلمة أربع مرات خلال السّورة، وهي تتحدث عن أنعم الله، فلا عجب، فالإنعام نابع من الرّحمة، وكلّ

١- سيد قطب، في ظلال القرآن: ٤٢٣/١٦.

شيء يتعرّض النّاس له فهو تابع من حكمة عرفها من عرفها، وجهلها من جهلها".[1]

لعل من حكمة التّركيز على الرّحمة في السّورة الكريمة -والله أعلم- أن تجد هذه الصّفة الرّبانية الحنونة تأثيرا في قلوب المعاندين -وهم قساة القلوب- أزاء عبيدهم وضعفائهم، فيخففون الوطأة عليهم عندما يؤمن أحدهم برسول الله. علما بأنّ أولئك الكفار المعرضين لا ينكرون وجود الله الخالق الرّازق، وإنما كان إشراكهم إما عن تقليد أو عن فساد تصوّر.

ب)- المحاور التي تعالجها السّورة:

الموضوع الأساسي الذي تعالجه السّورة الكريمة هو ما يعالجه القرآن المكيّ من تركيز أسس العقيدة الإسلامية بإثبات وجود الله ووحدانيته، وصدق النّبوءة والرّسالة، والإيمان بيوم البعث والجزاء، والأسلوب المعتمد في ذلك هو إيراد جملة من قصص الأنبياء، وهو يغطي ثلثي السّورة تقريبا.

أ)- ففي مجال تجسيد قدرة الله وحكمة تدبيره تأتي قصتا ولادة "يحيى بن زكرياء" من شيخ كبير وأمّ عاقر، وتأتي ولادة عيسى من غير أب، وما دار حول ذلك من جدل واختلاف في بني إسرائيل.

ب)- إبطال دعوى الشّرك في عبادة الأصنام من خلال قصة إبراهيم ومناقشة أبيه، وكيف كرمه الله بالأولاد بعد الكبر، وجعل الحكمة والنّبوءة في ذريته، مع ذكر نماذج من عقبه لإثبات وحدة الرّسالة والنّبوءة.

ج)- توضيح قضية البعث والإنكار على المشركين وتهديدهم بالذّل والهوان

١- محمد الغزالي، نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم: ص٢٤١ - ٢٤٢.

في الدّنيا والآخرة مع عرض بعض مشاهد القيامة.

د)- ذكر مصارع القرون وبيان عاقبة المكذبين وكيف تنمحي آثارهم.

استجابة الله لدعاء زكرياء، وبشارته بيحيى

أ)- النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿كٓهيعٓصٓ﴾: حروف هجاء تقرأ بأسمائها كغيرها مما تقدم، وهي الأكثر عددا من نظائرها في أوّل بعض السّور، وقد تقدّم الحديث عنها بأنّها حروف تنبيه في أول الكلام، تحدّى الله بها العرب في الإتيان بمثل هذا القرآن المكوّن من تلك الحروف. ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾: ذِكْرُ: إما مبتدأ محذوف الخبر،

التقدير: في ما تخبرون به ذكر رحمة ربك. وإمّا خبر مبتدأ محذوف والتقدير: هذا ذكر رحمة ربّك. وهو مصدر مضاف إلى المفعول: ﴿رَحْمَتِ﴾. و﴿عَبْدَهُۥ﴾: مفعول منصوب بالمصدر. ﴿زَكَرِيَّآ﴾: بدل. ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾: ضعف ورقّ من الكبر، والمراد بالعظم الجنس. ﴿وَٱشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾: استعارة، شبّه انتشار الشّيب باشتعال النّار في الحطب. شيبا: منصوب بالتّمييز. ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾: الباء في ﴿بِدُعَآئِكَ﴾ للمصاحبة. و﴿شَقِيًّا﴾: النّفي في الجملة بمعنى أنه كان مستجاب الدّعوة في ما مضى، فلا تخيبني يا ربّ في ما يأتي. ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي﴾: ﴿ٱلْمَوَٰلِيَ﴾: هم عصبة الرّجل، أي الذين يلونه في النّسب كأبناء العمّ. ﴿مِن وَرَآءِي﴾: أي بعد موتي. وكان خوفه عليهم من تضييع أمانة الدّين. ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾: يقال: امرأة عاقر ورجل عاقر. وقيل: هو وصف خاصّ بالمرأة التي لا تلد. ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي﴾: أي من عند الله، وهي عندية خاصّة لا تجري على المعتاد من إيجاد الأولاد. والوليّ: أي ولدا من صلبي. و﴿يَرِثُنِي﴾: إما صفة أو مجزوم على جواب الأمر. ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾: السّميّ: أغلب المفسرين قال: لم يسمّ أحد بهذا الاسم قبله. وقد يقال: السميّ هو المثيل له في الصّفات، أي: لم يجيء قبل يحيى نبي اجتمع له من الصّفات الكريمة ما اجتمع ليحيى. ﴿رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾: أي علامة أعلم بها وقوع البشارة. ﴿سَوِيًّا﴾: بمعنى مفعول، يستوي الوصف به في الواحد والمتعدّد، وهو منصوب على الحال، أي حالة كونك بدون أية عاهة من الخرس والبكم. ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾: أي طلع عليهم لصلاة الجماعة بعد أن كان في المحراب لصلاة خاصة. ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾: ﴿أَوْحَىٰ﴾: بمعنى: أشار وأومأ إليهم. ﴿أَن سَبِّحُوا۟﴾: جملة تفسيرية، أمرهم بالتسبيح في أول النّهار وفي آخره، والمراد بالتسبيح الصّلاة.

وورد في شأن هذه السّورة الكريمة أن جعفر بن أبي طالب قرأ صدرها على

ملك الحبشة "النجاشي" فبكى لسماعها.

ج)- أوجه القراءة:

﴿كٓهيعٓصٓ﴾: الأصل في النطق بهذه الحروف أن يكون كل حرف منها موقوفا عليه، فقرأ الجمهور جميع أسماء هذه الحروف الخمسة بإخلاص الحركات، والسّكون بإسكان أواخر أسمائها. وقرأ أبو عمرو والكسائي وأبو بكر عن عاصم ويعقوب اسم الحرف الثّاني وهو "ها" بالإمالة. وفي رواية عن نافع وابن كثير قرأ "ها" بحركة بين الكسر والفتح. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي "يا" بالإمالة. وقرأ نافع وابن كثير وعاصم وأبو جعفر بإظهار دال "صاد". وقرأ الباقون بإدغامه في ذال ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾. وإنما لم يمدّ "ها" و"يا" مع أن القارئ إنما ينطق بأسماء هذه الحروف التي في أوائل السّور لا بمسمياتها المكتوبة أشكالها. واسما هذين الحرفين مختومان بهمزة مخففة لأجل السّكت. ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي﴾: ﴿يَرِثُنِي﴾: قرأه الجمهور بالرّفع على الصّفة لـ ﴿وَلِيًّا﴾. وقرأه أبو عمرو والكسائي بالجزم على أنه جواب الدّعاء في قوله: ﴿فَهَبْ لِي﴾ لإرادة التّسبّب؛ لأن أصل الأجوبة الثّمانية أنها على تقدير فاء السّببية. ﴿عُتِيًّا﴾: قرأ الجمهور بضمّ العين وهو مصدر "عتا العود" بمعنى يبس، وهو بوزن "فعول" أصله: عتوو. والقياس فيه أن تصحّح الواو لأنها إثر ضمة. ولكنهم لما استثقلوا توالي ضمتين بعدهما واوان وهما بمنزلة ضمتين تخلصوا من ذلك الثّقل بإبدال ضمة العين كسرة ثم قلبوا الواو الأولى ياء لوقوعها ساكنة إثر كسرة. فلما قلبت ياء اجتمعت تلك الياء مع الواو التي هي لام. والذين كسروا التّاء في "عتيّ" بمعنى اليبس أرادوا دفع الالتباس بينه وبين العتوّ الذي هو الطّغيان. ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ﴾: قرأ الجمهور ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ﴾ بتاء المتكلم. وقرأ حمزة والكسائي وخلف "وقد خلقناك" بنون العظمة.

د)- من هو زكرياء؟.

ذكر زكرياء في القرآن ثماني مرات: في آل عمران، وفي الأنعام، وفي مريم وفي الأنبياء. يقول الإمام ابن عاشور في ترجمته: "وزكرياء كاهن إسرائيلي من بني أبيًا بن باكر بن بنيامين من كهنة اليهود، جاءته النّبوءة في كبره، وهو ثاني من اسمه زكرياء من أنبياء بني إسرائيل، وكان متزوجا امرأة من ذرية هارون اسمها "أليصابات" وكانت امرأته خالة مريم، ولما ولدت مريم كان أبوها قد مات، فتنازع كفالتها جماعة من أحبار بني إسرائيل حرصا على كفالة بنت حبرهم الكبير، واقترعوا على ذلك، فطارت القرعة لزكرياء".[1]

هـ)- البيان والتّفسير:

يغلب على السّورة الكريمة الطّابع القصصي بما يتخلله من العبر والمواعظ، وبما يسوده من حنان الرّحمة ونداوة الرّضى وفيض الألطاف الرّبانية. وقد ابتدأت بحروف مقطعة مثل نظائرها من السّور الأخرى. ونالت من تلك الأحرف الحصة الكبرى، إذ جاءت في خمسة أحرف هي: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، وهي تنطق بأسمائها ويقال في فوائدها والمقصد منها ما قيل في نظائرها من قبل. إلاّ أن الإمام ابن عاشور أورد معنى آخر -والله أعلم بمراده- فقال: "قيل في معنى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾: إنّ حروفها مقتضبة من أسماء الله تعالى: فالكاف من الكافي أو الكريم أو الكبير، والهاء من هادي، والياء من حكيم أو رحيم، والعين من العليم أو العظيم، والصّاد من الصّادق. وقيل: بمجموعها اسم من أسمائه تعالى حتى قيل: هو الاسم الأعظم الذي إذا دعي به أجاب. وقيل: اسم من أسماء القرآن، أي بتسمية جديدة، وليس في

١- محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير: ٣/٢٣٥- ٢٣٦.

ذلك حديث يعتمد".[1]

ولكن الإمام الفخر الرّازي يردّ على ذلك بقوة فيقول: "لا يجوز من الله تعالى أن يودع كتابه ما لا تدلّ عليه اللّغة، لا بالحقيقة ولا بالمجاز؛ لأنّه إن جوّزنا ذلك فتح علينا قول من يزعم أنّ لكلّ ظاهر باطنا. واللّغة لا تدلّ على ما ذكروه. فإنه ليست دلالة الكاف أولى من دلالته على الكريم أو الكبير أو على اسم آخر من أسماء الرّسول ﷺ أو الملائكة أو الجنة أو النّار، فيكون حمله على بعضها دون البعض تحكما لا تدل عليه اللّغة أصلا".[2]

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآءَ، اِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾: ترد في إعراب كلمة: ﴿ذِكْرُ﴾ أوجه كثيرة. ولعلّ أنسبها أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف، والتّقدير: هذا ذكر رحمة ربّك عبده. وبما أنّ الجملة يرد فيها خطاب لرسول الله في كلمة: ﴿رَبِّكَ﴾ فتكون بمعنى "اذكر". والذّكر يرد بمعان كثيرة -أيضا- منها: الإخبار بشيء، ومزج ذلك الإخبار برحمة الله النّديّة لعبده زكرياء فيه تنويه بشأن الرّسولين الكريمين محمد وزكرياء، فكلاهما قد غمرته رحمة الله، ولكلّ منهما رحمة خاصّة به تؤيده في أداء مهمته. وقد تجلّت رحمة الله على زكرياء حين نادى ربّه مناجيا إياه بعيدا عن أعين النّاس؛ لأنّ ذلك أدعى إلى الإخلاص، ولأنّ طلبه من الله كان للولد، وهو في سنّ الشّيخوخة، فيكون ذلك مثارا للملامة في مألوف النّاس. فتجلت رحمة الله في استجابة دعائه بإعطائه الولد. ومَنْ غيرُ الله تكون له القدرة الطّليقة التي لا تتقيد بالأسباب المألوفة؟. فهذا زكرياء الشّيخ الواهي تشاركه هموم الحياة زوج عقيم، يبث شكواه إلى ربّه في نداء خفيّ ضارع. وهل للمكروب المعنّى من متنفّس غير الدّعاء الخاشع إلى الله وهو يسمع ويرى، وهو وحده القادر

١- محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير: ٦١/١٦.

٢- الفخر الرازي، التّفسير الكبير: ١١/ ١٧٩.

على تخطي الأسباب، ليستجيب لعبده ويفتح له مغاليق الأبواب؟.

فقال زكرياء في دعائه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا، وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَآئِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا، يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾.

إنه يطلب الولد، ويعلم أن ذلك له قانونه وأسبابه في وتيرة الحياة، ولكنه شديد الثّقة بربّه بأنه كريم العطاء، وهو لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السّماء، وهو عليم بذات الصّدور، فمهّد بذكر حالته الصّحية ووضعيته الزّوجية. وجاء نداؤه بصفة الرّبوبية: ﴿رَبِّ﴾؛ لأنها أدعى للرّحمة والحنان، فقال -وبدون "يا"- ليدل على القرب:

أ)- ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾: والهيكل العظمي في ذات الإنسان هو قوام جسمه. ووهن العظم يستتبع وهن الجسم كله؛ لأنه هو المادة الصّلبة التي يقوم عليها بناء الجسم، فإذا ما أصابه الوهن فغيره من اللّحم والعصب والدّم من باب أولى.

ب)- ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾: والشّيب هو العلامة الظّاهرية لوهن الجسم. وعلى قدر ذلك الوهن يقوى الشّيب حتى يعمّ كل أطراف الجسد، فهو كالنار التي تلتهم كومة الحطب.

ج)- ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾: لم أكن -أي في الزّمان الماضي- لم أكن إلا مستجاب الدّعاء سعيدا بتلك المنة. فلا تخيّب دعائي الحاضر في طلب الولد؛ لأنني ما طلبته لأجل الدّنيا.

ويحتمل أن تكون الباء في قوله: ﴿بِدُعَآئِكَ﴾ تكون للسببية. فيكون المعنى:

لقد عشت في ماضي حياتي سعيدا مطمئنا رضي النّفس بفضل دعـائي وعبـادتي لك.

وقد ذكر لربّه ما يخشاه بعد وفاته من ضياع أمانة الدّين، إذ قال: ﴿وَإِنِّـي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَآئِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً، يَرِثُنِـي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾.

فمكانة زكرياء في بني إسرائيل هي مكانة الحبر الأعظم الذي تنتهي إليه أمانة الدّين، و لم يجد في بني عمومته وأقاربه من هو حريّ بتحمّل تلك الأمانة، إذ كـان لا يثق في سلوكياتهم، فأمانة الدّين هي ميراثه الأعظم، فما الحيلة -وزوجته هـي الأخرى عاقر بطبيعتها-؟، فلا إنجاب -إذن- إلاّ أن يكون ذلك هبـة مـن الله تتخطى الأسباب. وقد سبق أن وهب الله مثل ذلك لجدّه إبراهيم على نفس تلـك الوضعية فقال حامدا شاكرا: ﴿الْحَمْدُ للهِ الذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَـرِ إِسْـمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَآءِ﴾ (إبراهيم:٣٩).

وها هي رحمة الله تتوالى على أهل البيت ليمنح من عنده تلك الهبة لزكرياء، متمثلة في إعطائه ذلك الولد الرّضيّ الذي طلبه، وما أروع وصف "الرّضيّ" للولد في هذا المقام؛ لأنّه بإزاء إرث مقدّس لا يؤتمن عليه إلاّ من تكون صفاته مرضية عند الله، فهو إرث عريق يضرب جذوره لآل يعقوب -وهـو الجـدّ الأعلـى لـبني إسرائيل-، فقد جعل الله في ذرّيته الحكم والنّبوءة، فمن الاعتزاز بأرومـة الـدّين والفضيلة أن يذكر الرّجل آل بيته الصّالحين ممن ورث عنهم الصّلاح والتّقوى، وفي ذلك من الفخر ما فيه، ولكن في تواضع وأدب. ولا تحفظ أمانة الدّين إلا على يد الرّجال الفضلاء الأمجاد.

فماذا بعد ذلك الدّعاء الضّارع من زكرياء لربّه؟. هو ذا ربّه السّميع المجيب يقول: ﴿يَا زَكَرِيَّآءُ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ، يَحْيَى[1] لَمْ نَجْعَل لَّهُ، مِن قَبْلُ سَـمِيّاً،

١- رواه البخاري من

قصة ياجوج وماجوج،

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾.

توجّه نداء الله إلى زكرياء مباشرة، والتّقدير: قلنا: يا زكرياء، وذلك يدلّ على سرعة الاستجابة. والتّبشير هو الإخبار بما يسرّ. والمبشر به هو هذا الولد الزّكيّ والمسمّى "يحيى"، والإخبار هنا هو بمعنى الأمر. وقد اختار الله هذا الاسم غير المعهود من قبل تيمّنا أن يمتعه الله بحياة طيّبة. وتلك ميزة اختصّ الله بها هذا الولد، إذ النّاس مختارون في تسمية أولادهم. وعندما يكون الاسم مبتكرا وهو يحمل مواصفات طيّبة للمسمّى فهو إكرام له وتشريف. وقد قيل: إن من الأسرار الخفية في هذه التّسمية أنّ يحيى سيموت شهيدا حتى يبقى عند الله حيّا كما تدلّ عليه الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران:١٦٩). وللفظ "السميّ" معنى النّظير والشّبيه كما في قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ (مريم:٦٥). وعلى هذا المعنى لا يكون "يحيى" أفضل من غيره ممن سبقه من أجداده كإبراهيم وإسحاق ويعقوب؛ لأنّ المزية مهما عظمت لا تقتضي الأفضلية كما قيل.

تعجّب زكرياء من تلك البشارة الرّبانية فقال: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾، وعلى فرحه بالبشرى يتذكر زكرياء واقعه مع امرأته -وذلك أمر فطريّ في الإنسان- فهو يريد أن يعرف كيف يتحقق ذلك، -لا شكا في وعد الله، حاشاه- وإنما هو للاطمئنان القلبي كما فعل إبراهيم مع ربّه، فكلا الزّوجين عاجز عن الإنجاب، فكيف يأتي ذلك الولد؟ فهو لا يشكّ في قدرة الله، ولكنّه الفضول لمعرفة الكيفية.

وهنا يأتيه الجواب: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾.

القائل هو الله جلّ جلاله يردّ على تعجّب زكرياء، بأنّ ذلك هيّن على الله،

١- رواه البخاري من
قصة ياجوج وماجوج،

وذلك على اعتبار مألوف النّاس، إذ يقولون: هذا سهل وهذا صعب. أمّا بالنّسبة لقدرة الله فالكلّ سواء في قدرته، فهو القادر على إصلاح سبب العقم في زوجته كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ (٩٠). وهو القادر على إيجاد قوة الإنجاب في الرّجل الكبير. والله يذكره بالمثل القريب في نفسه هو بأن خلقه بعد أن لم يكن، فإعادة الخلق أسهل من بدئها كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (الرّوم:٢٧).

وقد حرص زكرياء على معرفة العلامة التي تدلّ على تحقق البشرى؛ إذ ربّما يتأخّر الموعود به لحكمة يعلمها الله، فهو يطلب علامة تدلّ على حمل امرأته ليعيش تلك الأمنية الغالية شاكرا الله عليها: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيّاً﴾.

جاءت الإجابة بأن لا يقدر على الكلام العادي للنّاس في ثلاث ليال حالة كونه سليما معافى، فـ"سوّي" وصف لزكرياء ينقطع في تلك اللّيالي الثّلاث إلى ربّه يسبّح له فينطق لسانه، وينحبس عن الكلام إذا حدث النّاس. فالعيّ العارض فيه ليس عيبا خلقيا، بل هو آية من الله لا اختيار له في ذلك حتى يتلافاه.

وقد تمّ ما أراد الله له، فماذا كان منه؟، قال الحق تبارك وتعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾.

حدث لزكرياء ذلك العيّ المؤقت وهو في المحراب -وهو مكان مرتفع يخصّص للرسول أو النبي الذي يصلّي بالنّاس ويعظهم-، فأراد زكرياء أن يشاركه قومه في تلك الفرحة، فأمرهم بالتّسبيح في أوّل النّهار وآخره شكرا لله، ولا شك أن الشّكر الجماعي له وزنه عند الله، وذلك بعد أن علموا بالبشرى، وهي نعمة على الجميع، والله أعلم.

١- رواه البخاري من
قصة ياجوج وماجوج، «

بيان فضائل يحيى عليه السلام

أ)- النص:

﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾: هناك قول محذوف، والتقدير: قلنا. على أنّ القائل هو الله تعالى. ﴿خُذِ الْكِتَابَ﴾: الأخذ بمعنى التفهّم والتدبّر. و﴿الْكِتَابَ﴾: هو التوراة؛ لأن يحي لم يترل عليه كتاب. والقوة: أي بجدّ وثبات في العمل به وإقناع النّاس على اتباعه. ﴿وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا، وَحَنَاناً مِن لَّدُنَّا وَزَكَاةً﴾: الحكم بمعنى النبوءة. وقيل: هو الحكمة والفهم. وصبيًا: منصوب على الحال، أي حالة كونه صبيًا، وذلك خصوصية له. قال ابن عباس: كان ابن سبع سنين. والحنان: الشّفقة. وكونها من عند الله؛ لأنها فوق ما اعتاده النّاس. والزّكاة: من زكاة النّفس، أي طهارتها وصفاؤها، أو هي من النّماء والبركة. ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ﴾: ﴿وَبَرّاً﴾ بفتح الباء: وصف من الإحسان والطّاعة للوالدين. وأما "البِرّ" بكسر الباء فهو اسم مصدر. ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيّاً﴾: الجبار: المتعالي والمستخفّ بحقوق النّاس. والعصيّ: على وزن فعيل، شديد العصيان. ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾: دعاء له من الله بالسّلامة، وهو ثناء عليه.

ج)- من هو يحي عليه السلام؟.

هو النّبي الصّالح النّقي، شرّفه الله بالنّبوءة وهو صبيّ، وأعطاه الحكمة فكان

١- رواه البخاري من

قصة ياجوج وماجوج، و

عالما في الشّريعة الموسوية. ذكر اسمه خمس مرات في القرآن الكريم: في سورة آل عمران، وفي الأنعام، والأنبياء، ومرتين في سورة مريم. عمّد يحيى السّيد المسيح عليهما السّلام في نهر الأردن، وأخذ النّصارى طريقته ويسمونه: يوحنّا المعمدان.

ذبح يحيى على صخرة في بيت المقدس، وحمل رأسه إلى دمشق. وسبب ذبحه أن ملكا في زمانه أراد أن يتزوّج ببعض محارمه، فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك، فبقي في نفس من أراد الزّواج بها شيء عليه. ولما تزوّجها استوهبت منه دم يحيى فوهبه لها، فبعثت له من قتله وجاء برأسه. وقيل: قتل في دمشق، ومقامه في المسجد الأموي حتى يومنا هذا.[1]

د)- البيان والتّفسير:

من بديع الإيجاز، ومن أحكم الرّبط في القصص القرآني، ما نلحظه في قصة زكرياء وابنه يحيى عليهما السّلام، فبينا تركنا زكرياء في غمرة الفرح مع قومه ببشرى الغلام -وهو ما يزال جنينا في بطن أمه-، فإذا به إنسان سويّ يخاطبه الله تعالى لتحمّل أعباء الدّعوة بقوة وثبات فيقول الحق سبحانه: ﴿**يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا، وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا، وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا**﴾.

يكرّم الحق تعالى يحيى بهذا النّداء التّشريفي: "يا يحيى"، يناديه باسمه الذي سمّاه به هو، وذلك من أطيب ما تعامل به إنسانا تريد به خيرا وصلاحا فتناديه بأحبّ أسمائه إليه، فيهفو إليك قلبه وتطمئن نفسه، فإذا أذنه صاغية لما تقول، ونفسه مقبلة عليك. ذلك ما يتمّ بين النّاس، فكيف إذا تمّ ذلك بين الله تعالى وعبده؟. فإنّه تعالى يعدّ عبده يحيى لأمر عظيم، ويتمثل ذلك في تسلّم ميراث والده زكرياء، إذ يتحمّل

١- شوقي أبو خليل، أطلس القرآن: ص١١٠ (بتصرّف).

القيادة الرّوحية لبني إسرائيل، ومرجعيته في ذلك هو كتاب التّوراة. وقد شدّد الله في بعض الأحكام على بني إسرائيل جزاء تعنتهم وعنادهم، كما أنهم بدّلوا وغيّروا.

فالمهمة -إذن- تحتاج إلى قوة وعزيمة في التّطبيق والعمل، فليست القوة هنا بمعنى الإكراه والجبر من عند الله، بل هي العزيمة والإرادة في التّنفيذ؛ لأنّ أحكام الله هي أوامر ونواه، وكلّ منها يحتاج إلى قوة وصبر في العمل أو التّرك، والدّعوات لا تقوم على الضّعاف المهازيل، ولذلك نجد رسول الله يريد أن يظهر أصحابه أمام أعدائهم بمظهر القوة، ويقول: «**المؤمن القويّ خير وأفضل وأحبّ إلى الله من المؤمن الضّعيف، وفي كلّ خير**».[1]

ولقد زوّد الحقّ تعالى نبيه يحيى بما يكون به أهلا لتحمّل تلك الأمانة، ومن تلك المؤهلات:

- ﴿**وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا، وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا**﴾: والحُكم هو بمعنى النّبوءة أو هو بمعنى الحكمة، أي التّدبّر في الأمور بإصابة الرأي والفهم، ولا تكون تلك الميزة إلاّ مع الكبر ونضج العقل، ولكن الله زوّد بها صبيًا، فخصّه بتلك الميزة التي لا تخضع للأسباب.

ب)- ﴿**وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا**﴾: والحنان هو الشّفقة والرّحمة للولد، ولهذه الصّفة جهتان: فهي حنان له من عند الله يعوّضه بها ذلك النّقص الذي كان من والديه أزاءه نظرا لشيخوختهما، وهو -أيضا- حنان في طبعه هو ليكون في دعوته ليّنا لاجتذاب قلوب النّاس. وكلتا الجهتين هما هبة من الله حباه بها.

ج)- ﴿**وَزَكَاةً**﴾: بمعنى طهارة النّفس وزكاؤها، وذلك من فضل الله بتربيته

١- رواه مسلم من حديث أبي هريرة، كتاب (٤٦) القدر، باب (٨) الإيمان بالقدر والإذعان له، رقم ٢٦٦٤.

الرّبانية، وعلى حجم تلك الطّهارة النّفسية يعظم قلب الإنسان حتى يسع الخلق محبّة ورحمة كما كان رسولنا الأعظم ﷺ.

د)- ﴿وَكَانَ تَقِيّاً﴾: أي كان شديد الصّلة بربّه مقدرا لجلاله، يخشاه ويستشعر عظمته، وزيادة فعل "كَانَ" للدلالة على تمكنه من هذه الصّفة.

هـ)- ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيّاً﴾: لزيادة هذه الصّفة مع ما تقدم من الصّفات دلالة خاصّة في هذا المقام:

- هو متمكن من وصف البرّ للوالدين، حتى لا يظن ظانّ بأنّ الولد لم يهب له والداه من التّربية والحنان ما يكفي نظرا لحال كبرهما وعجزهما، وقد يكون ذلك سببا لعقوق بعض الأولاد، فكان يجيء على العكس من ذلك بارّا بهما شديد التّعلق بهما.

- في التّنصيص على برّ الوالدين وفي معرض ما ذكره الله من الصّفات الحميدة في معاملة النّاس، في ذلك بيان وتأكيد لقيمة الوالدين عند الله.

و)- ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيّاً﴾: في هذا النّفي لصفة الجبروت والعصيان تركيز للصّفات المتقدمة؛ لأنّ الرّفق واللّين هما السّياج الواقي لأضداد الصّفات المتقدمة، وبذلك تكمل الصّورة الإنسانية الكاملة في شخص يحيى عليه السلام.

﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً﴾: تشكل جملة "السّلام عليك" إلقاء التّحية على غيرك، وفيه ثناء عليه أو دعاء له بالسّلامة والأمن من كل مكروه، فإذا كان ذلك من الله فهو إكرام وثناء للمسلّم عليه، ولا شكّ أنّ ميلاد الإنسان وموته ثم بعثه ليوم القيامة هي المراحل الأخطر في حياة الإنسان، بحيث يكون لا حول له فيها ولا قوة، إذ تمثل الانتقال من طور إلى طور.

أ)- ففي حالة الميلاد: يخرج الجنين الإنسان من بطن أمه أضعف ما يكون

١- رواه البخاري من
قصة ياجوج وماجوج،

من خلق الله. ومن رحمة الله به أن يسخّر له والديه ويبزل الرّحمة والحنان في قلبيهما لرعايته وتربيته.

ب)- وفي لحظات موته لا تملك أية قوة على وجه الأرض أن تشدّ أنفاسه. فلا يخفف عليه حدة الموت إلا الله تعالى.

ج)- وأوغل في عجز الإنسان وانتفاء الأسباب له حالة البعث إذ يخرج من قبره كما ولدته أمّه.

حقا إنها حالات ثلاث عصيبة لا يملك أمرها إلا الله، فلا يطلب فيها المؤمن السّلامة والنّجاة إلاّ من الله، وهو الحيّ القيوم والعزيز الجبّار.

وختمت بذلك قصة يحيى عليه السلام لتكون شارة على ما له عند الله من المنزلة والقدر، فنرجو منه تعالى حسن الخاتمة وجميل العاقبة، والله أعلم.

قصّة مريم العذراء

٠١)- حملها بعيسى عليه السلام

أ)- النص:

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾: الجملة من عطف القصة على القصة، الخطاب فيها لرسول الله، والكتاب هو القرآن الكريم. ﴿إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾: الانتباذ هو الانفراد والانعزال. مكانا: منصوب على المفعولية أو الظّرفية، أي في مكان شرقي، فهو شرقيّ إمّا من دارها تتخلّى به للعبادة، وإما من بيت المقدس. ولذلك اتخذ النّصارى الشّرق قبلة لصلواتهم. ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾: اتخذت ذلك الحجاب لتعتزل عن النّاس عند اغتسالها من الحيض. وقيل: لتمتشط. ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾: الإضافة في ﴿رُوحَنَا﴾ تشريفية، ويعني به جبريل عليه السلام، وقد تشكّل في صورة بشر سويّ الخلقة. ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾: جعلت الله ملجأ لها مما همّ بها في ظنها، ولذلك ذكرته بالتّقي ليتعظ. وجواب الشّرط محذوف دلّ عليه ما قبله، أي فاتعظ بتعويذي. ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾: إسناد الهبة إليه مجاز عقلي، والزّكيّ بمعنى طاهر من الذّنوب ناميا على الخير والصّلاح. ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾: أي بطريق الزّواج الحلال، وثم هي عفيفة من قبل لم تقرب من الزّنى. ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾: ﴿كَذَٰلِكِ﴾: بمعنى أن الأمر كما قلت وأنه هيّن سهل أزاء القدرة الإلهية. ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾: تعليل لأمر الله ببيان قدرته وحكمته وإظهار كرامة عيسى. ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾: الحمل: هو علوق نطفة الجنين في رحمها. ولذلك اعتزلت أهلها إذ ذهبت إلى مكان بعيد عنهم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾: قرأ الجمهور بهمزة المتكلم بعد لام العلة. وقرأه أبو عمرو

ونافع "ليهب" بياء الغائب، أي ليهب ربّك لك، وهي مكتوبة في المصحف بألف.

د)- البيان والتّفسير:

تقدمت كلّ من قصتي زكرياء ومريم في سورة آل عمران، وأخبرنا المولى هناك بأنّ زكرياء هو كافل مريم ومتولّي شؤونها، وأنّه ذات مرة وجد عندها في محرابها أنواعا من الفواكه لم يأت بها لها، وعندما سألها: يا مريم، أنّى لك هذا؟، قالت: هو من عند الله، إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب. فكان ذلك الجواب باعثا لزكرياء أن يطلب من الله الولد على كبر سنّه وعقم امرأته. ولما كانت قصة مريم أوغل في العجب وأدلّ على قدرة الله من قصة زكرياء جاء بهذا الانتقال البديع من تقديم الأسهل على الأصعب، وليكون ذلك إيناسا وطمأنة لنفس مريم فلا تزعج لما قدّره الله لها من عجيبة حملها لولدها من غير أب.

قال الحق تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً﴾:

عطف الله قصة مريم على سابقتها من قصة زكرياء وأمر رسوله أن يتلو قصّتها على النّاس كما نزلت عليه في القرآن.

ولعلوّ منزلة مريم عند الله أفرد القرآن باسمها سورة كاملة، وذكرها منسوبة إلى أبيها فقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ (التحريم:١٢)؛ ذلك لأنّ ما حدث لها من حملها لعيسى بدون أب لم يحدث ولن يحدث لغيرها من نساء العالمين. وفي ذلك تأكيد لقدرة الله وبيان لحكمة أرادها في تدبير شؤون خلقه كما سيأتي بيانه.

قال الحق تعالى: ﴿إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً﴾، الانتباذ: هو بمعنى الابتعاد والانعزال عن النّاس، ولكن مريم انعزلت عن أهلها بالذّات إذ كان أنسها

ربّها المعبود وحيدة، استجابة لنذر والدتها عندما كانت جنينا في بطنها.

و لم يعط النّصّ القرآني صفة لذلك المكان إلاّ أنّه شرقيّ، كما لم يبيّن شرقيته بالنّسبة لماذا؟ فقيل: هو شرقيّ لمعبدها. وقيل: لبيت المقدس. وفي ذكر الجهة الشّرقية تنبيه على أصل اتخاذ النّصارى الشّرق قبلة لصلواتهم تفاؤلا بمصدر انبثاق النّور.

﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴾: فرّع الله تعالى على ابتعادها عن أهلها اتخاذها لحجاب يسترها، و لم يبيّن الله سبب ذلك التّستر. ومما ذكره المفسّرون أنها احتجبت لتغتسل من الحيض. فحصل لها بذلك حركتان.

أ)- الابتعاد عن الأهل في مكان شرقيّ.

ب)- التّستّر عنهم بحجاب لما طرأ لها من العادة الشّهرية، وذلك شيء طبيعي أن يحدث لها ولا مانع منه مهما بلغت المرأة من الطّهر والزّكاة والعفاف.

والتّعقيب بإرسال الملك جبريل عليه السلام لا يكون إلا بعد طهرها وعودتها إلى محراب عبادتها. والنّصّ لا يفصّل السّبب الذي دعاها لاتخاذ الحجاب إلا أن تكون قد توارت عن أعين الأهل لتخلو إلى العبادة في محرابها. ففي سورة آل عمران ما يؤيّد هذا المعنى إذ يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾(٤٥). والتّمثل هو تكلّف المماثلة، بمعنى: لم يأت جبريل لها على صورته الملكية النّورانية، إذ لا يمكن التقاؤهما وهما متغايران في خلقتهما. فكان تمثل الملك على صورة إنسان سويّ الخلقة هو الأنسب لاستئناس مريم وهي في صورتها البشرية النّقية الطّاهرة، بدليل مبادرتها إياه بقولها: ﴿قَالَتْ إِنِّيَ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً﴾.

قالت ذلك له بدافع طهرها وعفافها، إذ كانت تظنّ أنّه يريدها بسوء. فعلى الرّغم من وسامة ذلك الفتى الملك أمامها، وقد أصبحت في خلوة معه، لم تلاطفه في الحديث و لم تظهر إعجابا به بدافع الغريزة الأنثوية، ولكنها تعوّذت منه قبل أن يبادئها بالكلام، فقد التجأت إلى الله بصفته الرّحمانية، ليدفع عنها شرّ ذلك الطّارئ برحمته.

وقولها: ﴿إِن كُنتَ تَقِيّاً﴾ هو تذكير بالتّقوى؛ لأنّ المؤمن التقي هو الذي تأخذه الخشية من الله إذا ذكّر به، وبالتّالي فهو يقدّر للاستعاذة بالله قدرها. ولذلك جاءت إجابة الملك مناسبة لحالة مريم النّفسية وهي تلوذ بحمى الله فقال: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً﴾.

نلاحظ ذلك التّلطّف والإيناس في قول الملك لها: ﴿إِنَّمَآ أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾، فالتّعبير بالقصر لدفع وهمها أنه بشر، ثم كونه رسولا من ربها هو لإفادة الرّعاية الرّبانية لها، وصونها من كل سوء.

وقوله: ﴿لأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً﴾، فعلى قراءة ﴿لأَهَبَ﴾ بالهمزة يكون إسناد الهبة إلى نفسه مجازا؛ لأنّ الواهب هو الله تعالى كما تدلّ عليه قراءة: "ليهب" بياء الغائب. وكونها هبة من الله؛ لأنها لم تجر على سنة الله في الخلق بالزّوجية الذّكر والأنثى. والموهوب لمريم هو ذلك الغلام الزّكيّ الطّاهر عيسى عليه السلام. وعلى ما كان يكتنف ذلك الموقف من الحياء والحشمة من طرف "مريم" لم تتهيّب أن تحاور الملك في تعجّب واستفسار كيف يمكن أن يكون ذلك الأمر: ﴿قَالَتَ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً﴾.

إنها لصدمة كبرى لمريم العذراء العفيفة أن تحمل في بطنها جنينا، وليست بذات زوج، وقد عبّرت بلطافة وتهذيب عن اتصال الذّكر بالأنثى بقولها: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾. والمسّ هو الجماع في المصطلح القرآني، سواء تمّ ذلك بطريقة

شرعية أو بغيرها، فمريم قد نفت عن نفسها أيّ نوع من ذلك الاتّصال الغريزي.

وبما أنّها كانت مخطوبة ليوسف النّجار و لم يبن بها بعد، فإنها دعمت النّفي الأول بقولها: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾، والبغيّ هي المرأة التي تدعو الرّجال لنفسها، ونفي تلك الصّفة عنها تقتضي أنها بقيت طاهرة عفيفة إلى تلك السّاعة، فكيف ترضى أن توصم بها بعد ذلك؟، وهذا النّفي المؤكد منها كان على مقتضى مألوف النّاس في اكتساب الولد، لا أنها مستبعدة لقدرة الله؛ لأنها متيقنة بأن الله خلق آدم من غير أب ولا أمّ، ولكنّها تودّ أن لا يحصل هذا الأمر لما تتوقعه من الحرج ومضايقة النّاس لها.

ولذلك جاءت إجابة الملك لها مهوّنة لتلك التّوقعات في جانب ما اقتضته حكمة الله من خلق عيسى بتلك الطّريقة، وما يجريه على يديه من الهدى والنّور للناس فقال: ﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيًّا﴾.

هي نفس الإجابة التي تقدمت لزكرياء عليه السلام، إلاّ ما كان من كسر كاف الخطاب هنا - أي إن إرادة الله نافذة لا محالة- وإن كنت قد راجعت في ذلك الأمر بناء على مألوف النّاس؛ لأنّ الله على ما يشاء قدير، لا تتعلق قدرته بالأسباب، وبالتّالي فكون ذلك هيّنا على الله هو تعبير مجازي في حقّ الله جار على مألوف قياسنا نحن في صعوبة الأشياء وسهولتها أزاء قدراتنا الخاصّة، وإلاّ فكلّ أفعاله تعالى هي متعلقة بإرادته: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ (مريم:٣٥).

﴿وَلِنَجْعَلَهُ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيًّا﴾: وهذا تكريم للمولود الزّكيّ، فالجاعل هو الله تعالى، ولكن الكلام هنا جرى على لسان الملك في سياق الإجابة على مراجعة الأمر من مريم، وكون عيسى آية للناس لأنّ ولادته كانت خارقة للعادة، لأنّ الآية لا تكون إلا في الشّيء العجيب الذي يبهر العقول.

وتظهر تلك الآية في الولد وأمّه، فهما متكاملان في إظهار قدرة الله، وكلاهما أصبح محلّ مثار تشويش في الاعتقاد عند المسيحيين لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ (المائدة:١١٦). كما نجد الحقّ تبارك وتعالى يعتبرهما معا آية للنّاس في قوله بسورة المومنون: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً﴾ (٥٠).

وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾، ومجالات رحمة الله في خلقة عيسى بتلك الكيفية متعددة، وأعظمها أن ينفي الحقّ عن عقول النّاس ما عساه يخطر ببالهم من كون أمر العالم لا تحكمه إلاّ الأسباب والقوانين الطّبيعية التي درج الملحدون والماديون على ترتيب النّتائج الحتمية عليها، فإنّ الله تعالى هو ربّ الأسباب والمسبّبات يملك كلّ عناصر الفعل متى شاء وكيفما شاء.

ثم إنّ بعثة عيسى عليه السلام جاءت لتحقيق التّعادل والتّوازن في المسيرة البشرية بعد تورّط بني إسرائيل في حمأة المادية المفرطة، وبالتّالي هي إرهاص لوسطية الإسلام على يدي محمد رسول الله ﷺ.

﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾: وفي هذا التّذييل قطع لكل مراجعة أو تردّد، فليس ثمّت نقاش في أمر الله، فقد انتهى الأمر بتحرّك الجنين في رحم مريم.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾: لقد استسلمت مريم لقضاء الله، إذ حملت الجنين في بطنها، ولا أروح لها من الابتعاد عن أعين النّاس، وهي معرّضة للقذف والبهتان، وما أروع الإيجاز في قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾. أما كيف تمّ ذلك؟، وما دور جبريل في ذلك الأمر؟ وهل كان منه لمس أو نفخ؟. لم يذكر النّصّ إلا تقديم البشارة بالغلام والإخبار بالحمل قبل وقوعه.

ونجد في سورة التّحريم أنّ النّافخ هو الله تعالى، كما في خلقة آدم إذ قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ (١٢).

ولما كان الرّوح من أمر ربّي، فلا جدوى من البحث في كيفية ذلك النّفخ، بل نكل فيه الأمر إلى الله تعالى، سواء كان النّفخ في ذاتها أو في فرجها كما فصّلته آية التّحريم وآية الأنبياء.

وقد اختلف الوصف لمكان الانتباذ في المرة الأولى إذ جاء بوصف "الشّرقيّ"، وجاء هنا بوصف "القصيّ" أي البعد، مما يدلّ على اختلاف المكانين وفق المقصود منهما. فبُعد المكان هنا كفيل بكفّ ألسنة النّاس عنها وعن وليدها المنتظر وهي قانتة لربها مستسلمة لقضائه، والله أعلم.

ولادة عيسى، ونبوءته، ونطقه في المهد

أ)- النص:

فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿فَأَجَآءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾: ﴿فَأَجَآءَهَا﴾: أصله "جاء"، عدّي بالهمزة بمعنى: جاء بها وألجأها. والمخاض: بفتح الميم، وجع الولادة حين يتحرك الولد للخروج من البطن. والجذع: بكسر الجيم، العمود الأصلي للنخلة، يكون ما بين عروقها وجريدها. وقد استترت به مريم واعتمدت عليه عند المخاض. ﴿وَكُنتُ نِسْيًا مَّنسِيًّا﴾: ﴿نِسْيًا﴾: يقال: شيء نسيٌ بمعنى حقير، من شأنه أن ينسى، ومنسيّ على وزن مفعول للمبالغة في عدم ذكره لتفاهته. ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي﴾: الضّمير في "ناداها" يعود إما لعيسى المولود، وقيل: هو لجبريل وكان في أسفل من مكانها. وقيل: يعود إلى النّخلة على قراءة "مَن" بالاسم الموصول. ونصب "تحتها" على الظّرفية. ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾: جملة تفسيرية لفعل: ﴿نَادَاهَا﴾. ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾: السّريّ من النّاس هو السّيد الشّريف، يجمع على "سَراة" والمقصود به عيسى عليه السلام وفي ما روي قيل: هو جدول من الماء أجراه الله لها معجزة. ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾: الهزّ تحريك الشّيء، أي إليك الجذع، والباء زيدت للتوكيد ولإفادة معنى اللّصوق. والرّطب: هو التّمر الطّازج المائل إلى النّضج وهو أطيب طعما من التّمر الجافّ. ﴿جَنِيًّا﴾: بمعنى مجنيّ، أي صالحا للقطف والجني. ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾: والصّوم بمعنى الإمساك عن الكلام قطعا للمهاترات في شأن ولادة عسى. ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾: ﴿فَرِيًّا﴾: من فرَى يفري الجلد بمعنى يقطعه، ومعناه: الشّنيع من السّوء، أو هو من الفرية: تعمّد الكذب. ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾: الأخت مؤنث الأخ، اسم يضاف إلى اسم آخر، فهو إمّا أن يكون على حقيقته إذ كان لمريم أخ اسمه هارون كان صالحا في قومه فيكون في ذلك النّداء تهكّم وسخرية، أو هو رجل صالح من بني إسرائيل تسمّى باسم هارون الرّسول، إذ كان النّاس يسمون

بأسماء أنبيائهم وصلحائهم. ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾: أشارت إلى عيسى أن كلّموه يجبكم بنفسه، المهد: فراش الصّبي الرّضيع. وما يمهّد له لولادته. ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾: الإقرار بعبوديته لله؛ لأنه تعالى عالم بأن قومه سيدّعون أنه ابن لله -حاشاه-، والكتاب المراد به الإنجيل لأنه شريعة تكتب كالقرآن.

ج)- أوجه القراءة:

﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾: قرأ الجمهور: ﴿مِتُّ﴾ بكسر الميم، وقرأه ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وعاصم وأبو جعفر بضمّ الميم على الأصل، وهما لغتان في فعل "مات" إذا اتصل به ضمير رفع متصل. ﴿وَكُنتُ نَسْيًا﴾: قرأ الجمهور: ﴿نَسْيًا﴾ بكسر النّون وسكون السّين. ووزن "فِعل" يأتي بمعنى اسم المفعول مثل: الذّبح للكبش المعدّ للذبح. والعرب تسمّي الأشياء التي يغلب إهمالها "أنساءً". وقرأ حمزة وحفص وخلف: ﴿نَسْيًا﴾ بفتح النّون، وهو لغة في النّسي. ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾: قرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص وأبو جعفر وخلف وروح عن يعقوب قرأوا: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ بكسر ميم "مِن" على أنها حرف ابتداء متعلق بـ"ناداها"، وبجرّ: ﴿تَحْتِهَا﴾. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم ورويس عن يعقوب: "مَن" بفتح الميم على أنها اسم موصول وفتح: ﴿تَحْتَهَا﴾ على أنها ظرف للصلة. والمراد باسم الموصول هو الغلام عيسى عليه السلام. ﴿تَسَّاقَطْ عَلَيْكِ﴾: قرأ الجمهور بفتح التّاء وتشديد السّين. أصله: تَتَساقَطْ، بتاءين أدغمت التّاء الثّانية في السّين للتخفيف. وقرأ حمزة بتخفيف السّين "تُسَاقِط" على حذف إحدى التائين للتخفيف. و"رطبا" على هذه القراءات منصوبة على التّمييز. وقرأه حفص بضم التّاء وكسر السّين على أنه مضارع: ساقطت النّخلة ثمرها. وقرأه يعقوب بياء مفتوحة وفتح القاف وتشديد السّين، فيكون الضّمير المستتر

عائدا إلى جذع النّخلة. ﴿عَاتَانِيَ الْكِتَابَ﴾: قرأ حمزة: ﴿عَاتَانِي الْكِتَابَ﴾ بإسكان ياء المتكلم، وقرأ باقي القراء العشرة بفتح الياء وهما وجهان صحيحان.

د)- البيان والتّفسير:

لقد استسلمت مريم لقضاء الله، وما إن تحرّك الجنين في بطنها حتى اعتزلت به إلى مكان بعيد تفاديا لفضول النّاس واتهامها بالرّيبة. وتقول الرّواية أنّها خرجت من النّاصرة قرب الجليل إلى بيت لحم، وتنوّعت الرّوايات في كيفية ذلك الحمل. ورجّح ابن كثير أنها حملت به كما تحمل النّساء بأولادهن.

ثم يقول المولى جلّ وعلا: ﴿فَأَجَآءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًا﴾: والمخاض لخروج الجنين من بطن أمّه مهما يسّره الله على النّفساء فإنّه يضطرها إلى التّشبث بشيء يخفّف عنها ألم الوضع، فقوله تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا﴾ فيه معنى الإلجاء إلى جذع النّخلة والتّعلق بجزء منه. أمّا وقد داهمها الواقع من ولادة الغلام ولا تملك إخفاءها فقد انتابها شعور انفعالي حتى تمنت الموت في تلك اللّحظة.

والإشارة في قولها: ﴿قَبْلَ هَذَا﴾ إلى الحمل؛ لأنّ متاعبها مع مهاترات النّاس بدأت بعد ظهوره، وهي بذلك التّمنّي لا تنازع الله في قضائه، لأنّ الملك جبريل قد أخبرها من قبل أنه يهب لها غلاما زكيّا فلم تبد إلا التّعجّب من كيفية الحصول عليه. وقد نهانا الله عن تمنّي الموت إذا ضاقت بنا الحياة، بل علمنا عليه الصّلاة والسّلام أن نقول: «**اللّهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي، وتوفّني ما كانت الوفاة خيرا لي**».[1]

١- رواه البخاري من حديث أنس بن مالك، كتاب (٧٥) المرضى، باب (١٩) تمني المريض الموت، رقم ٥٦٧١.

ونقل الدّكتور وهبة الزّحيلي عن ابن كثير أنه قال: "فيه دليل على جواز تمنّي الموت عند الفتنة".[١]

قلت: روى القطب أن مريم سمعت قائلا: "اخرج من بطنها يا من يعبد من دون الله". ولا يكره لها هذا لأنّه خوف معصية، وذلك تمّن بعد وقوع الضّرر فلا يدخل في حديث الرّسول".[٢]

وقولها: ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾: ووصف النّسي -وهو الشّيء النّافد- بالمنسي هو للمبالغة والتّأكيد لعدم ذكره.

﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾: لقد كان حزن مريم شديدا في حالة وضع وليدها؛ لأنها منقطعة عن النّاس وليس لها من يهيّئ لها وسائل الولادة، وعلى القراءتين "مِن"،و"مَن" فالضّمير في: ﴿نَادَاهَا﴾ يعود إلى ما عاد إليه ضمير: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾، أي الضّمير هو للمولود عيسى على الأرجح. وقيل: هو جبريل عليه السلام. ولكن لا يمكن أن يكون تحتها، فتعين أن يكون المنادى هو وليدها عيسى بعد وضعه أنطقه الله ليطيّب خاطر والدته وينفي عنها الحزن. إذ تعهّدها الله بألطافه فأجرى لها جدول ماء وهو المراد بـ"السّريّ" على الأرجح، ثم سخّر لها من جذع النّخلة طعاما طيّبا.

﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾: قيل: إنّ سقوط الرّطب كان معجزة كجدول الماء، إذ قيل إنّ الوقت كان شتاء، وأنّ النّخلة ميّتة. وقيل: إنها مثمرة ولكن وجود الرّطب كان في غير وقته.

وبهذه الألطاف الرّبانية توفرت لمريم العناصر الضّرورية للحياة من هواء

١- وهبة الزحيلي، التّفسير المنير: ١٦/٧٥.

٢- احمد بن يوسف اطفيش، تيسير التّفسير: ٠٩/٢٩.

وطعام وشراب. ووصف الجني للرّطب يفيد طراوته وليس هو بالمخزون المحفوظ للادخار. والأمر بهزّ الجذع يدلّ على وجوب اتخاذ الأسباب لتحصيل الرّزق، مع الاعتماد على الله المسبّب كما قال الشّاعر في تصوير ذلك الموقف.

ألم تر أن الله أوحى لمريم وهزّي إليك الجذع يتساقط الرّطب
ولو شاء أدنى الجذع من غير هزه إليها ولكن كل شيء له سببُ

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ اكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً﴾:

جاء الأمر بالأكل والشّرب اتّباعا لعادة الإنسان في الأكل أولا، ثم الشّرب خلاله أو بعده. وقرة العين كناية عن السّرور البالغ، أي أن الله العليّ القدير كما منحها قوام الحياة من طعام وماء فقد منحها إلى جانب ذلك السّكينة وطمأنينة النّفس فلا تتأذّى بكلام النّاس. بل تأنس بطفلها لما سيكون له من شأن ومنزلة عند الله والنّاس.

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ اكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً﴾:

هل هذا الكلام هو من بقية ما ناداها به الوليد أم هو كلام لها من الله؟. يقول الإمام ابن عاشور: "هذا من بقية ما ناداها به عيسى، وهو وحي من الله إلى مريم أجراه على لسان الطّفل، تلقينا من الله لمريم وإرشادا لقطع المراجعة مع من يريد مجادلتها، فعلّمها أن تنذر صوما يقاربه انقطاع عن الكلام، فتكون في عبادة وتستريح من سؤال السّائلين ومجادلة الجهلة".[1]

١- محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير: ١٦/٨٩-٩٠.

قلت: وخير الجواب السّكوت -أحيانا-، ويظهر هنا أن سكوتها كان عن إرادة منها، كما يظهر من التّعبير أنها جمعت بين عبادتين، بين الصّوم، أي الإمساك عن الطّعام والشّراب مع النّذر بالصّمت. يقول القطب في هذا المعنى: "وكانوا إذا أرادوا التّقرب إلى الله تعالى لم يتكلموا يومهم أو إلى العشيّ ولو بلا صوم، ويعدّون ذلك عبادة عظيمة، وكانوا لا يتكلمون في صيامهم، ونسخ في شرعنا. فمن نذره لم يجز الوفاء به، دخل الصّديق على امرأة نذرت ألا تتكلم فقال: إن الإسلام هدم هذا فتكلمي".

ثم علق على هذا الكلام فقال: "وتبادر إلى الأفهام أنها نذرت الصّوم من قبل لأمر الله ﷻ وأنه أباح الله أن تتكلم بهذا الإخبار، ثم لا تتكلم أو أن تخبر بالإشارة"[1]

وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً﴾: "إمّا" شرطية مؤلفة من "إن" الشّرطية و"ما" الزّائدة. والنّون في: ﴿تَرَيِنَّ﴾ هي نون التّوكيد الثّقيلة. ويروى أن عيسى قال لأمّه: اسكتي وأتكلم عنك، لأنها لو تكلمت لا يصدّقها النّاس. وقد اطمأنت مريم أن الله سينطق وليدها ويعلن براءة أمّه فلم تبتعد به إلى مكان آخر بل كما قال تعالى: **﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، قَالُواْ يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً، يَآ أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً﴾**.

لقد أصبحت مريم واثقة بالله، إذ منحها السّكينة وهيأ لها أسباب الأمن والطّمأنينة، وتيقنت أنّ وليدها آية لقدرة الله، فلم تعد تستتر به عن أعين النّاس، بل حملته وأتت به قومها مسرورة به واثقة من تأييد الله لها، ولكن القوم أغلظوا لها القول فنادوها موبّخين: ﴿يَآ أُخْتَ هَارُونَ﴾. والمقصود به هو أحد الصّلحاء الأتقياء المشهورين في وقتها، أو المقصود هو هارون النّبي أخي موسى إذ هي من

١- احمد بن يوسف اطفيش، تيسير التّفسير: ٩/٣٤- ٣٥.

نسله. وعلى كلا الاحتمالين فهو تقريع وتوبيخ لها إذ هي من بيت صالح طاهر شريف فكيف يليق بها أن ترتكب مثل ذلك، وهي المتبتلة القانتة؟.

وقولهم لها: ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً﴾ تعجيب منكر يصل إلى حدّ الاتهام لها. ولذلك واجهوها بقولهم بعد ذلك: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً﴾، وفي هذا الكلام تقريع مؤلم، إذ المفروض في الأسرة الصّالحة أن ينشأ أبناؤها صلحاء، فهم بذلك يرمونها بالفاحشة ضمنيا وإن تظاهروا بالثّناء على والديها.

وفي مثل ذلك الموقف الحرج أشارت مريم إلى المولود المبارك ليتولى عنها الإجابة: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً﴾، اكتفت بالإشارة أنها صائمة عن الكلام، فتعجب القوم منكرين عليها أن تحيلهم إلى صبيّ في مهده ليجيبهم، واعتبروا ذلك استخفافا بهم، غير أن الصّبيّ بادرهم بكلام مسترسل فصيح بقدرة الله فقال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ ءَاتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً، وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً، وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً، وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾.

نطق الوليد بقدرة الله، وأضفى على نفسه الزّكية تسع صفات تدلّ كلها على السموّ والرّفعة وهي:

أ)- ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ﴾: وهو استهلال مناسب لحالة المخاطبين؛ لأنّ ذلك ينفي معتقدهم الباطل في كون المسيح ابنا لله، وقد علم الله أن سيكون ذلك منهم في المستقبل، فإقرار عيسى بعبوديته لله تزييف لذلك الباطل، والله يقول في حقه: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (النساء:١٧٢).

ب)- ﴿ءَاتَانِيَ الْكِتَابَ﴾: جاء التّعبير بصيغة الماضي للدّلالة على تحقق الوقوع، وأن الله قدّر ذلك له، والكتاب هو الإنجيل.

ج)- ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾: هكذا -أيضا- بصيغة الماضي على اعتبار ما سيكون، ولا يمكن لنبي أن يكون ولد زنى كما يدّعون، بل هو من المصطفين الأخيار.

د)- ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ﴾: والبركة هي النّماء ووفرة الخير. ويصاحبه ذلك حيثما حلّ، فقد كان رحمة لبني إسرائيل، واهتدى بهديه الحواريون، ويعمّ الخصب والخير كل بقعة ينزل فيها. وهذه الصّفة وإن كانت من آثار نبوءته فهي أعمّ منها.

هـ)- ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً﴾: والوصاية بمعنى الأمر المؤكّد. ويبقى النّظر في أن تكون هي الصّلاة والزّكاة المشروعتين في التّوراة أم هما أمر خاصّ به؟. ويرى الإمام ابن عاشور أنه أمر خاصّ به، كما أمر نبينا محمد ﷺ بقيام اللّيل ويقول: "وقرينة ذلك الخصوص قوله: ﴿مَا دُمْتُ حَيّاً﴾ لدلالته على استغراق مدة حياته بإيقاع الصّلاة والصّدقة، أي أن يصلي ويتصدق في أوقات التّمكّن من ذلك أي غير أوقات الدّعوة أو الضّرورات".[1]

و)- ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَتِي﴾: والبرّ بالوالدين من سيما الصّالحين، وإفراد والدته بالبرّ والطّاعة لأنّه يعلم أنّه ولدته من غير أب، فهو إذ يفردها بالبرّ أمام القوم يعبّر عن مدى يقينه في طهارة أمّه وبرائها مما يرمونها به من الفحشاء.

ز)- ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً﴾: نفى عن نفسه الجبروت والشّقاوة؛ لأنّ اللّين في المعاملة والرّأفة بالخلق هما من صفات الرّسل الكرام، وهو القدوة في ذلك،

١- محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير: ١٦/ ٩- ١٠٠.

إذ جاء بالرّحمة واللّين ليوازن بذلك قساوة الطّبع في بني إسرائيل وهو القائل: "من ضربك على خدّك الأيمن فأدر له خدّك الأيسر".

ر)- ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾: جيء بلفظ السّلام هنا معرّفا باللاّم الدّالة على الجنس للدّلالة على تمكّن السّلام به في مراحل حياته الصّعبة كلّها. فهو الوليد الذي حباه الله بحنانه وأحاط والدته بكل رعاية فلم تصب بأذى رغم المتهاترين عليها. وكذلك في محاولة قتله فقد نجاه الله من مكايد خصومه ورفعه الله إليه. وكذلك يحشر آمنا يوم القيامة، إذ يبرئه الله أمام الأشهاد من ادّعاء قومه لألوهيته مع أمّه من دون الله، ويشهد الله له بالصّدق والأمانة، ويعده بجنة الرّضوان.

فطوبى لمن كتبت له السّلامة في هذه الأحوال الثّلاثة، فاللّهم ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين، والله أعلم.

تمييز عيسى بن مريم عن اختلاف اليهود والنصارى فيه

أ)- النص:

ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُ ۖ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَن عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿قَوْلُ الْحَقِّ الذي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾: أي الذي تقدم ذكره هو عيسى بحق لا الذي تتنازعون فيه وتشكون، وقرىء: ﴿قَوْلُ﴾ بالنصب على أنه مصدر، وقرىء بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف. ﴿سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا﴾: ﴿سُبْحَانَهُ﴾: تنزيه لله. ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا﴾: أي الأمر التكويني لجميع الموجودات. ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ﴾: المقصود بالأحزاب اليهود والنصارى، أو هم فرق النصارى المختلفة في حق المسيح وفي الطرق التي سلكوها. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: ﴿وَيْلٌ﴾: دعاء بالهلاك ويل لهم من شهود أهوال يوم القيامة. ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾: "أسمع" و"أبصر" صيغتا تعجب على لسان الرسول والمؤمنين وهي تتضمن التهديد. ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾: الضمير في: ﴿أَنذِرْهُمْ﴾: يعود إلى مشركي مكة. والحَسْرَة: الندامة الشديدة، و"يوم" منصوب على الظرف. و﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾: هو يوم الحساب. ﴿إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ﴾: أي فرغ من الحساب ونال كل فريق جزاءه.

ج)- أوجه القراءة:

﴿قَوْلُ الْحَقِّ﴾: قرأ الجمهور بالرفع، وقراه ابن عامر وعاصم ويعقوب بالنصب، فأمّا الرفع فهو خبر ثان عن اسم الإشارة، أو وصف لعيسى أو بدل منه، وأما النصب فهو حال من اسم الإشارة أو من عيسى. وجوّز أبو علي الفارسي أن يكون نصب: ﴿قَوْلُ الْحَقِّ﴾ بتقدير: أحق قول الحق، ويجوز أن يكون مصدرا نائبا عن فعله. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس ويعقوب قرأوا همزة: "أنَّ" مفتوحة، وخرّجه الزمخشري أنه على تقدير لام التعليل، وقرأه ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وروح عن يعقوب

بكسر همزة: "إنّ". ووجهها ظاهر على كلا الاحتمالين. ﴿كُن فَيَكُونُ﴾: قرأ ابن عامر: ﴿فَيَكُونَ﴾ بالنّصب على أن الفاء سببية، والفعل منصوب بـ"أن" مضمرة. وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿فَيَكُونُ﴾ بالرّفع على أن الفاء عاطفة، وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى.

د)- البيان والتّفسير:

لقد بدأ كلام عيسى وهو في المهد صبيّ، إذ أنطقه الله ليبرئ والدته، بدأ كلامه بقوله: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ ءَاتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾، ثم نجد في هذا النّصّ جملا اعتراضية يأتي بعدها قوله لمخاطبيه: ﴿وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾، ومن ثمّ قال بعض المفسرين: إنّ قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ هو من جملة ما قاله عيسى؛ لأنّ الفصل بعد فعل "قال" وإن طال فهو من مقول القول. وينتهي قول عيسى في: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، ويرى البعض أن ما وقع في الجملة الاعتراضية: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلُ الْحَقِّ الذي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ هو من كلام الله، ولذلك عدّدوا أوجه الإعراب تبعا لذينك الاحتمالين، إذ قال الحق تعالى: **﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلُ الْحَقِّ الذي فِيهِ يَمْتَرُونَ، مَا كَانَ لِلهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ، إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾**.

فعلى الاحتمال أن يكون هذا من كلام عيسى، فالمعنى أنّ الإشارة إلى نفسه لتمييزها وإبرازها على وجه الحقيقة والواقع، ويكون البدل أو الوصف من قول: ﴿قَوْلُ الْحَقِّ الذي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ يكون بمعنى أن الله قالها قولة حقّ وصدق لا باطل فيه، لا ما يقوله الممترون في حق عيسى بأنّه ابن الله أو أنّه ولد الزّنى -حاشاه- ثم تأتي جملة نفي الولد وتنزيه ذاته العلية.

وعلى الاحتمال أن تكون الجملة الاعتراضية من كلام الله فالإشارة: ﴿ذَلِكَ﴾ تكون للرّسول ولكل سامع للقرآن؛ لأنّه تعالى يعلم ما يكون من الأقاويل والجدال في شأن عيسى، فهو يقول للخلق بواسطة رسوله: دعوا عنكم ذلك المراء وخذوا الحقيقة ممن أمره في قول: "كُن"، فهو الإله الحق المنزه عن اتخاذ الولد؛ لأنّه القويّ العزيز لا يحتاج إلى ولد يسنده ويعينه، وهو الحيّ القيوم الباقي لا يستبقي امتداد حياته بالولد كما تفعلون. فكلمة "سبحانه" تفيد التّنزيه المطلق لله. فنفي بنوّة عيسى لله -حاشاه- هو إقرار بعبوديته تبطل ما يعتقده النّصارى فيه، ولذلك أقرّ بالرّبوبية لله تعالى على احتمال أن يكون ذلك من كلامه، إذ قال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

فالصّفة من معنى التّربية والرّعاية ومن وسائل تربيته للخلق أن يرسل إليهم رسولا منهم يرشدهم ويربيهم بما يوحى إليه من الهداية والحكمة. ويحتمل أن يكون جملة: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ مما أمر به الرّسول أن يقوله للناس، مع تفريع الأمر بعبادته: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾؛ لأنّ اعتقاد الحقّ كما جاء من عند الله وإفراد العبادة لله هو الصّراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، وهو الذي يوصل إلى المقصود في راحة واطمئنان.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: وعلى وضوح قضيّة عيسى بن مريم وخطّها المستقيم، فإنّ الأحزاب قد سلكوا بُنيّات الطّريق وحادوا عن الحقّ الذي جاءهم فاختلفوا في شأن عيسى ما بين إفراط وتفريط فمنهم من تردّى به إلى جعله ولد زنى كاليهود، ومنهم من رفعه إلى مصاف الألوهية كالنّصارى، ثم تشعّب اختلافهم إلى عدّة فرق، فأتباعه المؤمنون به لم يتّفقوا على موقف منه في شأنه رغم تعدّد مجامعهم من أجل ذلك من قديم الزّمان، وأشهر فرقهم اليوم هي: الكاثوليك، والأرثودكس، والبروتستانت.

وكلّها تصدر في معتقدها بعيسى وبنوّته لله عن خطأ وسوء فهم، تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا. والله تعالى قد أدرجهم في عداد الذين كفروا وهدّدهم من مشهد يوم عظيم، وهو يوم القيامة عندما تكشف السّرائر وتشهد الخلائق كلّها كيف تعذّب طوائف منها على مرأى ومسمع إذ يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

تدل صيغتا التّعجّب في: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ على فرط التّهديد لهؤلاء كيف تكون أبصارهم حادّة، وآذانهم مرهفة في ذلك اليوم، وقد كانوا من قبل لا يسمعون لآيات الله ولا يبصرونها وهم يملكون الإرادة عليها في الدّنيا، ولكنّهم أصرّوا على ذلك حتى الممات. وهاهم اليوم في أشدّ الضّلال بما ظلموا أنفسهم وهم في ذلك الموقف يشهدون على أنفسهم في ذلّة ومهانة بأنّهم أبصروا وسمعوا إذ يقول الحق تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ (السّجدة:١٢).

وإمعانا في النّكير عليهم بغلظة العذاب عقّب الله الأمر لرسوله بإنذارهم فقال: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾، الضّمير عائد إلى الظّالمين، والمراد بيوم الحسرة يوم الحساب حيث تأخذ الظّالمين النّدامة الشّديدة على ما فرّطوا في جنب الله حتى لكأنّه يوم خاصّ بالحسرة، كما قال تعالى في سورة الزّمر: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ (٥٦). أي لم تعد هناك فرصة لتدارك الأمر، إذ قضي الأمر بما حكم الله فلات ندم ولات مرجع، وقد انتهى الحساب بالفصل بين أهل الجنة وأهل النّار، وقد كانوا غافلين غير مصدّقين بيوم القيامة رغم نصاعة الأدلة عليها.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾: كيف يرث الله

الأرض ومن عليها والكلّ ملك له في الحقيقة؟، والإرث هو مصير مال الميّت إلى من يبقى بعده، وذلك محال على الله، بل المعنى هو تمحّض التصرف في ذلك لله يوم القيامة إذ يقرّ الوجود كلّه بذلك كما قال تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (غافر:١٦)، وإنّما الإرث على اعتبار ما ملكه الله للإنسان والحيوان من خيرات الأرض، فإذا هلك الجميع عند قيام السّاعة صار الملك لله وحده، وهم لا يسلبون الملكية فحسب، ولكنهم يرجعون إلى الله ليوفيهم حسابهم على ما قدّموه من أعمال في الدّنيا. وبهذا التّذييل يتمّ تهديد المشركين الشّاكّين في اليوم الآخر بأن لا مفرّ لهم من قبضة الله، والله أعلم.

مناقشة إبراهيم لأبيه في عبادة الأصنام

أ)- النص:

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ
مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا
لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ
كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ
لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ
وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾
وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾
فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا
نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾: الصِّدِّيق: بتشديد الدّال، مبالغة في الاتّصاف بالصّدق، أي بلغ النّهاية في الاتّصاف بتلك الصّفة كالخرّيت والضّلّيل. والصّديقية هي الرّتبة التي دون الأنبياء. والنبي: على وزن "فعيل" بمعنى مفعول، وهو المنبأ من جانب الله بالوحي. ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾: تكرر هذا النّداء أربع مرات. أصله: يا أبي، فحذفوا ياء المتكلم وعوّضوا عنها "تاء" على غير قياس، وهو تلطف في النّداء. ﴿لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَٰنَ﴾: كان أبوه آزر يعبد الأصنام، وكونه يعبد الشّيطان لأنه هو الآمر بها. ﴿كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾: أي شديد العصيان. ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى﴾: الإستفهام للإنكار. ورغب: يحمل المعنى وضدّه، حسب حرف الجرّ بعده، فالمعنى هنا أنّه كاره لتلك الآلهة. وإذا عدّي بـ"في" فهو محبّ لها. ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾: الرّجم هو الرّمي بالحجارة، يستعمل للتعذيب الشّديد. ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾: أي اعتزلني واتركني زمنا طويلا. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾: الحفيّ: المبالغ في البرّ والإكرام ويأتي بعده حرف الجرّ ليحدّد معناه. فيقال: حفي به أي بالغ في إكرامه. وحفيّ عنه: أي بالغ في البحث عنه. ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾: الجملة في موضع الحال من ضمير "أدعو"، أي راجيا أن لا يخيب دعائي له، كما يخيب دعاؤكم لآلهتكم. ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾: استعير اللّسان للذّكر الحسن والثّناء الجميل، ووصفه بالعلوّ زيادة في الرّفعة والشأن لدى جميع الأديان.

ج)- أوجه القراءة:

﴿نَبِيًّا﴾: بياء مشدّدة بتخفيف الهمزة ياء لثقلها ولمناسبة الكسرة وقرأه نافع وحده: ﴿نَبِيٓـًٔا﴾: بهمزة في آخره. ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾: قرأ ابن عامر وأبو جعفر: ﴿يَٰٓأَ

أَبَتَ﴾ بفتح التّاء في المواضع الأربعة، وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿يَآ أَبَتِ﴾ بكسر التّاء. ﴿إِنِّيَ أَخَافُ﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء المتكلم، وقرأها باقي القراء بإسكانها مع المدّ في الوصل. ﴿رَبِّيَ إِنَّهُ﴾: قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء المتكلم، وقرأ باقي القراء بالإسكان مع المدّ في الوصل.

د)- البيان والتّفسير:

لقد ركزت سورة مريم على بيان أسس العقيدة الصّحيحة، وإبراهيم هو أبو الأنبياء وجدّ للعرب، وكان أول من رفع لواء التّوحيد علنا وأقام له رمزا يتمثل في الكعبة المشرفة. وعلى ذكر انحراف النّصارى في شأن عيسى بن مريم عقّب الله على ذلك قصة إبراهيم في مناقشته أبيه بشأن عبادة الأصنام تعريضا بمشركي مكة ومن على شاكلتهم فقال جلّ من قائل: **﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيئاً، اِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَآ أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً﴾**.

كان العرب يحترمون إبراهيم ويزعمون أنهم على ملّته وليسوا بحاجة إلى دين جديد، وإذ كانوا في الواقع عبدة أوثان فقد بيّن الله في هذه اللّقطة من حياة إبراهيم دعوته إلى توحيد الله من خلال محاجته لأبيه، ومهّد لذلك بذكر صفتين له أكدّهما بـ"إن" مع إقحام فعل "كان" للدلالة على تمكنه منها فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيئاً﴾. والصّديقية هي بلوغ الغاية في التّصديق بما يأتيه من الحقّ تعالى دونما مراجعة ولا نقاش، وهي في المرتبة الثّانية بعد النّبوءة، فيكون الوصف بهذه من الارتقاء من الأدنى إلى الأعلى، إذ هي الصّفة الاصطفائية من الله تعالى للاتصال بالملإ الأعلى.

﴿اذْ قَالَ لأَبِيهِ﴾: بمعنى: اذكر إبراهيم حين قال لأبيه. على اعتبار أنه رسول مكلّف بالتّبليغ وأبوه هو أولى من يبلّغ له. والاقتصار على وصف الأبوّة فيه تلطف

وأدب رفيع إذ كرّر نداءه بها أربع مرات: ﴿يَآ أَبَتِ﴾. ومن شأن ذلك النّداء أن يسترعي انتباهه ويزول الحاجز التّقليديّ من الوقار والحشمة بينهما، ثم بادره ببيان فساد عبادته للأصنام في صورة الاستفهام الإنكاريّ ليتأمّل الواقع المشاهد من تلك الأصنام فهي لا تسمع ولا تبصر، وليس لها مظهر من مظاهر الحياة وبالتّالي فهي عاجزة أن تفيده بشيء، فلا يكون المعبود على تلك الصّفة فعبادتك لها إذن باطلة.

ويتدرج إبراهيم مع والده بأسلوب التّحنّن والتّلطف فيكرر نداءه بنفس الوصف: ﴿يَآ أَبَتِ﴾، فنجده مترفقا في النّصيحة بما لا يثير حفيظته وهو كما قيل -كبير رجال ديانته- إذ قال له: ﴿يَآ أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَاتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾.

فلم يتعاظم إبراهيم على أبيه بما عنده من العلم، و لم يصفه بالجهل، بل قصارى أمره أنه أخبره بما خصّه الله به من علم الهداية لم يكن عند أبيه. والتّعبير بقوله: ﴿إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ الْعِلْمِ﴾ يدلّ على أنّ ذلك العلم لم يكن من عنده، بل جاءه ممن هو أعلى منهما جميعا، فهو يهدي إلى الصّراط السّويّ. وهو أحق أن يتبع.

﴿يَآ أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا، يَآ أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾.

لقد اعتاد البشر أن يجعلوا الشّيطان رمزا للشّرّ والضّلال، وبما أنه هو الذي يسوّل للنّاس بعبادة الأصنام وغيرها من دون الله، فعبادتها من عبادة الشّيطان، ومن طبيعة البشر أنهم يبغضون الشّيطان ويحذرون من كيده، فناسب أن يجيء التّذييل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ بأداة التّوكيد وفعل ﴿كَانَ﴾، وصيغة المبالغة: ﴿عَصِيًّا﴾، ثم اختيار صفة: ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ للذّات العلية. كلّ ذلك لزيادة التّنفير من مكائد الشّيطان لأنها

تفضي إلى الحرمان من رحمة الله.

أما وقد أشفق إبراهيم من تعنّت أبيه فما يزال مترفقا في مجادلته. فحذّره من أن يصير من أولياء الشّيطان في حال ما إذا عجّل الله له بمسّ من العذاب، وفي ذلك حرمان من رحمة الله. ونلاحظ التّلطف مع الأب وكذا الأدب الرّفيع مع الله، إذ عبّر لإشفاقه بأبيه بأنّه يخاف أن يصيبه أدنى مسّ من العذاب، كما أنه متأدّب مع الله إذ لم يقطع بشيء في ما هو من تصرف الله وحده، فهو دائما في حالة رجاء. فهل استجاب الوالد لرغبة الولد وقد سدّ عليه مسالك الحجاج؟.

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾:

الاستفهام إنكاريّ، وفعل "رغب" يدلّ على المعنى وضدّه، وهو هنا قد تعدّى بـ"عن" فيدلّ على الصّدود والكره. وإضافة "آلهة" إلى ضمير المتكلم مع ضمير الفصل: "أنتَ" يدلّ على شدة تمسّكه بتلك الآلهة، وأنّ واجب الابن أن لا يرغب عن طريقة أبيه. ويدلّ التّعبير عن الحالة الغضبية التي أفقدت الأب رشده فهدّد ابنه بالرّجم بما له من السّلطة الأبوية عليه. و لم يكن إبراهيم ليخيفه ذلك التّهديد فلم يخرج عن طوره في مقابلة التّهديد، سيما وقد هدأ غضب الأب فطلب من ولده أن يتركه برهة من الزّمن: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾.

ومع تناقص حدة الأب أعطى الولد الفرصة له للتأمّل والنّظر فكان منه هذا الموقف الحكيم: **﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا، وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾**، إنها المفاصلة والمتاركة بالحسنى تقديرا لحقّ الأبوّة ومصاحبتها بالمعروف. فبادره أولا بقوله:

أ)- ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾: فهو وداع في غاية الاحترام والتّلطف، فلا معاملة بالمثل. وهذه العبارة: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ هي أرقى درجة في التّحية من قولك: "سلاما" وكفى. وبما أن الشّرك بالله لا يكون فيه سلام من الله لعبده فقد أضاف إبراهيم قوله:

ب)- ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيَ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾: هكذا بصيغة المضارع رجاء أن ينبذ أبوه الشّرك، فهو دعاء يرجو إبراهيم أن لا يخيّبه الله فيه لما عوّده من الاستجابة لدعائه. ولكن إبراهيم لم يفعل ذلك مجاملة لأبيه الكافر، وإنما هي موعدة وعدها إيّاه رجاء أن يقلع عن كفره، فلمّا تبيّن له أنه عدوّ لله تبرّأ منه.

ج)- ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾:

وهنا يكون المضارع للحال، فقد انتقل الخطاب إلى الجماعة؛ لأنّ القوم كلّهم قد تمادوا مع أبيه على الكفر فالحزم وواجب الدّاعية يقتضي أن يعتزلهم جميعا ويعتزل آلهتهم الباطلة، ثم أعلن إبراهيم في إصرار بأنّه يتابع دعوته إلى الله حيثما حلّ وارتحلّ. والدّعاء هو مخّ العبادة كما يقول العلماء، والمقصود هو الدّعاء إلى عبادة الله، عسى يستجيب له من يدعوهم، فهو يرجو أن لا يكون شقيًا، وفي ذلك تعريض بأبيه وقومه بأنهم أشقياء في دعائهم لغير الله.

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيئاً، وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾:

طوى النّصّ مدة الاعتزال ومكانه واقتصر على التّطبيق والتّنفيذ من طرف إبراهيم وكان من لطف الله به أن وهبه الله تعالى ذرية أبناء وحفدة يأنس بهم في

وحشته وجعلهم أنبياء، وهم إسماعيل وإسحاق من صلبه، ويعقوب ابن ابنه إسحاق. وخصّ الله إسماعيل بالذّكر؛ لأنّ الله تعالى قدّر أن يكون بعيدا مع أمّه هاجر في مكة، كما ورد ذلك في سورة "ص" مع تكرار فعل: ﴿اذْكُرْ﴾، فقال: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ (٤٥). ثم قال: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ﴾ (٤٨).

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾: الضّمير عائد إلى الوالد وولده وحفيده، والرّحمة بمعنى النّبوءة. إذ جعل الله النّبوءة والحكمة في ذرية إبراهيم جزاء إخلاصه لله وجهاده في تركيز دعوة التّوحيد. والمراد بلسان الصّدق هو الذّكر الجميل والثّناء العطر. استجابة لدعوة إبراهيم: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ (الشعراء:٨٤). فنحن نذكر بخير ونثني على ذلك الموكب المبارك من الأنبياء والرّسل من عقبه. فاللّهم صلّ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك عليهم كما صليت وباركت على محمد وعلى آل محمد في العالمين، إنك حميد مجيد، والله أعلم.

في موكب الأنبياء والمرسلين

أ)- النص:

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾

ب)- التّحقيق اللّغويّ:

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ﴾: الطُّور: يقع بين مدين ومصر، ويسمّى "طور سيناء" وجانبه هو ناحيته السّفلى. والأيْمَن: هو الذي يلي يمين موسى حين أقبل من مدين. ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾: قَرَّبْنَاهُ: جعله قريبا، أي قرب تشريف بالوحي. والنّجيّ: فعيل بمعنى مفعول من المناجاة، أي كلمه الله بلا واسطة، فهو كليم الله. ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾: أي أعانه الله وآزره بأخيه هارون وكان فصيح اللّسان، وهو أسنّ من موسى. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾: كان وفيا بكل عهوده سيما وعده أبيه إبراهيم أن يكون من الصّابرين عندما عزم على ذبحه. ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾: رضي الله عنه إذ أنعم عليه نعما كثيرة. ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾: هو رفع مجازي بشرف النّبوءة والمنزلة عند الله. وقيل: هو رفع حقيقي إلى السّماء.

ج)- أوجه القراءة:

﴿كَانَ مُخْلِصًا﴾: قرأ الجمهور ﴿مُخْلِصًا﴾ بكسر اللاّم، من أخلص القاصر، بمعنى: الإتيان بأمر ما غير مشوب بتقصير ولا تفريط. وقرأه حمزة وعاصم والكسائي وخلف بفتح اللاّم، من الخلوص والاصطفاء. ﴿نَبِيًّا﴾: تقدم اختلاف القراء فيه ما بين الهمزة والياء المشددة.

د)- البيان والتّفسير:

أ)- موسى عليه السلام:

هو أعظم رسول في بني إسرائيل، ومن ذرية إسحاق ويعقوب. فعلى

ذكرهما في قصة إبراهيم أعقب الله ذكره هنا لقوة المناسبة، وقد تقدم القول في معنى جملة: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾، وقد أخذت قصة موسى حيّزا كبيرا من كتاب الله تعالى وخصّه الله في هذه اللقطة المختصرة بخمس صفات:

أ)- ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصاً﴾: فصفة الخلوص أو الإخلاص على القراءتين هي من خصائص موسى عليه السلام فهو من المصطفين الأخيار خلّصه الله من الآثام فقال تعالى له: ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ (الأعراف:١٤٤). كما أخلص عبادته لله وقام بدعوة فرعون إلى نبذ التألّه والاستكبار في الأرض على ما اشتهر به من الطّغيان والجبروت.

ب)- ﴿وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيئاً﴾: وهما صفتان جمعها له الله لتأكيد مقامه عنده، والرّسالة أخصّ من النّبوءة، فلا يكون الرّسول إلا نبيًا يوحى إليه ويؤمر بالتّبليغ، وأما النبي فلا يؤمر بالتّبليغ بل يتبع منهج الرّسول الذي يعاصره أو يسبقه.

ج)- ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾: المقصود بالنّداء مع نون العظمة هو الكلام الموجّه إليه من جانب الله تعالى كان يسمعه موسى بدون واسطة، ويأتيه من جانبه الأيمن وهو مقبل على جبل الطّور، وقد فصّل الله ذلك المشهد في سورة القصص: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ -انَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي -انَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي -اتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (٢٩).

د)- ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً﴾: فالتّقريب من القرب المجازي بمعنى التّشريف والتّكريم بالوحي، والنّجيّ: بمعنى المناجي، من المناجاة وهي المحادثة السّرية، فهو كلام خاصّ به لا يسمعه أحد غيره كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ (فاطر:٢٢).

هـ)- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾: تمثلت هبة الله لموسى في أنه عزّز جانبه بأخيه هارون عليه السلام رحمة به واستجابة لدعوته حين طلب ربّه قائلا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ، وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْاً يُصَدِّقُنِي إِنِّيَ أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ، قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِئَايَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ (القصص:٣٣-٣٥).

فكان هارون نبيًا مع موسى إلى فرعون، إذ كان فصيح اللّسان يبلّغ عن أخيه ويضطلع ببعض مهامّه عند غيابه، قد أمرهما بالذّهاب معا إلى فرعون لتذكيره وإبلاغه الدّعوة كما ورد ذلك في آيات سورة طه.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا، وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾:

فإسماعيل وإن كان من فرع إبراهيم عليه السلام إلا أن اختصاصه بالذّكر هنا مستقلا عن فرع إسحاق، يدلّ على كرم منزلته وعلوّ مقامه، وناهيك أنه جدّ أمّة ممتازة يتفرّع عنها خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ.

تقدمت قصته مع والده إبراهيم في سورة البقرة عند ذكر رفع قواعد البيت. قيل: إنه عاش مائة وسبعة وثلاثين سنة، خلّف هو الآخر اثني عشر ولدا هم أجداد عرب الحجاز كلهم. وصفه الله هنا بأربع صفات:

أ)- ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾: وصدق الوعد صفة مشتركة لجميع رسل الله، ولكنها كانت أبرز لدى إسماعيل في قضية ذبحه، إذ وعد أباه إبراهيم أن يكون صابرا لقضاء الله، وقد وفّى بذلك الوعد إذ أسلم رقبته للذبح لولا أن فداه الله بكبش عظيم، كما ورد تفصيل ذلك في سورة الصّافات في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ، وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَآ إِبْرَاهِيمُ،

قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ، وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ (الصّافات:١٠٣-١٠٧). والوفاء بالوعد دليل على الإيمان الرّاسخ، إذ اعتبر رسول الله الخلف فيه من آية النّفاق.

ب)- ﴿وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيئاً﴾: جمع الله له بين النّبوءة والرّسالة. وأول من بلغ إليهم رسالته هم قبيلة "جرهم" في مكة. وقيل: إن رسالته امتدت إلى كل أرجاء جزيرة العرب يومئذ، ولا يعرف له كتاب مستقل، بل كانت شريعته امتدادا لشريعة أبيه إبراهيم، ومنها الصّلاة والزّكاة إذ قال تعالى:

ج)- ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾: وأهله هم أمه هاجر وبنوه وأصهاره من "جرهم"، وقد اتبع في ذلك منهجية الدّعوة لجميع المرسلين في البدء بالأقربين كما قال تعالى لرسوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشّعراء:٢١٤). وخصّ الله بالذّكر الرّكنين العظيمين في كلّ شريعة الصّلاة والزّكاة لما لهما من الأثر الفعال على الحياة الفردية والجماعية، ونجد الأمر بالاهتمام بالصّلاة وحضّ الأهل عليها في قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ (طه:١٣٢).

د)- ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً﴾: مَرْضِيّاً: اسم مفعول، أي رضي الله عنه لما كان يتصف به من خصال الخير فهو الزّكيّ الصّالح في زمرة المقربين عند الله. وحسبه منزلة وشرفا أن تكون الشّريعة ورسولها الخاتم من ذريته.

ثم يختم الله موكب الأنبياء والمرسلين بقوله: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيئاً، وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾.

ج)- من هو إدريس عليه السلام:

ورد اسم إدريس مرتين في القرآن العظيم.

أ)- في هذه الآية الكريمة من سورة مريم.

ب)- وفي سورة الأنبياء من قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ، وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٨٥-٨٦).

يقول الزّحيلي في ترجمته ما نصّه باختصار: "وهو أول بني آدم أعطي النّبوءة بعد آدم وشيث عليهما السّلام، فهو من ذرية آدم لقربه منه؛ لأنه جدّ أبي نوح. ولد بـ"منف" في مصر وسموه "هرمس الهرامسة"، وهو اسم علم سرياني معناه: الصّلب الرّأي المجرّب. وقيل: ولد ببابل وهاجر إلى مصر، وأخذ في أول عمره بعلم شيث بن آدم، وأقام بمصر يدعو النّاس إلى الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وطاعة الله عز وجل وكان يعلّمهم كيفية تخطيط المدن".[1]

وصف الله تعالى إدريس بثلاث صفات:

أ)- ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا﴾: وقد تقدم تفسير هذه الصّفة مع الصّفة الثّانية.

ب)- ﴿نَّبِيًّا﴾: ويلاحظ أنّ الله تعالى لم يصفه بالرّسالة. قيل: لقربه من آدم عليه السلام إذ ما تزال رسالته قائمة.

ج)- ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾: الرّاجح عند كثير من المفسرين أنّه رفع مجازي بعلوّ المنزلة عند الله بكثرة عبادته وطاعته لله، كما علا شأنه عند النّاس برجاحة عقله وما أوتيه من العلم؛ لأنه كما تذكره الرّوايات أول من وضع عمارة المدن وقواعد العلم، وأول من وضع الخط وعلّم الحساب، وأول من علّم النّاس الخياطة...إلخ. وذهب بعض المفسرين أنه رفع حقيقي، كما ذكروا

١- وهبة الزحيلي، التفسير المنير: ١٢٤/١٦.

ذلك لعيسى عليه السلام، والعلم عند الله بكيفية ذلك، إذ نسجت حول قصته روايات. ونكتفي في شأنه بما ورد في القرآن، وقد وصفه الله في سورة الأنبياء بالصّبر والصّلاح، والله أعلم.

صفات الأنبياء، وصفات من خلفهم، وصفات التّائبين وجزاؤهم

أ)- النص:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾: أُولَئِكَ: إشارة إلى من ذكر من الأنبياء وهو مبتدأ خبره: الذين. أو يكون خبره قوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ﴾. أَنْعَمَ: من الإنعام، المبالغة في الإحسان وإغداق النّعم. ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾: خَرُّوا: خرّا وخريرا وخرورا، سقط سريعا إلى الأرض. يقال: خرّ السّقف بمعنى سقط. سُجَّداً: جمع ساجد، ويجمع أيضا على "سُجود"، خضع

وأحنى ظهره وتطامن بوضع جبهته على الأرض. وَبُكِيًّا: جمع باك، على وزن "فعول"، ويجمع أيضا على "بكاة". وكلّ من "سُجَّدًا" و"بُكِيًّا" حال. ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾: الخلْف -بسكون اللاّم- العقب الفاسد الذي لا خير فيه. والخلَف -بفتح اللاّم- العقب الصّالح. ﴿يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾: الغيّ: الضّلال. ويطلق على الشّرّ عامّة. ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾: جنات بدل من لفظ "الجنة" وهي اسم علم على دار النّعيم الأبديّ. وعَدْن: أي ثبات واستقرار، يقال لغة: عَدَن بالمكان يَعْدِن عَدنا وعدونا، أي استقر فيه، وثبت جمعها: جنّات، يدلّ على أنها درجات مرتفعات في الجنة دون الفردوس الأعلى. ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَاتِيًّا﴾: الوعد: الإخبار بما تمّ العزم على فعله في المستقبل. ﴿مَاتِيًّا﴾: من الإتيان، أي يأتي إليه الموعود به. يقال: مأتيّ إليه، أو مأتيّ به. واستعمال "كان" هو للدّلالة على الكينونة الدّائمة المستمرة. ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلاَّ سَلاَمًا﴾: اللّغو هو ما لا فائدة فيه من كلام وغيره. ﴿إِلاَّ سَلاَمًا﴾: "إلاّ" أداة استدراك بمعنى "لكن". والسّلام هو تحية أهل الجنة. ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾: الرّزق: يطلق على كل ما ينتفع به وقد يختص بما يكون غذاء وقوتا. والبكرة والعشيّ: أوّل النّهار وآخره، وهما منصوبان على الظّرفية، وبينهما طباق، أي في كل وقت، إذ ليس في الجنة نهار وليل.

ج)- أوجه القراءة:

﴿عَلَيْهِم﴾: قرأ حمزة ويعقوب ﴿عَلَيْهُم﴾ بضم الهاء، وقرأها باقي القراء بكسر الهاء. ﴿مِّنَ النَّبِيِّينَ﴾: قرأ نافع بهمزة بعد الموحّدة، وقرأ الجمهور بياءين بعد الموحّدة. ﴿وَبُكِيًّا﴾: قرأ حمزة والكسائي بكسر الباء للإتباع، وقرأها باقي القراء بضمّ الباء-﴿بُكِيًّا﴾. ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾: ﴿يَدْخُلُونَ﴾: قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بالبناء للمجهول مما لم يسمّ فاعله. وقرأ الباقون: ﴿يَدْخُلُونَ﴾ بالبناء للمعلوم. ﴿نُورِثُ﴾: قرأ الجمهور بسكون الواو بعد الضّمة وتخفيف الرّاء.

وقرأ رويس: ﴿نُورَّثُ﴾، من فعل ورّث المضاعف.

د)- البيان والتّفسير:

بعد التّفصيل والثّناء على كلّ نبي ورسول ممن تقدم ذكرهم من أول السّورة، جمعهم الله في هذه الآية بما أضفى عليهم من نعمة النّبوءة والهداية ومن الاختيار والاصطفاء لرسالته ليكونوا قدوة صالحة للمؤمنين، ثم بيّن صفات من أتى من بعدهم، إذ أضاعوا الواجبات الدّينية وانساقوا مع شهواتهم، وكيف يلقون جزاءهم عند الله، إلاّ من تاب منهم وعمل صالحا، فإنّ الجنّة مثواه وعد الله لا يخلف الله الميعاد.

قال عزّ وجلّ: ﴿أُوْلَـٰئِكَ الذينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَآئِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّواْ سُجَّداً وَبُكِيّاً﴾.

الإشارة إلى كلّ المذكورين من أوّل السّورة، وهي تدلّ على استحقاق هؤلاء للصفات التي تضفى عليهم، إذ أنعم الله عليهم بنعمة النّبوءة والهداية، وكرّمهم بالاصطفاء والاختيار لرسالة الله، فهم في قمّة البشرية والنّموذج الأعلى للسموّ الرّوحيّ للتأسّي والقدوة الحسنة، وكلّ تلك المزايا مسندة إلى الله تشريفا لهم وتكريما فذكر الله الأصول العريقة لفروع النّبوءات والرّسالات. وبدأ بذرية آدم، ومنهم إدريس عليه السلام.

وآدم هو أبو البشر الأول كما وصفه الله تعالى في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَآءً﴾ (النّساء:١). وثنى بنوح عليه السلام حسب التدرّج التّاريخي، وهو أبو البشر الثّاني كما يصفه المؤرخون، ضرورة هلاك من لم يحمل على

سفينته، إذ أن الأصول البشرية ترجع إلى أولاده: سام وحام ويافث. والله يقول: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ (الصّافات:٧٧). ومعنى ذلك أن غيرهم من المحمولين على السّفينة لم يتركوا ذريّة.

والأصل الأكبر لفرع النّبوءات هو إبراهيم الذي يسمّى بأبي الأنبياء وتتفرع ذريته إلى فرعين:

أ)- فرع إسحاق، ومنه إسرائيل، وهو يعقوب عليه السلام الذي كان منه أغلب الأنبياء.

ب)- وفرع إسماعيل: الذي جاء منه فريدة عقد النّبوءات سيدنا محمد ﷺ.

وبعد ذكر تلك الأصول الطّيبة، يعمّم الله كل من اصطفاه وهداه من عباده الهداة الصّالحين، وهؤلاء كلّهم كانوا خاضعين لله مجلّين للرّحمن الذي غمرهم بهدايته ورعايته، فكلما سمعوا آيات الله المنزلة على رسله خرّوا ساجدين باكين لشدة انفعالهم النّفسي بما يشعرون به في وجدانهم من التّعظيم والخشوع لله، فنحن نسجد في التّلاوة عند بلوغنا لهذه الآية الكريمة، إذ سجد عندها رسول الله وسنّ ذلك لأمته.

وقد ورد هذا التّأثر والانفعال النّفسي عند تلاوة القرآن والاستماع له في كثير من الآيات، وهي تبيّن درجات ذلك التّأثر حسب ما يجده المؤمن في نفسه من إشراقات ومواجيد. أعلاها ما جاء في سورة الإسراء من قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ (١٠٧). والخرور للأذقان سجودا على الأرض لله تعالى هو أعلى صورة للخشوع والخضوع يزيده البكاء قوّة ومبالغة. وقريبا من هذه الصّورة قوله في أهل الكتاب أيضا: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى

الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ (المائدة:٨٣).

وقد يتأثر المؤمن بسماعه للقرآن فيقشعرّ جلده كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ (الزمر:٢٣).

ولكن المطلوب هو ذلك التّجاوب العاطفي والانفعال النّفسي الذي تتزع به إلى البكاء من خشية الله، كما أرشد إليه رسول الله إذ قال: «**اتلوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا**».[1]

وروى عن ابن عباس ﷺ: "إذا قرأتم سجدة "سبحان" فلا تعجلوا بالسّجود حتى تبكوا، فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه".[2]

﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا، إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾:

تعاقب الأجيال ينتج عنه تغيّر الأحوال، سيما إذا طال الأمد بين فترات الرّسل، إذ يجيء من بعدهم خلف سوء يتصفون بالشّرّ والفسوق. وقوله تعالى: ﴿مِن بَعْدِهِمْ﴾ الضّمير يرجع إلى أولئك الصّلحاء من الرّسل والأنبياء القائمين على حدود الله، فيشمل كلّ الأمم التي عتت عن أمر ربّها ورسله، وصفها النصّ بصفتين هما دعامة الكفر والفسوق:

أ)- ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾: فمن أضاع الصّلاة -وهي عماد الدّين- فهو

١- رواه ابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص، كتاب (٥) إقامة الصلوات، باب (١٧٦) في حسن الصوت بالقرآن، رقم ١٣٣٧.

٢- أورده الفخر الرازي في التفسير الكبير: ٢١/٢٣٤

لما سواها أضيع كما قال سيدنا عمر ﷺ. وإضاعة الصّلاة من سمات الكفر والشّرك، والمشركون في عذاب جهنم يعترفون بذلك عندما يقال لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ، قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ (المدثر:٤٢-٤٣). والصّلاة هي الرّكن العظيم في الإسلام، والذي لا يسقط عن المسلم في أيّ حال من الأحوال، وهو أول ما يسأل عنه المؤمن يوم القيامة.

ب)- ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾: وذلك نتيجة حتمية لإضاعة الصّلوات، لأنّ الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

قوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾، والغيّ ضدّه الرّشد. و"يَلْقَوْنَ" يدلّ على المستقبل بمعنى يلقون جزاء غيّهم في عذاب جهنم، وذلك مقابل أضدادهم من التّائبين الصّلحاء بما ينالون من جزاء الجنة.

﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً﴾: استثناء من الوعيد المتقدّم لمن توفرت فيه ثلاثة شروط:

أ)- ﴿إِلاَّ مَن تَابَ﴾: أي توبة نصوحا بشروطها يتداركون بها أمر تقصيرهم في جنب الله بالإقلاع عن اتّباع الشّهوات، وحسن القيام بالواجبات.

ب)- ﴿وَءَامَنَ﴾: بمعنى تجديد إيمانهم، إذ يكون الإيمان غائبا عند اقتراف المنكرات كما قال رسول الله: «**لا يزني الزّاني حين يزني وهو مؤمن**».[1]

ج)- ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾: حتى يصلح ما أفسده فيستقيم سلوكه قولا

١- رواه البخاري من حديث ابن عباس، كتاب (٨٦) الحدود، باب (٦) السارق حين يسرق، رقم ٦٧٨٢.

وعملا واعتقادا.

﴿فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً﴾: يدلّ اسم الإشارة وإتيان الفعل المضارع بعدها على مدى استحقاقهم لذلك التكريم الإلهي بحيث لا ينخسون من حقّ جزائهم شيئا؛ لأنّ الذي ألف المعصية لا ينقلع عنها إلا بمشقة وصبر في عودته لحظيرة الطّاعة، ففي هذا الوعد الإلهي ترغيب وتحفيز لهم.

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً،لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلاَّ سَلاَماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾:

جيء بلفظ "جَنَّاتِ عَدْنٍ" على صيغة الجمع مضافا إلى "عدن"، وهو بدل من لفظ مفرد "الجنة" إذ هي جنات كثيرة، وهي دار خلد واستقرار وعد الرّحمن بها عباده الصّلحاء رحمة منه وفضلا، حتى لا يقنط الذين أسرفوا على أنفسهم ما داموا يسارعون إلى التّوبة والإنابة إلى الله، فالجنة وإن كانت مغيّبة عنا فهي مهيأة للمتقين كما أبدع الله أجزاء كونه العظيم، وهي آتية -لاشك فيها كما وعد الله-.

ثم وصف بعض نعيمها وهو يتمثل في انتفاء أيّ لغو عن أسماع عباد الرّحمن في الجنة. واللّغو هو فضول الكلام الذي لا فائدة فيه ممّا يثير حفيظة أو يحرّك غلاّ؛ لأنّ صدورهم طاهرة من دباغ السّوء الذي كان يناوشهم في الدّنيا كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (الحجر:٤٧). فهم لا يسمعون إلا ما يثلج صدورهم من التّحايا الطّيّبة لبعضهم بعض أو من طرف الملائكة. وأما الأرزاق فهي مضمونة متواصلة لا مقطوعة ولا ممنوعة كما قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ (الرّعد:٣٥).

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾: جيء باسم الإشارة للجنة للمبالغة في التنويه بشأنها وتكريما للمتقين الذين أعدّت لهم. واستعير فعل "نُورِثُ" لما يدّخر من العطايا لمستحقيها، وهذا كقوله تعالى في سورة المؤمنون بعد ذكر أوصاف المفلحين منهم: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ، الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١٠-١١).

وجماع أوصاف نعيم الجنة هو قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الزخرف: ٧١-٧٢).

اللّهم إنا نسألك الجنة وما قرّب إليها من قول وعمل ونية واعتقاد.

والله أعلم

لا تتنزّل الملائكة إلا بأمر الله تعالى

أ)- النص:

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾: القائل هو جبريل بأمر من الله، فيقدّر فعل: "قل". ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾: المراد به الأمام والخلف واليمين والشّمال، كما يراد أبعاد الأزمنة كلها. فالكلّ داخل في ملك الله، فهو يشمل كل موقع يكون فيه موجود ما. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾: نسيّ: من صيغ

المبالغة على وزن "فعيل" وفسّر بمعنى "تاركك". ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾: السّميّ: له معنيان، يأتي بمعنى المثيل والنّظير، أي لا أحد يساميه في صفات الكمال. ويأتي بمعنى المماثل في الاسم كما تقدم في ذكر يحيى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ (مريم:٧). لأن المشركين لا يسمّون شيئا من أصنامهم بلفظ الجلالة "الله" ولا بصفة "الرّحمن".

ج)- البيان والتّفسير:

تقع الآيتان ٦٤ و٦٥ بعد ذكر بعض اللّقطات من حياة رسل الله وأنبيائه الكرام وما أحدثه الخلف من بعدهم، وقد أخذ ذلك حيزًا كبيرا من السّورة، يعقبها بعد ذلك الموضوع الرّئيسي الذي يعالج حال المدعوّين إلى الإسلام، ويركّز على أسس العقيدة كبقية السّور المكيّة، فتأتي هاتان الآيتان لتعالجا قضية طرحها رسول الله على جبريل عليه السلام إذ قال له عندما استبطأ نزول الوحي عليه: «**ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟**»، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿**وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا**﴾.[1]

ويروى في سبب النّزول عن ابن عباس أنّ قريشا لما سألوه عن أصحاب الكهف مكث خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك وحيا، فلما نزل جبريل، قال له: أبطأت، فأنزل الله هذه الآية.

والتّنزّل: تكلّف النّزول -ويكون على مهل-، والضّمير يعود إلى جبريل والملائكة. وقد أمر الله جبريل أن يقول ذلك لرسول الله جوابا عنه، وعلى ذلك يقدّر فعل "قل" فيكون العطف لقصّة على قصة. والملائكة كما قال الله

١- رواه البخاري من حديث ابن عباس، كتاب (٦٥) التفسير، (١٩) سورة كهيعص، باب (٢) قوله تعالى: ﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك﴾، رقم ٤٧٣١.

عنهم: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ، لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٦-٢٧). فلا يتصرّف أحدهم في أمر من أمور الكون إلا بأمر الله، كما قال الله عنهم في سورة القدر: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ (٤). وأوامر الله لملائكته لا يوجّهها إليهم إلا في أوقات محدّدة وبكيفيات مقدّرة وفق مشيئته تعالى، فسيّدنا جبريل عليه السلام -وهو أمين الوحي- كان يتمثل رجلا فيكلّم رسول الله فيعي ما يقول.

فعملية نزول الوحي شديدة الوطأة على الرّسول تقول عنها أمّنا عائشة رضي الله عنها: "لقد رأيته يتزل عليه الوحي في اليوم الشّديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصّد عرقا".

وأخرج أحمد عن أسماء بنت يزيد قالت: "إني لآخذ بزمام العضباء، ناقة رسول الله، إذ نزلت عليه المائدة كلها وكادت من ثقلها تدق عنق النّاقة".

قلت: وفي هذا المعنى يقول تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ (المزمل:٥).

قوله: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾، "اللاّم" للملك، فهو تعالى المالك لكلّ شيء موجود في أقطار الكون العظيم من كل جهاته المختلفة وأزمنته المتفاوتة، فيعمّ جميع الكائنات. ويشمل التّصرف في كل أحوالها. وما نزول الملائكة من عالمهم الغيبيّ إلى الأرض إلا تحرّك لهم وفق أمر الله تعالى لا يسبقونه بالأمر ولا يتعجلون.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾: هو ردّ على المشركين الذين يقولون لرسول الله عند فتور الوحي عنه: إن ربّ محمد قد ودّعه وقلاه. وفي اختيار كلمة "الرّبّ" مضافة إلى ضمير الخطاب تشريف للرّسول وتسلية له من شماتة الأعداء.

وعلى تفسير نفي النّسيان بنفي التّرك تتناسب هذه الآية مع قوله تعالى في سورة الضحى: ﴿وَالضُّحَىٰ، وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ، وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ، وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾(١-٥).

ثم ذيّل الله الكلام الذي جرى على لسان جبريل بقوله في جملة مستأنفة: ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾.

تؤكد الآية قضية الوحدانية في الرّبوبية، أي: فما دام ربنا يعلم ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك فهو القيّوم المتصرف في سائر الخلق مما في السّماوات والأرض والكلّ في قبضته بالتّسيير والتّدبير، وبالتّالي فهو وحده المستحق للعبادة والطّاعة: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾.

فالخطاب موجّه لرسول الله ومن خلاله لكل أمّته، ولا تكون العبادة لله كاملة إلا بإخلاص الإيمان له، وتمام التّسليم والرّضى بقدره وتصاريفه. ويلاحظ هنا حسن التّخلّص إلى الموضوع الرّئيسي في السّورة من الإشادة بالتّوحيد والتّنديد بالشّرك.

والاصطبار: هو شدة الصّبر وحمل النّفس على مشقة العبادة في الفعل والترك. جاءت هنا التّعدية باللاّم: ﴿لِعِبَادَتِهِ﴾ لتدلّ على الثّبات والعزيمة؛ لأن مشاق العبادة هي على مراتب، وبلوغ الكمال فيها يحتاج إلى الصّبر والمغالبة. وقد نقل الإمام حامد الغزالي عن بعض العارفين قوله: أهل الصّبر على ثلاثة مقامات:

أ)- ترك الشّهوة: هذه درجة التّائبين.

ب)- الرّضا بالمقدور: وهذه درجة الزّاهدين.

ج)- المحبة لما يصنع به مولاه: وهذه درجة الصّديقين.

قلت: روي عن رسول الله ﷺ قال: «**أعبد الله على الرّضا، فإن لم تستطع ففي الصّبر على ما تتركه خير كثير**».[1] وعبّرت الزّاهدة ربيعة العدوية عن حبّها الإلهي فقالت:

ليس لي في الجنان والنّار حـــظ أنا لا أبتغـــي بحبّـــي بـــديلا.

ويقول أحمد الشّرباصي في كتابه القيّم (موسوعة أخلاق القرآن): "وكـــثير من النّاس يظنون أو يزعمون أن الصّبر خلق سلبيّ وأن معناه الاستسلام والرّضـــى بالواقع والكف عن معالجة الأمور والاحتيال للخروج من الـــشّدائد والأزمـــات، وهذا فهم خاطيء ووهم فاسد.

فالصّبر كما يكون جهدا نفسيّا للتأبّي على المعاصي والابتعاد عن السّيئات، يكون في كثير من الأحيان جهدا عمليا إيجابيا فيه حركة وفيه سعي، وفيه إنتـــاج، وفيه تحمل للتبعات، وتعرّض لجلائل الأعمال ومواقف الأبطال، قد فهـــم ذلـــك البصراء من أعلام هذه الأمة".[2]

قوله: ﴿**هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا**﴾، الاستفهام إنكاري، أي ليس لله نظـــير ولا مماثل في شأنه، فهو الجدير بالعبادة والمستحق لها في كل الأحوال، فيجب عليـــك -أيها المؤمن- أن تصطبر لتلك العبادة حتى تبلغ درجة الكمال فيها.

وإن فسّرنا "السّميّ" بالمماثل في الاسم، فإنّ المعـــنى يؤيّـــده الواقـــع؛ لأنّ المشركين والملاحدة لم يجرؤ أحد منهم أن يتسمّى باسم الجلالة.

والله أعلم

١- روى أحمد نحوه في المسند من حديث ابن عباس، رقم ٢٦٦٦.

٢- أحمد الشرباصي، موسوعة أخلاق القرآن: ١/١٩٤.

إبطال شبهة المشركين في إنكار البعث

أ)- النص:

وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَءِذَا مَا مِتُّ﴾: المراد بالإنسان الكافر الجاحد. فـ"أل" للجنس، وقيل: هي للعهد الذهني. وقائل ذلك هو أبيّ بن خلف. وقيل: هو الوليد بن المغيرة. ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ﴾: الاستفهام للتعجيب والإنكار. "إذا" ظرف متعلق بفعل "أخرج"، و"ما" زائدة. ﴿أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ﴾: الاستفهام هنا كسابقه معطوف عليه. مِن قَبْلُ: "قبل" من الأسماء الملازمة للإضافة، مبني على الضمّ إذ حذف المضاف والتقدير: من قبل كل حالة هو عليها. ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾: الضمير في ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ عائد إلى الإنسان بصيغة الجمع على اعتبار أنه يشمل كل كافر يقول ذلك. وَالشَّيَاطِينَ: معطوف على ضمير الجمع: لَنَحْشُرَنَّهُمْ. جُثِيًّا: حال من ضمير: لَنُحْضِرَنَّهُمْ: جمع جاث على وزن "فعول"، أي جلس على ركبتيه في ذلّة ومهانة. ﴿لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُتِيًّا﴾: والنزع إخراج شيء من غيره بشدة وعنف.

والشّيعة: الطّائفة والجماعة التي تناصر بعضها بعضا. أيُّهُم: أيّ اسم موصول بمعنى "ما" و"من" والغالب أن يحذف صدر صلتها فتبنى على الضمّ. والعتيّ: العصيان والتّجبّر، مصدر بوزن "فعول" وهو منصوب على التّمييز. ﴿لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾: صِلِيّ: مصدر صلي النّار يصلاها: احترق بها ويقال: اصطلى، بمعنى طلب النّار. ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾: إن: حرف نفي بمعنى "ما". واردها: الورود يأتي بمعنى الوصول إلى الماء كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ (القصص:٢٣). ويرد بمعنى الدّخول كقوله تعالى: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ (هود:٩٨). حَتْماً: أي واجبا لا يمكن إسقاطه. مقْضيّاً: بمعنى واقعا منجزا بالأمر التّكويني في الوقت المحدّد له. ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جُثِيًّا﴾: نَذَرُ: بمعنى نترك، وهو مضارع أمات العرب ماضيه استغناء بفعل ترك، وإذا لا يستعمل منه اسم الفاعل فلا يقال: واذر.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ﴾: قرأ الجمهور: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ﴾ بسكون الذّال وضمّ الكاف من "يَذْكُرُ" بضمّ الذّال. وقرأه أبو جعفر بفتح الذّال وتشديد الكاف على أنّ أصله "يتذكر" فقلبت التّاء الثانية ذالا لقرب مخرجيهما. ﴿أَإِذَا مَا مِتُّ﴾: قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة وأبو جعفر ويعقوب قرأوا: ﴿مُتُّ﴾ بضمّ الميم. وقرأه الباقون: ﴿مِتُّ﴾ بكسر الميم. ﴿جُثِيًّا﴾: قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص: ﴿جِثِيًّا﴾ بكسر الجيم كسر اتباع لحركة الثاء. وقرأها الباقون: ﴿جُثِيًّا﴾ بضمّ الجيم. ﴿عُتِيًّا﴾و﴿صُلِيًّا﴾: قرأهما حمزة والكسائي وحفص وخلف بكسر العين والصّاد على الإتباع، وقرأهما الباقون بالضّمّ. ﴿ثُمَّ لَنُنَجِّيَ﴾: قرأ الجمهور: ﴿لَنُنَجِّيَ﴾ بفتح النّون الثانية وتشديد الجيم، وقرأه الكسائي ويعقوب بسكون النون الثانية وتخفيف الجيم.

د)- البيان والتفسير:

بعد الأمر بالاصطبار لعبادة الله، وأنّ ذلك يقتضي الإيمان الصّحيح بوحدانية الله ونفي الإشراك به، ينتقل النّصّ إلى إثبات قدرة الله في الإحياء والإماتة، والرّدّ على شبهات المشركين في التّكذيب بالبعث والنّشور، وبيان ما ينتظرهم من الذّلّ والهوان في عذاب جهنم، فلا ينجو منها إلا من آمن واتّقى فيقول الحق جلّ جلاله: ﴿وَيَقُولُ الانسَانُ أَءِذَا مَا متُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً، اَوَلاَ يَذْكُرُ الانسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾.

جيء بالفعل المضارع: ﴿وَيَقُولُ﴾ لاستحضار حالة تلك المقولة المنكرة والتّعجيب من قائلها، وهو هنا الإنسان الكافر، أي على اعتبار أن "أل" للجنس، ويجوز أن تكون للعهد فيراد بها شخص بعينه كما روي أنها نزلت في أبيّ بن خلف. وقيل: في الوليد بن المغيرة وأصحابه.

وقد أتي بالاستفهام التّعجّبي الإنكاري مؤكدا الجملة بلام الابتداء: ﴿لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً﴾. وهو يستبعد إعادته حيّا بعد موته لمجرّد أن ذلك لم يكن مألوفا من قبل، ناكرا قدرة الله في إعادة الخلق، مع أنّ هذه القضية لا يصعب الرّدّ عليها لو أنّ هؤلاء حكّموا عقولهم وأذعنوا للدّليل الذي يأخذ قوته من حياتهم الأولى كيف أنشأها الله وكيف أوجدها من العدم.

والإنسان قد يذهل عن كيفية وجوده فلا يتذكر كيف كان قبل ذلك، وإذا كان لصيقا بواقعه المعيش حتى اللّحظات الأخيرة من حياته فإنّه قد ينكر مآله الغيبي فلا يؤمن بما يخبر به الوحي، وبالتّالي فهو يردّد مقولة الماديين الملحدين: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ (الجاثية:٢٤).

وقد عالج القرآن قضية البعث والحساب بإسهاب. وهنا يردّ الحق تبارك وتعالى بأسلوب التّهديد والوعيد بعد إقامة الدّليل البرهاني على قدرته تعالى في بدء الخلق وإعادته فقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا، ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا، ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا﴾:

﴿فَوَرَبِّكَ﴾: الفاء للتّفريع على الجملة السّابقة، والخطاب بواو القسم، واختيار صفة "الرّبّ" للمقسم به مضافة إلى ضمير المخاطب -وهو الرّسول- وكلّ مؤمن بربوبية الله، والمقسم عليه هو قوله: ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾، والضّمير عائد إلى: ﴿الإِنسَانُ﴾ باعتبار الجنس، أي المشركين، وعطف عليه لفظ الشّياطين لأنّهم سبب ضلالهم. وحسبهم من الخزي أن يحشروا مع الشّياطين، ومصيرهم إلى جهنم محقق عند جميع النّاس، وفي إحضارهم حول جهنم جثيا على ركبهم تصوير تدريجي لمشهد الرّعب والهول وهم في ذلة وانكسار.

ولما كان ضمن أفواج المشركين ساداتهم وكبراؤهم ممن كانوا يمتازون في الدّنيا بالطّغيان والجبروت، فإن العدل الإلهي في الجزاء يقتضي أن يكون هؤلاء أولى بالمقت والعذاب، فهم ينتزعون بشدة من صفوف أتباعهم، والله أعلم بأولئك الطّغاة، وبمواقعهم في دركات جهنّم يدعّون إليها دعّا، ولا يجدون من أتباعهم إلاّ التّشفّي والدّعاء بمضاعفة العذاب لهم كما جاء في قوله تعالى على لسانهم في سورة الأحزاب: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ، رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾ (٦٧-٦٨). فهذه لقطات تصويرية من عذاب يوم القيامة لفريق المشركين أقسم عليها الله تبارك وتعالى فهي آتية لا ريب فيها، فكيف بحال الخلائق كلها في

ذلك الموقف المهول؟ وفي ذلك يقول المولى تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً، ثُمَّ نُنَجِّي الذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جُثِيّاً﴾. العطف على ما سبق، وفيه التفات من ضمير الغيبة إلى الخطاب ارتقاء بأسلوب التهديد إلى المواجهة المباشرة، ومعنى الآية في غاية الدقة ووقوع الاحتمالات فيها. ذلك أن كلمة: ﴿وَارِدُهَا﴾ وهي من الورود وهو يجيء لمعنيين:

أ)- أن تذهب إلى مصدر الماء للسقيا دون أن تشرب منه، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ (القصص:٢٣).

ب)- ومن العلماء من يقول: إن "ورد" بمعنى أتى الماء وشرب منه، كما قال تعالى في شأن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ (هود:٩٨).

وعلى الاحتمالين لمعنى "الورود" اختلف المفسّرون في معنى هذه الآية الكريمة:

أ)- فعلى الاحتمال الأول: يكون المعنى أن المخاطبين وهم جميع الخلائق مؤمنهم وكافرهم يحومون حول النار دون دخولها وفسّروا ذلك بالمرور على الصّراط المضروب على متن جهنم. وقد وردت في ذلك أحاديث عن رسول الله. منها ما أخرجه ابن ماجة والحاكم والدّيلميّ عن أبي سعيد الخدريّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يوضع الصّراط بين ظهرانيّ جهنم. عليه حسك كحسك السّعدان، ثم يستجيز النّاس. فناج مسلّم، ومخدوش به ثم ناج، ومحتبس به ومنكوس ومكدوس فيها**»[1]، لأنّ المؤمن يشعر بفضل الله ومنته عليه إذا ما رأى

١- رواه ابن ماجة من حديث أبي سعيد الخدري، كتاب (٣٧) الزهد، باب (٣٣) ذكر البعث، رقم ٤٢٨٠؛ ورواه أحمد في المسند من حديثه أيضا بسياق أطول، رقم ١٠٦٥٩؛ ونحوه الحاكم في المستدرك، رقم ٨٨٩٠، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

النّار وقد أنجاه الله منها بما قدّمه من إيمان وعمل صالح، كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ (آل عمران:١٨٥)

ب)- وعلى الاحتمال الثّاني: أي أن الورود بمعنى الدّخول أن النّار تكون على المؤمنين بردا وسلاما فينجّيهم الله منها ويترك الكافرين. أو يعذّب المؤمن فيها على قدر ذنوبه ثم ينجّيه الله بعد ذلك إلى الجنة وفق القائلين بعدم خلود المؤمن في النّار.

ويعجبني في توجيه معنى هذه الآية الكريمة ما ذهب إليه الإمام ابن عاشور مستندا إلى قراءة ابن عباس: ﴿وَإِن مِّنهُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ إذ يقول: "فالمعنى: وما منكم أحد ممن نزع من كل شيعة وغيره إلا وارد جهنم حتما قضاه الله فلا مبدلَ لكلماته، أي فلا تحسبوا أن تنفعكم شفاعتهم أو تمنعكم عزة شيعكم، أو تلقون التّبعة على سادتكم وعظماء أهل ضلالكم، أو يكونون فداء عنكم من النّار".

إلى أن يقول: "فليس الخطاب في قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ لجميع النّاس مؤمنهم وكافرهم على معنى ابتداء كلام، بحيث يقتضي أن المؤمنين يردون النّار مع الكافرين ثم ينجون من عذابها، لأنّ هذا معنى ثقيل ينبو عنه السّياق، إذ لا مناسبة بينه وبين سياق الآيات السّابقة، ولأنّ فضل الله على المؤمنين بالجنة وتشريفهم بالمنازل الرّفيعة ينافي أن يسوقهم مع المشركين مساقا واحدا". ثم يقول: "فموقع هذه الآية هنا كموقع قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(الحجر:٤٣). عقب قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الحجر:٤٢). فلا يتوهّم أن جهنم موعد عباد الله المخلصين مع من تقدم ذكره لأنه ينبو عنه مقام الثّناء".[1]

١- محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير: ١٦/١٤٩-١٥٠-١٥١.

ويقول القطب: "قلت: و لم تصحّ عندنا أحاديث دخول المسلمين فيها وقولها: "جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهيبي"، أخرجه التّرمذي والطّبراني والبيهقي وابن مردويه، وأنها يرد عليه، وأن لها ضحة من برده، ولا ينافس حضورهم حولها قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (الأنبياء:١٠١)، لأنّ المراد إبعادهم عن عذابها، أو إبعادهم عنها بعد أن يكونوا قريبا منها".[1]

قلت: والقطب يؤيد ابن عاشور في ملحظه إذ يقول: "و الورود هنا المرور عليها بلا دخول كما رواه عبد بن حميد وابن الأنباريّ والبيهقي عن الحسن البصريّ، وكذا روي عن قتادة. والحضور عامّ للكافر والمؤمن. أو نقول: الورود الدّخول. ونقول: الخطاب للكفار كما يدل له قرءاة ابن عبّاس ﷺ: ﴿وَإِن مِّنْهُمْ﴾.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جُثِيًّا﴾، أي أنه تعالى ينجيّ المتقين وهم الذين ثقلت موازينهم بالحسنات ينجّيهم الله من ورود جهنم. وفعل: ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾ بمعنى نتركهم في صورة من الذّلة والمهانة جاثين على ركبهم.

وإعطاؤهم صفة الظّلم ليشتمل على الشّرك وما دونه من الكبائر إذا مات عليها و لم يتب. وبعد فنحن بأزاء أخبار غيبية لا نعتقد منها إلا ما ثبت عن طريق الوحي بنصوص قطعية من قرآن أو من السّنة الصّحيحة. وللمتكلمين حديث مطوّل وتأويلات متكلفة -أحيانا- لا تزيدنا إلا حيرة وبلبلة. فما أروع توجيه الإمام ابن عاشور ومن وافقه من المفسرين لمعنى الآية الكريمة والله أعلم بمراده في النّصّ وأحكام تلك الدّار ليست كهذه كما يقول العلماء، فاللّهم نجنا من النّار سراعا سالمين ولا تخزنا يوم يبعثون، والله أعلم.

١- احمد بن يوسف اطفيش، تيسير التّفسير: ٨٤/٩.

غرور المشركين بحسن حالهم في الدّنيا

أ)- النص:

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾: أي تلاوة الرّسول للقرآن على المؤمنين والكافرين فيعيّر الكافرون المؤمنين بالفقر والمسكنة. ﴿بَيِّنَاتٍ﴾: أي واضحات. وهو منصوب على الحال. ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً﴾: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾: أي نحن وأنتم، والاستفهام للتّقرير. والنّادي أو النّديّ: هو مجتمع القوم يتحدثون فيه وكان للمشركين في مكة "دار النّدوة" يجتمعون فيها للتشاور. ﴿وَكَمَ اَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾: "كم" تدلّ على الكثرة. والقرن: أهل كل عصر تتداخل بينهم الأجيال. ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِءْياً﴾: الأثاث: متاع البيوت الذي يتزّين به. والرّئي على وزن "فِعل" وهو بمعنى "مفعول"، وهو إما مشتق من الرّؤية على القراءة بالهمزة، وإما من الرّيّ ضدّ العطش على القراءة بدونها. ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً﴾: اللاّم للأمر أو الدّعاء، وهي هنا بمعنى الإخبار. والمدّ هنا بمعنى الإمهال والاستدراج، ويجيء بمعنى الإطالة في العمر ونحوه. ومَدّاً: منصوب على

المفعول المطلق. ﴿رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾: ﴿رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾: هو غاية لذلك المدّ. إما العذاب وإما السّاعة: هو تفصيل للموعود به، أي عذاب الدّنيا أو عذاب الآخرة. ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾: هي المبرات والأعمال الصّالحة التي كانت خالصة لوجه الله. ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدّاً﴾: أي مآلا وعاقبة عند الله.

ج)- أوجه القراءة:

﴿خَيْرٌ مَّقَاماً﴾: قرأ ابن كثير بضمّ الميم، من: أقام بالمكان. وقرأها باقي القرّاء بفتح الميم على أنه اسم مكان من: قام. أطلق مجازا على الحظ والرّفعة. ﴿وَرِءْياً﴾: قرأه الجمهور بهمزة بعد الرّاء وبعد الهمزة ياء على وزن "فِعل" بمعنى "مفعول" وهو من الرّؤية أي: أحسن منظرا وهيئة. وقرأه قالون عن نافع وابن ذكوان عن ابن عامر: ﴿رِيّاً﴾ بتشديد الياء بلا همز، إمّا أنه من قلب الهمزة ياء وإدغامها في الياء الأخرى، وإمّا على أنه من الريّ الذي هو النّضارة والنعيم فالقراءتان متقابلتان في الدّلالة ومتقاربتان في النّطق.

د)- البيان والتّفسير:

لقد كان مشركو مكة في عنجهية وصلف بما يتمتعون به من أنواع الرّفاه والنّعيم، فهم يرون ذلك حظا جزيلا يمتازون به عن المؤمنين الذين كان أغلبهم فقيرا ضعيفا، فجعل المشركون من طيب العيش وزينة الدّنيا مبعثا للغرور والتّفاخر كما يفعل أهل الوجاهة والثّراء في كل عصر، وهم بذلك يبرّرون مواقفهم الدّنيئة من أهل التّقوى والإيمان فقال عزّ من قائل: **﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً، وَكَمْ**

﴿أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا﴾.

الجملة معطوفة على قوله: ﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾: فالضّمير في "عَلَيْهِم" يرجع إلى المتحدّث عنهم من المشركين والكفار. إذ كان الرّسول يتلو عليهم القرآن، وهو ينذر ويبشّر ويعد ويتوعّد، فلا يطيق المشركون صبرا بما يسمعون، فيسارعون إلى التّكذيب ويوجهون للمؤمنين كلاما فيه الغرور والتّعالي، يحقّرون جانبهم بما هم عليه من الضّعف والهوان ويقولون: لو كان المؤمنون على حقّ كما يقول محمد لمنّ الله عليهم برفاهية العيش مثلنا. وإذ هم في تلك الحالة الضّنكة فكيف يسوّي بيننا؟، فلو أقصاهم محمد عنه لاتبعناه.

وهكذا يلجأ الطّغاة المستكبرون إلى المفاخرة بما هم عليه من زينة الدّنيا في أجسامهم وبيوتهم ونواديهم ويستنكفون عن النّظر والتّأمّل في آيات الله وهي تقرعهم بالبراهين القاطعة، وأن ذلك التّفاوت في الحظوظ والرّزق إنما هو لإعداد المؤمنين على الصّبر والثّبات وتمحيصهم لحمل أمانة الدّين كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ (الأنعام:٥٣).

فيردّ الله على شبهة المشركين في قولهم بصيغة الاستفهام التّقريري: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾، يردّ عليهم بما فيه التّهديد للقائلين المتعجرفين والتّسلية للرّسول التي تدلّ على الكثرة بأنه تعالى قد أهلك من قبلهم من هم أكثر منهم زينة ومتاعا ونضرة أجسام وأحسن مكانة في أقوامهم. على أن الخيرية التي افتخر بها المشركون ليست من صنع أيديهم، بل هي عطاء من الله يملي لهم بنعمه حتى إذا كفروها أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

كما لقن الله لرسوله هذا المعنى ليجيب عن شبهتهم فقال تعالى: ﴿قُلْ

مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضْعَفُ جُنداً﴾.

فالأمر للرسول ومن خلاله لكلّ الدّعاة إلى الله أن يبيّنوا سنة الله في خلقه فيفرقوا بين النّعمة التي تترتب عن حبّ الله ورضاه، والتي تكون إمهالا واستدراجا لمن كفر به؛ لأنّ الله يعطي للجميع ويفترق النّاس في النتائج، فالمدّ هو توالي العطاء من الله وجيء بصفة: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ في المكان المناسب للإنعام كما قال تعالى: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ (الإسراء:٢٠).

وقوله: ﴿مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾ يدلّ على الانغماس الشّديد في الشّرّ والضّلال حتى يستفرغ الغاية فيهما ليروا بعدها ما يوعدون، ثم فصّل ذلك الوعيد بقوله: ﴿إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾. فالموعود به هو آت لا ريب فيه إمّا معجّلا به في الدّنيا بنصر المؤمنين وإذلال الكافرين وإمّا مؤجّلا إلى يوم القيامة وما ينتظرهم من عذابها، ونجد في القرآن التّركيز على هذا في آيات أخرى منها:

أ)- ﴿وَلَوْلاَ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ، وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ، وَزُخْرُفاً وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الزّخرف:٣٣-٣٥).

ب)- ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ، نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ (المؤمنون:٥٥-٥٦).

ج)- ﴿فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة:٥٥).

﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضْعَفُ جُنداً﴾: قابل الله تفاخرهم بخيرية مقامهم وحسن نديّهم قابله بضدّ ذلك مما سيعلمونه إن آجلا أو عاجلا. قابل خير المقام بشرّ المكان وحسن النديّ بأضعف الجند لأنّ المراد بالنديّ الحالون فيه من الأتباع والأنصار.

فعندما ينكشف الغطاء ويقارنون ما آلوا إليه بما ناله المؤمنون من النّصر والتّمكين في الدّنيا ومن الحظوة والنّعيم في الأخرى يدركون خيبتهم وخسرانهم، ولكن علمهم حينذاك لا يجدي، فلات ساعة مندم ولات حين مناص.

﴿وَيَزِيدُ اللهُ الذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّاً﴾:

الجملة معطوفة على قوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلاَلَةِ﴾ لمقابلة الضّلالة بالهدى. فإذا كان إمهال الكافرين يزيدهم تعنّتا وإمعانا في الكفر، فإنّ الذين اهتدوا بالإيمان بما كسبوه بعزيمتهم وإرادتهم يزيدهم الله ثباتا ويقينا ويوفقهم إلى المزيد من الطّاعات والمبرّات مما يؤدّي إلى السّعادة الأبدية، هي خير لهم من زينة الدّنيا ومتاعها؛ لأنّ الباقيات الصّالحات هي الوسيلة لرفع الدّرجات والمرجع الكريم عند الله.

وتلك هي الغاية المثلى التي يسعى إليها الأوفياء من عباد الله، فيحمدون الله على خير العقبى وحسن المآب.

والله أعلم

من ظواهر الكفر والشرك:

الاستخفاف بيوم البعث، والاستنصار بغير الله

أ)- النص:

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۖ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿أَفَرَأَيْتَ الذي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾: ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾: الاستفهام للتعجيب، والرؤية مستعملة للعلم و"رأيت" يتعدّى إلى مفعولين. ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾: الاستفهام للإنكار والتعجيب. يقال: اطّلع على كذا بمعنى أشرف عليه. والغيب: ما غاب عن الأبصار. استغني بهمزة الاستفهام في ﴿أَطَّلَعَ﴾ عن همزة الوصل فحذفت. ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾: أي نزيد له في العذاب ونضاعفه. ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾: نرث منه ما يقول، أي ما سمّاه من المال والولد و﴿مَا يَقُولُ﴾: هو إيجاز لحكاية كلامه من التهكّم يوم البعث. ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾: أي يحشر وحده لا يصحبه مال ولا ولد. ﴿لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾: أي يتعزون بآلهتهم من دون الله قوة ومنعة يعتزون بها. ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾: كَلَّا: للنفي والإنكار. والضدّ: اسم مصدر، خلاف الشيء في الماهية أو المعاملة، بمعنى تنقلب عليهم تلك الآلهة وتكون خصما لهم. ولكون "ضدّ" في معنى المصدر فهو يلزم حالة واحدة أي

لا يطابق موصوفه.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أَفَرَأَيْتَ﴾: في الهمزة الثّانية عدة قراءات: فمنها تحقيق هذه الهمزة، ومنها تسهيلها، ومنها إبدالها ألفا مع المدّ المشبع في الوصل فقط، ومنها حذفها. ﴿وَوَلَداً﴾: قرأ حمزة والكسائي: ﴿وُلْداً﴾ بضم الواو وإسكان اللاّم. وقرأها باقي القراء: ﴿وَلَداً﴾ بفتح الواو واللاّم. فيقال: "الوَلَدُ" و"الوُلد" و"الوِلْد" لكل ما وُلد ذكرا أو أنثى مفردا كان أو مثنى أو جمعا، ويجمع على "أولاد" و"وِلْدة".

د)- البيان والتّفسير:

من ظواهر الكفر والشّرك الاستخفاف بالبعث والحشر، فبعد الرّدّ على منكريهما فرّع الله عليه هنا ما قاله بعض أولئك الطّغاة ممّا ذكر في أسباب النّزول من قصّة خبّاب بن الأرت مع العاصي بن وائل. فمما رواه الشّيخان والتّرمذي وأحمد عن خباب بن الأرت قال: كنت رجلا قَيْنا -أي حدّادا- وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه. فقال: لا والله، لا أقضيك حتى تكفر بمحمّد ﷺ فقلت: لا والله لا أكفر بمحمّد حتى تموت ثم تبعث قال: فإني إذا متّ ثم بعثت جئتني، ولي ثمّ مال وولد فأعطيك. فأنزل الله تعالى: **﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً، أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً، كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً، وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً﴾**.[1]

١- رواه البخاري من حديث خباب بن الأرت، كتاب (٣٧) الإجارة، باب (١٥) هل يؤاجر الرجل نفسه من مشرك في أرض الحرب، رقم ٢٢٧٥.

الخطاب لكلّ من يصلح له، لرسول الله ولغيره من المستمعين. والرّؤية علمية بمعنى "ألم ترَ هذا" فالاستفهام للتعجيب. ولم يعيّن الله شخص الكافر لأنّ أشباهه كثيرون في كل زمان ومكان. وآيات الله تعمّ كل آياته من ناطقة بالوحي المنزل أو صامتة على صفحة الكون تدلّ على عظمته وقدرته تعالى، وتبدو ظاهرة كفر هذا القائل في استهزائه بنبإ البعث إذ قال متهكما: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً﴾، هكذا بصيغة القسم والتّوكيد، إذ قاس الحياة الدّنيا بالحياة الأخرى -وهو لا يؤمن بها- ولكنه الغرور والكبرياء بحظوظه الدّنيوية جعلاه يعتقد أن الله سيكرمه في الحياتين إن وقع ذلك، كالذي قال: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ (فصلت:٥٠).

ولكن الردّ الإلهي جاء مفحما بالأسلوب الحكيم: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْداً﴾، إذ وضع الخصم بأسلوب الغائب -احتقارا له- وضعه بين احتمالين لا ثالث لهما.

أ)- ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾: الاستفهام إنكاري؛ لأنّ مبعث الكلام إمّا ذاتي وهو لا يؤمن بالبعث، أو يكون قد أشرف على علم الغيب فرأى المال والولد حين يأتي يوم القيامة، وذلك مستحيل.

ب)- ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْداً﴾: أن يكون الله قد عهد إليه بأن يعطيه ذلك يوم القيامة. ويناسب اختيار صفة الرّحمن للوفاء بالعهد: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ (التوبة:١١١).

ثم هدّد الله هذا القائل بقوله: ﴿كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً، وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً﴾:

"كَلاَّ" أداة ردع تنفي ما قبلها وتبطله، ثم يأتي ما بعدها دليلا على ذلك الإبطال، وهو ما هدّد به ذلك القائل، وقد تضمّن التّهديد أربعة أمور:

أ)- ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾: هكذا بضمير العظمة، والكتابة أثبت من القول، حتى تكون حجة عليه يقرأها على صحيفته بنفسه: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ (الإسراء:١٤). وبما أن عملية الكتابة من طرف الحفظة الكرام الكاتبين هي عملية مستمرة فقد جيء بالفعل المضارع مقترنا بحرف التّنفيس للدّلالة أن ذلك واقع متحقق. وقد أوجز الله مقالة الكافر وهي قوله: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً﴾.

ب)- ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً﴾: والمدّ هنا بمعنى الزّيادة في العذاب، ويتمثل ذلك العذابُ في المراحل التي يمرّ عليها من الموت وعذاب القبر ومن البعث وهول الحشر والحساب ثم جهنم.

ج)- ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾: أي نرث ما اغترّ به من مال وولد. إذ كان يطمع أن نزيده ولكنه سيفقد كل شيء بموته أو بسبب آخَر مما يقدره الله لخلقه من المصائب والجوائح، وأما إرث المال، فقد يكون بتحويله إلى غيره بالحرب غنائم للمسلمين، وأمّا إرث الولد فزيادة على تركه إياهم بالموت يقول الإمام ابن عاشور عنهم أنهم يصيرون مسلمين فيدخلون في حزب الله، فإنّ العاصي ولد عمرو الصّحابي الجليل وهشاما الصّحابيّ الشّهيد يوم "أجنادين" فهنا بشارة للنّبي ﷺ ونكاية وكمد للعاصي بن وائل". [1]

د)- ﴿وَيَاتِينَا فَرْداً﴾: أي يحشر مشغولا بنفسه لا مال ولا لدا، كما قال تعالى في شأن الخلائق يومئذ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ (الأنعام:٩٤).

وبما أنّ المشركين يستنصرون بآلهتهم الباطلة ويلتمسون بذلك العزّ

١- محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير: ١٦/١٦٣.

والقوة عندها بينما العزة والقوة لله وحده. فقد قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا، كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾.

تتعاطف هذه الجمل، وكلّها تندّد بظواهر الكفر، واتّخاذ الإنسان لنفسه آلهة باطلة يعبدها ويتقرب إليها وهو انحراف عن الفطرة السّليمة، إذ الإنسان متديّن بطبعه، ولكن يضلّ بفساد التّصوّر وبسوء التّربية وبفساد البيئة. وفعل: "اتّخذوا" ينمّ على ذلك الانحراف المتكلف؛ لأنّ العقل السّويّ والفطرة السّليمة يقتضيان بأن تكون العبادة لله وحده الخالق الرّازق والقويّ القاهر. فكل شيء من دونه يتخذ للعبادة فهو شرك وضلال. فهؤلاء المشركون يبتغون العزّ من تلك الآلهة، غير أن فاقد الشّيء لا يعطيه، ولذلك جاء النّفي بقوله تعالى: ﴿كَلاَّ﴾، فإنّ العزّة والقوة والغلبة لله وحده. ولذلك فإن تلك الآلهة نفسها ستكفر بعبادتهم وتكون ضدّهم وخصيمهم يوم القيامة.

وهذا المعنى على اعتبار عود الضّميرين إليها وتنزيلها منزلة العقلاء حسبما يعتقده المشركون، وفي احتمال آخر يجوز أن يعود الضّميران إلى المشركين، بمعنى أنهم سوف يهتدي الكثير منهم بهداية الإسلام فيحطّم الأصنام وينبذها.

وفي الاحتمال الأول يقول تعالى في عبادة الملائكة:

أ)- ﴿أَهَؤُلاَءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ، قَالُواْ سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ (سبأ: ٤٠-٤١).

ب)- ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ، وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَافِرِينَ﴾ (الرّوم: ١٢-١٣).

وفي الاحتمال الثّاني يقول:

أ)- ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (البقرة:١٦٦).

ب)- ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾ (الأعراف:٣٨).

أعاذنا الله من خزي الدّنيا وعذاب الآخرة، والله أعلم.

عاقبة من اتّخذ الشّياطين أولياء، والردّ على من نسب الولد إلى الله

أ)- النص:

أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾: الأزّ هو الهزّ الشديد والاستفزاز الباطني بمعنى تهييجهم الشّياطين إلى المعاصي وتغريبهم وفي معناه "النّزغ". ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾: أي لا

تستعجل إهلاكهم وتعذيبهم. ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً﴾: والعدّ هو الحساب. وما يعدّ ينتهي، واستعمل العدّ مجازا لقصر المدّة. ﴿نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً﴾: الوفد يجمع على وفود، والحشر: هو الجمع مطلقا. والوافدون هم الجماعة ترد على الملوك فيكونون مكرّمين. ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْداً﴾: السّوق: تسيير الأنعام بالزّجر والنهر، أي يسيّر المجرمون تيسير احتقار ومهانة. والورد: هو الذّهاب إلى الماء لطلب الرّيّ ويراد به التهكّم. ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً﴾: الضّمير عائد إلى المشركين. الإدّ: الشّيء المتناهي في البشاعة والفظاعة، من: آده الأمر يؤوده بمعنى أثقله و لم يقو عليه. ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾: التفطّر التشقّق، أي تتصدع السّماوات لهول ما قيل في حق الرّحمن. ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً﴾: أي تسقط، فالهدّ هو سقوط البناء. ﴿إِلاَّ ءَاتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾: أي صائر إليه بعد الموت عبدا، بمعنى منقادا خاضعا، وقد سلب منه الاختيار. ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾: أي وحده لا مال له ولا نصير، و"عبد" و"فرد" منصوبان على الحال.

ج)- أوجه القراءة:

﴿يَكَادُ السَّمَاوَاتُ﴾: قرأ نافع والكسائي بياء تحتية على عدم الاعتداد بالتأنيث. وقرأ الباقون: ﴿تَكَادُ﴾ بالتاء المثناة الفوقية. ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾: قرأ نافع وابن كثير وحفص عن عاصم والكسائي: ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ بمثناة تحتية بعدها تاء فوقية. وقرأ أبو عمرو وابن عامر وحمزة وأبو جعفر ويعقوب وخلف وأبو بكر عن عاصم بتحتية بعدها نون، من الانفطار. والوجهان مضارع "فطر" المضاعف أو "فطر" المجرّد.

د)- البيان والتّفسير:

بعد التّعرّض لأحوال المشركين ومواقفهم أزاء البعث والحشر، وتماديهم

وإيغالهم في الضّلال، وما أعقب ذلك من التّهديد وبيان حكمة الله في إمهالهم. بعد تلك الجولة تجيء هذه الآية في استئناف بياني لتبيّن ما يدفع الكافرين إلى العناد والإيغال في الضّلال من تسلّط الشّياطين عليهم وتمكّنهم من الوسوسة لهم وتهييجهم على المعصية.

وبما أنّ الإنسان لا تظهر لعينيه تلك الخفيات من تدبير الله فقد أخبر الله بها نبيّه وكل من يتجه إليه الخطاب في قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا**﴾.

فالاستفهام في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعجيبي، والرّؤية علمية يخبر الله بها؛ لأنّه يعلم السّرّ وأخفى، والأزّ هو الهزّ الشّديد والاستفزاز الباطني، وقد تأكّد بالمصدر "أزًّا" للدّلالة على شدة تمكّن الشّياطين من نفوس الكافرين بحيث تنسدّ أمامهم مسالك الهداية، فلا ينتفعون بالنّصح والإرشاد النّبويّ. على أن الشّياطين مرسلة على جميع النّاس مؤمنهم وكافرهم، كما قدّر الله في حكمته الأزلية أن يجعل النّاس على محكّ الابتلاء والاختبار في الدّنيا، كما أخبر الله بذلك على لسان الشّيطان إذ قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (ص:٨٢-٨٣). فالشّيطان يقوم بدوره في غواية الإنسان، ولكن الله يحفظ العبد الصّالح من مكايده ووسوسته فلا ينال من صلاحه وتقواه، فلا تعجب -أيها الرّسول- من واقع الكافرين، بل هوّن على نفسك، فلله الحكمة البالغة في إمهالهم وهو يسلّي رسوله بقوله: ﴿**فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا**﴾.

وكان الرّسول يتمنّى هلاك أعدائه على عجلة، ولكن الله نهاه أن يتعجّل عليهم العذاب؛ لأن الله وقّت لذلك موعدا لا يخلفه حتى يبلغوا الشّأو الذي قدّر لهم من العناد والضّلال، فكلّ ذلك محصيّ عند الله سوف يجازيهم عليه.

وفي اختيار كلمة "العدّ" إيماء إلى قصر المدّة فقيل: إنّ المراد به هو هلاكهم في "بدر" وذلك هو العذاب العاجل، وأما الآجل فقد بيّنه الله بقوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً، وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْداً، لاَّ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾.

هذه صورة مختصرة من مشاهد القيامة تكمّل ما تقدم عن الكافرين من النّفور والتّضادّ بينهم وبين آلهتهم. فبيّن الله هنا كرامة المؤمنين، وهوان الكافرين. فصوّر المؤمنين في صورة وفد مكرّم يغدون على الرّحمن ركبانا على نوق من الجنة، وقد جرت عادة النّاس أنها تفد على ملوكها وأمرائها في مواكب مزدانة لبسط حاجاتها أو أخذ عطاياها. فعن علي كرّم الله وجهه قال سألت رسول الله ﷺ عن الآية فقلت: هل الوفد إلا الرّكب؟ فقال: «**والذي نفسي بيده إنهم إذا خرجوا من قبورهم استقبلوا بنوق بيض لها أجنحة، عليها رحال الذّهب**».[1]

وأما المجرمون فهم على العكس من ذلك يساقون كالأنعام مشاة عطاشا ويسقون من ماء الحميم وبئس الورد المورود.

﴿لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾: ففي أتون العذاب يطمع المجرم في شفاعة ينالها من مؤيّد أو نصير. ولكن هيهات، فإن الآلهة التي كانوا يستنصرون بها قد تنكرت لهم، فلا تكون الشّفاعة يومئذ عند الله إلا لمن أخذ الإذن، وهم الأنبياء والملائكة.

وقيل: إن الاستثناء متصل يرجع للعباد أو المتقين، فيدخل في من يتخذ عند الرّحمن عهدا من بلغ درجة الإحسان مع الله تعالى فيشفع لجماعات من

١- أورده ابن كثير في تفسيره.

النّاس كما أورد ذلك القطب رحمه الله في تيسيره إذ قال: "أو العهد: الأمر والإذن، يقال: عهد الأمير إلى فلان بكذا، وهذا نفس العهد، وما قبله من الأوجه تشبيه به. قال رسول الله ﷺ: **«إن الرّجل من أمتي ليشفع في الفيام من النّاس، فيدخلون الجنة بشفاعته وإن الرّجل ليشفع للرّجل وأهل بيته فيدخلون الجنة بشفاعته»**.[١]

قال القطب: "والفيام الجماعة، أي يدخلون على يده، وهم من أهل الصّلاح استحقوا التأخير لأمر ما، فيعجّل على يده أو يزاد له على يده درجات أو تفخيم".[٢]

ويقول الشّيخ الشّعراوي في هذا المعنى: "والعهد الذي تأخذه على الله بالشّفاعة أن تقدّم من الحسنات ما يسع تكاليفك أنت، ثم تزيد عليها ما يؤهّلك لأن تشفع للآخرين، والخير لا يضيع عند الله، فما زاد عن التّكليف فهو في رصيدك في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، ولا يهمل مثقال ذرة".[٣]

قلت: لعل ما يشير إلى هذا المعنى قوله ﷺ: **«إن لله عبادا لو أقسموا على الله لأبرّهم»**.[٤]

ثم يردّ الله على من أثبت له ولدا كاليهود والنّصارى ومشركي مكة فقال جلّ من قائل: ﴿**وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً، لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً، يَكَادُ**

١- رواه أحمد في المسند من حديث أبي سعيد الخدري، رقم ١٠٧٢١.

٢- احمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير: ١٠٥/٩.

٣- تفسير الشّعراوي: ٩١٩٠/١٥.

٤- رواه البخاري من حديث أنس، كتاب (٥٦) الجهاد، باب (١٢) قول الله عز وجل: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه...﴾، رقم ٢٨٠٦.

السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا، أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً، وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً﴾.

عطف على الجمل السّابقة التي تهدّد مواقف المشركين وأباطيلهم من قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ (مريم:٦٦). فزيادة على شركهم بالله باتخاذ آلهة من دونه، يبيّن هنا قولهم الباطل بأن لله ولدا، فالضّمير في: ﴿وَقَالُوا﴾ يعود إلى المشركين من قريش إذ جعلوا الملائكة بنات الله -حاشاه-. كما يعرّض بأهل الكتاب، والمراد بهذا البيان هو التّفظيع لتلك الأقوال. ولذلك قال بصيغة الخطاب لمواجهة القائلين بالتّهديد والتّنديد قال: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا﴾. والإدّ هو الأمر المنكر الفظيع، ويلاحظ ورود صفة: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ مكرّرة في هذا المقطع أربع مرّات؛ لأنّ هذه الصّفة توحي بما اقتضته حكمته تعالى بعدم تعجيل العذاب لهم، وهي تنافي اتّخاذ الولد، وهو تعالى منزّه عن ذلك، إذ يلزم أن يكون هذا الولد جزءا منفصلا عن أبيه، فيكون ربّا مثله، وذلك من المستحيلات المناقضة لصفة الرّبوبية، ويزيد الإمام ابن عاشور ملحظا آخر لذلك التّكرار فيقول: "فذكر اسم الرّحمن لقصد إغاظتهم بذكر اسم أنكروه".[1]

قلت: يشير بذلك إلى ما ورد في سورة الفرقان من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً﴾ (الفرقان:٦٠).

ثم قال تعالى: **﴿يَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾**، يرسم الله لكائناته الضّخمة صورة مرعبة بألفاظ مثيرة كالتفطّر والانشقاق والخرور والهدّ لتعبّر عن هول تلك المقولة الباطلة في حق الله تعالى

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: ١٦/١٧٦.

وعن فظاعتها حتى في تلك الجمادات الضّخمة التي تدين لربوبية الله وتخضع لسلطانه حتى لكأننا في قيام السّاعة مبالغة في التّهويل. ولزيادة التّأكيد والبيان جيء بجملة: ﴿إِن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً﴾ فهي لبيان الحيثية والسّبب بتقدير لام الجرّ قبل "أن" المصدرية. وفي هذا المعنى يقول ابن عباس ﷺ: فزعت السّماوات والأرض والجبال وجميع المخلوقات إلا الثّقلين وكادت أن تزول وغضبت الملائكة، فاستعرت جهنم، وشاك الشّجر واكفهرت الأرض وجدبت حين قالوا: ﴿اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً﴾ (الكهف:٤).

قلت: ذلك ما تفيده آية سورة الحجّ في قوله تعالى، يبيّن كيف أن المخلوقات كلها تسجد لله خاضعة لسلطانه ما عدا الإنسان قد يتمرّد ويعصي فقال جلّ من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ (الحج:١٨).

ثم قال تعالى: **﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً﴾** نفي انبغاء الحدث هو بمعنى: لا يتأتى ذلك وما يجوز؛ لأنه لا يستقيم مع جلال الله وعظمته، ولأن جميع الموجودات مستوية في الخلق والعبودية له.

كما أكّد ذلك بقوله: **﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ ءَاتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً، لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً، وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾**.

لا إشكال في الجمادات من إقرارها بالعبودية لله، ولكن الإنسان العاقل هو الذي يغترّ بمجال الاختيار الذي خوّله الله له في الدّنيا فيطغى ويتمرّد. ولكن أنّى له ذلك إذا أفضى إلى ربّه وسلب منه ذلك الاختيار. فلا يجد السّبيل إلا الإقرار بتلك العبودية مع سائر المخلوقات، فكيف يكون أحدها ولدا له؟.

﴿لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً﴾: لقد علم الله كل من قال تلك المقولة

الشّنعاء وعدّ أشخاصهم فلا ينفلتون من قبضته بل يرجعون إليه فرادى لا يملكون عونا ولا نصيرا: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾، وذلك إبطال لزعمهم بأن تكون آلهتهم الباطلة شفعاء لهم عند الله، والله أعلم.

محبة الله للمؤمنين، وتيسير القرآن للذكر

أ)- النص:

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾: الودّ: مصدر بمعنى المودة والمحبة التي تقوم على الإيمان، أي مودة جعلها الله بين المومنين فضلا منه، وتكون بدون سبب من أسباب المودة التي تكون بين الخلق. والجعل هنا بمعنى الإلقاء في قلوب الخلق. ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾: الضّمير يرجع إلى القرآن. ﴿بِلِسَانِكَ﴾: بمعنى طوّعناه لك حفظا وأداء ودراية للمعاني، واللّسان بمعنى اللّغة، والمراد اللّغة العربية. ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾: اللّدّ: جمع ألدّ، وهو الشّديد في اللّدد، أي العنف في الخصومة. والوصف لكفار قريش لأنهم أهل مراء ومكابرة. ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾: "كم": تفيد الكثرة. من قَرْن: بمعنى أمّة من الأمم الماضية. ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾: الرّكز: الصوت الخفيّ الذي لا يكاد يسمع. وهو كناية عن هلاكهم.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد ذكر أحوال المشركين وكيف يأتون يوم القيامة فرادى لا شفيع لهم ولا نصير، اقتضى تداعي المعنى أن يعقّب ذلك بذكر أحوال المؤمنين في ختام السّورة وأنّه تعالى سيجعل لهم في قلوب عباده مودّة وصحبة تكرّما منه وفضلا، فقال عزّ من قائل: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا**﴾.

ما كان أحوج الجماعة المؤمنة، وهي في مكة المكرمة تلاقي الجفاء والعنت، ما كان أحوجها إلى هذه اللّمسة الحانية من الحق تبارك وتعالى، يعدهم فيها بالحبّ والمودة فيما بينهم أوّلا فقال تعالى ممتنا على نبيه: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال:٦٢-٦٣).

ويلاحظ أن التّعبير جاء بالمصدر: ﴿وُدًّا﴾ وبصفة مطلقة دون ذكر متعلقات ذلك الودّ، حتى يشمل ما يكون من الودّ بينهم -كما تقدم- ثم ما يكون لهم من محبة الله ثانيا، ومن محبة خلقه ثالثا، وتحقق لهم محبة الله، لأنها نتيجة لإيمانهم وعملهم الصّالحات؛ لأنه تعالى يقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران:٣١). كما ورد في الحديث القدسيّ: «**وجبت محبتي للمتحابين من أجلي**».[1]

وبمقتضى محبة الله لهم فإنه تعالى يلقي محبتهم في قلوب عباده كما ورد في الحديث القدسيّ: «**إذا أحبّ الله عبدا نادى في السّماء إني أحببت فلانا**

١- رواه أحمد في المسند من حديث معاذ بن جبل، رقم ٢١٠٢١.

فأحبوه، وينادي جبريل في الأرض: إن الله أحبّ فلانا فأحبوه، ويوضع له القبول في الأرض».[1]

فإذا كانت المودّة الحاصلة بين النّاس لأسباب متعددة كالقرابة أو الصّداقة أو المصالح المتبادلة، فإن هذه المحبة الإيمانية تكون من الله فضلا وتكرّما، فهي أدعى للخير وأقوى في التّعاون والتّناصر. وفي اختيار صفة ﴿الرَّحْمَنُ﴾ للذات العلية ما يؤيّد هذا المعنى. وقد تحقق هذا الوعد الإلهي لأصحاب رسول الله في زمن غير طويل بعد محنتهم في مكة، ولذلك جيء بحرف السّين بدلا من سوف في قوله: ﴿سَيَجْعَلُ﴾ وهو وعد إلهي يشمل صنف المؤمنين الأوفياء في كل زمان ومكان، لأنّها من سنن الله في خلقه.

ثم قال تعالى مخاطبا رسوله لينوّه بشأن القرآن ويبيّن مهمته في البشارة والنّذارة: ﴿**فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا**﴾.

وهذه الآية هي حوصلة لموضوع السّورة بكلّ ما ورد فيها من المحاور، سيما في التّقديم للقصص بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾ (مريم:١٦). فجاءت هذه الخاتمة لتبيّن الوظيفة الكبرى للقرآن من البشارة والنّذارة.

صدّرت الآية بأداة الحصر "إنّما" مقرونة بالفاء الفصيحة مؤذنة بكلام مقدّر هكذا: بشر المتقين وأنذر القوم اللّدّ لأننا يسرّنا لك القرآن.

وتيسير القرآن يتمثل في عدة جوانب:

أ)- بإنزاله باللّغة العربية وهي أفضل اللّغات وأفصحها، وحسبها شرفا أن تكون لسان رسول الله كما قال تعالى منوّها بذلك الشّرف: ﴿نَزَلَ بِهِ

١- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب (٥٩) بدء الخلق، باب (٦) ذكر الملائكة صلوات الله عليهم، رقم ٣٢٠٩.

الرُّوحُ الأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء:١٩٣-١٩٥).

ب)- بتسهيله للحفظ والتّلاوة، وقد امتاز بذلك القرآن دون سائر الكتب المقدسة، إذ سرعان ما حوته الصّدور حفظا، وانطلقت به الألسنة ذكرا وتلاوة، حتى من بسطاء المؤمنين ذكورا وإناثا.

ج)- تطويعه لمختلف الأفهام، فالكلّ يأخذ منه على قدر مستواه في الفهم والدّراية، ولا عجب في ذلك فهو كلام ربّ العالمين، وقد ورد بيان ذلك التيسير في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (القمر:١٧).

وقد تكررت هذه الآية أربع مرات كما وردت في سورة الدّخان: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٥٨).

ثم بيّن الله مهمة الرّسول العظمى، فبدأ بالبشارة للمتقين بما وعدهم الله به من النّصر والتّمكين في الدّنيا ومن النّعيم المقيم في الأخرى، وقابل المتقين بالقوم اللّدّ، وهم المشركون يلجّون في العناد والمكابرة. وقيل عنهم: ﴿قَوْماً لُّدّاً﴾ للإشارة أن اللّدد في الخصومة هو من الصّفات التي تقوم عليها جماعتهم، وأنهم يعرفون الحق وينكرونه. واللّدد في الخصومة من أقبح الصّفات التي تحطّ من شأن المتصفين بها، وإن ظهرت عليهم بعض الأخلاق المحمودة، وقد ورد في الحديث الصّحيح: «**أبغض الرّجال إلى الله الألدّ الخصِمُ**».[1]

ثم ختم الله السّورة بما فيه التّهديد لأولئك المكابرين الألداء، وفيه التّسلية لرسول الله مما يلاقيه من أذاهم فقال تعالى: ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن**

١- رواه البخاري من حديث عائشة، كتاب (٦٥) التفسير، باب (٣٧) قوله تعالى: ﴿وهو ألد الخصام﴾، رقم ٤٥٢٣.

قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ اَحَدٍ اَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾.

جاء الإخبار بصيغة الغائب تحقيرا لأولئك المعاندين، وصدّر بت"كم" الخبرية الدّالة على الكثرة، والخطاب في آخر الآية للرسول ولكلّ من يصلح له.

والاستفهام في قوله: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ اَحَدٍ﴾ لإنكار أن يحدث ذلك، وانعدام الإحساس بأيّ أثر للمهلكين وكذا انخفات أصواتهم هو كناية عن زوالهم واضمحلالهم الكليّ بعذاب الاستئصال، وهو تهديد لكفار قريش أن يفعل الله بهم كما فعل بمن قبلهم من المكذبين، فتلك سنة الله في الاستدراج والإمهال.

أ)- ﴿اَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّن أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ (القمر:٤٣).

ب)- ﴿أَهُمْ خَيْرٌ اَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (الدّخان:٣٧).

وفي هذا الإخبار -أيضا- تسلية للرّسول والمؤمنين معه، بأنّ هؤلاء ليسوا بمنجاة من نقمة الله، فارتقبهم واصطبر، فإن الله عزيز ذو انتقام.

والله أعلم

لقمان

سورة طـه مكية، وآياتها ١٣٥

أ)- بين يدي السّورة:

سميت السّورة باسم الحرفين المنطوق بهما في أولها هكذا "طاهَـا"، يقـول عنهما الشّيخ محمد الغزالي في كتابه (نحو تفسير موضوعي) يقول: "طَهَ حرفان من حروف الهجاء، وليسا اسما للنبي ﷺ، ولم يرد ذلك في حديث صحيح، وهما مـن الحروف المفردة التي بدأت بها سور شتى، والله أعلم بمراده منها".[1] ونقل الإمـام ابن عاشور عن كتاب الإتقان أنها تسمّى أيضا بسورة "الكليم" وبسورة "موسـى" وأنها كلها مكية، تستثنى منها الآيتان: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ إلى ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (١٣٠-١٣١). وهي السّورة العشرون في ترتيب الـسّور بالمصحف الشّريف والخامسة والأربعون في ترتيب النّزول، إذ نزلت بعد سـورة مريم، وعدد آياتها عند أهل الكوفة مائة وخمس وثلاثون.

ب)- الموضوع الرّئيسي للسورة:

هو كسائر موضوعات السّور المكية، يركّز على إثبات أصـول العقيـدة الإسلامية من التّوحيد والنّبوءة والبعث.

ب)- المحاور التّفصيلية:

أ)- التّنويه بشأن القرآن، وأنّه في قدره يوازي خلق الـسّماوات والأرض، وتتمثل في ذلك عظمة الله وقدرته.

١- محمد الغزالي، نحو تفسير موضوعي: ص ٢٤٧.

ب)- إثبات رسالة محمد ﷺ إذ أوحى الله إليه بالقرآن، كما كلّم موسى عليه السلام.

ج)- بيان لقطات من قصة موسى بدءا من نشأته ثم تأييد الله له ونصره على فرعون بإغراقه في اليمّ وإنجاء الله لموسى وقومه.

د)- ذكر مغيب موسى إلى الميقات، وإضلال السّامري لقوم موسى بعبادة العجل، وفي ثنايا القصة عبر وعظات للرّسول والذين آمنوا معه، وإنذار للذين كفروا.

هـ)- بيان وعيد من يعرض عن القرآن ولا ينتفع بأمثاله ومواعظه.

و)- لقطات من هول المشهد في يوم القيامة وكيف يأمن المؤمنون ذلك الهول.

ز)- لقطات من قصة آدم مع الشّيطان وكيف يكون في هدى الله منجاة لذريته من سوء العواقب في الدّنيا والأخرى.

ح)- توصية الله للرّسول بالصّبر والتّحمّل لما يلاقيه من أذى، وأن يستعين على ذلك بالصّلاة هو وأهله.

ط)- اقتراحات المشركين إنزال الآيات المعجزة وتوعدّهم بالعذاب بعد الرّدّ عليهم بالحجة.

في إنزال القرآن سعادة للرسول ﷺ، وتذكرة لمن يخشى الله

أ)- النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ طَهَ ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَىٰ ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿طَه﴾: هي من الحروف النورانية في فواتح بعض السّور تقرأ بأسمائها وإن رسمت بصورة حروف التهجّي، وقيل فيها غير ذلك، وأنها بمعنى: يا إنسان أو يا رجل. حتى زعم البعض أنها من أسماء النبي ﷺ و لم يصحّ ذلك. ﴿لِتَشْقَى﴾: الشّقاء هو فرط التّعب المادي أو المعنوي. ﴿إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَنْ يَّخْشَى﴾: "إلاّ" وإن كانت للاستثناء فمعناها هنا يأخذ معنى الاستدراك "لكن"، والمعنى: لكن أنزلناه للتذكير. والخشية هي الخوف مما يخاف، وخشية الله هو الخوف المصحوب بالتّعظيم والإجلال. ﴿تَنزِيلاً﴾: منصوب على الحال من القرآن أو منصوب على المصدرية. ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾: الرَّحْمَن: خبر لمبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون مبتدأ خبره على العرش استوى. الْعَرْش: في اللّغة هو سرير الملك وهو هنا كناية عن عظمة الله إذ بيده مقاليد السّماوات والأرض، ومطلق التّصرّف في شؤون خلقه. أما ماهية العرش فهي من الغيبيات التي نفوّض فيها الأمر إلى الله. وكذا

الاستواء عليه فهو كما يليق بجلال الله. ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾: أي ما في باطن الأرض من ثروات. ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾: السِّر: ضدّ الجهر، وما هو أخفى من السِّرّ هو حديث النّفس مما لا يتفوّه به اللّسان. ﴿لَهُ الأَسْمَآءُ الْحُسْنَى﴾: الْحُسْنَى: صيغة تفضيل للمؤنث فأسماؤه وصفاته تعالى لها الكمال المطلق لا تقاس بغيرها من صفات الخلق: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى:١١). فتقديم المجرور هنا "لَهُ" يدلّ على الاختصاص.

ج)- البيان والتّفسير:

إن سورة "طه" شديدة المناسبة لسورة "مريم"، فزيادةً على نزولها بعدها كما روي ذلك عن ابن عباس، فإن محاورهما تتشابه إلى حدّ بعيد.

ففي المبنى نلاحظ ذلك الإيقاع في فواصل الآيات وبلاغة التّركيب والتّنسيق بينها، مع متانة الأسلوب وقصر الجمل.

وفي المعنى نجد شطرا كبيرا من سورة مريم يذكر قصص عدد من الأنبياء والمرسلين، ونجد في سورة "طه" ذلك التّفصيل لقصة موسى عليه السلام سيما في مواجهته لفرعون وخروجه ببني إسرائيل من مصر، ثم نجد لقطات من قصة الخليقة في آخر السّورة، وما يتخلل ذلك من توجيهات لرسول الله.

ويرتبط آخر سورة مريم بأوائل سورة "طه" بالتّنويه بشأن القرآن في لغته وإرشاداته ومواعظه، فقال جلّ من قائل: ﴿طه، مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى، إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَنْ يَخْشَى﴾.

القول في حرفي "طَ" و"هَـ" هو نفس ما قيل في الحروف المتقدمة، وإن حاول بعض المفسرين أن يجعلها تدلّ على اسم من الأسماء، إن للذات العلية أو لرسول الله، فقدّروا لها نداءً، أي: يا طه. ثم يأتي بعدها الخطاب الإلهي له. ولكن

ذلك لم يثبت فيه نقل صحيح، والأصوب أن نقول: الله أعلم بمراده منها.

وبصيغة الخطاب الإلهي لرسوله تجيء تلك التّسلية النّدية الممّهدة لمهمّة الرّسول التّبليغية؛ لأنّه كان يتعب نفسه ويحزن لكفر قومه وعنادهم شأن الرجل العظيم عندما يتهم في كرامته مما هو منه براء. فنفى الحقّ تعالى أن يشقى رسوله بسبب إنزال القرآن عليه؛ لأنّ ذلك هو ما يدّعيه عليه أعداؤه من أمثال أبي جهل والنّضر بن الحارث ومطعم بن عدي، إذ قالوا لرسول الله: إنّك لتشقى حين تركت دين آبائك. فإذا انتفى الشّقاء من إنزال القرآن نفي عموم واستغراق لكل أنواع الشّقاء، ففي مقابل ذلك تكون السّعادة والرّحمة للرّسول وأمته بإنزال هذا القرآن، بل هو الرّحمة المسداة لجميع العالمين، وقد تكررت مثل هذه التّسلية لرسول الله في آيات القرآن فقال تعالى:

أ)- ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُومِنِينَ﴾ (الشعراء:٣).

ب)- ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُومِنُواْ بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾ (الكهف:٦).

ج)- ﴿فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (فاطر:٨).

وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ بيان لمهمة الرّسول في التّبليغ، أي ما أنزلناه عليك أيها الرّسول إلاّ لتقوم بتبليغه للناس، فهو أداة للتذكير يتّعظ به من يخشى ربّه، وهو كلّ من يكون فيه استعداد وقابلية للتّلقي، وتكون خشية الله بمحبته في مستواها العلي ويكون الخوف مصحوبا بالتّعظيم والإجلال؛ لأنّ مفعول النّصّ القرآني في النّفوس البشرية أن يحرّك ما هو مستقرّ في فطرها من بذور التّوحيد لله والاعتراف بربوبيته، فإذا انتفت العوائق والمثبّطات فإنها سرعان ما تستجيب لنداء الفطرة.

وللتنويه بشأن القرآن قال تعالى: ﴿تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى، الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾:

"تنزيلا" مصدر نزّل، فيه معنى التمهّل والتنجيم كما قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَقُرْءَاناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾(١٠٦). فعظمة القرآن مستمدة من عظمة منزله، وهو الله الخالق لكل شيء، وقد خصّ السّماوات بالذّكر ووصفها بالعلا للتنبيه على عظمتها، وذكر الأرض معها لأنهما مجالا مشاهدة الإنسان ومهاد لحياته، ولتقرير ملكيتها للخالق وهيمنة سلطانه عليهما جيء بصفة: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ فهو بذلك تعالى يجمع بين صفتين هما من خصائص ألوهيته وربوبيته: العطف والرّحمة بالخلائق، والقهر والغلبة في تدبير شؤون ملكه. والآية من المتشابه الذي نجعله في معنى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى:١١). وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (الإخلاص:٤). يقول القطب رحمه الله: "ومعنى استوائه على العرش أنه ملكه". ثم يقول: "وروي عن الإمام عليّ كرم الله وجهه: "الاستواء غير مجهول، والتكييف غير معقول، والإيمان به واجب، والسّؤال عنه بدعة".[1]

ثم أردف الحق تبارك وتعالى ما يبيّن به سعة ملكه وعظمة سلطانه فقال: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾.

فكأنه تعالى يبيّن للمخاطبين تلك المجالات الواسعة من أرجاء الكون العظيم ليمعنوا فيها النّظر لاستجلاء عظمة الله كما قال في سورة الجاثية: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤمِنِينَ، وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ، وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ

١- احمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير: ١١٩/٩.

بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٣-٥).

ثم ليستخلصوا من خلال ذلك ما ادّخره من أسرار وما أودعه من خيرات وكنوز إن في فضاء الكون الفسيح أو في أعماق الأرض.

ثم يقول تعالى: ﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾، كما تدلّ الآية السّابقة على عظمة ملك الله فقد عطف عليها هنا ما يدل على سعة علمه، فالخطاب فيها موجّه إلى رسول الله وإلى كلّ من يصلح له، والجهر بالقول هو إعلانه برفع الصّوت. ضدّه "السرّ" وهو إخفاء الكلام والهمس به. وما هو أخفى: هو حديث النّفس وخواطر البال، فيستوي في علم الله كل أنواع الحديث، كما تقدم ذلك في كثير من آيات القرآن كقوله تعالى في سورة الرّعد: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِالَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾(١٠). وقد تقدم الإلمام بآداب الدّعاء في سورة الأعراف وسورة مريم.

ويبدو أن فائدة ترتيب هذه الآية في هذا السّياق هي التّخفيف على رسول الله حتى لا يشق على نفسه بالجهر في الدّعاء.

﴿اللَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَى﴾: تذييل لكلمة الحقّ التي بعث بها النّبيون جميعا، وهي جامعة لصفات الكمال المطلق لله تعالى، وقد جاء في الحديث: «**خير ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله**».[1]

وتشمل الأسماء الحسنى لله تعالى كل أسمائه وصفاته وهي حسنى، أي بصيغة التّفضيل للمؤنث؛ لأنها بلغت المرتبة العليا في الكمال تتصف بها الذات العلية، أثنى الله بها على نفسه فبأيّها دعوناه فقد وصفناه بما يستحق لجلاله وعظمته كما قال

١- رواه الترمذي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، كتاب (٤٥) الدعوات، باب (١٢٢) في دعاء يوم عرفة، رقم ٣٥٨٥.

تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (١٨٠).

وبهذا الحشد من الأوصاف لمنزّل القرآن على رسول الله، تتضح تلك الملاطفة الإلهية لرسوله حتى تطمئن نفسه الشّريفة إلى أداء مهمته التّبليغية، فلا يشقى بما يلاقيه من خصومه لأنّ الله كافيه وناصره.

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نمْ، فالمخاوف كلهن أمان

والله أعلم

من قصّة موسى عليه السلام: إظهار النار له رمز لتلقيه الوحي.

أ)- النصّ:

وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾: الاستفهام للتشويق والحديث ما يبلغ الإنسان من كلام سواء بالوحي أو بغيره. ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾: الأهل: الزّوج والأولاد. آنستُ: أبصرت شيئا يستأنس به ويطمئن إليه، مقابله: توجستّ

منه خيفة. بقَبَس: القبس: شعلة النّار المقتبسة على فتيلة أو عود. ﴿أَوَ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً﴾: أي يجد من يدلّه على الطّريق إذ أخطأها لظلمة اللّيل، أي في أثناء مسيره من مدين إلى مصر. ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً﴾: الخلع: فصل شيء عن شيء كان متصلا به، والنّعلان مفرده: نعل، جلد غليظ يجعل تحت الرّجل ويشدّ إليه بخيط لوقايته من أذى المشي. يخلع نعليه تواضعا وأدبا، وعلّل ذلك بأنه في واد مقدّس أي طاهر مبارك. وهو الوادي المتصل بجبل الطّور. و"طوَى": يجيء منصرفا وغير منصرف. قيل: اسم لذلك المكان، وقيل فيه غير ذلك. ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾: أي اختاره الله للنّبوءة. والوحي الشّرعي هو إعلام من الله إلى رسوله بمنهج خير للخلق. "لما يوحى": أي في الحاضر والمستقبل. ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾: السّاعة: علم بالغلبة لقيام السّاعة. وكاد: تدلّ على المقاربة، والإخفاء: السّتر وعدم الإظهار. أي أقرب أن أخفيها فلا يعلم بها أحد، أي المراد المبالغة في إخفائها. ﴿فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾: أي لا يصدّنك عن الإيمان بها أولئك الذين لا يؤمنون بها. فتردى: بمعنى تهلك، فالفعل إما منصوب في جواب النّهي، وإما مرفوع على تقدير: فإذا أنت تردى.

ج)- أوجه القراءة:

﴿لأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾: أَهْله: قرأ الجمهور بكسر هاء الضّمير على الأصل. وقرأه حمزة وخلف بضمّ الهاء تبعا لهمزة الوصل المضمومة في: ﴿امْكُثُوا﴾. ﴿إِنِّيَ أَنَا رَبُّكَ﴾: قرأ نافع "إِنِّيَ" بفتح ياء المتكلم وكسر همزة "إن"، وقرأ أبو عمرو وابن كثير وأبو جعفر بفتح ياء المتكلم وفتح همزة "إن" على حذف ياء الجرّ. والتّقدير: نودي بأني أنا ربّك. ﴿طُوىً﴾: قرأ الجمهور "طُوىً" بلا تنوين على منعه من الصّرف، وقرأه ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف منوّنا؛ لأنه اسم واد

مذكّر. ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾: قرأ الجمهور بضمير المتكلم المفرد، وقرأه حمزة وحده ﴿وَأَنَا اخْتَرْنَاكَ﴾ بضمير التّعظيم.

د)- البيان والتّفسير:

بعد التّنويه بشأن القرآن وتثبيت الرّسول في دعوته مع التّذكير بعظمة الله وقدرته وبعلمه الشّامل، أتبع ذلك هنا بذكر قصة موسى عليه السلام وكيف تحمّل أعباء النّبوءة وواجه أطغى رجل في زمانه ليتأسّى بذلك رسول الله، وهو في أول الطّريق من دعوته، علما بأن هذه السّورة من أوائل ما نزل عليه في مكة فقال جلّ من قائل: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ، إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾.

جاء العطف لبداية القصة بعد ذلك التّمهيد الحكيم بالآيات السّابقة سيما في نفيه تعالى لأيّ شقاء يصيب رسولِ الله بإنزال القرآن. والجملة المعطوفة مصدّرة بـ"هل" الاستفهامية التي تدلّ على التّقرير تشويقا لما يأتي بعدها من الحديث. وموضوعه هنا يتعلق بقصّة موسى عليه السلام. وبما أن المقصود هو ما يتعلق بأمر الرّسالة، فقد ابتسرت أحداث القصة من أولها وبدأت برحلة موسى من مدين وتوجّهه إلى مصر مع أهله، وقد اشتدت عليهم الظّلمة في ليلة باردة، فأورى مقدحته لإشعال النّار فلم تور شيئا. وذكر الفخر الرّازي في تفسيره أنه ولد له ابن في الطّريق، ولذلك اشتدت حاجته إلى النّار، وقد حاد عن الطّريق.[1]

قال تعالى: ﴿إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾، وكان من لطف الله بموسى أن أبصر النّار. وفعل "آنَسْتُ" يدلّ على أنه قد أبصر تلك النّار وتحقق منها واطمأنت نفسه لها. وحتى لا يوغلوا في التيه عن الطّريق أمر أهله

١- الفخر الرّازي، التفسير الكبير: ٢٢/١٥.

أن يمكثوا في مكانهم، فاتجه نحو مكان النّار ليقتبس منها شعلة للتدفئة.

﴿لَعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾: فالنّار إذن إمّا للاستدفاء، وإمّا لطلب مرشد إلى الطّريق. وفي التّعبير بوجود الهدى إشارة إلى ما سيتلقاه من الهداية الرّبانية، وذلك من الإلهام الإلهي لهذا الرّسول الكريم، نطق به قبل أن يتلقى الوحي من ربّه، وقد جاء ذكر تلك النّار في كل من النّمل والقصص فقال تعالى:

أ)- ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (النمل:٧).

ب)- ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (القصص:٢٩).

فهي كلها لقطات مختلفة لقصة واحدة تنوّع فيها أسلوب القرآن بألفاظ مختلفة، ولكنها تتكامل في نسيج القصة.

ثم قال تعالى: **﴿فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰٓ، إِنِّيٓ أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى، وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾**.

ها هو ذا موسى يقرب من النّار بنية اقتباس شعلة منها، فسمع نداء باسمه، والمنادي هو الله تعالى، فيكون بناء الفعل للمجهول لتصوير حالة موسى في تلك اللّحظات الأولى من سماعه لنداء لا يعرف مصدره، ولكنه قد اطمأن إلى المنادي الذي يعرف اسمه، وها هو ذا تزول عنه الحيرة إذ كلّمه ربّه بعبارة تعريفية واضحة تقوّيها مؤكدات ثلاثة: "إنّ"، وضمير الفصل، والجملة الاسمية. ثم اختيار كلمة "الرّبّ" مضافة إلى ضمير المخاطب تشريفا له وتطمينا بحفظه ورعايته. وهذا النّوع

من الوحي هو كلام يخلقه الله على غير المعتاد من الأصوات التي تصدر عن شخص معيّن فهو كلام يسمعه الرّسول من وراء حجاب بغير واسطة الملك. قال تعالى في أنواع الوحي: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً اَوْ مِنْ وَّرَآءِ حِجَابٍ اَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ اِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (الشورى:٥١).

علم موسى أن المتكلم هو الله تعالى فقرّت بلابله، إذ تيقّن أنّه الاصطفاء لأمر عظيم كما قال له: ﴿وَاَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ (طه:٣٩). وأول أمر وجهه الله إليه في ذلك المشهد العجيب هو أن يخلع نعليه تقديسا لذلك المكان الذي حظي بكلام ربّ العزة، إذ علّل الله ذلك الأمر بقوله: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً﴾ (طه:١٢). فإن الأدب الرّباني يقتضي أن تلصق رجليك بتراب الوادي المقدس. ولفظ: "طُوىً" اختلف المفسّرون في معناه، ويكادون يتفقون في أحد تلك المعاني بأنه اسم لذلك المكان فيكون بدلا للوادي.

ثم قال تعالى: ﴿وَاَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾، والاختيار هو تكلف طلب ما هو خير، فهو اصطفاء وانتقاء من الأخيار: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ (القصص:٦٨).

ولا بدّ أن يكون لهذا التّكريم الإلهي أثره البالغ في نفس موسى طمأنينة وجمعا للهمّة في ما يعقبه من الأوامر، وأولاها أن يحسن الاستماع لما يوحى إليه بجميع حواسّه ليعي ما يسمع، وهو قوله تعالى: **﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي، إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ اَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ، فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾**.

هذا هو مضمون ما أوحى الله لموسى. وبما أننا بأزاء التّكليف: افعل ولا تفعل، فإن الخطاب هنا جاء بلفظ الجلالة: ﴿أَنَا اللهُ﴾، فمعرفة حق الألوهية هو أول ما يجب علمه: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ﴾، هكذا بوصف الوحدانية. ويستخلص من

هذه المقدمة الشيّقة أنّ أوّل ما يكون بين المستلاقين أن يعرّف بعضهم بعضا للاستئناس ثم يجري ما بينهما من حديث. فالوحدانية هي الأساس الذي ينبني عليه السّلوك الإيماني من الأوامر والنّواهي، وأعظم مظاهره العبادة لله؛ لأنها من مقتضيات الألوهية، وهي إخلاص النّية والقول والعمل لله وحده في كل ما يصدر عن المؤمن في مجالات عمله على أساس قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ (الأنعام:١٦٢-١٦٣).

ثم خصّ الله بالذّكر إقامة الصّلاة، أي إدامتها بجميع شروطها وأركانها، وعلّل الله عبادة الصّلاة بأنها تذكّرك بالله، والذّكر يكون بالقلب أو باللّسان أو بهما معا. والصّلاة تأتي في أوقات معينة بالنّهار واللّيل خلال حركة الإنسان وسكونه حتى لا ينشغل عن ذكر الله.

ثم ذكر الحق تعالى الإيمان باليوم الآخر وهو الأساس الثّاني في العقيدة فقال: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ، فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾.

والسّاعة عَلَم بالغلبة لقيام السّاعة، وغالبا ما يغفل النّاس -وإن كانوا مؤمنين- عن قيام السّاعة، وهم في زحمة الحياة لاهون. فقوله تعالى بصيغة التّأكيد: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾، بمعنى: إياك أن تغفل عن هذه الحقيقة؛ لأنّ نظام الكون ما يزال مستمرّا رتيبا في مألوف النّاس.

وقوله: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾، أي قرب إخفاؤها، فلا يعلم موعدها أحد غيري. فقيل في معنى "كاد" هنا أنها زائدة تأكيدا للإخفاء فهي بمعنى قوله: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ (الأعراف:١٨٧)، والقرآن يفسّر بعضه بعضا، ثم علّل إتيانها بالجزاء على الأعمال.

قوله: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾، فهو تحذير

أن يفتتن موسى بما سيقوله المكذّبون بالآخرة، فهو إخبار له بما سيواجهه به المشركون من الصدّ والإنكار، اتّباعا لهواهم دون أي دليل، وفي هذا الإخبار المسبق تثبيت لموسى في مجال دعوته حتى لا يضعف أمام مجابهة الكفار بالحقائق الإيمانية؛ لأن عدم الإيمان بذلك ينتج عنه الهلاك والخسران.

وفي هذا الخطاب الإلهي لموسى وما تضمنّه من الاصطفاء والأمر والنّهي في أول بعثته يشبه كثيرا بأول دعوة رسول الله في مكة في تثبيت دعائم العقيدة الإسلامية من الإيمان بوحدانية الله والإيمان بالرّسالة واليوم الآخر وبعبادة الله بإقامة الصّلاة، والله أعلم.

معجزات موسى، وأمر الله له بالذّهاب إلى فرعون

أ)- النصّ:

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي
وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾
قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ
تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ
إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ
عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ
أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ
كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾: أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا: التوكؤ والاتكاء: الاعتماد على شيء. يقال: توكأ على الوسادة. والهشّ: خبط ورق الشّجر ليتساقط فتأكلها الغنم. ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾: مَآرب: جمع مأربة، أي منافع وحاجات أخرى كحمل الزّاد والسّقاء. ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾: "إذا" تدلّ على الفجاءة، والحية: جمعها حيّات، وهي صنف من الحنش مسموم. والسّعي: هو المشي الذي فيه شدّة، أي تحوّلت العصا من خشب جاف إلى حيوان كامل الحياة. ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ﴾: أي سنعيدها عصا كما كانت أول مرة. والسّيرة في الأصل: هيئة السّير، وتطلق على العادة والطّبيعة. ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾: الضمّ: الإلصاق والجمع إلى جناحك، أي يلصق يده اليمنى إلى ما تحت عضده الأيسر، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ (النمل:١٢). فيه استعارة جناح الطّير لجنب الإنسان. ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾: بيضاء: حال من ضمير تخرج. ومن غير سوء: حال من "بيضاء"، أي تخرج يدك مشعة من غير مرض يصيبها كالبرص ونحوه. ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾: عقدة: على وزن "فعلة" بمعنى مفعول، وهي موضع ربط خيط بآخر. وأطلقت هنا على عسر النّطق بالكلام في لسان موسى لما أصابه من الاحتراق بجمرة وضعها في فمه وهو صغير. ﴿يَفْقَهُواْ قَوْلِي﴾: يفقهوا: مجزوم بعد الأمر، أي يفهموا ما أقول. ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيراً﴾: وزير بمعنى "فاعل"، مشتق من الأزر، أي القوة أو الظهر. يقال: آزره إذا قوّاه وأعانه. ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾: اجعله شريكا معي في النّبوءة والرّسالة.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَلِيَ فِيهَا﴾، ﴿يَسِّرْ لِيَ أَمْرِي﴾، ﴿وَلِيَ فِيهَا﴾: قرأ ورش وحفص بفتح

ياء المتكلم، وقرأ باقي القراء ﴿وَلِي﴾ بإسكان ياء المتكلم. ﴿يَسِّرْ لِيَ أَمْرِي﴾: قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر ﴿لِيَ﴾ بفتح ياء المتكلم، وقرأها باقي القراء بإسكان ياء المتكلم. ﴿أَخِي﴾: قرأ ابن عامر ﴿أَخِيَ﴾ بفتح ياء المتكلم، وقرأها باقي القراء بإسكان ياء المتكلم. ﴿اشْدُدْ﴾، ﴿وَأَشْرِكْهُ﴾: قرأ الجمهور بصيغة الأمر في فعلي "اشْدُدْ" و"أَشْرِكْ". وقرأ ابن عامر بفتح الهمزة المقطوعة في ﴿أَشْدُدْ﴾، وبضم همزة ﴿أُشْرِكْهُ﴾ على أن يكون الفعلان مجزومين في جواب الدّعاء.

د)- البيان والتّفسير:

خلال مناجاة الله لموسى جيء بهذا الإيناس اللّطيف له في ذلك الموقف المهيب بجلال الله ليريه براهين نبوءته. أولاها انقلاب العصا حيوانا مرعبا في معجزة خارقة للعادة، سوف تكون له برهانا قاطعا أمام عدوّه فرعون. وكان من لطف الله به أن يلمس تلك التّجربة خلال المناجاة حتى يكون ثبت الجنان أمام عدوّه عند المواجهة، فكان من الله العليّ القدير ذلك السّؤال الإيناسي: **﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾**. فالجملة معطوفة على مضمون النّداء السّابق. و"ما" استفهامية لغير العاقل. وتأنيث اسم الإشارة "تِلْكَ" يدلّ على المسؤول عنه وهو العصا في يده اليمنى، وليس المقصود من السّؤال معرفة ماهية الشّيء الذي يمسكه موسى بيمينه. لأن الله عليم بذلك، وإنما هو إيماء إلى أمر غريب الشّأن.

غير أن موسى عليه السلام كانت إجابته بواقع أمر العصا مع شيء من الإطناب في ذكر منافعها تمديدا لفترة الإيناس الرّباني في ذلك الموقف المهيب إذ قال: **﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾**.

كان يكفي في الجواب أن يقتصر على ذكر المسؤول عنه بدون ذكر المسند إليه "هِيَ"، ثم إن إضافة العصا إلى ضمير المتكلم ﴿عَصَايَ﴾ لابدّ أن يعطي معنى

زائدا فإن الرّواية تقول: إن تلك العصا سلّمها له شعيب في مدين، وهـي عـصا توارثها الأنبياء من لدن آدم.[1] وكان موسى يدرك من طبيعة السّؤال أن المقـصود هو بيان منافع ومقاصد تلك العصا وفق المألوف عند الإنسان، فاسترسل في الكلام المؤنس يعدّد تلك المنافع ويقول:

أ)- ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾: أي أعتمد عليها عند المشي وأستند عليهـا عنـد الوقوف لمراقبة الغنم، وقد دأبَ الإنسان على الاستعانة بالعصا مساعدة لرجليه في حمل ثقل جسمه، سيما إذا شعر بالضعف.

ب)- ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾: أي أضرب بها علـى أوراق الـشّجر ليتساقط على الغنم فتأكلها فالعصا. إذن، هي وسيلته في تسيير غنمـه وفي تـوفير المأكل لها سيما في الفلوات التي لا عشب فيها، ومن تدبير الله الحكيم في إعـداد رسله لسياسة الخلق أن جعل أكثرهم رعاة للأغنام.

ج)- ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾: والمأربة هي البغية التي يـراد الحـصول عليها. وكان المرتقب أن يقال له: ما هي تلك المآرب؟، ولكن الله لم يسأله عـن ذلك انتقالا إلى ما هو أعجب في أمر تلك العصا.

ويلاحظ التّشريف الرّباني لموسى بتكرار النّداء باسمه في كلّ مرة إذ يقـول الحق تبارك وتعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ، فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ، قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى﴾.

أمره تعالى بإلقائها على الأرض، وقد جعل الإلقاء تمهيدا ووسيلة إلى أمـر مفاجئ يحوّل العصا عن طبيعتها الخشبية الجامدة إلى حيـوان يتحـرك ويـسعى: ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾، فعناصر الحياة كانت كاملة في تلك الحية، وهـي

١- ذكرها الشّيخ الإمام بيوض في تفسيره، في رحاب القرآن، تفسير سورة طه، ص ٢٥٨ .

نوع من الثّعابين المسمومة. وكانت تلك مفاجأة مخيفة لموسى. وجاءت تسمية هذا الحيوان بألفاظ أخرى في كل من سورتي الأعراف والنّمل، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ (١٠٧). وقال في سورتي النّمل والقصص: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ (١٠-٣١).

والجانّ هو نوع من الثّعابين الصّغيرة، ويدلّ اختلاف الأسماء على أن أطوال ذلك الحيوان كانت مختلفة بحسب ما يدعو إليه الموقف، فعندما واجه موسى سحرة فرعون قال تعالى في شأن العصا: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأفِكُونَ﴾ (الأعراف:١١٧). فوصف الحية بالثّعبان المبين هو المناسب لهذا الموقف. وكان من الطّبيعي أن يخاف موسى مما رآه، والله أمره أن يأخذ الحية بيده كما لو كانت عصا، غير أنه تعالى طمأنه بأنه سيعيدها عصا كما كانت، وذلك ليتعوّد على تلك الظّاهرة المعجزة، والتي ستصحبه في مسار دعوته بضرب الحجر لانبجاس العيون، وضرب البحر لفلقه على طريق يبس.

ثم يبين الله المعجزة الثّانية فيقول: **﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ، لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى﴾**.

والضّمّ يكون بجمع الشّيء إلى شيء آخر. واليد للإنسان جارحة للعمل والبطش، أمّا الجناح فهو للطّائر، استعير لجنب الإنسان من العضد إلى ما تحت الإبط. والمعنى: أدخل كفّ يدك اليمنى من جيب قميصك إلى ما تحت عضدك الأيسر. كما قال في سورة القصص: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ (٣٢). والجيب هو طوق القميص، فإن يدك حين خروجها تكون متوهجة كالبرق. وقوله: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ احتراس من توهّم أي مرض يصيبها كالبرص ونحوه، وقد زادها لمعانا كون موسى أسمر اللّون كما ثبت ذلك من وصفه ﷺ له ليلة الإسراء إذ قال عنه: «**أما موسى فرجل آدم طُوال، كأنه من**

رجال أُزد شنوءة».[1] وهم حيّ من اليمن.

وتذييله بقوله تعالى: ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ للدّلالة على أن انقلاب العصا حية هي الآية الأولى. ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى﴾: اللاّم للتعليل. وكم لله من آيات تدلّ على قدرته ويؤيّد ببعضها رسله. وقد أيّد رسوله موسى بتسع آيات لمواجهة فرعون أراه منها هاتين الآيتين من العصا واليد في تربّص ربّاني يتأقلم به لما ينتظره من مهمّة شاقة في مواجهة طغيان فرعون وقومه. كما قال تعالى في سورة النّمل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ ءَايَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ (النمل:١٢).

وهنا، وقد تمّ استعداد موسى لتحمّل مهمّته الدّعوية، وهو مطمئن لتأييد الله له، يأمره الله بقوله: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ، قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي، وَيَسِّرْ لِيَ أَمْرِي، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي، يَفْقَهُوا قَوْلِي، وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي، كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً، وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً، إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً﴾.

بعد أن أظهر الله لموسى بعض آيات قدرته فصار مطمئنا لتأييد ربّه، وقد سكن روعه من جلال الموقف في مناجاة ربّه، أمره بالذّهاب إلى فرعون، وهو ذهاب خاصّ موجّه إلى ذلك الطّاغية مباشرة؛ لأنّه قد تجاوز الحدّ في الجبروت والطّغيان إذ ادّعى الألوهية، وذلك تطاول إلى مقام لا يملكه الخلق مهما عزّ شأنهم وعظم مقامهم، كما يبدو طغيان فرعون في استعباده لبني إسرائيل قوم موسى.

ولقد تذكر موسى ما كان من أمر فرعون قبل خروجه من مصر خائفا

١- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب (٦٠) الأنبياء، باب (٢٤) قول الله تعالى: ﴿وهل أتاك حديث موسى﴾، رقم ٣٣٩٤.

يترقب، فلم يراجع ربّه في هذا الأمر، ولكنه كان يدرك متاعب تلك المهمّة فسأل ربّه أن يعينه ويشدّ أزره بأمور ثمانية، تنتظم الوسائل والغايات في ترابط محكم فقال:

أ)- ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾: والشّرح هو التّوسعة بإزالة ما يعتري النّفس الإنسانية من الخواطر السّيئة. والصّدر في التّعبير القرآني هو مستودع القلب تتردّد فيه تلك الخواطر، ولذلك يترتب ذلك الأثر البليغ بذكر الله وتلاوة القرآن على القلوب شفاء وطمأنينة فقال جلّ من قائل:

أ)- ﴿قَدْ جَآءَتْكُمْ مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾(يونس:٥٧).

ب)- ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(الرّعد:٢٨).

فعلى قدر ما ينشرح القلب لعمل من الأعمال يكون نجاح الإنسان فيه محققا، فما بال الأنبياء والرّسل في مهمتهم الدّعوية الشّاقة. ولذلك يمتن الله على رسوله بتلك الهبة العظيمة فيقول له: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ، الذي أَنقَضَ ظَهْرَكَ، وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (الشّرح:١-٤).

ويقول في معنى شرح الصّدر لكافة الخلق:

أ)- ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللهِ﴾ (الزّمر:٢٢).

ب)- ﴿فَمَن يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَآءِ﴾ (الأنعام:١٢٥).

ويقول الشّاعر العربيّ في هذا المعنى:

متى تحمل القلب الزّكيّ وصارما وأنفا حميّا تجتنبك المخارم

فشرح الصّدر -إذن- هو الوسيلة المعنوية القوية للإنسان في تحقيق الأعمال،

وحمل الأعباء الثّقال.

ب)- ﴿وَيَسِّرْ لِيَ أَمْرِي﴾: التيسير هو جعل الأمر يسيرا، وتعني إضافة الأمر إلى ضمير المتكلم تبليغ الرّسالة إلى فرعون، إذ الاستعداد القويّ من المبلّغ لا يتمّ به الأمر وحده ما لم يكن من الله تيسير للمهمّة؛ لأنّ مواجهة المدعوّ بما لا يستسيغه يكون فيها عنت ومشقة قد لا يتحملها الدّاعي.

ج)- ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي، يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾: فهناك اللّسان آلة للتبليغ، ولا بدّ أن تتوفّر له شروط الإفصاح والبيان؛ لأنّ موسى عليه السلام كان له رُتّة في لسانه أي حبسة، قيل: إنه أصيب بها في صغره عندما لاعبه فرعون في حجره فنتف شعر لحيته فغضب وهمّ أن يقتله، لولا أن أشفقت عليه امرأة فرعون وقالت: إنه صغير، فوضعت بين يديه تمرة وجمرة فوضع الجمرة على لسانه. وقيل: إنه ولد بتلك الحبسة. واستعير حلّ العقدة لإزالة تلك العاهة، وعلّل ذلك الطّلب بالفهم الجيّد لكلامه: ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾، وإن من البيان لسحرا كما قال رسول الله.

د)- ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي﴾: الوزير بمعنى "فاعل" مشتق من الأزر، أي المعونة والمساعدة. والوزير هو المساعد لصاحب الأمر في السّلطة، يساعده في تدبير شؤون الملك. طلب موسى من ربّه أن يجعل له معينا من أهل قرابته، ثم عيّن أخاه هارون باسمه لتوفّر بعض المزايا فيه، أولاها فصاحة اللّسان إذ قال: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً﴾(القصص:٣٤). وهو أيضا وسيم الطّلعة، هادئ الطّبع، أصيل الرأي. وتستشف هذه الأوصاف كلها من كلام موسى فهو من أهله وهو أخوه ووزيره. وبذلك يتكاملان ويتآزران في تحمّل عبء الرّسالة إلى فرعون. وكان موسى منصفا لنفسه واثقا بأخيه، لم يتطاول بامتياز ولم يفخر عليه بفضل -وهو كليم الله- وذلك من سيما الصّالحين من عباد الله، يتكاملون في الصّالحات ويتعاونون في المبرات. وفي ما رواه النّسائي عن عائشة رضي الله عنها

قالت: "قال رسول الله ﷺ: «**من ولي منكم عملا فأراد الله به خيرا جعل له وزيرا صالحا، إن نسي ذكّره، وإن ذكر أعانه**».[1]

وبعد بيان الوسائل الأربعة في أداء المهمات انتقل موسى إلى ذكر الغايات في دعائه لربّه فقال:

هـ)- ﴿**اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي**﴾: هكذا بصيغة الأمر الذي يفيد الدّعاء، وهو بيان لمهمة الوزير بأن يكون مساعدا ومؤيّدا في تحمّل مهمّة التّبليغ بأن يساعد أخاه موسى ويشدّ أزره، بل سأل أن يشركه الله في أمر الرّسالة، وآثر موسى أن يكون ذلك بإذن من الله حتى لا يتحرج هارون في ذلك فيؤديا مهمتهما على الوجه الأكمل. وبذلك تظهر سماحة موسى مع أخيه، إذ فضل أن يكون معه شريكا مساويا له لا مجرّد تابع يتلقى الأوامر.

ثم علّل ذلك الطّلب من مشاركة أخيه هارون في مهمته، بأن تتكامل جهودهما في التّسبيح لله وتقديس ذاته العلية بصفة دائمة مع إدامة الذّكر لهيبة الله وجلاله. فإن ذلك هو عدتهما الرّوحية في إبلاغ الدّعوة، وهما يعلمان ما يتعرضان إليه من فتنة طغيان فرعون وملإه. فسألا ربهما الوقاية من تلك الفتنة حتى لا ينشغلا عن الذّكر والتّسبيح.

﴿**إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا**﴾: أي إنك يا ربنا أعلم بحالنا وموقفنا، فقد فوّضنا الأمر إليك فحقّق لنا سؤلنا. فقال الحق تعالى يعده بالإجابة: ﴿**قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى**﴾.

والسّؤل بمعنى "المسؤول"، وجيء بالفعل الماضي مع "قد" التي للتحقيق

١- رواه النسائي من حديث القاسم بن محمد، كتاب (٤٠) البيعة، باب (٣٣) وزير الإمام، رقم ٤٢٠٩.

هذه المقدمة الشيّقة أنّ أوّل ما يكون بين المتلاقين أن يعرّف بعضهم بعضا للاستئناس ثم يجري ما بينهما من حديث. فالوحدانية هي الأساس الذي ينبني عليه السّلوك الإيماني من الأوامر والنّواهي، وأعظم مظاهره العبادة لله؛ لأنها من مقتضيات الألوهية، وهي إخلاص النّية والقول والعمل لله وحده في كل ما يصدر عن المؤمن في مجالات عمله على أساس قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ (الأنعام:١٦٢-١٦٣).

ثم خصّ الله بالذّكر إقامة الصّلاة، أي إدامتها بجميع شروطها وأركانها، وعلّل الله عبادة الصّلاة بأنها تذكّرك بالله، والذّكر يكون بالقلب أو باللّسان أو بهما معا. والصّلاة تأتي في أوقات معينة بالنّهار واللّيل خلال حركة الإنسان وسكونه حتى لا ينشغل عن ذكر الله.

ثم ذكر الحق تعالى الإيمان باليوم الآخر وهو الأساس الثّاني في العقيدة فقال: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ، فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾.

والسّاعة عَلَم بالغلبة لقيام السّاعة، وغالبا ما يغفل النّاس -وإن كانوا مؤمنين- عن قيام السّاعة، وهم في زحمة الحياة لاهون. فقوله تعالى بصيغة التّأكيد: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾، بمعنى: إياك أن تغفل عن هذه الحقيقة؛ لأنّ نظام الكون ما يزال مستمرّا رتيبا في مألوف النّاس.

وقوله: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾، أي قرب إخفاؤها، فلا يعلم موعدها أحد غيري. فقيل في معنى "كاد" هنا أنها زائدة تأكيدا للإخفاء فهي بمعنى قوله: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ (الأعراف:١٨٧)، والقرآن يفسّر بعضه بعضا، ثم علّل إتيانها بالجزاء على الأعمال.

قوله: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾، فهو تحذير

عظيم. ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ﴾: ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ﴾: جملة تفسيرية لـ "ما" في محل نصب بدل منه. والقذف: الرّمي. وأطلق هنا لوضع الطّفل في التّابوت تمثيلا للإخفاء والحيطة. ﴿التَّابُوتِ﴾: الصّندوق الذي يحرز فيه المتاع. و﴿الْيَمُّ﴾: البحر الكبير ويراد به هنا نهر النيل. ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾: الصّنع: مستعار للتربية والعناية. ﴿عَلَىٰ عَيْنِي﴾: "على" للاستعلاء المجازي، أي المصاحبة المتمكنة، والعين مجاز في المراعاة. كما قال تعالى لرسوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (الطور:٤٨). ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ﴾: الاستفهام للعرْض. ﴿يَكْفُلُهُ﴾: يكون كافلا له، أي يضمّه إلى آل بيته في الرّعاية. ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾: رَجَعْنَاكَ: من الرّجوع الذي يتمّ بدون دوافع. وإذا زيد بالهمزة "أرجعك"، أي بالرّغم من إرادتك. كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا: أي تسرّ بلقاء ولدها. وانتفاء حزنها هو لسلامة ولدها. ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾: أي عرّضناك لمحن كثيرة الفتون كالفتنة، يعني اضطراب حال الإنسان في فترة من حياته. وهو منصوب على المفعولية المطلقة. ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾: أي إنّ قدر الله هو الذي كان يحركك يا موسى فتشتاق إلى أمك وكنت في طريق عودتك إلى مصر على موعد مع الاصطفاء بالرّسالة. ويقول المولى في معنى ذلك:﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾: الاصطناع هو صنع الشيء باعتناء، والمراد هنا التّمثيل للتكليف بالرّسالة التي هي خدمة لرفع كلمة الله.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾: قرأ الجمهور ﴿لِتُصْنَعَ﴾ بكسر اللاّم على أنها لام كي، وبنصب فعل: ﴿تُصْنَعَ﴾ بعد لام التّعليل. وقرأه أبو جعفر بسكون اللاّم على أنها لام الأمر، وبجزم الفعل: ﴿تُصْنَعْ﴾ على أنه أمر تكويني. ﴿عَيْنِي﴾: قرأه نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء المتكلم، وقرأها باقي القراء بالإسكان. ﴿جِئْتَ

عَلَىٰ قَدَرٍ﴾: قرأ الجمهور: ﴿جِئْتَ﴾ على الأصل دون إبدال الهمزة ياء، وقرأها السّوسي وأبو جعفر بإبدال الهمزة ياء. ﴿لِنَفْسِي﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء المتكلم، وقرأها الباقون بالإسكان.

د)- البيان والتّفسير:

بعد تحقق مطالب موسى الثّمانية من قبل الله تعالى في قوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾، عطف الله عليه قوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ، إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ، أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَّهُ، وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾.

لقد تعدّدت منن الله على موسى، فقبل منّة الاختيار والاصطفاء في الوادي المقدّس كانت منّة الإلهام لوالدته في وقت ازدياده، إذ حماه الله من الذّبح الذي كان يسلّطه فرعون وجنوده على المواليد الذّكور من بني إسرائيل. وموسى كان يعلم تلك القصة، ولكن الله أكّد له ذلك الحدَث بـ"قد" و"لام القسم" ليطمئن إلى توالي رعاية الله منذ أن أبصرت عيناه نور الحياة وليدا في حضن أمّه وهي في حيرة من أمره، فكان لها من الله ذلك الإلهام النّفسي الصّادق، وهو غير الوحي للنّبوءة، إذ أن جمهور العلماء متفقون أن النّبوءة لا تكون للنّساء، وهو نوع من ذلك الإلهام الذي عبّر الله عنه -أيضا- بالوحي للحواريين والنّحل في قوله تعالى:

أ)- ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ -امِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ (المائدة:١١١).

ب)- ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ (النحل:٦٨).

فهو نوع من الخطرات الرّبانية الصّادقة التي قد ترد خاطر الإنسان فلا يجد لها رَدّا، وقد يكون ذلك حلما صادقا يراه المؤمن في المنام فيأتي كفلق الصّبح، ومضمون

ذلك الخاطر الرّباني هو قوله تعالى: ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾، وهذا تفسير لقوله: ﴿مَا يُوحَى﴾.

والتّعبير بالقذف الذي هو بمعنى الرّمي للشيء بعنف يدلّ على المعنى العاطفي في قلب الأمّ على ولدها، كيف تغالبه حتى لا تتردّد في تنفيذ أمر الله، كما يدلّ على السّرعة في التّنفيذ كمن يرمي شيئا بقوة، فقد وضعت وليدها في تابوت خشبيّ محكم وألقت به في اليمّ -أي مياه النّيل-.

وما أبدع ترتيب الأحداث في هذا المقطع من النصّ، والضّمير فيها يرجع إلى موسى. وجيء بلام الأمر في قوله: ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ للدلالة على أن المقدّر لذلك والآمر به هو الله تعالى. والمراد بالسّاحل هو الشّاطئ المعهود لسباحة آل فرعون، وقدّر المولى بحكمته أن يترتب على ذلك أخذ آل فرعون لذلك التّابوت: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾. وسينتهي ذلك الأخذ للتابوت إلى يد فرعون -سيّد القصر- وهو العدوّ اللّدود لله تعالى بكفره وطغيانه، كما يكون عدوّا لموسى في المستقبل.

ونظير هذه اللّقطة من الحدث قوله تعالى في القصص: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ (القصص:٧-٨).

وكان من لطف الله أن هيّأ للرضيع المبارك جوّ المحبّة في القصر لينشأ سويّ النّفس كريم الطّبع فقال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾.

وإلقاء الله المحبّة عليه هو قذفها في قلب من يحيط به، بحيث لا يراه أحد إلا أحبّه، وذلك بإرادة الله وقدرته خارجة عن الأسباب الدّاعية للتّحابّ بين الخلق، وقد علمنا أن موسى كان أسمر اللّون، أجعد الشّعر، أفنى الأنف، فقد أزال الله من

قلب فرعون تلك الكراهية لذكور بني إسرائيل حتى اعتبرته امرأته قرّة عين لها ولزوجها، فسبحان مقلب القلوب ومدبّر الأمور.

وقوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيَ﴾، فالصّنع هنا بمعنى التّربية والرّعاية، وقد تمت لموسى بقدرة الله ممن لا يشفق عليه، فكان منه تعالى ذلك التّدبير الحكيم في إرجاعه إلى أمّه لإرضاعه، ولا أتعب من صنع الإنسان لاستكمال تربيته وتنشئته.

أعلمت أشرف أو أجلّ من الذي ... يبني وينشيء أنفسا وعقولا

فقد تمت تلك الصّنعة الإلهية وفق مألوف البشر وبنفس الأسباب، غير أن وراء ذلك اليد الإلهية الحانية ترعى مراحل تلك التّربية، فإذا بالمخاوف كلّها أمان، وإذا بالقلوب القاسية رحمة وحنان، كما قال أمير الشّعراء:

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نمْ، فالمخاوف كلهن أمان

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ، فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ﴾:

كان لموسى أخت قامت بدور الرّقيب لمسار التّابوت على صفحة مياه النّيل. ونلاحظ هنا اختصارا لتلك المراقبة كيف تمت، وكيف امتنع موسى عن المراضع اللاتي تقدمن إليه في قصر فرعون، وكيف اختار ثدي أمّه. وورد ذلك التّفصيل في سورة القصص إذ قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ، وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ، فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (١١- ١٣).

إذن، كانت أخت موسى حاضرة حين كان فرعون وامرأته يطلبان مرضعا

لموسى، فعرضت عليهما المرضعة الأمّ؛ لأنّ موسى كان يرفض المراضع الأخرى، ولكنه قبل ثدي أمّه، فرجعه الله إلى حضنها، فتمت بذلك منّة الله وقرّت عين الأم بوليدها وانتفى عنها كلّ حزن.

وقيل: إن امرأة فرعون طلبت من أمّ موسى أن تمكث في القصر لإرضاع الولد، ولكنها اعتذرت بأنّ لها زوجا وأولادا لا يمكن أن تتركهم. وهكذا شاءت قدرة الله وتدبيره أن يمنّ عليه أيضا بإيناس إخوته زيادة على حنان والديه، وعلى توفير الإنفاق من قصر فرعون حتى تمام الرّضاعة، فأصبح يربي عدوّه وهو لا يشعر.

ويكمل الله منته على موسى بقوله: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ، وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾:

هذه هي المنّة الثّالثة معطوفة على المنّة الأولى، إذ وقع في قتل الخطإ لنفس القبطيّ الذي اختصم مع رجل من بني إسرائيل الذي استغاث بموسى لينصره على خصْمه، فوكزه حتى قضى عليه، كما قصّ الله ذلك في سورة القصص فقال: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ (القصص:١٥).

وكان موسى لا يريد قتله، ولذلك اغتمّ بشدة لفعلته تلك خوفا من ملاحقته من طرف أعوان فرعون حتى اضطرّ إلى الخروج من المدينة، لأن الأقباط يومئذ كانوا بمنزلة السّادة للإسرائيليين، فلا بدّ أن يقتصّ فرعون للقبطيّ من موسى، ولكن الله نجّاه من غمّ الشّعور بالذّنب إذ طلب المغفرة من ربّه قائلا:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (القصص:١٦).

وقوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ إشارة إلى ما عاناه موسى بعد ذلك من آلام الغربة والفقر، وما صاحبه من الخوف على ما فعل، كل ذلك كان من تقدير الله له ليختبره ويمحصّه إعدادا لحمل الرّسالة.

وكان لمكثه في أهل مدين راعيا لغنم شعيب دربة على سياسة الخلق بعد أن يصطفيه الله برسالته. وقد بعث الله في نفسه الشّوق إلى العودة إلى مصر مع أهله، فكان ما كان من مناجاة الله له في الوادي المقدّس.

لقد قدّر الله تعالى لموسى ذلك التّدرّج في مسرة حياته حتى بلغ سنّ الأربعين ليكون المجتبى لوحي الله، فهي -إذن- منن كثيرة أحاطت بموسى، وكانت الغاية منها كلّها هي ذلك الإعداد الرّباني لمهمة التّبليغ والإرشاد لأعظم طاغية على وجه الأرض، ويلخّص الله ذلك بقوله: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾. والاصطناع هو صنع الشيء باعتناء بالغ، وقد تقدم في صدر الكلام على المنن قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾(طـه:٣٩).

وقلنا إن هذه الصّناعة الإلهية لعبده موسى وإن تمت وفق مألوف البشر فهي صناعة خاصّة. فقوله: ﴿لِنَفْسِي﴾ تمثيل لما يضطلع به موسىٰ من مهامّ رسالة الله، فكأنه بذلك خادم لله لا لنفسه ولا لأهله.

وهكذا الأنبياء والمرسلون تفنى أشخاصهم في ذات الله حبًا وعبادة وتنفيذا لأمره.

وفي التّعبير بلفظ: ﴿لِنَفْسِي﴾ بمعنى لأجل نفسي، إكرام بليغ وتشريف عظيم لهذا الرّسول الكريم، والله أعلم.

الأمر بمرافقة هارون لموسى، وتوجيهات الله لهما في دعوة فرعون

أ)- النصّ:

اذْهَبَ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾

ب)- التّحقيق اللّغويّ:

﴿بِآيَاتِي﴾: هي اليد والعصا وحلّ العقدة من لسان موسى، أو هي الآيات التسع كلها، والباء في ﴿بِآيَاتِي﴾ للمصاحبة. ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾: من ونى ينى ونًى، أي لا تضعفا ولا تقصّرا في ذكر الله بالتسبيح والتحميد. ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾: أي الكلام الدّال على التلطف والترغيب في الامتثال. ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾: التذكّر: النظر بتبصّر لمعرفة الحق. ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾: أي يخاف نزول عقاب الله عليه. ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾: يَفْرُطَ: معناه يعجّل ويسبقنا بالعقوبة. والفارط: هو الذي يسبق إلى الحوض للورود. والطّغيان: أي يصدر منه ما هو من الكبر فيحقرنا ويهيننا. ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾: ﴿رَسُولَا رَبِّكَ﴾: جيء بتثنية "رسول" على الأصل في

مطابقة الوصف، ويجوز عدم المطابقة كقوله تعالى في سورة الشّعراء: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦). ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ﴾: سألا إطلاق بني إسرائيل والكفّ عن تعذيبهم. ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾: اقتصرا على ذكر آية واحدة، لأنّ المراد هو إثبات دعوى رسالتهما بالبرهان. ﴿وَالسَّلاَمُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾: تقديم للبشارة على النّذارة في الآية اللاحقة. ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾: إطلاق السّلام والعذاب دون قيد هو للتعميم.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد تلك المناجاة النّديّة بين المولى جلّ جلاله وبين موسى، والتي تضمنت المطالب الثّمانية لموسى واستجابة الله لها، وكان من ضمنها أن يشرك الله أخاه هارون في الرّسالة.

وبعد امتنان الله لموسى بقوله له: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ مما يدلّ على تكليفه بأمر عظيم، وذلك يتطلب تعليمات وتوجيهات خاصّة، تكون سببا لنجاح المهمّة. وقد أصبح كلّ من موسى وهارون جاهزين لتنفيذ أمر الله، وهو الذّهاب إلى فرعون وإبلاغه رسالة الله وهي تشتمل على أمرين:

أ)- الدّعوة إلى الإيمان بالله وبرسوله، وإسلام الوجه له، على أن تكون تلك الدّعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

ب)- المطالبة بالإذن في خروج بني إسرائيل من مصر إلى حيث يجدون الحرية والإنعتاق، والمطالبة برفع العذاب عنهم. فكيف تمت المقابلة؟ وما هي المحاورة التي جرت بينهم؟.

قال تعالى: ﴿اذْهَبَ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾: أمر الله

موسى بالذّهاب إلى فرعون بمعية أخيه هارون. ويبدو أن الأمر الإلهي لموسى قد تمّ في المناجاة الأولى، يبلغه لأخيه عند لقائه بمصر حتى يتأهبا للذّهاب إلى فرعون معا مصحوبين بآيات الله الدّالة على صدقهما لدى فرعون، وأنّ الله قد أرسلهما إليه لدعوته إلى الإيمان بربّه ونبذ الكفر والطّغيان.

ونهاهما المولى تعالى عن التّقصير والفتور في ذكره، ومن الذّكر تبليغ رسالة الله إلى النّاس دعوة باللّسان وقدوة بالعمل والسّلوك، ومنه ذكره تعالى باللّسان والقلب تمجيدا وتعظيما، وتسبيحا وتحميدا، فإن ذاك أثبت للقلب وأدعى للقوة والجرأة أمام الطّواغيت ومنازلة الأقران، وقد روى الإمام التّرمذي من الأحاديث القدسية: «**إن عبدي كلّ عبدي الذي يذكرني وهو ملاق قرنه**».[1]

ثم قال تعالى: ﴿**اذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ، فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ**﴾: جاء الأمر بصيغة التّثنية على اعتبار حضور هارون مع موسى بعد لقائهما، وفي التّعبير إيجاز بديع، أو أنّه أمر لموسى يبلّغه لأخيه الغائب -كما تقدم- وعلّل ذهابهما إلى فرعون ليكفّاه عن طغيانه، وهل هناك أطغى وأظلم ممن ادّعى الرّبوبية؟ فقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ (النازعات:٢٤). وتوجيه الدّعوة إلى فرعون خاصّة؛ لأنّه رأس القوم والنّاس على دين ملوكهم -كما ورد في الأثر- وهدايته هي أفضل وسيلة لاتّباع رعيته.

ولكن الله الحكيم أمر بأن تكون تلك الدّعوة باللّين والتّرفق؛ لأنّ في ذلك رجاء قويا في التّبصّر والنّظر، وفي الخوف والحذر. والرّجاء هنا إنما هو في شأن موسى وأخيه؛ لأنّ الله يعلم ما سيكون من أمر فرعون، غير أنّ الدّاعي بشر يساوره الأمل واليأس، ومهما تكن حالة المدعوّ من الإعراض والعناد، فإنّ الدّاعي

١- رواه الترمذي من حديث عمارة بن زعكرة، كتاب (٤٥) الدعوات، باب (١١٧) في دعاء الضيف، رقم ٣٥٧٦، واستغربه.

في حاجة إلى الأمل والرّجاء حتى تتمّ دعوته على أكمل وجه، ومن أمثلة ذلك اللّين في التّبليغ قوله تعالى على لسان موسى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ، وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ (النازعات:١٨-١٩).

وترويض المستكبر العنود مهمّة شاقة، لأنك بنصحك إياه تحمله على الرّضى بما يكره، وذلك أثقل على النّفوس، وأدعى لردّ الفعل العنيف ولذلك بادر الرّسولان ربهما بقولهما: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوَ اَنْ يَطْغَىٰ، قَالَ لاَ تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾.

ما أبلغ التّعبير هنا بـ"الإفراط"، إذ يجعل معقد الخوف في موسى وهارون لا مجرّد الذّهاب إلى فرعون، ولكن الخوف من سبقه للانتقام منهما قبل إبلاغه الدّعوة. وحذف متعلق "يَطْغَى" لكون ذلك الطّغيان من فرعون قد يتجاوز شخصي الرّسولين على التنقيص من ذات الله العلية كقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ (القصص:٣٨).

قال الإمام الشّعراوي: "ومن واجب الدّعاة ألاّ يصلوا مع المدعوّين إلى درجة أن يخوضوا في حقّ الله تبارك وتعالى، لذلك فالحقّ سبحانه يؤدّب المؤمنين به في أدب الدّعوة في مجابهة هؤلاء فيقول: ﴿وَلاَ تَسُبُّواْ الذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَسُبُّواْ اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام:١٠٨).

١)- قال المولى تبارك وتعالى لنفي خوفهما: ﴿لاَ تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾، نهى الله عن خوفهما من الأمرين السّابقين، وعلل ذلك بمعيته لهما، بالحفظ والرّعاية، وبالنّصر والتّأييد، وأنه تعالى لا يخفى عليه شيء من المسموعات أو المرئيات فليبلّغا ما أمرهما الله به بحكمة وبجرأة.

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ

جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ، إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾: أمرهما الله بالإتيان إلى فرعون، وذلك بأن يحلاّ عنده في قصره، وقد لقّنهما الله ما يقولانه، ففي الدّعوة إلى الرّبوبية الحقة اكتفيا بالإشارة إلى مقامها بإضافة كلمة "الرّب" إلى ضمير الخطاب، وأنّ الله هو الرّبّ الحقيقي لهما ولفرعون ولسائر الخلائق، وتلك هي اللّبنة الأولى في دعوة الحق. ولا شك أنها هزّ فرعون في كبريائه، كيف وهو يقول لأتباعه: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ (النازعات: ٢٤).

ثم انتقل الرّسول إلى المطلب الثّاني وقد أفصحا في هذا المطلب؛ لأنه أخفّ من الدّعوة المباشرة إلى الإيمان بالله، فبنو إسرائيل هم قومهما، وقد عزّ عليهما ما هم فيه من العذاب والتّسخير فطلبا لهم الإذن بالخروج معهما من مصر والكف عن تعذيبهم وإذلالهم.

ثم عرضا عليه آية صدقهما بأنهما مرسلان من الله إليه. فأعادا تعبير: ﴿رَبِّكَ﴾ مع ما يناسبها من البشارة تلطفا في الدّعوة، إذ قالا: ﴿وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾، وليس المقصود بهذه الجملة إلقاء التّحية، بل هي كالعبارة الأخيرة التي كان الرّسول يذكرها في كتبه إلى الملوك والأمراء وفيها إيماء لطيف إلى كونهما على هداية الله في حفظه ورعايته. ثم أتبعا ذلك التّلطف بإنذاره على التّكذيب قبل معرفة موقف فرعون من الدّعوة الموجهة إليه، كل ذلك تطبيقا للدعوة اللّينة التي أمرهما الله بها.

وهكذا تمت هذه المواجهة دونما تهاتر ولا استثارة غضب، ويلاحظ أن النّذارة نسبت إلى مصدر الوحي المنزل وهو الله تبارك وتعالى؛ لأن ذلك أردع لذلك الطّاغية الجبّار، إذ يكون الإنذار ممن هو أعظم منه في القوة والجبروت، فكيف كان موقف فرعون بعد ذلك؟ ذلك ما سيتناوله النّصّ اللاحق، والله أعلم.

محاورة فرعون لموسى حول الرّبوبية

أ)- النصّ:

قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾: خاطب فرعون الرّسولين بالضّمير المشترك، وخصّ النّداء بموسى؛ لأنّه الأصل بالرّسالة وهارون تابع له. ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾: "أعطى" يتعدى إلى مفعولين. "كل شيء": مفعول أول، "خَلْقَه": مفعول ثان. والخلق: مصدر بمعنى الإيجاد، والمعنى: منح الله كل شيء من مخلوقاته ما يناسبها من الشّكل والصّورة وما يتميز به من غيره. "ثُمَّ هَدَى": أي أرشدهم إلى إثبات وجودهم ومعرفة الحق من غيره. ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾: البال: تطلق على الحال المهمّ، وتطلق -أيضا- على الرأي فيقال: خطر ببالي كذا وكذا. و﴿الْقُرُونِ الْأُولَى﴾: أي الأمم السّابقة، أي كيف حالهم من حيث السّعادة والشّقاوة؟. ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾: أي أحوالها معلومة لله محفوظة في اللّوح المحفوظ لا يضيع منهم شيء، وسيجزون بما فعلوا. ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهَادًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾: مهادا: جمع "مهد" وهو ما يفرش للصبّي. ويجوز أن يكون بمعنى "الممهود" كالفراش واللّباس. ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾: سلك

مشتق من السّلوك. والسلْك بمعنى الدّخول. يقال: سلك طريقا بمعنى دخله مجتازا، ويأتي متعديا بدون زيادة الهمزة كقوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ (المدثر:٤٢). والسّبل هي الطّرق المختلفة على وجه الأرض بين الجبال والفجاج والبراري. ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾: الأزواج: جمع زوج، غلب على الذّكر والأنثى من كلّ نوع، ثم استعمل "الزّوج" في معنى النّوع بغير قيد كونه ثانيا لآخر، وهو المقصود هنا، أي أنواعا مختلفة الألوان والطّعوم. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى﴾: أي في ما خلق الله من ذلك علامات وبراهين لأصحاب العقول تدلّ على عظمته.

ج)- أوجه القراءة:

﴿جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مِهَاداً﴾: قرأ الجمهور "مهادا" بكسر الميم وألف بعد الهاء. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف ﴿مَهْداً﴾ بفتح الميم وسكون الهاء، أي كالمهد الذي يمهّد للصّبيّ، وهو اسم بمصدر مهَدَه، على أن المصدر بمعنى المفعول، كالخلق بمعنى المخلوق، ومعنى القراءتين واحد.

د)- البيان والتّفسير:

امتثل موسى وهارون أمر الله بالذّهاب إلى فرعون وإبلاغه رسالة الله، فقد طوى النّصّ ذكر ذلك قصد الإيجاز لدلالة السّياق عليه، وانتقل إلى الحوار الذي دار بينهم، إذ وجّه فرعون السّؤال إليهما معا، ولكنه خصّ بالنّداء موسى؛ لأنه المكلف الأصليّ في هذه المهمة فقال المولى تعالى حكاية لقول فرعون: **﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ، قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَىٰ﴾**.

لقد تحاشى فرعون أن يضيف "الرّبّ" إلى نفسه، بل أضافه إلى المخاطبين: ﴿مَن رَّبُّكُمَا﴾، لئلا يظهر أمام قومه بمظهر المعترف المصدّق، وذلك نوع من

المواربة والمراوغة في الحوار عندما يشعر المحاور أنه محجوج وفي هذا السّؤال مراوغة وتشغيب، أراد به فرعون إخراج الحوار عن صلب الموضوع، ليوظّف في مصائر الأمم الخوالي معنى البشارة والنّذارة الذي وجّهه موسى إلى فرعون بقوله: ﴿وَالسَّلاَمُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ، إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ (طـه:٤٧-٤٨)، بمعنى أن الأمم السّابقة كانت على طريقة فرعون في الوثنية فكيف كان مصيرها.

ولكن موسى عليه السلام عاجله فسدّ عليه الباب قائلا: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى﴾، فمهمة موسى هي إرشاد الأحياء ودعوتهم إلى عبادة الله، وأمّا الأموات فقد أفضوا إلى مصائرهم، والذي قدّر لهم ذلك هو الله المحيي والمميت، فهو الذي يتولّى محاسبتهم ومجازاتهم بما يستحقون؛ لأنّ علمه تعالى محيط بكل شيء. وكونه: ﴿فِي كِتَابٍ﴾ كناية عن التّحقيق والضّبط، فلا يتطرق له نسيان، ولا يتنابه خطأ؛ لأن المكتوب ثابت.

وبعد تلك المقاطعة في اتجاه الحوار بين موسى وفرعون عاد المتحاوران إلى القضية الأولى الأساسية -قضية الخلق والهداية لجميع المخلوقات-، أراد موسى أن يذكر بعض الأدلة التّفصيلية في ذلك فقال: **﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهَاداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ، كُلُواْ وَارْعَوْاْ أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَىٰ﴾**.

يحتمل أن يكون هذا الكلام المستأنف هو لموسى فيكون قوله تعالى خلاله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً﴾ جيء به على طريق الالتفات، ويحتمل أن يكون كله من كلام الله، والضّمير فيه عائد إلى "الرّب" في قوله: ﴿عِندَ رَبِّي﴾. توخّى موسى من الأدلة التّفصيلية للخلق، توخّى ما هو مناسب لغرور فرعون وتعاظمه بما يتمتع به من جنات الأرض وأنهارها وهو القائل: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ الأَنْهَارُ

تَجْرِي مِن تَحْتِيَ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ (الزّخرف:٥١). وتشبيه الأرض بمهاد الصّبيّ فيه من الدّقة والبلاغة لمناسبتها وضعية أرض مصر الخصبة على ضفاف النّيل، ممهّدة كالفراش، فهي بمثابة الأمّ، وأبناؤها البشر تحتضنهم برعايتها، وتطعمهم من خيراتها، فيسيرون في مناكبها على سبل ميسرة لتبادل المنافع برّا وبحرا. ومن إتمام نعمة خلق الأرض وتطويعها لحياة المخلوقات أن أمدّها الخالق بإنزال الماء وإخراج النّبات أصنافا مختلفة، وأزواجا متلاقحة للتّكاثر. فهي شتّى في الأنواع المختلفة وفي النّوع الواحد.

وفي نكتة الالتفات عن ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً﴾ نبّه صاحب الكشاف إلى أن ذلك قد تكرّر في القرآن للدلالة على أن المتكلم بنون العظمة هو الخالق الذي سخّر ذلك بقدرته، فهو أحق بأن يطاع ويعبد، ومن أمثلة ذلك التّكرار قوله تعالى:

أ)- ﴿وَهُوَ الذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأنعام:٩٩).

ب)- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَٰنُهَا﴾ (فاطر:٢٧).

ج)- ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ (النمل:٦٠).[1]

وللإمام الشّعراويّ ملحظ آخر دقيق يقول عنه: "كما أن إنزال الماء من السّماء ليس لأحد عمل فيه، لكن عندما يخرج النّبات قد يكون لنا عمل مثل الحرث والبذر والسّقي وخلافه، لكن هذا العمل مستمدّ من الأسباب التي خلقها

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: ٢٣٨/١٦.

الله لك، لذلك لما تكلّم عن الماء قال: ﴿أَنزَلَ﴾ فلا دخل لأحد فيه، ولما تكلم عن إخراج النّبات قال: ﴿أَخْرَجْنَا﴾ لأنه تتكاثف فيه صفات كثيرة تساعد في عملية إخراجه، وكأنه تبارك وتعالى يحترم عملك السّيء ويقدّره".[1]

﴿كُلُواْ وَارْعَوْاْ أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى﴾: يمتن الله علينا بنعمة تسخيره لنا تلك المقوّمات لحياتنا بما فيها من طعام وماء وهواء نتقاسمها مع أنعامنا، ثم هي مسخرة لنا تكملة لمتاعنا، كما قال تعالى: ﴿مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ (النازعات:٣٣).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى﴾: أي إن في ما ذكره الله من عجائب الخلق لدلالات وبراهين على عظمة الخالق، لا يعقلها إلا أرباب العقول، وذلك بالنّظر والتّأمل في خلق الله لإدراك قدرته ووحدانيته. كما قال الشّاعر:

وفي كل شيء له آية ... تدلّ على أنه الواحد
ولله في كل تحركة ... وتسكنة أبدا شاهد

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾: إنها قضية الخلق والإعادة وما بينهما من نقلة بين الحياتين، ففي الخلق الأول يذكر المولى تمهيد الأرض لحياتنا، وكون مادّتها التّرابية هي الأصل في تكويننا، إمّا بالخلق الأوّلي لأبينا آدم، أو بالخلق الثّاني لنا عن طريق التّناسل، وقد درج القرآن على تشبيه إعادة الخلق للبعث والنّشور بإنبات الأرض إثر إنزال الماء عليها مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فصلت:٣٩). وفي سورة نوح كمال تلك الصّورة من التّشبيه إذ قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً، ثُمَّ

١- الشّعراوي، التفسير: ص ٩٢٩١.

يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً﴾ (نوح:١٧-١٨).

فموسى عليه السلام يكون قد استكمل لفرعون العناصر الأساسية للإيمان الصّحيح تذكره بأصله التّرابيّ حتى لا يغترّ بملكه وسلطانه.

ويلاحظ اختلاف التّعبير في الخلق الأول وإعادته إذ جاء التّعبير للخلق الثّاني بالإخراج، مما يدلّ -والله أعلم- على أن عملية إعادة الخلق تتمّ داخل الأرض لتقوم الأجساد إلى يوم المحشر، والله يقول في شأن ذلك: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ، عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الواقعة:٦٠-٦١)،

والله أعلم

اتهام فرعون لموسى بالسّحر، وطلبه للمبارزة مع السحرة

أ)- النصّ:

وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿أَرَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا كُلَّهَا﴾: آيات الله كثيرة، منها الصّامتة في الكون والآفاق، ومنها ما يكون لإثبات صدق الرّسل كالمعجزات الخارقة للعادة، ومنها النّاطقة كالقرآن الكريم. وإضافتها إلى ضمير الجلالة لتفيد العهد، بمعنى: هي آيات معهودة لفرعون وهي الآيات التّسع المختصّة بموسى. ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾: أي امتنع عن

تصديقها، فالتّكذيب بها هو علّة امتناعه عن الإيمان. ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ﴾: أَجِئْتَنَا: الاستفهام للإنكار. ﴿مِنْ أَرْضِنَا﴾: أي أرض مصر، استعمل ضمير الجماعة للتغليب وإقحام رعيته في استعدائها على موسى. ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾: بمعنى إحضار السّحرة لمبارزته. والمماثلة بين السّحرين في الشّكل لا في القوة. ﴿مَكَاناً سِوًى﴾: مكان: بدل اشتمال من "موعد". سِوًى: صفة، ومعناه: مستويا. أو معناه: وَسَطا بيننا وبينك. ﴿يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾: يَوْمُ الزِّينَةِ: هو عيد لأهل مصر يفيض فيه النّيل على الأراضي المنبسطة حول مجراه لزراعتها، إذ يأخذون زينتهم في ذلك اليوم، فقد حدّد موسى بذلك الزّمان والمكان.

ج)- أوجه القراءة:

﴿لاَ نُخْلِفُهُ﴾: قرأه الجمهور برفع الفعل، صفة لـ"موعد" باعتبار معناه المصدري. وقرأه أبو جعفر بجزم الفاء من: ﴿نُخْلِفُهُ﴾ على أن "لا" ناهية، أي للتحذير من إخلافه. ﴿سِوًى﴾: قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي بكسر السّين. وقرأه عاصم وحمزة وابن عامر ويعقوب وخلف بضم السّين وهما لغتان. ويقول اللّغويّون: كسر السّين هو اللغة العالية الفصيحة.

د)- البيان والتّفسير:

قبل استئناف الحوار الذي كان يجري بين موسى وهارون وفرعون لاستكمال أحداث القصة، تجيء هذه الجملة معترضة بين ما سبق وما لحق لتنقلنا إلى آخر تاريخ دعوتهما في مصر قبل الخروج منها ببني إسرائيل. وهي -أيضا- كالتوطئة لما بقي من المحاورة التي تنتهي بفرعون إلى طلب المبارزة مع السّحرة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾: لقد ظهر تعنّت

فرعون وتصلّبه في موقفه و لم تجد فيه تلك الآيات الباهرات التي آيد الله بها موسى في دعوته، وذلك ما يدعو إلى التّعجيب، يتطلب الإخبار عنه التّأكيد بلام القسم و"قد" وتأكيد الآيات بـ"كلها" وقد عمّمها الله هنا، وهي الآيات التّسع التي فصّلها الله في آيات متفرقة، أي العصا، واليد، وفلق البحر، والحجر، والطّوفان، والجراد، والقمّل، والدّم، والضّفادع.

وكانت نتيجة ذلك التّكذيب والإعراض عن الإيمان والاستجابة للحق. ثم تستأنف المحاورة في جوّ من الحجاج الهادئ، إذ أذعن فرعون لقرع الحجة بالحجة، وذلك من لطف الله برسوليه الكريمين ووفاء بوعده لهما في قوله: ﴿لاَ تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (طه:٤٦).

ولا شك أن فرعون كان في ملأ من قومه عند هذه المقابلة فأراد أن يستعدي قومه على الرّسولين فقال: ﴿**قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ، فَلَنَاتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لاَّ نُخْلِفُهُ، نَحْنُ وَلاَ أَنتَ مَكَاناً سِوًى**﴾.

هذا الاستفهام الإنكاريّ من طرف فرعون مع ذكره السّحر فيه اختصار لما ورد في آية الشّعراء من التّفصيل لنفس المشهد في المحاورة التّالية: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ، قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ، قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ، وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّاظِرِينَ، قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ، يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ (الشعراء:٢٩-٣٥).

وبنفس الأسلوب من المداورة والدّهاء أراد فرعون أن يشرك الحاضرين من ملائه في مواجهة الرّسولين فلم يبق الحوار في قضية الألوهية، بل أصبحت قضية الدّفاع عن الوطن، والمحافظة على المصالح الاقتصادية، وهو يعلم مدى ارتباط قومه

بأرضهم، وبذلك جعلهم طرفا في الخلاف إذ قـال: ﴿لِتُخْرِجَنَـا مِـنْ أَرْضِـنَا بِسِحْرِكَ﴾، فلم يعد موسى في نظر القوم ذلك النّبي المرسل لتركيز دعوة الإيمـان بالله، بل أصبح مغامرا يطمح إلى الملك والسّلطة، يجب على الجميع دفعه ومحاربته.

وإذ كان السّحر فنّا يتداوله النّاس من عهود قديمة، وقد اشـتهر في مـصر سيما عند بني إسرائيل، فإنّ فرعون قد وجد في ذلك مستندا للتّحديّ والتّعالي فقال لموسى: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ﴾، مما يدل أن من عادة القوم إقامة تلـك المحافـل للسّحرة يستعرضون فيها ما عندهم من حيل السّحر. وإسناد الضّمير مع التّوكيـد هو للدّلالة على الاعتداد بما عندهم لإفحام الخصم.

وإمعانا في التّعاظم والكبرياء بادر فرعون لموسى أن يضرب موعد للمبـاراة مؤكدا عدم الخلف فيه، وتاركا تعيينه لموسى إظهارا للتفوّق والغلبة، ولكنّه اشترط للمكان أن يكون مستويا لا تحجب فيه الرّؤية عن أحد، ظنّا منه أن يفتضح موسى أمام النّاس.

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾: كان على موسـى أن يحدّد الزّمان المناسب، حين يجتمع النّاس كلهم فيخرجون في زينتهم مقـبلين في أفراح، وقد جرت عادة المصريين أن يتخذوا من فيضان النّيل عيدا يختلفون فيه بمـا يتوقّعون من خيرات ذلك الفيضان، ثم قيّد موسى ذلك الموعـد الـزّمني بوقـت الضّحى لتتم المبارزة في وضح النّهار حتى يشهدها جميع النّاس؛ لأنه واثق من الفوز على خصمه، وبذلك ينتصر الحقّ وتعلو كلمة الله ويظهر زيف الباطل المتمثـل في أوهام السّحر ورجس الكفر.

وصدق مولانا حين قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِـي الْأَذَلِّينَ، كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (المجادلة: ٢٠-٢١).

والله أعلم

مبادرة فرعون بالاستعداد للموعد المضروب، وتحذير موسى إياهم

أ)- النصّ:

فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾: التولّي بمعنى الانصراف، أي انصرف عن مجلس المحاورة. والكيد: هو التّدبير الخفيّ للخصم، وهو هنا إعداد الحيل مع السّحرة. ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾: وَيْلَكُمْ: يحتمل أنّه دعاء بالهلاك وجّهه موسى إلى السّحرة، ويجوز أن يقصد به التّعجّب من حال الخصم. والافتراء: اختلاق الكذب، أي أساليب الشّعوذة. ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾: أي يهلككم بعذاب شديد على وجه الاستئصال. ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾: أي أخذوا يتبادلون الآراء، وهم متردّدون بين الخوف والعناد. ولذلك كانوا يتحدثون سرًا. ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾: يقول الدّكتور الزّحيلي في إعراب هذه الجملة التي أطال اللّغويون في تخريج إعرابها يقول: "إنْ" إمّا مخففة من الثّقيلة لم تعمل، وإمّا هي بمعنى "ما"، و"اللاّم" بمعنى "إلا"، أي: ما هذان إلا ساحران. وهذان الوجهان على مذهب الكوفيين. ومن قرأ بالتّشديد: "إنّ" أتى به على لغة بني الحارث بن كعب، فإنهم يقولون: مررت برجلان، وقبض منه درهمان، وهي لغة من "يأتي" في المثنى بالألف في أحواله الثّلاث. وقيل: "إنّ" بمعنى "نعم"، أي نعم

هذان لساحران. لكن فيه ضعف لدخول اللام في الخبر وهو قليل. وقرئ: "إن هذين لساحران"[١]. ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾: الطّريقة: السّنة والعادة التي يعيش عليها القوم، شبهت بالطّريق الذي يسير فيه السّائر. والْمُثْلَى: مؤنث الأمثل، أي الأفضل. ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾: أي فاز اليوم من غلب خصمه، والفلاح مأخوذ من فلح الأرض.

ج)- أوجه القراءة:

﴿فَيُسْحِتَكُم﴾: قرأ الجمهور بفتح الياء مضارع سحته إذا استأصله، وهي لغة أهل الحجاز. وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف ورويس عن يعقوب بضم الياء التحتية من: أسحته، وهي لغة نجد وبني تميم. ﴿إِنْ هَـٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾: يقول الإمام ابن عاشور: "واعلم أنّ جميع القراء المعتبرين قرأوا بإثبات الألف في اسم الإشارة من قوله: "هذان" ما عدا أبا عمرو من العشرة وما عدا الحسن البصري من الأربعة عشر. وذلك يوجب اليقين بأنّ إثبات الألف في لفظ "هاذان" أكثر تواترا بقطع النّظر عن كيفية النّطق بكلمة "إن" مشدّدة أو مخففة، وأن أكثر مشهور القراءات المتواترة قرأوا بتشديد النّون في "إن" ما عدا ابن كثير وحفصا عن عاصم فهما قرءا بسكون النّون على أنها مخففة من الثّقيلة".[٢]

ثم أخذ الإمام يبيّن كيفية الإعراب لتلك الأوجه المختلفة. ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾: قرأ الجمهور: ﴿فَأَجْمِعُوا﴾ بهمزة قطع وكسر الميم، من: أجمع أمره، إذا جعله متفقا عليه. وقرأ أبو عمرو: ﴿فَاجْمَعُوا﴾ بهمزة وصل وفتح الميم أمرا من: جمع.

---

[١] وهبة الزحيلي، التّفسير المنير: ١٦/٢٣٣-٢٣٤.

[٢] محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير: ١٦/٢٥١ إلى ٢٥٤.

د)- البيان والتّفسير:

بعد أن تحدّد الموعد للمباراة زمانا ومكانا لم يبق للطرفين إلاّ الإعداد والتّحضير للملاقاة والإنجاز، وشتّان بين إعداد الخالق المدبّر الحكيم، وإعداد المخلوق الظّالم الأثيم قال المولى تبارك وتعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾.

فما أبلغ هذا الإيجاز هنا مما قد فصّله الله في آيات أخرى من جمع السّحرة وتحريضهم وإغرائهم بمكافآت عظيمة إن هم حققوا النّصر على موسى، كلّ ذلك قد اختصره الله في قوله: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾، فكلمة الكيد تعني ذلك التّدبير الخفيّ لمواجهة الخصم بما يشوّش عليه ويفسد خطته، فنحن اليوم أعرف بما يدبّره المدرّبون للمباريات المختلفة من وسائل معنوية ومادية قبل الدّخول إلى المباراة، وفرعون لم يضيّع شيئا من الوقت بعد إنهاء حواره مع موسى للتهيئة والإعداد. فجاء الرّبط بالفاء: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾، وقد أخذ ما يحتاجه من الوقت مع أعوانه حتى يتمّ عدّته.

ثم أتى الموعد المحدّد. وكان موسى وهارون حائرين، ومعهما ربّ العزة وقدسية رسالته، فماذا حصل بعد ذلك؟، يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾.

حاول موسى تخويف السّحرة بموعظة تربك معناوياتهم، فبدأهم بالخطاب الدّيني المتضمّن لرسالته فحذّرهم من تعمّد الكذب على الله بالتّمويه على النّاس بتلك الحيل السّحرية وادّعاء الألوهية لفرعون؛ لأنّهم يستنصرون به بمثل قولهم أمام الحشود الحاضرة: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ (الشعراء:٤٤). فكلّ ما يفعله

السّحرة إنما هو شعوذة وحيل وتمويه لا يمتّ إلى الحقيقة بصلة، وبالتّالي فهو افتـراء على الله يعقبه عذاب عظيم وخسران مبين.

ويبدو أن هذا التّحذير من موسى قد أثّر في بعض السّحرة، ولذلك تنازعوا أمرهم بينهم بالجدال وتصادم الآراء، ولكنهم توخّوا السّر في الحديث بينهم حتى لا يفتضح أمرهم لفرعون، ومع ذلك التّنازع في الرّأي قرّروا المواجهة مـع موسـى وأخيه: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى، قَالُوا إِنْ هَـذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾.

ومن حديث النّجوى بينهم نجد هذا القول الذي يدلّ على تأثرهم باستعداء فرعون لهم أن يدافعوا عن أرضهم ومعتقداتهم، وقد اتّفقت كلمتهم على الإعـلان بذلك، أي اعتبار موسى وأخيه مجرّد ساحرين يطلبان الملك والسّلطة، فقالوا جميعا: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِـكُم بِـسِحْرِهِمَا وَيَـذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾، فوثيقة الاتهام تشتمل على أمور ثلاثة:

أ)- ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾: في الجملة ثلاثة مؤكـدات: "إنّ" و"الـلاّم" والجملة الإسمية، فوصفهم لموسى وهارون بالسّحر هو لنفي نبوءتهما، واعتبار مـا أتيا به من المعجزة الخارقة للعادة هو من قبيل السّحر الذي ألفـوه، ثم إنّ الأتبـاع المخذولين يرددّون دائما أقوال أمرائهم وملوكهم، فقد قال فرعـون مـن قبـل: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾ (طـه:٥٧).

ب)- ﴿يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾: فجعل الـسّحر وسيلتهما لإخراج القوم من أرضهم فيه نوع من التّحريض والاستنفار لبعـضهم بعض حتى لا يتفرق النّاس عنهم انبهارا من سحر موسى وهارون في اعتقادهم.

ج)- ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾: و"الطّريقة" بمعنى ما ألفوه من العادات والتّقاليد سواء في السّلوك الاجتماعي أو المعتقد الدّيني في تأليه فرعون. أليس هـو

القائل لملائه في شأن موسى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ وَأَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ (غافر:٢٦).

لقد أصبح السّحرة في موقف حرج يستدعي تظافر الجهود وتوحيد الصفّ، سيما وقد ذاع في النّاس أمر موسى وما أيّده الله به من المعجزات، فلا بدّ من تهوين شأنه ومواجهته بمثل سلاحه فقال بعضهم لبعض: ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۖ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾.

كان عمل السّحرة كيدا، نظرا لما ينطوي عليه من المكر والخداع، وتواطأوا على ضمّ جهودهم في حبك الحيل السّحرية لإرهاب النّاس من حولهم، ولإظهار موسى وأخيه أمام فرعون بمظهر الضّعيف المغلوب، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ (١١٦).

ويزيد الموقف رهبة أن يظهروا في إلقاء سحرهم مجتمعين مصطفين؛ لأنّ ذلك أشدّ رهبة في أعين المشاهدين. ثم ختموا كلامهم بهذا المثل: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾، أي فاز من يظهر بمظهر العلوّ والفخامة في تلك المواقف.

وما يزال الكبراء والزّعماء في كل المجتمعات البشرية يعدّون لتلك التّظاهرات الشّعبية كل وسائل الفخفخة والعظمة ليستهووا الجمهور بمظاهر القوة والكبرياء وليضمنوا بذلك طاعتهم وولاءهم. وكذلك خرج فرعون في زينته لذلك اليوم، فماذا كان من موسى وأخيه، وهما الفريق المقابل وليس لموسى إلا عصاه، واليقين الثّبت في تأييد مولاه؟.

فما أشبه هذا الموقف التّاريخي بموقف الرّسول وصاحبه في الغار وهو يقول له مطمئنا: «**ما ظنك باثنين الله ثالثهما**». وهكذا التّاريخ يعيد نفسه كما يقولون، والله أعلم.

إجراء المباراة السّحرية،

وإعلان السّحرة إيمانهم بالله تعالى

أ)- النصّ:

قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ
وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾
قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا
كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ
هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ
فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ
عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي
فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا
لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ
مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ
لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ
جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾:

الإلقاء: المراد به أن يرمي كل واحد منهم ما أعَدّه من السّحر. "فَإِذَا" تفيد المفاجأة. ﴿مِن سِحْرِهِم﴾: "مِن" سببية. و"أَنَّهَا تَسْعَى": الجملة في موضع رفع، أي يخيّل إليه سعيها. ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى﴾: أوجس: من الإيجاس، تحرّك شيء مخيف في القلب. وفاعله مؤخّر "موسى". وخيفة: منصوب على المفعولية، وخوفه لا من أثر السّحر؛ لأنّ الرّسول لا يتأثر بالأوهام، ولكن خاف أن يلتبس أمره على النّاس؛ لأنّ سحرهم من جنس معجزته. ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُواْ﴾: مَا في يَمِينك: أي العصا. تلقّف: أي تبتلع بقوة وسرعة. ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَاحِرٍ﴾: "إِنَّمَا" مركبة من "إِنَّ" و"مَا" الموصولة، فهو خبر لا قصر فيه. والكيد: التّدبير الخفيّ للتغلب على الخصم. والسّاحر: يراد به الجنس. ﴿وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾: أي ينفي عنه الفلاح حيث كان لأنّ حيله تنكشف بالتّأمّل الثّابت. ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدا﴾: خرّوا للأرض ساجدين لله، أسند الفعل للمجهول؛ لأنه لا دافع لهم إلى ذلك إلاّ أنفسهم تعظيما لقدرة الله. ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءاذَنَ لَكُمْ﴾: ءَامَنتُمْ: هو خبر أو استفهام على اختلاف القراءتين، وهو يتعدّى بنفسه كقوله تعالى: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ (قريش:٤). ويقال: آمن له وآمن به، أي صدّقه في ما جاء به. وقوله: ﴿قَبْلَ أَنْ ءاذَنَ لَكُمْ﴾: وقد يكون الإذن في أمر لا يحبّه بخلاف لو قال: قبل أن آمركم، فيجب التّنفيذ. ﴿أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ﴾: من خلاف في موقع النّصب على الحال، أي بالمخالفة بين المقطوع، اليد اليمنى والرّجل اليسرى. ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾: التّصليب: والصّلب هو ربط الجسم على عود منتصب أو دقه عليه بالمسامير. وعدل عن حرف الاستعلاء "على" إلى حرف الظّرفية "في" للدّلالة على تمكّن المصلوب من الجذع تمكّن المظروف بالظّرف. ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَآءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾: نُؤثِرَكَ: نختارك ونفضلك، والبيّنات: هو ما جاء به موسى من المعجزات الدّالة على صدقه. وَالذي فَطَرَنَا: أي الله الخالق، ويجوز أن تكون الجملة ﴿وَالَّذِي

فَطَرَنَا﴾ قسما على ما يقولون. ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾: "هـذه الحيـاة" منصوبة على الظّرف، والمعنى: أن قضاءك مقصور على هذه الحياة، وأنت إنـسان فانٍ. ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾: أي سيغفر لنا ما أكرهتنا عليه من السّحر.

ج)- أوجه القراءة:

﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾: قرأ الجمهور: ﴿يُخَيَّلُ﴾ بتحتية في أول الفعل على أن فاعله المصدر من قوله: ﴿أَنَّهَا تَسْعَى﴾، وقرأ ابن ذكوان عن ابـن عـامر وروْح عـن يعقوب: ﴿تُخَيَّلُ﴾ بفوقية في أوله على أن الفعـل رافـع لـضمير: "حبـالهم" و"عصيّهم"، أي هي تخيّل إليه. ويكون: ﴿أَنَّهَا تَسْعَى﴾ بدلا من الضّمير المـستتر بدل اشتمال. ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾: قرأه الجمهور بجزم: ﴿تَلْقَـفْ﴾ في جـواب قوله: ﴿وَأَلْقِ﴾، وقرأه ابن ذكوان برفع: ﴿تَلْقَفُ﴾ علـى الاسـتئناف. وقـرأ الجمهور: ﴿تَلَقَّفْ﴾ بفتح اللاّم وتشديد القاف. وقرأه حفص بسكون اللاّم وفتح القاف من لقف. ﴿كَيْدُ سَاحِرٍ﴾: قرأ الجمهور بألف بعد السّين، وقـرأه حمـزة والكسائي وخلف: ﴿كَيْدُ سِحْرٍ﴾ بكسر السّين. ﴿ءَامَنتُمْ لَهُ﴾: قرأ قالون وورش من طريق الأزرق وابن عامر وأبي عمـرو وأبي جعفـر وروح عـن يعقـوب: ﴿ءَامَنتُمْ﴾ بهمزة واحدة بعدها مَدة، وهي المدّة النّاشئة عن تسهيل الهمزة الأصـلية في فعل "آمن" على أن الكلام استفهام. وقرأه ورش من طريق الأصـفهاني وابـن كثير وحفص عن عاصم ورويس عن يعقوب بهمزة واحدة على أن الكلام خـبر، أي خبر مستعمل في التّوبيخ. وقرأه حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وخلـف بهمزتين على الاستفهام أيضا.

د)- البيان والتّفسير:

بعد فترة الإعداد والتّحضير للمباراة السّحرية، وقد تحدّد الموعد زمانا ومكانا

تقابل الفريقان، فخيّر السّحرة موسى بين بدئه بالإلقاء أو بدئهم هم به، فقدّمهم عليه، وكان ذلك من فضل الله على موسى حتى تتحقّق المعجزة الباهرة بتحوّل العصا إلى ثعبان مبين يلتهم كل ما أحضره السّحرة. وقد قابل موسى أدب السّحرة بمثله، حتى يشموا فيه مخايل النّبوءة، إذ كان البعض منهم تساوره تلك الخواطر بدليل اندفاعهم التّلقائي إلى السّجود لله إثر مشاهدتهم لمعجزة موسى، وهم من قبل لم يشهدوها مع فرعون. ثم إنهم صمدوا على الإيمان هازئين من تهديده.

قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَا مُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ، قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ، فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ، قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ، وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾:

نفس القصة بمشاهدها المثيرة وردت في سورتي الأعراف والشّعراء مع شيء من التّغيير في بعض العبارات. وفي كل مباراة لابدّ أن يبدأ أحد الفريقين، ونلمح لطف الله بعبده موسى إذ ألهم السّحرة لتخييره في مبادأته بإلقاء ما حضّره كل فريق، فنجد موسى في موقف الواثق من نفسه المطمئن لوعد الله، فيعطي إليهم الأولية في الإلقاء، فتراءت حبالهم وعصيّهم لأعين النّاس تتحرك وتركب بعضها بعضا، وليست حركتها حقيقية، بل هي وهْم وخيال بما لطخوها من موادّ تتمدد في حرارة الشّمس كالزئبق ونحوه، وكان منظرها مرعبا في نفوس المشاهدين، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ (١١٦). والنّصوص في السّور الثّلاثة متكاملة الدّلالة فيما بينها.

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ، قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾:

والإيجاس هو تحرّك الخوف في نفسه دون أن يظهر ذلك على ملامحه. وكان مبعث

خوفه أن ينبهر النّاس بما شهدوه من السّحرة، فيتفرقون عنه قبل أن يقوم هو بشيء، إذ كان ينتظر أمر الله له بإلقاء عصاه، فجاء التّثبيت بالتأكيد على أنّه هو المتفوّق المنتصر: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى﴾.

ولا يعاب على موسى مثل هذا الخوف؛ لأنه في موقف جليل يثير الانفعالات البشرية، غير أنّ صلته بربّه كانت وثيقة، فهو إذ يقوم بمهمته يرهف سمعه إلى التّوجيهات الرّبانية تتابعه خطوة فخطوة، فيتلقى الأمر بإلقاء العصا، بنفس الأسلوب الذي تلقاه عند المناجاة بالوادي المقدس: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ وهنا قال له المولى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾.

إذن، أصبحت للعصا مهمّة لم يكن قد عاينها موسى في الإلقاء التّربّصي الأول، إذ لم يكن هناك ما يبتلعه الثّعبان. وجيء بفعل: ﴿تَلْقَفْ﴾ للدّلالة على القوة والسّرعة في الابتلاع، وأنها التهمت في لحظات كلّ ما أحضره السّحرة من العصيّ والحبال وما أدخلوا عليها من حيل السّحر، فما قيمة الصّنعة البشرية أمام قدرة الله؟.

ثم يقول المولى: ﴿وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾، إنّه حكم عامّ بنفي الفلاح عن السّاحر مهما أوتي من قدرة في إتقان هذا الفنّ، وفي أيّ مكان يمارسه فيه، ونفي الفلاح عنه يتعلق بممارسة السّحر لا بغيره من الأعمال، وصدق مولانا العظيم، إذ لا نجد ساحرا واحدا قد أفلح في عمله أو اطمأن في حياته، وقد قال تعالى في سورة البقرة في شأن الملكين هاروت وماروت قال: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ﴾ (البقرة:١٠٢).

وهكذا قامت معجزة الله لموسى، وانتصر الحق وبطل السّحر والسّاحر كما قال الشّاعر:

إذا جاء موسى وألقى العصا فقد بطل السّحر والسّاحر

فقد أدرك السّحرة أن ما جاء به موسى فوق طاقة البشر، وأنه من قدرة الخالق جلّ وعلا.

قال تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوۤاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ، قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ الذي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى﴾.

سجود السحرة كان بالدّافع الذّاتي دونما إكراه ولا إجبار، ويدلّ على ذلك بناء الفعل للمجهول: ﴿أُلْقِيَ﴾، وهو اعتراف عمليّ بأنّ موسى مؤيّد من الله تعالى، وإقرار بغلبته وتفوّقه، فسارعوا إلى الإعلان بإيمانهم. وتصريحهم بربّ هارون وموسى أو بربّ العالمين كما ورد في الآيات الأخرى هو لإبطال ما يدّعيه فرعون من الرّبوبية والألوهية، وهكذا الفطرة السّليمة تستجيب لنداء الحقّ إذا ما تيقظت، فتتحقّق معجزة الإيمان، وحينئذ لا ترهبها قوة، ولا ينال من صمودها بطش، فقد تغيظ فرعون لموقف السّحرة، وخاف تمرّد رعيته عنه، وهم يرون فيهم الصّفوة المختارة لفرعون، وقد أتى بهم لينصروه ويثبتوا عرشه وألوهيته، فإذا بهم على العكس يخذلونه ويعلنون إيمانهم بكلّ قوّة أمام المشاهدين. فلا بدّ من الانتقام. وحتى يظهر بمظهر القويّ المتماسك اختلق للمؤمنين شبهة الجرأة عليه بإعلانهم الإيمان قبل أن يأذن لهم، وأنهم بذلك قد تواطأوا مع موسى على اعتبار أنه معلمهم الأكبر في فنّ السّحر ليقوّضوا عرش فرعون. وفي اختيار فعل: ﴿ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ ذكاء وبراعة من فرعون حتّى يوهم النّاس أنه ربما أذن لهم لو استأذنوه.

ثم لجأ إلى التّهديد والوعيد بالقسم والتوكيد: ﴿فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى﴾:

وتقطيع الأطراف من خلاف هو من أفظع التّعذيب، قيل: إنّ فرعون هو الذي ابتدعه. ومعنى: ﴿مِنْ خِلَافٍ﴾ أي قطع اليد اليمنى مع الرّجل اليسرى والعكس. وزيادة في الإيلام والتّشهير يصلّب أجسادهم في جذوع النّخل، واختير "في" عوضا عن "على" للدّلالة على التّمكن حتى لكأن المظروف داخل في الظّرف.

وقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى﴾، فهناك مشتركان في شدّة العذاب والبقاء، أحدهما أزيد من الآخر فيهما، والمراد هو فرعون وربّ موسى. و لم ينل ذلك التّهديد الفرعوني من عزيمة السّحرة المؤمنين، بل هانت عليهم نفوسهم في الله واستهانوا بذلك الوعيد قائلين لفرعون: **﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَـٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَآ، إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾**.

يقول ابن عباس ﷺ: "عجيب أمر هؤلاء كانوا أول النّهار سحرة، وفي آخر النّهار شهداء بررة". نعم، إنّه الإيمان متى أشرقت أنواره في القلوب، فإنّ هداية الله تنير لها الطريق، وتذلّل كلّ صعب كما قال ربنا تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (التغابن:١١).

كانت إجابة السّحرة لفرعون مقابلة لمفاضلته بين عذابه وعذاب الله، فقالوا: لن نفضّلك ولن نختارك على ما جاءنا به موسى من الدلائل الواضحة والبراهين القاطعة على قدرة الله، وهو خالقنا الحق الذي يستحق الإيثار لا أنت. وهم إذ قالوا ذلك دونما خوف من بطش فرعون هم على وعي كامل بما تهدّدهم به، فأعلنوها في إصرار وتحدّ: ﴿فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾، أي سواء تقطيع الأيدي والأرجل أو أمور أخرى أشدّ وأفظع؛ لأنك إنسان محدود الأجل في هذه الدّنيا الفانية، ونحن قد آثرنا حياة البقاء، ولا سبيل لك علينا فيها.

ثم علّلوا ذلك بقولهم: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾، أكّدوا إيمانهم الحقّ بـ"لن"، وبالجملة الإسمية، هم يتشرّفون ويعتزّون بإضافة كلمة "الرّب" إليهم، وأنّه مناط المغفرة والعفو لـ خطاياهم الكثيرة.

والاعتراف بالخطيئة من الذّنب هو أوّل خطوة على طريق الهدى والرّشاد، وخصّصوا مزاولة السّحر في اعترافهم، غير أنّهم ذكروا بأنّ فرعون هو الذي يكرههم عليه، وأنّه وإن اغترّ هو بقوّته وجبروته فإنّهم يجدون الخيرية في كنف الله والبقاء الحقيقي لسلطانه وملكه.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ، وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ، جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ﴾.

يُحتمل في هذه الجمل أن تكون من كلام السّحرة المؤمنين، يبيّنون فيها رجاءهم في رحمة الله ونعيمه، بعد بيان عاقبة المجرمين، ويحتمل أن تكون موعظة عامّة اقتضاها سياق القصّة.

والمجرم هو فاعل الجريمة، وهي الكفر واقتراف الكبائر من غير توبة، جعله الله هنا مقابل الإيمان والعمل الصالح، ووصف حالة المجرمين في عذاب جهنم بأنّهم لا يموتون فيستريحون من الألم والشقاء، ولا هم يحيون حياة كريمة يجدون فيها المتعة والهناء، وهذا الوصف هو نظير قوله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ (فاطر: ٣٦).

وفي الصّنف المقابل من الأبرار جيء باسم الإشارة "فأولئك" للدلالة على استحقاقهم لذلك الجزاء المذكور بعده، وهو ارتقاؤهم للدرجات العلى في جنّات عدن -أي دار الإقامة-، والتي من تمام نعيمها جريان الأنهار من تحتها.

وفي إضافة هذا الوصف للجنة تبكيت لفرعون وأشياعه إذ كان يقول لهم مغترًا: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ، وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِيَ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ (الزخرف:٥١)، فإذا هو يغترّ بما لا يدوم ولا يبقى، فإن أولئك الأبرار من السّحرة المؤمنين هم آئلون إلى جنّات نعيمها غير مقطوع ولا ممنوع، وهو جزاء كلّ من تزكّى وتطهّر من عباد الله الصالحين، والله أعلم

خروج بني إسرائيل من مصر، وإغراق فرعون وجنوده

أ)- النصّ:

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾: أسر: من السّرى، بضم السّين وفتح الرّاء، والإسراء: السّير باللّيل، واللّيل أخفى للويل كما يقول المثل. وعبادي: الإضافة تشريفية والمقصود من آمن بالله من بني إسرائيل. ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لاَّ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تَخْشَى﴾: والضّرب هنا بمعنى الجعل، كما يقال: ضرب العملة

أي سكّها. ويَبَساً: وصف بمعنى اليابس، وأصله مصدر. ونصبه على الصّفة: ﴿لاَ تَخَافُ دَرَكاً﴾: بفتحتين، اسم مصدر الإدراك، أي لا يلحقه فرعون. والجملة: ﴿لاَّ تَخَافُ دَرَكاً﴾ في موضع نصب على الحال، أي غيرَ خائف. ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾: غَشِيَهُمْ: أي غطاهم ماء البحر وغمرهم. و"مَا" في موضع رفع فاعل، والإبهام فيها للتّهويل. ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ﴾: ﴿جَانِبَ الطُّورِ﴾ مفعول ثان لـ"واعدناكم". وجَانِبَ الطُّورِ: سفحه وهو المكان الذي تلقى فيه موسى الوحي. والمواعدة تكون بين اثنين، وإنما كانت المواعدة من الله لموسى ومن معه. ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾: الْمَنَّ: سائل أبيض يشبه العسل يتساقط على ورق الأشجار. وَالسَّلْوَى: طائر يشبه طائر السمّان. ﴿وَلاَ تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾: الطّغيان: يكون بعدم شكر المنعم، وبالتّعدّي لحدود الله في الرّزق. الحلول: النّزول والإقامة بالمكان، وحلول غضب الله بهم إصابتهم بأثر ذلك عذابا من الله ونكالا. ﴿فَقَدْ هَوَى﴾: أي سقط في النّار وهلك. ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾: صيغة مبالغة لكثرة المغفرة ومحو الذّنوب.

ج)- أوجه القراءة:

﴿لاَ تَخَافُ دَرَكاً﴾: قرأ الجمهور: ﴿لاَ تَخَافُ﴾ بالرّفع. وقرأ حمزة وحده: ﴿لاَ تَخَفْ﴾ بالجزم على جواب الأمر الذي في قوله: ﴿فَاضْرِبْ﴾. ﴿قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ﴾: قرأ الجمهور: ﴿قَدْ أَنجَيْنَاكُم﴾، و﴿وَاعَدْنَاكُمْ﴾ بنون العظمة، وقرأهما حمزة والكسائي وخلف: ﴿قَدْ أَنجَيْتُكُم﴾، و﴿وَاعَدْتُكُمْ﴾ بتاء المتكلم. ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمْ﴾: قرأ الجميع: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمْ﴾ فباعتبار قراءة حمزة والكسائي وخلف: ﴿قَدْ أَنجَيْتُكُم﴾، و﴿وَاعَدْتُكُمْ﴾ بتاء المفرد تكون قراءة: ﴿أَنزَلْنَا﴾ بنون العظمة قريبا من الالتفات وليس عينه؛ لأن نون العظمة تساوي تاء المتكلم. ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾: قرأه الجمهور بنون العظمة، وقرأه

حمزة والكسائي وخلف: ﴿مَا رَزَقْنَكُمْ﴾ بتاء المفرد. ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ﴾: قرأ الجمهور: ﴿فَيَحِلَّ﴾ بكسر الحاء، وقرأوا: ﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي﴾ بكسر اللاّم الأولى على أنهما فعلا "حَلَّ"، يقال: حلّ الدّين إذا آن أجل أدائه. وقرأه الكسائي بالضمّ في الفعلين، من حلّ بالمكان يحُلّ: إذا نزل به.

د)- البيان والتّفسير:

لقد كانت بين أحداث انتصار موسى في المباراة السّحرية، وخروجه ببني إسرائيل من مصر إلى أرض المعاد، كانت أحداث أخرى حدثت على يد موسى تمتد إلى عشرين عاما، ولكن طواها النصّ هنا، وذكر بعضها في سورة الأعراف. ولذلك لم تعطف قصة الخروج هنا بواو العطف وحدها، بل جيء في افتتاح القصّة باللاّم المشعرة بالقسم وحرف التّحقيق "قَد" لزيادة الاهتمام بمضمونها. وكان فرعون كلّما وقع في رجز التجأ إلى موسى ليدعو ربّه بكشف ذلك الرّجز ويعده بالإذن لبني إسرائيل بالخروج معه.

وعندما أذن لهم أصابه النّدم فأتبعهم بجنوده، فكان ما كان من فلق البحر بقدرة الله وإنقاذ بني إسرائيل، ثم إغراق فرعون وجنوده في اليمّ، يقول تبارك وتعالى: **﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾**.

لقد قوي موقف بني إسرائيل بعد انتصار موسى، وآمنوا له، فزادهم فرعون عذابا ونكالا وقهرا حتى قالوا لموسى عليه السلام: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف:١٢٩). وكان من لطف الله بهم أن أوحى إلى عبده موسى أن يسري بقومه، وقد شرفهم الله بصفة العبودية مضافة إليه، بعد أن كانوا عبدا -أي دار الإقامة-، والتي من تمام نعيمها جريان الأنهار من تحتها.

عبيدا لفرعون. والتّستر بالليل هو من الوسائل المسخرة لحيلة الإنسان كما يقال في المثل: اللّيل أخفى للويل. وإلا فهناك لطف الله قد رافق خروج موسى بقومه فلم ينكل بهم فرعون، بل ساقه الله إلى حتفه، إذ تنبّه إلى الخطر الذي يمكن أن ينجرّ من خروج بني إسرائيل، فجمع جموعه ليلحق بهم.

ونجد هنا الإيجاز بطيّ ذلك الحوار الذي جرى بين موسى وقومه عندما أصبحوا بين فكيّ الأسد، البحر أمامهم وفرعون من ورائهم فقالوا لموسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ، قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (الشعراء:٦١-٦٢). ومعية الله تمثلت في أمره لموسى بضرب البحر لينشق عن طريق يبس مهيأ للمشي على الأقدام. وعلى أن ذلك لا يتصوّره خيال البشر طمأن الله موسى بقوله: ﴿لاَّ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تَخْشَى﴾. نفى الله عنه أن يدركه فرعون بجنوده، وأن يصيبه غرق في مياه البحر.

فهذه معجزة أخرى لعصا موسى عاينها قومه فلم يترددوا في سلوك ذلك الطّريق اليبس مع موسى حتى صعدوا من الجانب الآخر، بينما كان فرعون وجنوده يدخلون البحر على إثرهم، فلما توسّطوه أطبق عليهم الموج فكانوا من المهلكين. وهكذا كذب فرعون عندما قال لقومه: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلاَّ مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (غافر:٢٩)، إذ قادهم إلى الضّلال والهلاك.

ثم يقول المولى تبارك وتعالى ممتنا على بني إسرائيل: **﴿يَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ، كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلاَ تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ، وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾**.

لقد تمّ وعد الله لموسى وقومه بالإنجاء وإغراق عدوّهم وهم ينظرون. وتلك حادثة عظمى في تاريخ بني إسرائيل لم تقع لأمة قبلُ ولا بعدُ، فلو شكروا الله لها

لوحدها لمّا وفّوا حقها، كيف وقد منّ الله عليهم بنعم كثيرة؟.

ولا تزال أحداث القصة الموسوية تتوالى، ويأتي هذا المقطع معترضا خلال القصّ ليذكر بني إسرائيل أسلافا وأخلافا على اعتبار كونهم أمة واحدة. وقد ناداهم المولى بأحبّ نداء لديهم يذكّرهم بأصلهم الطّيب نبي الله يعقوب، تقديرا لمقامه عند الله، فلا يليق بذريته أن تحيد عن منهجه على طريق الله السّويّ.

بدأ الله التّذكير بالنّعمة العظمى على بني إسرائيل، وهي تخليصهم من جبروت فرعون، وذلّ الاستعباد والقهر، فلا أغلى من حرية الإنسان ولا أعزّ من كرامته.

ب)- ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ﴾: والمواعدة تكون بين جانبين، وهو الموعد الذي كان في الميقات لمناجاة الله لموسى بحضور المختارين من قومه حيث أنزل الله عليه شريعة التّوارة، وكان الموعد في جانب الطّور الأيمن -كما تقدم معنى الأيمن-.

ج)- ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾: وذلك من لطف الله إذ كان بنو إسرائيل قليلي الأزواد عند خروجهم. ونزول المنّ والسّلوى عليهم توفير لهم للعناصر الضّرورية للحياة من المواد السّكرية والبروتينات. وليتهم رضوا بتلك النّعمة، بل ضاقوا بها ذرعا، وقالوا لنبيّهم: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا، قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ (البقرة:٦١).

﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلاَ تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾:

الأمر بالأكل للإباحة، وهو من ضرورات الحياة، ويكون منه الطّيب

حكمة الله في تأجيل العذاب عن الكافرين، ثم أمر الله للرّسول بالصّبر، ومداومة التّسبيح والصّلاة

أ)- النصّ:

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾: يَهْد: من الهداية والبيان، عدّي باللام، وهو مستعار للهداية إلى الأمور العقلية. ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾: كَم: للدلالة على الكثرة. والقُرُون: أهل الأمم السّابقة. ﴿لأُولِي النُّهَى﴾: النُّهَى: جمع نُهْية، بضم النّون وسكون الهاء، اسم للعقل، من النّهي عن الشّيء. ويقال: اللّب أولوا الألباب. واللّبّ هو حقيقة الشّيء وأصله. ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾: في الآية تقديم وتأخير، والتّقدير هكذا: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما. بمعنى أنّ الذي أخّر عنهم العذاب بالاستئصال هو ما سبق في علم الله من تأجيل حلول العذاب بهم إلى أجل قد عيّنه، ولولا ذلك

غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۖ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ﴾: "مَا" استفهامية مبتدأ. ﴿أَعْجَلَكَ﴾: خبر، بمعنى: أي شيء أعجلك. الاستفهام للّوم والعتاب. والإعجال: الإسراع في عمل شيء ما. ﴿هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾: أي قادمون ورائي. أثري: بفتحتين، ما يتركه الماشي على الأرض، بمعنى: هم قريبون منه. أُولَاءِ: مجرّد عن حرف التنبيه. ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾: الفتنة: بمعنى الاختبار والابتلاء، وإسنادها إلى الله على اعتبار تقديرها وإيجاد أسبابها. ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾: غضبان: من الغضب، وهو انفعال للنّفس ينجرّ عن إدراك ما يسوءها. والأسف: شدة الحزن وانكسار الخاطر. ﴿مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾: بِمَلْكِنَا: مثلث الميم، أي بإرادتنا واختيارنا. والموعد: هو وعدهم لموسى بالثبات على الإيمان بالله. ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا﴾: الأوزار: الأثقال. وزِينَةِ الْقَوْمِ: هي حلي يستعيروها من الأقباط ليتزينوا بها في أعيادهم. فَقَذَفْنَاهَا: أي طرحناها في نار السّامريّ للصوغ. ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾: أخرج من الذّهب المنصهر، والجسد: بمعنى: تمثال على صورة عجل ليس له حركة وله صوت عجل بأفانين الصّنعة التي كان يتقنها السّامريّ. ﴿فَنَسِىَ﴾: الضّمير عائد إلى السامريّ، أي نسي ما كان تلقاه من الهدي، وهو كناية عن الغفلة. ﴿أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾:

"ألاّ" مركبة من "أن" المخففة من "أنّ" و"لا" النّافية، والضّمير يعود إلى العجل، أي لا يردّ لهم جوابا.

ج)- أوجه القراءة:

﴿عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾: قرأ الجمهور: ﴿أَثَرِي﴾ بفتحتين، وقرأه رويس عن يعقوب بكسر الهمزة وسكون الثّاء. ﴿بِمَلْكِنَا﴾: قرأه نافع وعاصم وأبو جعفر بفتح الميم، وقرأه ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب بكسر الميم، وقرأه حمزة والكسائي وخلف بضمّ الميم، وهي وجوه ثلاثة في هذه الكلمة. ﴿حُمِّلْنَا﴾: قرأه نافع وابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم ورويس عن يعقوب: ﴿حُمِّلْنَا﴾ بضمّ الحاء وتشديد الميم مكسورة، أي حمّلنا من حمّلنا، أو حمّلنا أنفسنا. وقرأ أبو بكر عن عاصم وحمزة وأبو عمرو والكسائي وروْح عن يعقوب: ﴿حَمَلْنَا﴾ بفتح الحاء وفتح الميم مخففة.

د)- من هو السّامري؟

لقد أطال الإمام ابن عاشور في التّعريف بالسّامريّ، ونحن نقتصر على احتمالين أو ثلاثة أوردها في التّعريف به إذ يقول: "يحتمل أن يكون السّامريّ نسبا إلى قرية اسمها السّامرة من قرى مصر، كما قال بعض أهل التّفسير. فيكون في قبطي اندسّ في بني إسرائيل لتعلقه بهم في مصر أو لصناعة يصنعها لهم. ويجوز أن تكون "الياء" من السّامري غير "ياء النّسب" بل حرفا من اسم مثل: علي وكرسي، فيكون اسما أصليا أو منقولا في العبرانية، وتكون اللاّم في أوله زائدة.

وذكر القرطبي والزّمخشري خليطا من القصة، أن السّامريّ اسمه موسى بن ظفر -بفتح الظّاء المعجمة وفتح الفاء-، وأنّه ابن خالة موسى عليه السلام أو ابن خاله،

وأنه كفر بدين موسى بعد أن كان مؤمنا به".[1]

هـ)- البيان والتفسير:

بعد قصة الخروج وتعداد نعم الله على بني إسرائيل، ومنها ما ذكره تعالى في قوله: ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ﴾ أردف الله هنا ما وقع من مناجاة موسى في الميقات، مع بيان فتنة السّامريّ لقوم موسى خلال ذلك وكيف انخدعوا له، وما كان من غضب موسى وحزنه على ما حدث، قال تعالى: ﴿**وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ، قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ، قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ**﴾.

قصة مواعدة الله لموسى لمناجاته في الطّور ذكر شطر منها في سورة الأعراف، وشطر منها في هذه الآية الكريمة، وقد تقدم في سورة الأعراف قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف:١٤٢).

يقول الشّيخ الإمام بيوض: "وباتفاق الرّواة أنها ثلاثون ليلة من ذي القعدة وعشرة من ذي الحجة. ولذلك ذكر ثلاثين ليلة ليبيّن أنها شهر كامل، وأن الحساب لم يبدأ وسط الشّهر. وليس معنى هذا أن الوعد عقد أول مرة ثلاثين ليلة، ثم زيد فيه عشرة، وإنما عقد من أول مرة أربعين ليلة بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ (البقرة:٥١)."[2]

قلت: وقد اختار موسى لميقات ربّه سبعين رجلا من سراة قومه، سار بهم

١- محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير: ١٦/٢٨٠.

٢- إبراهيم بيوض، في رحاب القرآن (تفسير سورة طه) ص٣٥٤.

إلى موعد لقاء ربّه ليعطيه الألواح التي تحمل الشّريعة الدّستورية لبني إسرائيل.

وتذكر هذه الآية من سورة طه أن موسى تعجّل وسبق قومه إلى الموعد، شوقا منه إلى المناجاة، فكان من الله تعالى هذا الاستفهام الدّال على اللّوم والعتاب؛ لأنّ موسى وصل قبل الإبّان الذي عيّنه الله له حرصا منه على تلقّي الشّريعة، واجتهادا في حبّ الخير لنفسه ولقومه؛ لأن رئيس القوم يجب أن يعطي المثل بنفسه فيكون سبّاقا إلى ما يأمرهم به.

ولكن موسى من جهة أخرى غفل عما ينجرّ عن غيابه، وقومه ما يزالون حديثي عهد بالوثنية، فأراد المولى تبارك وتعالى أن يعلمه آداب الرّفقة والصّحبة، فإنّ وجود رئيس القوم بينهم يشدّ اللّحمة بينهم ويسدّ ثغرة الفتنة.

وكان موسى متأدبّا مع الله إذ جاء جوابه مشبعا بالإجلال والتّقدير لمولاه عندما قال: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾، فقومه على مقربة منه: ﴿قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي﴾: أي سيتبعونني، وما مسارعتي إليك إلاّ التماس لرضاك وامتثال لأمرك وشوق إلى مناجاتك.

والتّفريع بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ فيه إشعار لموسى بمسؤوليته في ما وقع فيه قومه. وإسناد الفتنة إلى الله مجازيّ على اعتبار قدر الله وعلمه، والله يفتن عباده لا ليعلم أحوالهم، ولكن لتتكشف حقائقهم للناس فيعرفون كيف يتعاملون معهم.

ثم يقول الله: ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ أي بصناعته للعجل وإغراء بني إسرائيل بعبادته، نسب الإضلال إليه لأنه جرى على يده. ولا شك أنه يحمل وزر نفسه ووزر من أضلهم.

أخبر الله موسى بضلال قومه من بعده حتى لا يفاجأ بما حدث عندما يرجع

إليهم، ومع ذلك فإن الأمر كان شديد الوطأة عليه غضبا وحزنا، قال تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَوْعِدِي﴾.

والغضب والأسف كلاهما انفعال نفسي ينجرّ عن إدراك ما يسوء أو ما يحزن، فتتفاوت درجته في النّفس حتى يؤول الغضب إلى الحزن الشّديد فيكون صاحبه أسفا. وحقّ لموسى أن ينفعل بما صدر من قومه، سيما وقد وقع ذلك منهم وهو في مناجاة الله التي يرجو من ورائها الخير الكثير لنفسه ولقومه. فماذا يملك موسى أزاء هذا الموقف لقومه غير اللّوم والعتاب. إذ توالت منه تلك الاستفهامات المتتابعة، وهو في حالة غضبه، فنادى عموم قومه: ﴿يَا قَوْمِ﴾، وفيهم أخوه هارون وفيهم السّامريّ: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً﴾، الاستفهام إنكاري، والوعد الحسن هو إنزال التّوراة فيها هدى ونور تحكم حياتهم وتحقق لهم عزّ الدّنيا والآخرة.

﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾: ويراد بالعهد هنا المدة الزّمنية التي فارق فيها موسى قومه، إنّها فترة وجيزة ليس من شأنها أن تفسد عقيدتكم وتحرّف مساركم.

﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَوْعِدِي﴾: "أم" للإضراب الإبطالي، بمعنى: بل أردتم. والفعل الإرادي يكون باختيار صاحبه دونما إكراه، فهم بموقفهم ذلك أرادوا التّمرّد والعصيان بدافع من شهواتهم ومألوفهم التّقليدي، وحلول غضب الله يكون سببا في هلاكهم. وقد حذّرهم الله من ذلك في ما سبق إذ قال: ﴿وَلاَ تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ (طـه:٨١).

﴿فَأَخْلَفْتُم مَوْعِدِي﴾: وقد أخذ موسى عليهم الوعد قبل أن يفارقهم أن

يلتحقوا به إلى الوادي المقدّس بقيادة أخيه هارون، ووصّاهم بطاعته واتّباعه، ولكنهم تمرّدوا عنه وعصوه.

﴿قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ، فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَذَآ إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾.

أجاب القوم موسى بشيء من المماحكة بنفي أن يكونوا قد خالفوا الموعد بإرادتهم واختيارهم، بل لعوائق أخرى اضطرتهم إلى ذلك، فهم لا يقصدون الضّلال في اتّباعهم للسّامري، وقالوا لموسى: أنت تعلم أننا قد أخذنا من المصريين أثقالا من حليّ الذّهب على سبيل الاستعارة، ولكننا لم نردّها إليهم عندما خرجنا الخروج النّهائي من مصر، فهي كالأوزار على ظهورنا؛ لأنها مال حرام، فسوّل لنا السّامريّ أن نصهرها قطعة واحدة لنتخلص منها، غير أنّ هذا صنع منها عجلا على شكل تمثال له خوار. وكان السّامري يتقن صنعة التّماثيل، فاتّخذ له فتحات من الهواء على شكل المزمار، إذا مرّ بها يسمع له خوار.

ويرى كثير من المفسّرين أن السّامريّ أملى لهم بأنّ موسى احتبس عليهم من أجل ما عندهم من الحليّ الحرام، ولذلك جمعوا ما عندهم فرموا به في النّار، وصاغ السّامريّ به ذلك العجل وألقى عليه قبضة من أثر فرس جبريل كما سيأتي.

ويلاحظ الالتفات من ضمير المتكلمين الذين يعتذرون لموسى إلى ضمير الغيبة في قولهم: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً﴾، ولم يقولوا: أخرج لنا، مما يدلّ أن القوم لم يكونوا على موقف واحد من عبادة العجل. وهكذا أسلوب الإضلال عند السّامريّ، وقد استغلّ حنين بني إسرائيل إلى الوثنية، وهم حديثوا عهد بها.

والعجل هو أكبر الآلهة التي كان يعبدها المصريّون. ويؤيّد تلك النّزعة الوثنية عند بني إسرائيل ما حكى الله عنهم في سورة الأعراف، إذ بمجرّد تجاوزهم البحر

مع موسى عليه السلام وقد مرّوا على قوم يعكفون على أصنام فقالوا: ﴿يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَآ إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ (الأعراف:١٣٨). فلا عجب أن ينخدعوا بالسّامريّ وهم قوم ماديّون لا يتصورون إلها مجرّدا عن المادة لا تدركه الأبصار، أليس هم الذين قالوا لموسى: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ (النساء:١٥٣). فما إن عجبوا من تمثال العجل كيف يخور حتى قال بعضهم لبعض: ﴿هَذَآ إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾، ويحتمل أن يكون قائل ذلك هو السّامريّ نفسه على سبيل الإغواء والإضلال.

وقوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ﴾ أي نسي أن هذا العمل خروج من الإيمان إلى الكفر، وأنه بذلك العمل تخمد جذوة الإيمان في نفسه.

وهناك احتمال آخر ذكره بعض المفسرين وهو أن تكون الجملة: ﴿فَنَسِيَ﴾ من كلام السّامريّ عن موسى بأنّه ذهب يطلب إلهه في الميقات وهو هنا، ومن ثم سجد بنو إسرائيل للعجل وقربوا له القرابين.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً﴾: هذه جملة معترضة، فهي على الأرجح بيان من الله تعالى. والاستفهام إنكاري، أي: كيف يعبدون ذلك العجل وهو لا يملك أن يردّ عليهم جوابا، بله أن يجلب لهم نفعا أو يردّ ضرّا.

والمراد بالرّؤية العلم والإدراك، وشبيه بهذا التّوبيخ ما وجّهه إبراهيم لقومه في عبادتهم للأصنام إذ قال لهم: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ، أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ (الشعراء:٧٢-٧٣). ولكنه عمى البصيرة تغيب عنها الحقائق؛ لأنّ الإله الحقيقي هو الذي بيده النّفع والضّرّ وهو الحيّ القيّوم، وهو السّميع العليم.

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهّاب، والله أعلم.

تمرّد بني إسرائيل على هارون، ومعاتبة موسى له، وإلقاء العجل في البحر

أ)- النصّ:

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

ب)- التّحقيق اللّغويّ:

﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ﴾: ﴿لَن نَّبْرَحَ﴾: أي سنظل على هذه الحال من عبادة العجل. ويقال: لا أبرح هذا المكان، أي أقيم فيه. والعكوف: الملازمة بقصد التعبّد. ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟، أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾: الاستفهام إنكاري. "ألاّ": "أن" مصدرية و"لا" للنفي، أي من اتّباعي، وما حملك على عدم اتّباعي. ﴿قَالَ

يَبْنَؤُمَّ لاَ تَاخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِيَ﴾: أي: يا ابن أمّي، حذفت ياء "أمّي" لأنّ الكسرة قبلها تدلّ عليها، فيجوز إثبات ياء المتكلم ويجوز حذفها. والاجتزاء بالكسرة، كما يجوز فتح الميم على أن لفظ "أمّ" مركب مع "ابن" تركيبا مزجيا. ولا يكادون يثبتون ياء المتكلم في هذه العبارة ولا الألف بعد الميم عوضا عن الياء إلا في الشّعر. واللّحية: بكسر اللاّم وفتحها، اسم للشّعر النّابت بالوجه. ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾: والخطب يقال في الحدث المهم والمعنى: ما الشّأن الدّاعي إلى ما صنعت. وأكثر ما تستعمل هذه العبارة في المكاره. ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ﴾: يقال: بصّر بالشّيء أي صار ذا بصيرة فيه، أي بقوة إدراك وفطنة، بمعنى: أدركت أمرا عجبا لم يعلموا به. ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾: قبض على الشيء: أخذ بجمع يده، وضدّه بسط اليد. والأثر: ما يتركه الماشي من أثر قدمه على الأرض. والرّسول: قيل: هو جبريل، وقيل: هو موسى عليه السلام. ﴿فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾: أي طرحت تلك القبضة بخفة وسرعة كما تنبذ النّواة. والتّسويل: هو التّحسين والتزيين للشيء، ويكون في المعصية. ﴿فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ﴾: اذهب: الأمر للزجر، أي يخرج من أوساط أمّة بني إسرائيل. ﴿لاَ مِسَاسَ﴾: "لا" نافية للجنس. ومساس: اسمها، مبني على الفتح، وهو مصدر "ماسّه" بمعنى: لا يخالط أحدا ولا يخالطه أحد، فقد عاقبه الله بأن يعيش وحيدا طريدا. ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً﴾: النّسف: تفريق وإذراء لأجزاء شيء صلب. ويقال: نسفه بالمنسف أي غربله بالغربال لتنقية الجيّد من الرّديء. واليمّ: هو البحر. ونسفا: مفعول مطلق.

ج)- أوجه القراءة:

﴿يَبْنَؤُمَّ﴾: قرأ الجمهور: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ بفتح الميم، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وخلف بكسر الميم، وأصله: يا ابن أمّي، فحذفت

ياء المتكلم تخفيفا، وهو حذف مخصوص بالنّداء. ﴿بِلحَيِّتِي﴾: أجمع القراء على كسر اللاّم من "لحيتي"، ويجوز فتحها في لغة الحجاز. ﴿لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ﴾: قرأ الجمهور: ﴿لَمْ يَبْصُرُواْ﴾ بتحية على أنه رافع لضمير الغائب، وقرأه حمزة والكسائي وخلف بفوقية على أنه خطاب لموسى ومن معه. ﴿لَّن تُخْلَفَهُ﴾: قرأ الجمهور: ﴿لَّن تُخْلَفَهُ﴾ بفتح اللاّم مبنيا للمجهول للعلم بفاعله وهو الله تعالى. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بكسر اللاّم، مضارع: أخلف. فيقال: أخلف الوعد إذا وجده مخلفا. ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُ﴾: قرأ الجمهور بضمّ النون الأولى وفتح الحاء وكسر الرّاء مشدّدة. والتّحريق هو الإحراق الشّديد، بحيث أذابه بالنّار حتى فسد شكله. وقرأ ابن جمّاز عن أبي جعفر: ﴿لَّنُحْرِقَنَّهُ﴾ بضم النون الأولى وبإسكان الحاء وتخفيف الرّاء. وقرأه ابن وردان عن أبي جعفر بفتح النّون الأولى وإسكان الحاء وضمّ الرّاء: ﴿لَّنَحْرُقَنَّهُ﴾ ؛ لأنه يقال: أحرقه وحرّقه.

د)- البيان والتّفسير:

بعد أن بيّن الله تعالى فساد التّصوّر لحقيقة الألوهية في الذين عبدوا العجل في قوله: ﴿أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً...﴾، ذكر هنا أن بني إسرائيل عصوا خليفة موسى في غيبته وقد وعظهم ونصحهم. ثم أعقب ذلك بالعتاب الذي كان بين موسى وأخيه هارون وبمناقشته للسّامري وكيف عاقبه الله في الدّنيا والآخرة، وإعلان موسى بالإله الحق إذ قال تعالى: **﴿ولَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ من قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم به وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُواْ أَمْرِي، قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾.**

الجملة تقع موقع الحال من ضمير قوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَرَوْنَ﴾، فزيادة على الحجج العقلية التي كان من المفروض أن يثبتوا بها على العقيدة الصّحيحة كما تركهم على ذلك موسى، زيادة على ذلك فقد قام هارون بمهمته الإرشادية في

تلطّف وترفّق إذ مهّد لنصحه بندائهم بـ"يا قوم"، وإنّ ما حدث من صناعة السّامري للعجل إنما هي فتنة اختبركم الله بها لكشف حقيقة إيمانكم، وإن الرّبّ الحقيقي هو الرحمن الذي أفاض عليكم نعمه وكلأكم برعايته وحفظه. ثم دعاهم هارون إلى اتّباعه وملازمة طريقته على منهج الله كما تركهم عليه موسى عليه السلام.

وعلى ذلك التّرفق في خطاب هارون للقوم أجابوه بالنّكران والصّدود، بأنهم لن يبرحوا يخصّون العجل بالعكوف والعبادة لغاية أن يرجع إليهم موسى، حتّى لكأنهم يتمثلون وجود الإله في شخص موسى لا في غيره -حاشاه-. وأمام عنادهم وتحدّيهم لم يملك هارون مقاومة ذلك الشّرّ إلا أن ينتظر رجوع أخيه.

وقد بادره موسى بقوله: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا، أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي، قَالَ يَبْنَؤُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾.

لقد رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا كما وصفه الله، وبعد أن دارت بينه وبين قومه تلك المحاورة العنيفة التّوبيخية انتقل السّياق هنا إلى ذكر محاورته لأخيه هارون، وهو يوبّخه على بقائه بين قوم يعبدون الصّنم، ولم يكن قد عبده هو؛ لأنه رسول معصوم. ولكن كان من واجبه -في نظر موسى- أن يتبعه إلى جبل الطّور مع من اتّبع نصحه من القوم، فقال له معاتبا: ما الذي منعك من اللّحاق بي، وقد رأيت القوم وقعوا في الضّلالة وقد استخلفتك عليهم لترعى عقيدتهم؟، أم أنت خالفت أمري واستهنت بي؟.

وفي تكرار الاستفهام الإنكاريّ تلويح بالتّهديد، وإن لم يذكر النّصّ هنا ذلك الانفعال الشّديد الذي دفع موسى إلى القبض بلحية أخيه وبرأسه يجرّه إليه كما ورد ذلك في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ (الأعراف:١٥٠). وعرف هارون كيف يعتذر لأخيه مترفّقا مستعطفا إياه بندائه له:

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾، على أنه شقيق له. ولكن في ذكر الأمّ تذكير بآصرة الأخوّة الحانية العطوفة، فطلب منه أن لا يشتدّ عليه بأخذه من لحيته ورأسه، ثم قدمّ إليه المبرّر في عدم اللّحاق به فقال له: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾.

لقد آثر هارون سياسة التّهدئة، سيما وقد هدّده القوم بالقتل، فرأى أن يحافظ على وحدة الجماعة، بعد أن صاروا فريقين متعارضين في التّوجّه والسّلوك، حفاظا لفريق الإيمان، إذ لو فارقهم لاقتتلوا وتنازعوا، فيكون بذلك قد خالف وصية موسى عندما قال له: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف:١٤٢).

ثم توجّه موسى بالخطاب إلى رأس الفتنة، وبشيء من اللّين؛ لأنّ السّامريّ لم يكن من العلم والثبات في الدّين على مستوى هارون إذ قال له: **﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ، قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾**.

اختير السّؤال بلفظ "الخطب" ليدلّ على أمر مهمّ يسترعي الانتباه. والفاء تسمّى بالفصيحة، فبعد أن اقتنع موسى بجواب أخيه التفت إلى السّامريّ رأس الفتنة بإضلال بني إسرائيل لعبادة العجل، فسأله: ما الذي حملك على ما فعلت؟ فأجابه بقوله: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾.

ادّعى لموسى أنه قد تفرّد برؤية علمية أو بصرية لم يحظ بها من كان معه من القوم، فما هي تلك المرئيات؟، أو ما هي تلك المُدركات؟.

للمفسرين احتمالان لمعاني الألفاظ في مقولة السّامري:

أ)- ذهب جمهور المفسّرين إلى أن الرّؤية بصرية، وهي تتمثل في أخذه

لقبضة من أثر فرس جبريل عليه السلام فهو يعرفه إذ كان يتعهده وهو صغير، وكان يرى موطئ ذلك الفرس يخضرّ بالنّبات فعلم أن أثر جبريل إذا ألقي في جماد صار حيّا، فأخذ قبضة من ذلك التّراب فألقاه على العجل المصنوع فصار حيًا له خوار، ولكن لم يرد في ذلك أثر صحيح.

ب)- وحمل بعض المحققين تلك الألفاظ إلى معان مجازية، فتكون الرّؤية عقلية، أي أن السّامريّ اهتدى إلى علم لم يعلمه بنو إسرائيل. وقوله: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ بمعنى أن القبضة تدلّ على النّصيب القليل، والمراد بالرّسول هو المبلغ لمنهج الله، أي سيدنا موسى، وأثره هو الشّريعة التي يعلمّها للناس، فيكون السّامريّ قد ألمّ بمعارفها الإجمالية، وفي قمتها توحيد الله وتنزيهه عن الأنداد. وقوله: ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ هو بمعنى تخليت عنها وطرحتها من وجداني، ثم ركنت لوساوس نفسي ففعلت ما فعلت من صناعة التّمثال وإغراء القوم بعبادته.

وعلى هذا الاحتمال الثّاني لمقولة السّامريّ كثير من أعلام المفسّرين كالأئمة: الزّمخشري والرّازي، ومن المحدثين: ابن عاشور والشّعراوي وأبو زهرة.

ثم يواجه موسى السّامريّ بما يستحقه من العقاب في الدّنيا والآخرة فيقول: **﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً﴾**.

فأوّل عقاب لهذا المتمرّد أوقعه به موسى هو عزله عن المجتمع؛ ذلك لأنه عليه السلام قد علم بوحي من الله بأنّ السّامريّ ميؤوس من صلاحه، ثم إنّ الله تعالى جازاه بعكس مقصوده مما كان يمنّي نفسه به من وراء تلك الفتنة أن يصبح له أتباع وأشياع فتكون له مكانة وحظوة بينهم، فإذا به يبقى طريدا محجورا عليه بمرض عضال لا يستطيع معه أن يمسّ أحدا ولا أن يمسّه أحد بحيث يقول لكلّ من لقيه من النّاس: ﴿لاَ مِسَاسَ﴾، فإن وراء أيّ مسّ أوجاعا وآلاما، وذلك هو عذابه

الدّنيوي، وأما العذاب الأخروي فهو أنكى ما ينتظره في موعد لا يتخلّف.

ثم يزيده موسى احتقارا وتهكّما بإضافة الإله الباطل إليه وكيف يكون مآله حرقا ونسفا في اليمّ فقال: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾.

فقد أراد موسى أن يلقّن قومه درسا عمليا يدركون به مهانة ذلك الإله المزعوم، وذلك بإزالة أثره كلية بالحرق بإلقاء ذراته في البحر وهو لا يملك أن يدافع عن نفسه. وهذا الموقف الحازم لموسى في درء تلك الفتنة العمياء تقتضيها مهمته الدّعوية لبيان وجه الباطل فيها.

ثم عاد ليذكرهم بالمنهج الحق والمعتقد الصّحيح فقال: ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

توجّه موسى بالخطاب إلى قومه بعد تهوينه من شأن السّامريّ وقد أصبح منبوذا، فأعلن جملة الشّهادة الحقة بوحدانية الله تعالى وعلمه الواسع الشّامل، أعلنها بأداة "إنّما" لتأتي استدراكا على الباطل الذي وقعوا فيه بعبادة العجل. بمعنى أن الإله الحقيقي الذي يعبد بحق هو الله جلّ جلاله واجب الوجود، ومن صفاته العلية العلم الواسع الشّامل الذي يحيط بكلّ ما في الوجود، ومنها أعمال عباده التي يحصيها عليهم ثم يجازيهم عليها. وفي هذا الإعلان الموسويّ ردّ شافٍ لمزاعم السّامريّ في إله باطل لا حياة له ولا علم.

وهكذا تنتهي مشاهد قصة موسى كما بدأت بإعلان التّوحيد الخالص لله تبارك وتعالى، إذ جاء في بدايتها: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ (طه:١٤). وجاء في ختماها: ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

والله أعلم

العبرة من قصص القرآن، وجزاء المعرضين عنه

أ)- النصّ:

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾

ب)- التّحقيق اللّغويّ:

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾: الإشارة إلى قصة موسى. نَقُصُّ: المضارع لاستحضار الحالة، و"من" تبعيضية. الأنباء: جمع نبأ، وهو الخبر الهامّ. ذكْراً: والذّكر يأتي لمعان متعددة، فيراد به القرآن، كما يطلق على كل كتاب أنزله الله، ويكون بمعنى التّسبيح والتّحميد، وبمعنى التّذكر والاعتبار. والمراد به هنا القرآن. ﴿يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً﴾: الوزر: الإثم، وجعله محمولا تمثيل للثّقل المعنويّ بما يكون من العقاب عنه. ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً﴾: سَآءَ: من أفعال الذّمّ، وفاعله ضمير مستتر يفسّره التمييز الذي بعده. حِمْلاً: بكسر الحاء، بمعنى محمول. ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾: الجملة بدل من "يوم القيامة". والصّور: هو البوق الذي يخرج منه صوت قويّ للإعلام بحدث عظيم كالحرب. وهو ما ينفخ فيه إسرافيل النّفخة الأولى للصعق، والنّفخة الثّانية للبعث كما ورد في سورة الزّمر، والله أعلم بكيفية ذلك. ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً﴾: الحشر هو جمع

الخلائق لموقف الحساب. والزّرق: جمع أزرق، والمراد به زرقة أبدانهم بصدمة الهول أو هي زرقة عيونهم، وهي ظاهرة يكرهها العرب، وقيل: المراد بها أنهم عمْي. ﴿يَتَخَافَتُونَ﴾: من التخافت، وهو الكلام الخفيّ من شدة الخوف. ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾: الطّريقة: الحالة والسّنة والرأي. والمعنى: أحسنهم حكما في قوله.

ج)- أوجه القراءة:

﴿يَوْمَ يُنفَخُ﴾: قرأ الجمهور بياء الغيبة مبنيا للمجهول، أي بنفخ نافخ، وهو الملك الموكل بذلك -كما تقدم-. وقرأه أبو عمرو وحده: ﴿ننفُخُ﴾ بنون العظمة وضمّ الفاء، وإسناد النّفخ إلى الله مجاز عقلي على اعتبار أنّه الآمر به.

د)- البيان والتّفسير:

بعد إسدال السّتار على أحداث قصة موسى مع فرعون وملائه في الفصول الأولى منها، ومع السّامريّ في الفصل الأخير، أراد الحقّ تبارك وتعالى بيان حكمة القصص في القرآن، وأنه لتسلية رسول الله وتثبيته في دعوته كما أنها حثّ للمؤمنين على الاعتبار والاتعاظ بها.

وقصص القرآن لا يشبه غيرها، إذ يلتزم الحقيقة ويهدف إلى إيقاظ الوعي الدّيني في النّفوس، وهو القصص الحق كما وصفه الله. ولذا ناسب هنا أن يتوعّد الله المعرضين عن هذا القرآن بالجزاء الرّهيب فقال جلّ من قائل: **﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنَ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا، مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا، خَالِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾**.

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾: الإشارة إلى ما ورد في السّورة من أخبار موسى

مع فرعون وملائه ومع بني إسرائيل ومع السّامريّ، وهي أخبار عن الأمم الخوالي لها أهميتها في موكب التّاريخ البشريّ، و﴿مِنَ أَنبَآءِ﴾ للتّبعيض، مما يدلّ أن القرآن لم يستقص كل الأخبار الماضية، بل اقتصر على ما فيه العبرة والتّذكرة للرّسول والمؤمنين معه لتثبيتهم وشدّ أزرهم في ما يواجهونه من الشّدائد، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِي هَـٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٠). وفي ذلك -أيضا- دلالة على صدق رسول الله في نبوءته، إذ كان لا يعلم هو ولا قومه من تلك الأخبار شيئا كما قال له تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود:٤٩).

ثم يقول تعالى لرسوله: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾، تنكير لفظ: "ذكْراً" للتعظيم، وهو يكون لمعان متعددة، فيراد به القرآن لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩). والمراد هنا ما يكون منه من التّذكير والاتعاظ وإيقاظ الضّمائر، فهو منّة من الله لرسوله لم يعطها نبي من قبله. وكونه مؤتى به من عند الله تنويه بشأنه العظيم إذ نزل من عند الله بلفظه ومعناه، وبلّغه الرّسول كما أنزل عليه كاملا جامعا لخيري الدّنيا والآخرة، فهو أحرى أن يذكره المؤمنون، ويستلهموا ما فيه من توجيه وإرشاد، وأما من كذّب به وتولّى فإن جزاءه ما يقول تعالى: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا، خَالِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً﴾. والقرآن حجة الله على خلقه، فكلّ من بلغه فكذب به وأعرض عنه فقد حمل إثما عظيما ينوء بثقله يوم القيامة، وبئسما يحمله؛ لأنّه لا ينفك عنه بموت، ولا ينحطّ عنه في فترة، بل هو الخلود الأبديّ في عذاب جهنم -والعياذ بالله-، فمتى يكون ذلك؟.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا، يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن

﴿لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً، نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً﴾:

تقوم القيامة الكبرى يوم ينفخ في الصّور، والصّور في صناعة البشر هو ذلك البوق العظيم الذي يخرج منه صوت قويّ للاستنفار أو غيره من التّجمعات الهامّة. والنّفخ في الصّور من مشاهد القيامة الرّهيبة، ذكر الله تعالى أنّها نفختان: الأولى للصّعق والثّانية للبعث، كما ورد ذلك في سورة الزّمر إذ قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَآءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ (٦٨). وأما كيف يقع ذلك فأمره إلى الله. غير أنّ الله خصّ المجرمين -وهم الكفرة المشركون- بأنّهم يحشرون في حالة كئيبة من الخوف والهلع، إذ تحتقن جلودهم حتى يتحوّل لونها إلى الزّرقة من شدة ما يكونون عليه من الهمّ والحزن؛ لأنّ الانفعال النّفسيّ الدّاخليّ تظهر آثاره على الجلد بصفة عامة وعلى الوجه بصفة خاصّة، كما قال تعالى:

أ)- ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ (آل عمران:١٠٦).

ب)- ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ، ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ، تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ، أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ (عبس:٣٨-٤٢).

﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً﴾: غالبا ما يلجأ الخائفون المفزوعون إلى التهامس سرّا فيما بينهم؛ لأنّ الخوف يعقل الألسنة فلا تفصح بمرادها، وهم إذ كانوا ينكرون البعث من أساسه، وأن إحساسهم بالزّمان قد تعطّل بسبب الموت، تراهم يتهامسون في شأن ما صاروا إليه، وقد انكشف لهم الغطاء على الأبديّ اللاّمحدود لتقدير ما لبثوه في الدّنيا، فإذا بذلك المحدود الدّنيويّ قليل، وإن تنعّموا فيه وأترفوا. فتتباين أقوالهم في تحديد تلك القلّة من عشرة أيام إلى اليوم الواحد إلى بعض اليوم، إلى السّاعة الواحدة، كما ورد ذلك في آيات أخرى كقوله تعالى:

أ)- ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ (الروم:٥٥).

ب)- ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ (الاحقاف:٣٥).

ج)- ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ، قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ (المؤمنون:١١٢-١١٣).

وتقدير هؤلاء للبث في الدّنيا هو الأظهر عند جمهور المفسّرين. وهناك احتمال آخر أنه تقدير لمدة البرزخ، أي اللّبث في القبور؛ لأنّ الحسّ بمرور الزّمن قد تعطّل في نفوسهم بسبب الموت، فيكون الدّافع لذلك التّساؤل هو نوع من الاعتذار لخطئهم في إنكار البعث، إذ أنهم عندما تعود أجسادهم إلى ما كانت عليه بالبعث يظنّون أنّ لبثهم في القبور لم يطل كثيرا بحيث يصبحون رفاتا، ولذلك اعتبروا من قلّل من ذلك الوقت في تقديره هو الأصوب تخمينا وأمثل طريقة.

ولا يتعارض الاحتمالان فلكلّ منهما ما يؤيده من القرآن، والله أعلم بأحوال تلك الدّار، فاللّهم هوّن علينا سكرات الموت وظلمة القبر ووحشته وأهوال يوم القيامة، والله أعلم.

من مشاهد يوم القيامة

أ)- النصّ:

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ

بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾: يفتّتها ويذروها في الهواء. ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا، لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾: القاع: الأرض السّهلة المنبسطة، والصفصف: ملساء مستوية، والعِوَج: -بكسر العين وفتح الواو- ضدّه الاستقامة. والأمت: النتوء اليسير، بمعنى لا انخفاض فيها ولا ارتفاع. ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾: الدّاعي: المنادي من قِبَل الله إلى موقف المحشر. فقيل: هو إسرافيل. وقيل: هو الرّسول، أي ينادي كلّ قوم رسولهم. ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾: حال من الدّاعي، أي لا يميل يمنة أو يسرة لإسماع صوته. ويقصد المدعوون صوب صوته لا يعدلون عنه. ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾: خشوع الصّوت: هو الإسرار به، والهمس الصّوت الخافت من هول المقام. ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ﴾: الشَّفَاعَةُ: هي التّوسّط بين المشفوع له والمشفوع عنده، وهو الله تعالى، بطلب العفو أو التّخفيف. والشّافع لا بد أن يكون مرضيا عنه أو مأذونا له من قبل الله. ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾: عَنَت: بمعنى خضعت وانقادت، من العناء وهو الذّلة، ومنه العاني: الأسير. والقَيُّوم: هو القائم بتدبير شؤون عباده ومجازاتهم. ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾: لا يخاف منع ثوابه عن عمله ولا نقصا من حسناته.

ج)- أوجه القراءة:

﴿فَلَا يَخَافُ﴾: قرأ الجمهور: ﴿يَخَافُ﴾ بصيغة المرفوع بإثبات ألف بعد الخاء، وقرأه ابن كثير بصيغة الجزم بحذف الألف بعد الخاء، على أن الكلام هي

مستعمل في الانتفاء.

د)- البيان والتّفسير:

بعد التّعرّض لأهوال القيامة والبعث ردًّا على الذين أنكروه باستبعاد إعادة الأجسام بعد تفرّق أجزائها، تعرّض الله هنا لشبهة أخرى احتار فيها المشركون، فسألوا عنها الرّسول في تعنّت وعناد، سألوه عن مصير تلك الجبال الرّواسي، وهل تفنى هي الأخرى كما يحدث للكائنات الأخرى، إذ يرى الإنسان كلّ ما حوله يعتريه التّغيير ثم يؤول إلى الانتهاء إلا تلك الجبال فهي تبقى صامدة، فقال تعالى: **﴿وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً، فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً، لاَّ تَرَىٰ فِيهَا عِوَجاً وَلاَّ أَمْتاً﴾**.

تقدم الحديث عن جملة: ﴿يَسْأَلونَكَ﴾ وتعدّد المسؤول عنه في القرآن الكريم، فالسّؤال هنا عن شيء لم يقع بعد، وقد يكون للاسترشاد والمعرفة، وقد يكون للاستهزاء والتّعنّت. فقد جاءت الإجابة الإلهية مقرونة بالفاء "فَقُلْ"، أي جاء عقب السّؤال. وقال الإمام القرطبي: "فقل" جاء هذا بفاء، وكلّ سؤال في القرآن "قل" بغير فاء، إلا هذا؛ لأن المعنى: "إن سألوك عن الجبال فقل". فتضمّن الكلام معنى الشّرط، وقد علم الله أنهم يسألونه عنها فأجابهم قبل السّؤال.[1]

قلت: لقد تعرّض القرآن لوضعية الجبال بذكر أطوارها المختلفة، وهي تتفاوت تماسكا وصلابة وضخامة، والنّسف: هو تفتيت تماسك الذّرات وذرّها في الهواء، وأكّد الفعل للدّلالة على قدرة الله في ذلك؛ لأنّ اقتلاعها من أماكنها ربما تبقى منها صخور ضخمة، بينما النّسف هو العملية التي تجعل من أماكنها قاعا صفصفا كما وصفها الله.

١- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٢٤٥/١١.

ومما ذكره الله في زوال الجبال قوله:

أ)- ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَآءُ كَالْمُهْلِ،وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ (المعارج:٨-٩).

ب)- ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (النمل:٨٨).

ج)- ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً﴾ (المزمل:١٤).

د)- ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ (القارعة:٥).

﴿فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً، لاَّ تَرَىٰ فِيهَا عِوَجاً وَلاَ أَمْتاً﴾: فإذا اندكّت الجبال وتطايرت ذراها، فإنّ أماكنها تستوي مع الأرض بحيث تصير تلك الأرض منبسطا مستويا لا شيء فوقها ولا تنوء ولا انخفاض لتصبح محشرا للخلائق كلّها لا مُستر فيها لأحد، فكيف يجتمعون؟.

يقول تعالى: ﴿يَوْمَئِذ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لاَ عِوَجَ لَهُ، وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً﴾.

الأرجح أن المقصود بالدّاعي هنا هو النّافخ في الصّور النّفخة الثّانية للبعث، يوم يقوم النّاس أحياء من قبورهم حيثما كانت، فيسرعون نحو صوت الدّاعي، ونفي العوج عنه بصيغة الجنس هو نفي مزدوج لصوت الدّاعي، يكون مستقيما بحيث يسمعه الجميع، ثم هو لسير المحشورين من النّاس، يسلكون إليه في خطّ مستقيم بسرعة وانجذاب كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ، مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ (القمر:٧-٨)، ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ، خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ (المعارج:٤٣-٤٤).

إذا كانت التّجمعات البشرية مجالا للجلبة ورفع الأصوات غضبا أو زهـوا، فما بالك بذلك التّجمع الرّهيب لكل الخلائق؟، فإنّ الهول العظيم يعقل الألسنة فلا تستطيع رفع أصواتها إلا ما يكون من التّهامس الخفيّ في خـشوع لعظمـة الله، والكلّ منشغل بما سيكون مصيره، وحتى الأقدام لا يسمع حفيفها لأنّها تمشي هونا على أرض مستوية، وليس من مقرّر هنا يسمع صوته إلا الله تعـالى: ﴿يَوْمَئِـذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ اَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ، قَوْلاً، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَـا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾.

وقد اعتاد النّاس في حياتهم أن يستشفعوا لأنفسهم أو لذويهم عند أصحاب السّلطة والجاه، ولكنّهم في ذلك اليوم الرّهيب لا يجدون تلك الشّفاعة عند الله، أي لا يجدون شافعا لهم إلاّ من أذن له الرّحمن أن يشفع ممن رضي أفعالهم وأقـوالهم. و"مَن" هو لعموم العقلاء، فيأذن الله لرسول أو نبي أو لمن شاء من المقرّبين إليه من عباده، فقد قيدت الشّفاعة بالإذن والرّضا، ونظير هذه الآية قوله تعالى:

أ)- ﴿مَن ذَا الذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ (البقرة:٢٥٥).

ب)- ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّـن خَـشْيَتِهِ مُـشْفِقُونَ﴾ (الأنبياء:٢٨).

ج)- ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِن بَعْدِ أَنْ يَّاذَنَ اللهُ لِمَنْ يَّشَآءُ وَيَرْضَى﴾ (النجم:٢٦).

د)- ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلآئِكَةُ صَفّاً لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ اَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً﴾ (النبأ:٣٨).

ثم قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾، أي الإذن من الله بالشّفاعة لمن يرتضيه من عباده، فالشّافعون والمشفوعون لهـم مـن

الخلائق كلّها يعلم الله تعالى ظواهرهم وبواطنهم لا تخفى عنه خافية، وقد ينسى النّاس ما قدّموه في دنياهم، ولكن الله تعالى أحصاه في كتاب يلقاه منشورا، بينما علوم الخلائق كلّها لا تحيط بذاته ولا بصفاته.

ثم قال تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً، وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُومِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً﴾.

الجملة تكملة لسابقتها في تصوير ما تكون عليه الخلائق من الخضوع والخنوع لعظمة الله، فالأصوات خافتة والوجوه واجمة من هول الموقف، عانية للحيّ القيّوم، فالحياة الحقيقية هي لله تعالى؛ لأنها حياة غير مسبوقة بعدم ولا هي منتهية بفناء وزوال. والقيومية تعني تدبير شؤون الخلق وتصريف أمورهم لا تعتريه تعالى سنة ولا نوم.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً﴾: الواو للحال، والخيبة هي الفشل الذّريع والخسران، فهي لكلّ من حمل شيئا من الظّلم. وجاء التّعبير بالحمل تشبيها له بالحمل الثّقيل. كما أن التّنكير في لفظ "ظُلْماً" ليشمل كل أنواع الظّلم، وهو درجات أدناها أن تظلم نفسك بأنواع المعاصي، ثم أنت لا تتوب منها، وأعلاها وأفظعها الشّرك بالله. قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان:١٣).

وفي مقابل ذلك الوعيد يأتي الوعد للمتقين الأبرار فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُومِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً﴾، جيء بالجملة على صيغة الشّرط وجوابه للدلالة على تحقيق الوعد. والصّالحات هي الأعمال الخيرية التي تعود عليك وعلى غيرك بالنّفع الجزيل، وفي مقدمة ذلك أن تؤدي حقّ الله عليك من حسن الطّاعة والعبادة له، وتؤدّي حقّ النّاس بحسن المعاملة وحسن الخلق، بشرط أن يكون ذلك كلّه مقرونا بالإيمان الصّحيح إذ هو شرط في قبول الأعمال. وإذا اعتبرنا "من" تبعيضية كما ذهب إلى ذلك بعض المفسّرين، فيكون

المعنى أن قيام المؤمن ببعض الصّالحات مع النّية الصّادقة يكفي في نجاته إذ يضاعفها الله له.

﴿فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً﴾: أي لا يخاف غمط حقه في إنقاص بعض الحسنات أو زيادة بعض السيئات، فالظّلم هو النّقص الشّديد، والهضم هو النّقص الخفيف، فكلاهما منفيان في ميزان الله وكفى بالله حسيبا، والله أعلم.

التّنويه بشأن القرآن، والأمر بعدم التّعجيل بقراءته قبل إتمام الوحي على الرّسول.

أ)- النصّ:

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾: التّصريف: بمعنى التّحويل والتّغيير بأساليب شتى حسبما يناسب الأمزجة المختلفة، والوعيد: التّخويف والتّهديد. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾: "لعل" للرّجاء. والتّقوى: اتقاء المعاصي، وتستعمل كناية عن الطّاعة. والذّكر هنا بمعنى التّذكّر والاتعاظ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ (القمر:١٧). ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾: ثناء على الله بالعلوّ والرّفعة، وبالتّنزه عن صفات النّقص، فلا يقال ذلك إلاّ لله سبحانه، ووصفه بالملك الحق؛ لأنّ ملك

غيره غير ثابت، ثم هو موهوب من الله لمن يشاء من عباده. ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾: أي لا تتعجل في تكراره وترديده قبل أن يتمّ وحي ما أنزل إليك، أي حتى يفرغ جبريل من إبلاغه لك.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أَنْ يُقْضَى﴾: قرأه الجمهور بتحتية في أوله مبنيا للنائب، ووحيُه نائب الفاعل. وقرأ يعقوب بنون العظمة وكسر الضّاد وبفتحة على آخر: ﴿نَقْضِيَ﴾، وبنصب ﴿وَحْيَهُ﴾ على المفعولية.

د)- البيان والتّفسير:

كما بدأت السّورة الكريمة بالتّنويه بشأن القرآن، ثم لما يكون في قصصه من التّذكرة و الموعظة ومن التّسلية والتّثبيت لرسول الله، جاءت هاتان الآيتان في خاتمة تلك الجولة بعد التّعرّض لمشاهد القيامة الرّهيبة التي من شأنها أن تلين القلوب القاسية وتجذبها إلى التّأمّل والتّدبّر في آيات القرآن، وأنّه تعالى يتكفل بتركيز ما يوحى إلى الرّسول في صدره فقال: **﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾**.

الجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ (طه:٩٩)، والإشارة فيها هي كالإشارة في المعطوف عليها، أي كما قصصنا عليك من أنباء الأمم السّابقة أنزلنا عليك هذا الذّكر المقروء، ووصفه بكونه "عربيًا" هو للمدح لا لمجرّد كونه بلغة العرب، وإنما لما فيه من الإعجاز والبلاغة، لا يتأتى في غيرها من اللّغات الأخرى؛ ولأنّ الله تعالى قد اختار الأمة العربية لتحتضن كتابه الخاتم -وهو أعلم حيث يجعل رسالاته-، وما يرسل من رسول إلا بلسان قومه،ولا يخفى ما في هذا الوصف من تشريف وتكريم لهذا اللّسان، فما يجوز لمسلم أن يحقّر من شأن

هذه اللّغة تقليدا لما يروّجه أعداؤها عنها، فإنّ الذي اختارها لتكون وعاء لوحيه الخاتم هو الله تبارك وتعالى، ولله درّ شاعر النّيل عندما قال بلسان هذه اللّغة:

وسعت كتاب الله لفظا وغاية ... وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدرّ كامن ... فهل سألوا الغوّاص عن صدفاتي

والتّعبير بـ "أَنزَلْنَاهُ" زيادة على تميّزه بنون العظمة، فهو إنزال من علوّ ورفعة، أي من الحق تبارك وتعالى، وهو الصّلة الوثقى بين السّماء والأرض. والعجيب أن الله تحدّى بإعجازه كل العالمين على مختلف ألسنتهم، و لم يقتصر على العرب وحدهم، وذلك لما يحمله من الإعجاز في المجالات الأخرى غير الإعجاز البياني.

والصّفة الثّانية للقرآن هي قوله تعالى: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾، فالوعيد هو التّخويف والتّنديد بشرّ، وتصريفه يكون بتنويع أساليبه على أوجه مختلفة وفق ما يناسب أمزجة المستمعين، مما يحقق فيهم الذّكرى والاعتبار. وخصّ الله الوعيد بالذّكر هنا بينما يشتمل القرآن على الوعد والوعيد وعلى التّرغيب والتّرهيب؛ لأن ذلك يناسب جوّ السّورة في الإنذار والتّخويف. وللنّفوس تأثّر بذلك بالغ، ولذا قال المولى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾. "لعلّ" للترجّي، فالمتوقع في الرّجاء هو بالنّسبة إلى الخلق؛ لأنّ لهم الاختيار في ما يأخذون وما يدعون، وأما بالنسبة إلى الله تعالى فالأمر معلوم محقق.

والتّقوى هي كناية عن الطّاعة، بمعنى: إنّ تصريف الوعيد في القرآن هو لرجاء أن يؤمنوا ويطيعوا، فمن لم ينتفع بتقواه إثر سماع القرآن فإنه يهيّئه للتذكير. والتّعبير بـ"يحدث" يدلّ على أن هؤلاء قد حصل لهم بعض الإعراض، ثم أوجد

فيهم القرآن ذلك التّذكّر فحسنت سيرتهم حتى ماتوا على المنهج السّويّ. والكل له جزاؤه عند الله وإن تفاوتت درجاتهم.

ولما كانت منن الله عظيمة على خلقه وأعظمها إنزال القرآن وما فيه من بيانات الإصلاح والإرشاد لعباده، ودلائل عظمته وقدرته فرّع الله على ما تقدم قوله: ﴿فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾.

موضع هذه الجملة مما سبق وما لحق -أي في معرض الإشادة والتّنويه بشأن القرآن- يدلّ على ما لكلام الله من قدر ومنزلة، فمنزّله قد تعالى وتقدست ذاته وصفاته، فهو الملك الحق، وهو الحقيقة المطلقة، وكلّ المخلوقات بالنّسبة إليه ليست حقّا، وإن كانت تضفى عليها بعض تلك الصّفات، فملوك الأرض لا تطلق عليهم تلك الصّفة إلا مجازا؛ لأنّهم معرّضون للزوال والفناء أو للانقلاب عليهم وتنحيتهم. قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ (لقمان: ٣٠).

فـ"الحق" من أسماء الله الحسنى، لا يسمّى به مخلوق إلا بالإضافة إلى لفظ "عبد"، فيقال: "عبد الحق". ومن مظاهر عظمته وامتنانه علينا أن تولّى حفظ كتابه؛ لأن البشر بدّلوا وغيّروا في ما سبق من الكتب السّماوية الأخرى، أو هم كتموا بعض ما جاء فيها. وتفرّد القرآن بهذه الميزة من أنواع الحفظ إنزالا من اللّوح المحفوظ، ووحيا على قلب رسول الله منجّما حسب الوقائع، والتدرّج في التّشريع، فإذا كان ملوك الأرض يضعون القوانين لرعاياهم فإن قانون الملك الحق هو هذا القرآن الذي توفرت له وسائل الحفظ والتثبيت حتى في كيفية إنزاله، فقد كان الرّسول يتعجّل بإعادة آياته ليحفظها حتى لا تضيع منها كلمة أو حرف، حرصا منه على تبليغه للأمّة فقال له تعالى يطمئنه: ﴿وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَنْ

يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ (طـه:١١٤).

وكم كان يصعب ذلك على رسول الله حتى كان جبينه يتفصّد عرقا قبل أن يفصم عنه كما وصفته عائشة ﷺ، وهذا المعنى يفسّره قوله تعالى في سورة القيامة: ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (١٦-١٩). أمره الله تعالى أن يركزّ في سماعه إلى جبريل ولا يشغل باله بترديد الكلمات حتى يتمّها. وكان من عون الله لرسوله أن يستوعب كل ما يوحى إليه، ثم هو يأمر كتاب الوحي بتسجيلها في السّورة المقصودة وفي موضعها المناسب مما يتخللها من الآيات، ومن هنا يتبيّن لنا صعوبة العملية، ولكن الله تعالى يسّرها عليه وهو الممتن عليه بقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى﴾ (الأعلى:٦). وفي الآية بعض الاحتمالات الأخرى للمفسرين منها:

أ)- لا تعجل بتلاوته للناس لعله يكون نسخ أو قيد.

ب)- لا تستبطئ نزوله عليك مخافة أن يقول المشركون: إن ربّ محمد قد قلاه وودعه.

ج)- وعن مجاهد وقتادة: لا تقرأه على النّاس حتى تتبيّن لك معانيه.

ثم عطف الله على المنهي عنه قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ لا شك أن الدّافع للرسول على الاستعجال هو محمود في ذاته؛ لأنه دليل على حرصه البالغ في أداء مهمته، ولذلك اتبع ذلك النّهي بسؤاله الزّيادة من العلم، لأنّ العلم لا يشبع منه العلماء، سيما إذا أضفنا لمهمّة الرّسول بيان ما في القرآن من الأحكام وما سيواجهه من القضايا الكثيرة التي تتطلب منه الاجتهاد والاستنباط.

والطّموح إلى معالي الأمور من صفات النّاجحين، فاللّهم علّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علما، والله أعلم.

قتنة آدم بالشيطان، وإخراجه من الجنة،

مع بيان جزاء المطيع للهدى الإلهي، وجزاء المعرض

أ)- النصّ:

وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾: يقال: عهد إليه بمعنى أمرناه ووصيناه به. وأطلق النّسيان على تعمّد إهمال العمل بالعهد. والعزم هو

الجزم بالفعل وعدم التّردّد فيه. ونفي وجدان العزم: أي ليست عنده عزيمة تعينه على المضيّ والثّبات فيما عهد إليه. ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ﴾: أي إن إبليس امتنع عن السّجود حسدا وكبرياء. ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ، وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ﴾: ﴿أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا﴾: الجملة في موضع نصب اسم لـ"إن". ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ﴾: الظّمأ: العطش. وَلَا تَضۡحَىٰ: بمعنى لا تتعرّض لحرارة الشّمس اللافحة، والجملة في موضع النّصب بالعطف على الّتي قبلها أو هي مرفوعة بالعطف أيضا على الموضع. ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾: الوسوسة في الأصل صوت الحليّ، فيه معنى الإغراء والإفتان. ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾: هَلۡ أَدُلُّكَ: استفهام للعرض. شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ: أي الشّجرة الّتي يخلد من يأكل منها فلا يموت ولا يفنى مُلكه. ﴿فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾: السّوءة: العورة، وهي ما يستحي الإنسان أن يظهر منه، أي القبل والدّبر. ﴿وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ﴾: أي شرعا يلصقان الورق على عورتيهما. ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾: غوى: من الغواية، أي ضلّ عن الرّشد. ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾: بمعنى اصطفاه ربّه بعد ذلك للنّبوة. ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾: الضّنك: مصدر ضنك، بمعنى الضيق الشّديد. ﴿وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾: وكونه أعمى يوم الحشر تمثيل لحالته يومئذ بحالته المعنوية في الدّنيا، إذ كان لا ينظر في البراهين الإلهية.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ﴾: قرأ نافع وأبو بكر عن عاصم بكسر همزة "إنّ" عطفا للجملة على الجملة. وقرأ الباقون "أنّكَ" بفتح الهمزة عطفا على "ألا تجوع"، عطف المفرد على المفرد، أي: أن لك نفي الجوع والعري ونفي الظمأ والضّحو. ﴿حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر: ﴿حَشَرۡتَنِيٓ﴾ بفتح ياء

المتكلم، وقرأها الباقون: ﴿حَشَرْتَنِي﴾ بإسكان الياء مع مدّ الياء مَـدا منفـصلا في الوصل.

د)- البيان والتّفسير:

تجيء قصّة آدم مع إبليس هنا تحقيقا للغاية المقصودة من قصص القرآن كما بيّنها المولى تبارك وتعالى عقب نهاية قصة موسى مع فرعون ومع قومه إذ قال: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ (طـه:٩٩).

وقصة آدم عليه السلام تزيد تركيزا في بيان عاقبة الإعراض عن ذكر الله ونبذ طاعته، وذلك بعد ذكر ما نزل بفرعون وجنوده، وما نزل بجمهور بني إسرائيل باتخاذهم العجل، وبالسّامري ومصيره المشؤوم. وفي ذلك النّسق يبيّن الله مصير إبليس إذ تولى وتمرّد عن أمر الله بالسّجود لآدم. فقال جلّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾.

فما أحوج رسول الله إلى الاستزادة من تلك القصص التي تشدّ من أزره وتمدّه بالصّبر والثّبات في مواجهة خصومه الألداء؛ لأنّ في تذكيره بما عاناه موسى من قبله، وفي تذكيره بقصة آدم مع إبليس اللّعين، تطمينا لنفسه الشّريفة، بأنّ ما لاقاه به قومه من الإنكار ما هو إلا نزعة من طبيعة أبيهم آدم في الغفلة والنّسيان.

فالجملة: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ﴾ مفتتحة باللاّم المشعرة بالقسم وحرف التّحقيق للاهتمام بمضمونها، وهي معطوفة على ما سبق من قصة موسى بحيث تتكامل القصتان في بيان عاقبة التّفريط في عهد الله بالنّسيان والغفلة.

وعهد الله هو ما أوصانا وكلّفنا به مما أمر به أو نهى عنه. وقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ بحذف ما أضيف إليه ليدلّ على كل من عهد الله إليه من البشر.

﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾: أي نسي ذلك العهد، فارتكب آدم ما نهاه

الله عنه من الأكل من تلك الشّجرة، إذ حارت عزيمته وافتقد الثّبات في الأمر حتى لا يستجيب للمغريات. فنفي وجدان العزم عند آدم هو علّة وقوعه في المعصية؛ ذلك لأنّ تقييد الشّهوة وكبح جماح الرّغبات يحتاج إلى عزيمة قوية، ولا يقوى على ذلك إلا من جاهد نفسه بطاعة الله، فماذا نسي آدم حتى ارتكب تلك المعصية؟. لم ينس نهي الله له أن يأكل من تلك الشّجرة، بل نسي ما نبّهه الله من عداوة إبليس له. وهكذا شاءت حكمة الله أن نرث نحن عن أبينا آدم ذلك، فسيغفلنا إبليس -أحيانا-، و ذلك هو محكّ الاختبار لنا.

وتبدأ القصة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾.

نلاحظ هنا طيّا لبعض مقدمات القصة في خلق آدم والمباراة العلمية التي جرت بينه وبين الملائكة ثم سجود الملائكة له...إلخ، مما قد فصّله الله في سورتي البقرة والأعراف، فالقصص القرآني يتكامل فيما بينه.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾، أي اذكر يا محمد أو يا أيها المتلقي لبيان القرآن، اذكر ذلك الحدث الذي جرى عندما قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا له سجود تعظيم لا سجود عبادة امتثالا لأمر الله، وهو يريد إظهار فضله وتكريمه بأن يجعله خليفته في الأرض. وكان إبليس بين صفوف الملائكة -وإن لم يكن من جنسهم- كما بيّنا ذلك في سورة الكهف، ولكنه يعلم أن الأمر الإلهي موجّه إليه مع الملائكة الذين سجدوا كلهم لآدم سجود احترام وتكريم، أمّا إبليس فقد امتنع من السّجود، وقد بيّن الله سبب رفضه للسّجود في غير هذه الآية بأنّه الاستكبار والحسد.

ثم يقول تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى، إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى، وَإِنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا

﴿تَضْحَى﴾.

يلاحظ -أيضا- الاختصار؛ لأنّ سجود الملائكة كان لآدم وحده قبل خلق زوجه، كما يلاحظ إسناد الشّقاء إلى آدم وحده بعد تحذيرهما معا من إغواء الشّيطان، قيل: لأنّ المسؤولية تقع على الرّجل في قوامة البيت.

﴿فَقُلْنَا يَا ءَادَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾: بيّن الله سبب تلك العداوة بأنه الامتناع عن السّجود، وأكّدت بمؤكدات: "إنّ" واسم الإشارة والجملة الاسمية. والعداوة إذا أبداها صاحبها فارتقب شرّه، فهي للزوجين معا، ومن خلالهما لذريتهما جميعا، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٢٤). حذرهما الله أن يتسبّب الشّيطان في إخراجهما من الجنة، وقد ضمن الله لهما فيها كل أسباب الحياة الرّغيدة من الطّعام والشّراب والكساء والمأوى فقال: ﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَىٰ، وَإِنَّكَ لاَ تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى﴾.

وقد جمعت الآية في تنسيق بديع ما سيكون مقصد الإنسان من سعيه وكدحه في الدّنيا، فإذا ما تحقّقت له تلك المطالب فقد أعطي الخير كله، وما يكون وراء ذلك فإنما هو طمع وشجع.

وجيء بذكر هذه الكفاية المعيشية بصيغة النّفي؛ لأنّ عدمها هو موضع التّحذير، وهو ما يسبب الشّقاء، أي التّعب، ولذلك تسلل إليهما إبليس اللّعين من وراء إيهامهما بوسيلة استبقائها لهما دائما إذ قال تعالى: **﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا ءَادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى﴾**.

"الفاء" للتّعقيب، وتدلّ على حدوث وسوسة الشّيطان لآدم خلال تقلّبه مع زوجه في نعيم الجنة، وكلّ ذي نعمة محسود. والوسوسة هي الإيحاء الخفيّ يحوك في الصّدر ويلحّ على النّفس الأمّارة بالسّوء لتتزع إلى المعصية. ومضمون تلك

الوسوسة هي قوله: ﴿يَا ءَادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾، استعمل إبليس أسلوب التّشويق والاستدراج، فنادى آدم لينتبه إليه، ثم قدّم إغراءه له بأسلوب العرض: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ﴾، ثم إظهار المعروض -وهو الشّجرة المنهيّ عنها-، إظهارها بمظهر المرغوب فيه والممتاز عن غيرها من الأشجار، بأنها تورّث الخلد والبقاء لآكليها وتمنح لهم ملكا لا يبلى. ومن طبيعة النّفس البشرية أنها تتعلق بالمجهول وتهفو أكثر لما منع عنها. ونعلم من نصّ سورة الأعراف أن وسوسة الشّيطان قد طالت -أيضا- زوج آدم إذ قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ، وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (الأعراف: ٢٠-٢١).

ومع إلحاح التّشويق والإغراء في نفس آدم، لم يزلق لأول وهلة لخوفه من معصية الله، فتسلّط الشّيطان على حوّاء لتساعده على إغراء الرّجل، ولا شك أن للنساء سلطانا على الرّجال، ولهن في ذلك أساليب ماكرة يستعنّ بها في تدبير مكايدهن، كما ورد في الأثر: يشهدن وهن غائبات، ويبكين وهن ظالمات، ويحلفن وهن كاذبات. وكما قال الشّاعر:

إن النّساء شياطين خلقن لنا ... نعوذ بالله من كيد الشّياطين

واقتضت حكمة الله أن يغلب آدم على أمره فأكل هو وزوجه من تلك الشّجرة، قال تعالى: **﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ، ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾**.

تفريع على ما قبله من طيّ بعض الجزئيات دلّ عليها السّياق والتّقدير، إن آدم انساق لوسوسة الشّيطان هو وزوجه فأكلا من الشّجرة ووقعا في المعصية،

وكانا مستورين بلباس الجنة لا يحسّان بتدافع الأخبثين من بول وغائط، فإذا بعورتيهما تنكشفان، فأحسّا بالخجل وتحيّرا كيف يستتران. والمعصية كشف وافتضاح لا مجال لصاحبها في الجنة، ونحن لا ندري نوع تلك الشّجرة، ويبدو من الأثر الذي انجرّ عن الأكل من ثمرها أنها رمز للدنيا ومتاعبها ومفاتنها، فلم يجد آدم وزوجه إلا ورقَ أشجار الجنة وسيلة لستر عورتهما بالخصف والإلصاق.

ويستروح من قوله تعالى: ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ تعقيبا على الأكل من الشّجرة المنهيّ عنها، يبدو -والله أعلم- أنها رمز لفتنة الجنس، وهي بالطّبع من أشدّ الغرائز إلحاحا على الإنسان، فاجتمعت على آدم فتنة البطن بالأكل، وفتنة الفرج ببروزه بعد أن كان مستترا. وهكذا أخطأ آدم وغفل عن أمر ربه فعصاه وتنكّب سبيل الرّشد فضلّ وغوى، وكان ذلك منه وهو إنسان عاديّ في فترة التّربّص والإعداد يمثل فطرة الإنسان العاديّ كما قدّر الله أن يكون في دنياه.

ويقول المولى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾، ترى كم هي المدة التي مكثها آدم في الأرض يبكي على ذنبه ويستغفر الله ويندب حظّه وخروجه من الجنة. فإنّ العطف بـ"ثم" يدلّ على التّراخي إذ علّمه الله فيها كيف يستغفره ويتوب إليه لقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (البقرة:٣٧). فمن تمام الرّعاية من الرّبّ الرّحيم أن يمرّ آدم بتلك التّجربة الصّعبة. وقد قدّر الله عمارة الأرض بذريته، فخرج إلى عالم التّكليف وأصلح من حاله فكانت التّوبة وكان الاصطفاء له من الله ليحمل مشعل الهدى لذريته على نهج الله. وقيل: إنّ هبوطه إلى الأرض كان عند مكان الكعبة، وأنّه أول من بناها وقبلت توبته عندها -والله أعلم-.

أمر الله آدم وإبليس بالهبوط إلى الأرض فقال: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا

يَشْقَى﴾.

الخطاب بالتثنية مراعى فيها آدم وإبليس، و"جَميعاً" للتوكيد، والهبوط يقتضي أن يكون من مكان عال مما يدلّ على أن المقصود بالجنة أنها جنة الخلد، لا مجرّد جنة فيحاء ممتازة على وجه الأرض، كما ذهب إلى ذلك بعض المفسّرين.

وقوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ بصيغة الجمع على اعتبار ما يكون من الذّرية أي تكون العداوة شائعة بين الجميع، إن بين ذرية آدم، أو بين ذرية الشّيطان، أو بين المعسكرين، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ، إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود:١١٨-١١٩). ولا يمكن للعداوة مهما استفحل أمرها أو طال أمدها أن لا تحسم بتحكيم لفضّ النّزاع.

وكان من رحمة الله بخلقه أن لا يتركهم حيارى متخبّطين، وهم على محكّ التّكليف والاختبار، فاقتضت حكمته تعالى أن يبعث الرّسل وينزل الكتب لتحمل مناهج الهدى يحتكم النّاس إليهما، فقال جلّ من قائل: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى﴾.

وإذ هبط آدم وزوجه من عالم المثالية والخير العميم إلى عالم المتناقضات وحياة الغرور والإفتان. فالخطاب هنا: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾ يخصّ آدم وذريته لما أودع الله في فطرتهم من قابلية الخير والشّرّ؛ لأنّ إبليس وذريته قد تمحضوا للشّرّ منذ طرده من رحمة الله.

ولفظ "هداي" هو بمعنى الذّكر المنزل من عند الله على ألسنة رسله، وفي قمة تلك الكتب القرآن الكريم، فهو صراط الله المستقيم الذي لا يضلّ سالكه في الدّنيا ولا يشقى في الآخرة، وكلّ هدى من غير عند الله تأخذون به لا يضمن لكم تلك الاستقامة ولا يحقق لكم تلك السّعادة كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾.

والضّنك هو الضّيق الشّديد، ويستعمل مجازا لعسر الحال واضطراب البال، وتلك حالة بائسة يكون عليها أهل الزّيغ والإلحاد، وأهل الفجور والفسوق، وإن كانت مظاهرهم المادية تستهوي أهل العقول الضّعيفة، كما قال الذين يريدون الحياة لقارون عندما خرج في زينته: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (القصص:٧٩)؛ ذلك لأنّ هؤلاء يفتقدون ذلك الرّصيد الإيماني الذي يجعلهم متوازنين في حالتي السّراء والضّراء، إذ ينحصر همّهم في الاستبقاء لتلك الحظوظ بمختلف الحيل والوسائل، ويزدادون تلهّفا وطمعا للمزيد، فلا يهنأ لهم بال ولا يروق لهم، ذلك جزاؤهم في الدّنيا، فكيف يحشرون إلى الآخرة: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾.

فما أنسب لهم وصف العمى، لما يكون عليه من الحيرة والتخبّط، وهو الجزاء الأوفى لما كان عليه في الدّنيا من الإعراض عن آيات الله.

ولا شك أن العمى يزيدهم ألما في ما يكونون عليه من العذاب والنّكال في هول المحشر، بل يخبرنا المولى عنهم بما هو أنكى من ذلك فيقول: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ (الإسراء:٩٧).

ويقول: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الإسراء:٧٢).

وإذ سلبهم الله حواسّ الإدراك فقد سدّت عليهم طرق النّجاة فلا استغاثة ولا نجدة، أمّا كيف يقرأون كتبهم وهم عمي؟، فلا إشكالية في ذلك؛ لأنّ الخلائق في هول المحشر تمرّ بمراحل عدة: من ساعة يحشرون إلى تمام الحساب. فقد يردّ الله إليهم أبصارهم ليقرأوا كتبهم ثم يُسلبوها، كما يُنطق جوارحهم لتشهد عليهم بما كانوا يعملون.

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا، قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَاتِ رَبِّهِۦ وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾:

وفي تساؤل الحيرة والاضطراب أن يحشر المجرم أعمى، وقد كان في دنياه بصيرا، تأتي الإجابة التوبيخية بالمعاملة بالمثل: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾، والآيات هي بمفهومها الشّامل من الصّامتة والنّاطقة، فالجزاء من جنس العمل، فأنت حشرت اليوم على مثل ما اخترته لنفسك من الإعراض عن النّظر في الدلائل والبراهين التي ترشدك إلى هدى ربّك ونسيت واجبك في التّكليف.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَاتِ رَبِّهِۦ﴾: يحتمل أن تكون هذه الجملة المعطوفة مما يخاطب الله به المجرم إمعانا في التّنكيل والتّوبيخ، كما يحتمل أن تكون تذييلا عاما يقصد بها تذكير السّامعين حتى لا يقعوا في مثل ذلك المصير المشؤوم. واختير فعل "أَسْرَفَ"، وهو تجاوز الحدّ في كلّ ما يتناوله الإنسان في السّلوك أو المعتقد، والمراد به هنا الإمعان في الكفر والضّلال. فيكون المعنى بوجود اسم الإشارة، بأن يكون المشار إليه هو ما ذكر من الجزاء الدّنيوي والأخروي للمعرضين عن ذكر الله. يقول تعالى في بيان ذلك الجزاء: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ﴾ (غافر:٤٣).

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾: وترد على هذه الجملة نفس الاحتمالين السّابقين، لبيان شدّة عذاب الآخرة في الكيفية والنّوعية مقابل عذاب الدّنيا، ويزيده الدّوام الأبدي ضراوة ونكالا.

ربنا آتنا في الدّنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النّار

والله أعلم

حكمة الله في تأجيل العذاب عن الكافرين، ثم أمر الله للرّسول بالصّبر، ومداومة التّسبيح والصّلاة

أ)- النصّ:

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾: يَهْد: من الهداية والبيان، عدّي باللام، وهو مستعار للهداية إلى الأمور العقلية. ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾: كَم: للدلالة على الكثرة. والقُرُون: أهل الأمم السّابقة. ﴿لأُولِي النُّهَى﴾: النُّهَى: جمع نُهْية، بضم النّون وسكون الهاء، اسم للعقل، من النّهي عن الشّيء. ويقال: اللّب أولوا الألباب. واللّبّ هو حقيقة الشّيء وأصله. ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾: في الآية تقديم وتأخير، والتّقدير هكذا: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما. بمعنى أنّ الذي أخّر عنهم العذاب بالاستئصال هو ما سبق في علم الله من تأجيل حلول العذاب بهم إلى أجل قد عيّنه، ولولا ذلك

لكان العذاب قد حَصل. ﴿وَمِنْ ءَانَاءِ الَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾: ءَانَاءِ: جمع إنْي، بكسر الهمزة وسكون النون، ويقال: إنْو، بالواو وهو الجزء من الزّمن. وأطراف: جمع طرف، أي منتهى الشّيء. والمراد أول النّهار وآخره. ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ﴾: الأزواج: يراد به الأصناف المقترنة من المتع، أي ما يحسن في نظر كلّ قرين من محاسن قرينه. ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾: أي بالغ وتكلّف الصّبر في أداء الصّلاة. ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾: أي التّقوى تجيء في نهايتها عواقب الخير، وتصلح العاقبة للخير والشّرّ إلاّ أنّ استعمالها غلب في أمور الخير.

ج)- أوجه القراءة:

﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾: قرأ الجمهور ﴿تَرْضَى﴾ بفتح التّاء أي بالبناء للفاعل، وقرأ الكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿تُرْضَى﴾ بضمّ التّاء، أي يرضيك ربك. ﴿زَهْرَةَ﴾: قرأ الجمهور ﴿زَهْرَةَ﴾ بسكون الهاء، وقرأه يعقوب بفتح الهاء، وهي لغة صحيحة.

د)- البيان والتّفسير:

تفرّع عن الوعيد المتقدم بالمعيشة الضّنك في الدّنيا والعذاب المقيم في الأخرى للمعرضين النّاسين المسرفين في الكفر والعناد، تفرّع عن ذلك هنا هذا الاستفهام الإنكاريّ للتّعجيب من غفلة هؤلاء عن مصير الأمم الخوالي، كيف أبادها الله وأهلكها وهم يمشون في أطلال مساكنهم. ثم بيّن سبب إرجاء العذاب عن مشركي قريش، وبأمر رسوله بحسن الصّبر والمجاهدة والاستعانة بالتّسبيح لله وبالصّلاة حتى تطمئن نفسه وترضى بذكر الله، وهو تعالى كفيل بضمان رزقه وبحسن عاقبته فقال حلّ من قائل: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾: الاستفهام إنكاريّ للتعجيب من غفلة أولئك المكذبين برسالة رسول الله، سواء منهم من كان في وقت التّنزيل أو لسائر الأمة التي أرسل إليها رسول الله. والهداية بمعنى الدّلالة والبيان لينظروا كيف كان عاقبة المكذبين من الأمم الخوالي، وقد أبادهم الله، و لم تبق إلا آثارهم بادية للعيان، يمرّون عليها في أسفارهم ولا يعتبرون، مثل ديار عاد وثمود وقوم لوط في جنوب الجزيرة وشمالها، كما قال تعالى مخاطبا قريشا بالخصوص: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ، وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (الصّافات:١٣٧-١٣٨).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى﴾: أي إن أصحاب العقول النيّرة هم الذين يهتدون إلى تلك العبر وينتفعون بما تدلّ عليه من سنن الحياة وأحكام الاجتماع البشريّ كما قال الشّاعر:

تلك آثارنا تدلّ علينا ... فانظروا بعدنا إلى الآثار

واختيار كلمة "النُّهَى" للعقل هنا تعطي معنى زائدا، إذ أنها من النّهي عن الشّيء، فإذا نظرت بعقلك النّاهي إلى آثار من سبقوك واستحضرت وضعية حياتهم في الجبروت والتّرف والخيلاء كيف أصبحت قصورهم أثرا بعد عين، فإنك -ولا شك- سوف تذكر وتعتبر وتكون متوازنا في حياتك بفضل نظرات عقلك الحصيف. وما أبدع إحلاء المعرّي لهذا المعنى في الاعتبار إذ قال:

صاح، هذي قبورنا تملأ الرّ ... حبَ فأين القبور من عهد عاد؟
خفف الوطء ما أظن أديم الأ ... رض إلا من هذه الأجساد
سر إن اسطعت في الهواء رويدا ... لا اختيالا على رفات العباد
وقبيح بنا وإن قدم العهد ... هوان الآباء والأجداد

﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾: تولّد عن التّحذير الوارد في الآية السّابقة من أن يصيب المكذبين برسالة الرّسول ما أصاب من سبقهم بعذاب الاستئصال، تولّد عطف هذه الجملة الشّرطية عليها بأداة "لَوْلاَ" التي تدلّ على امتناع لوجود، فقد يظن القوم أنهم في منعة من ذلك العذاب فأخبرنا ربنا -سبحانه وتعالى- أنه ما منعه أن يفعل ذلك بهم إلا أمران:

أ)- ﴿كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾: أي أنه تعالى تقرّر في علمه الأزلي أن يرفع عذاب الاستئصال عن أمة الرّسول، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الأنفال:٣٣). ولبيان حكمة ذلك قال رسول الله ﷺ: «**أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا**»[1]، وذلك ما تحقق في الواقع التّاريخي.

ب)- ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾: وفي هذا المعنى قوله تعالى إجابة على من يستعجل عذاب الله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ، قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لاَّ تَسْتَاخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلاَ تَسْتَقْدِمُونَ﴾ (سبأ:٢٩-٣٠).

وقوله: ﴿لَكَانَ لِزَاماً﴾ هو جواب للشّرط تحلّل أجزاء جملة الشّرط، بمعنى: لولا حكمة الله في ما قدّره لكان الهلاك نازلا لهم لزاما. فليس معنى الآية أن الله عطّل سنّته في العقاب على الذّنب كلية، إذ أن الواقع التّاريخي قد دلّ على أن الغلاة من كفار قريش قد نالهم عذابُ القتل والأسر في بدر وغيرها، وإنما يتجه معنى الآية إلى عذاب الاستئصال الكليّ.

ثم وجّه الله الخطاب إلى رسوله مسليا ومصبرًا فقال: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا

١- رواه البخاري من حديث عائشة، كتاب (٥٩) بدء الخلق، باب (٧) إذا قال أحدكم: آمين، والملائكة في السماء، رقم ٣٢٣١.

يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَاءِ الَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾.

ولا شك أن الإمهال للكفار قد زادهم تعنّتا وعنادا في مواقفهم من رسول الله، ومن الطّبيعي أن يضيق بهم ذرعا ويتمنّى تأديبهم، فلا بدّ من تثبيته وشدّ أزره لمواجهة ذلك الموقف فجاء الإرشاد الإلهي له بالصّبر والتّسبيح لله حامدا إياه على نعمه.

وقد أورد القرآن أنواعا من تلك الأقوال التي كان يتأذّى منها رسول الله من مثل قولهم: أنه ساحر كذاب، أو أنه شاعر مجنون. وقد أبان القرآن كذبهم وأباطيلهم في ذلك وردّ عليها ردّا مفحما بليغا.

أما وقد بيّن الله حكمة تأجيل العذاب عنهم، فقد ربط الأمر بالصّبر بـ"فاء" التّفريعية حتى لا يأبه الرّسول بما يقولون، ولا يستعجل عذابهم. والتّسبيح هو التّنزيه المطلق لله تعالى، ويكون مصحوبا بحمده بكيفية دائمة متتالية في كل الأوقات التي تتوزع على فترات النّهار واللّيل، فيجوز أن يراد بها الصّلوات الخمس بين اللّيل والنّهار كما في قوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (الإسراء:٧٨). وذلك على اعتبار أن الصّلاة تشتمل على التّسبيح والتّحميد والتّكبير، كما يجوز أن يراد بالسّياق التّسبيح المطلق والحمد. ويلاحظ نوع اهتمام بأوقات اللّيل بتقديم الجار والمجرور: ﴿وَمِنْ ءَانَاءِ الَّيْلِ﴾ على الفعل: ﴿فَسَبِّحْ﴾، والرّبط بينهما بالفاء، وذلك لمزيد الاهتمام بهذا الوقت؛ لأنّه مجال للدّعة والسّكون، فيكون أنسب للاتصال بالله ومناجاته.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ والخطاب لرسول الله، ومن خلاله لكل أمته. فالحصول على الرّضى يكون ذاتيا للمسبّح بما يعود عليه بالنّفع؛ لأنه سوف يحقق بذلك مبتغاه من الاطمئنان النّفسيّ والسّموّ الرّوحي، كما قال رسول الله:

«**وجعلت قرة عيني في الصّلاة**».[1] ولا يكون رضاك الكامل -أيها المؤمن- إلا من رضى الله عليك: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة:٧٢).

فإنّ كلّ معاناة مهما اشتدت على المؤمن وواجهها بالصّبر واليقين، فإن الفرج القريب يعقبها -لا محالة- وحينئذ يشعر المهموم بالرّضى وتزاح عن نفسه مشاعر الضّيق والكدر؛ لأنّ الصّبر مفتاح الفرج.

وهناك ما قد يسبّب القلق والحيرة في النّفس إذا كان صاحبها ينظر بشره إلى متع غيره ولذاته الدّنيوية وهو محروم منها، إذ اقتضت حكمة الله أن يجعل النّاس متفاوتين في الحظوظ والأرزاق.

وربما يكون الكفار والعصاة -أحيانا- أكثر متعة بزينة الدّنيا، فيجد المؤمنون الفقراء من ذلك شيئا في نفوسهم. ولعلاج ذلك أرشد الله رسوله -وهو قدوة لأمته- أن لا يتطلع إلى ما متع الله به أصنافا من خلقه من زينة الحياة الدّنيا فقال: ﴿**وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى**﴾.

جاء الإرشاد بصيغة النّهي المؤكّد، وبتعبير "مدّ العين" الذي يدلّ على إطالة النّظر بدافع التّشهّي والتّعجيب؛ لأنّ مدّ النّظر يقتضي الإمعان في التّأمّل الذي يوصّل في النّفس ذلك المشتهى، فنهى الله رسوله عن ذلك الالتفات إلى تلك المتع، وشبّهها بالزّهرة في قصر عمرها وبريقها الزّائف؛ لأنّ إضافتها إلى الحياة الدّنيا تحقير لشأنها، وإن ذلك يندرج في الابتلاء والاختبار لأولئك المترفين فيزدادون طغيانا، ويفتنون بما هم فيه. كما قال تعالى عنهم: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ، نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ (المؤمنون:٥٥-٥٦).

١- رواه أحمد في المسند من حديث أنس بن مالك، رقم ١١٨٤٥، ١١٨٤٦.

ويقال لمثل هؤلاء يوم القيامة وقد ماتوا على الكفر والفسوق: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ (الاحقاف: ٢٠).

﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾: الإضافة تشريفية لكلمة: "رَبِّكَ" تدلّ على كمال الرّعاية الرّبانية برسوله، وقد كفل له كلاً من الرّزق الماديّ والمعنويّ، إيمانا وهداية ورزقا كفافا حلالا هو خير من النّعيم الزّائل الباعث على الهمّ والكدر، وحسب ذلك الرّزق من الخيرية أنه باق خالد.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾:

أهل الرّجل هم أزواجه وأولاده وأفراد أسرته بصفة عامّة، فهو منهم بمثابة العمود الفقريّ للجسد، وهم منه كالجوارح يتكاملون في بناء الأسرة ويتعاونون في توفير السّعادة لها، فإذا كانت العلاقة في أسرة المترفين الكفرة هي الشّهوة والمتعة، فإنّ المؤمنين في علاقتهم بأهليهم وذويهم هي تلك الصّلة الرّوحية الوثقى بالله ماثلة في إقامة الصّلاة والاصطبار عليها، ورسول الله هو المثل الأعلى لهم في ذلك، فإذا أقيمت دعائم البيت المسلم على التّقوى والتّوجّه إلى الله في كلّ حين، فإنّ ذلك البيت لا تدخله الشّياطين، ولا يتطرق إليه الوهن، بل يصبح وحدة متماسكة في صرح المجتمع بما يحفظ وحدته وانسجامه.

﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾: فالخطاب للرسول ومن خلاله لجميع المؤمنين، أي لا يكون طلب الرّزق لك ولأهلك شاغلا لك عن عبادة الله؛ لأنّه تعالى قد كفل الرّزق لعباده المخلصين فهو يرزقهم من حيث لم يحتسبوا، وليس معنى ذلك تعطيل الكسب والارتزاق، كلاّ، وإنما هو توفير

للاطمئنان والثّقة بالله في تيسير سبل العيش للمؤمن الوفيّ. ومن ذلك ما يجب أن يكون من التّعاون والتّكامل بين المؤمنين في رعاية الفقراء والأيتام والمرضى.

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾: العاقبة هي المآل والمصير، فالاستعانة بالصّبر والصّلاة كما أمر الله المؤمنين لا يعقبها إلا النّصر والتّمكين والعيش الهنيء في الحياة الدّنيا، وفي الآخرة بحسن المآل والنّعيم المقيم؛ لأنّ المؤمن مهما أعيته الحيل في سعيه وتعثرت به الأسباب، فإنه يلتجئ إلى مسبّب الأسباب ليفتح عليه مغاليق الأبواب، والله أعلم.

الرّدّ على المشركين في طلبهم الإتيان بآية، وتهديدهم بمآل المستقبل

أ)- النصّ:

وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

ب)- التّحقيق اللّغويّ:

﴿لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾: القائل هم المشركون. لَوْلَا: للتحضيض والطّلب. يَأْتِينَا: الضّمير يرجع إلى الرّسول. والمقصود بـ"الآية" المعجزة الحسية التي تدلّ على صدقه، كعصا موسى وناقة صالح. ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ

الأُولَى﴾: الاستفهام إنكاريّ، والبيّنة: الحجة. والصُّحُف الأُولَى: هي كتب الأنبياء السّابقين، فالرّسول والقرآن هما أعظم بيّنة؛ لأنّ الرّسول أمّي، والقرآن جاء مصدّقا لما بين يديه من الكتب. ﴿وَلَوْ أَنَآ أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ﴾: "لَـو" أداة شـرط تفيد امتناع الجواب لامتناع الشّرط. من قَبْله: الضّمير يرجـع إلى القـرآن أو إلى الرّسول. ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى﴾: الذّلّ في الدّنيا بالقتل والأسر. والخزي: هو الافتضاح بتخاذل النّفس بعد ارتفاعها، والمقصود به عذاب يوم القيامة، ومنه دعاء إبراهيم: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ (الشعراء:٨٧). ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾: كُـلٌّ: التّنوين عوض عن المضاف إليه المفهوم من المقام. والتّربّص: الانتظـار لحـصول حدث من خير أو شرّ. ﴿مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾: الـصِّرَاط: الطّريـق مستعار للدّين. والسَّوِيّ: بمعنى: مفعول من الاستواء ضدّ العوج.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ﴾: قرأ نافع وحفص وابن جماز عن أبي جعفر: ﴿تَأْتِهِمْ﴾ بتاء المضارع للمؤنث، وقرأه الباقون بتحتية المذّكر؛ لأن تأنيث البيّنة غير حقيقي.

د)- البيان والتّفسير:

بعد الإرشاد الإلهي لرسوله بالصّبر والصّلاة، وعدم التّطلع إلى ما يتمتع بـه القوم من نعيم الدّنيا وزخرفها، وأنّ ما أعطاه الله من كفاف الرّزق مع علوّ الذّكر وعظيم الأجر هو خير وأبقى، يعود السّياق هنا إلى التّنويه بشأن القـرآن، وأنّـه المعجزة الخالدة لرسول الله، وذلك بالتّشنيع على أقاويل الكفار في طلبهم للرّسول الإتيان بحجة حسّية تدلّ على صدقه، ثم بتهديدهم بما ستكون عليه أحوالهم يـوم القيامة. فقال جلّ وعلا: **﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِـي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾**.

﴿وَقَالُواْ﴾: أي المشركون في معرض التّعنّت والعناد. ﴿لَوْلاَ يَاتِينَا بِئَايَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾: "لَوْلاَ" هنا لمعنى التّحضيض والطّلب، يأتينا محمد بحجة حسّية تدلّ على صدقه، كما أتى بذلك الأنبياء من قبله كعصا موسى وناقة صالح ومعجزات عيسى.

وقد تعدّدت مثل تلك الطّلبات في القرآن الكريم تتلوها ردود الله بأن ذلك ليست بمهمّة رسول الله، إذ ليس عليه إلا البلاغ المبين لما أوحي إليه، وأن إنزال الآيات هو من خصوصيات الله تعالى لا دخل لرسل الله فيها، إذ يترّلها متى شاء وفق علمه وحكمته.

وقد يأتي الجواب كما في هذه الآية الكريمة بأن هذا القرآن الذي تحدّى بلاغتكم وفصاحتكم، وهو يخبركم بما كان في الأمم السّابقة مع رسلها، هذا القرآن هو أعظم حجة لما تطلبون، اقتضت حكمة الله أن يكون هو المعجزة الخالدة حتى قيام السّاعة؛ لأنّ المعجزة الحسيّة مهما عظم شأنها فإنها لزمان ومكان معيّنين ثم تنقضي آثارها.

وفي معنى هذه الآية الكريمة قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَقَالُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللهِ وَإِنَّمَآ أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ، أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٠-٥١).

ومن تمام حكمة الله ولطفه بخلقه أنّه تعالى أقام الحجّة على خلقه بإرسال الرّسل وإنزال الكتب كما قال تعالى: ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ (النساء:١٦٥).

ومعنى ذلك أنّ الله لا يؤاخذ من عاش في فترة ما بين الرّسل، إذ أن الاستدلال على وحدانية الله على طريق العقل وحده قد لا يهدي إلى الحقيقة، فلا

بدّ من رسول يوقظ ذلك العقل ويحرّك الفطرة السّليمة.

وقريش هم من أهل الفترة قبل بعثة رسول الله، فقطع الله عنهم أي حجّة يتمسّكون بها يوم القيامة فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى﴾.

الحديث عن المشركين في الرّدّ عن شبهاتهم. والضّمير في "قَبْلِه" يعود إلى الرّسول أو إلى القرآن. ومعنى الآية المصدّرة بـ"لو" أن الله قطع عليهم الحجة يوم القيامة بأن يقولوا: يا ربنا هلاّ أرسلت إلينا رسولا يرشدنا ويهدينا، فنتبعه قبل أن نهلك في الدّنيا والآخرة. فقد امتنع ذلك القول منهم لعدم إهلاكهم قبل إرسالنا إليهم. فهم -إذن- في كل أحوالهم معاندون متعنّتون، فما عليهم إلا الانتظار لما سيحلّ بهم.

ولذلك أمر الله رسوله أن يتركهم لعاقبة أمرهم، ويتمسّك بما هو عليه من الحق والهدى فقال: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾، أي كل فريق منا منتظر عاقبة أمره.

والأمر في: "قُلْ" للإنذار والمتاركة. ويحتمل أن يكون: ﴿كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾ من مقول القول لرسول الله، ويحتمل أن يكون من إنذار الله، أمر رسوله بتبليغه.

ومتى سيعلم الكفار عاقبة أمرهم؟. هو على اليقين في الآخرة، ويمكن أن يتمّ ذلك في الدّنيا، مفاد علمهم أن يتحققوا من كان يحقّ على الطّريق المستقيم مهتديا، ومن بقي على الغيّ والضّلال.

ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٤).

وهكذا تنسجم خاتمة السّورة الكريمة مع فاتحتها لما في كلتيهما من التّسلية

لرسول الله بأنه قد بلّغ واجتهد في أداء مهمّته، وما عليه بعد ذلك أن يؤمن النّاس به أو لا يؤمنوا، لأن القرآن كتاب تذكير وموعظة، لا كتاب إرهاق وشقاء.

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهّاب.

والله أعلم

تمّت

تمّ بحمد الله الجزء الثامن،

ويليه بإذن الله تعالى الجزء التّاسع،

من بداية سورة الأنبياء.

الفهارس

فهرس الآيات والعناوين الرّئيسيّة 482
فهرس الأحاديث 488
فهرس الآثار 492
فهرس الأبيات الشّعرية 493

فهرس الآيات والعناوين الرئيسيّة

تفسير سورة الإسراء

الآية	العنوان	الصّفحة
-	بين يدي السورة	5
03-01	منتا الله تعالى على محمد بالإسراء، وعلى موسى بإنزال التوراة	8
08-04	تقلب أحوال بني إسرائيل بين العزّ والذّلّ، وفق موقفهم من هدي كتبهم	15
11-09	هداية القرآن، وطبيعة الإنسان	21
17-12	دلائل القدرة الإلهية في الآفاق، والمسؤولية الشخصية للإنسان ولا تكليف قبل الشرع	25
21-18	الله يمدّ للإنسان على حسب همّته من إرادته للدنيا أو إرادته للآخرة.	32
30-22	أصول بناء المجتمع وإصلاح أركانه (1)	37
39-31	أصول بناء المجتمع وإصلاح أركانه (2)	51
44-40	التنديد والرّدّ على من نسب الولد إلى الله	64
48-45	تأمين الرسول من مكر المشركين إذا قرأ القرآن	70
52-49	إنكار المشركين البعث، والرّدّ عليهم	75
55-53	إرشاد المؤمنين إلى مجادلة مخالفيهم باللين	80

60-56 الثناء على المقرّبين، وإنذار المشركين 85
65-61 قصّة آدم مع إبليس، بدافع الكبر والحسد 92
70-66 رعاية الله لبني آدم، وتكريمه إياهم 97
77-71 تفاوت أحوال الناس في الآخرة، ومحاولة المشركين فتنة النّبيّ، وطرده من مكة..... 103
84-78 التوجيه الإلهي لرسوله بالإقبال على الطاعة، والإعلان عن إزهاق الحق للباطل..... 109
85 حقيقة الروح لا يعلمها إلا الله تعالى..... 117
93-86 إعجاز القرآن، وطلب المشركين بمعجزات أخرى..... 120
100-94 من شبهات المشركين استبعاد أن يكون الرّسل بشرا، وإنكار البعث..... 128
104-101 الآيات التسع لموسى التي لم يهتد بها فرعون 135
111-105 التنويه بشأن القرآن، ودعاء الله بالأسماء الحسنى..... 141

تفسير سورة الكهف

- بين يدي السورة..... 149
08-01 بيان صيغة الثناء على الله، وبيان مهام القرآن 152
26-09 قصة أهل الكهف..... 158
12-09 مشاهد القصة 161
16-13 المشهد الأول من القصة: اللجوء إلى الكهف، والحديث المتبادل..... 164

18-17 المشهد الثاني: وضعيتهم في الكهف 170
20-19 المشهد الثالث: العبرة لأهل الكهف بأنفسهم، وطلبهم الطعام 174
26-21 المشهد الرابع مع خاتمة القصة: العثور عليهم واختلاف الناس في عددهم، ثم استخلاص العبرة من القصة 177
31-27 توجيه الرسول لتلاوة القرآن، ومجالسة الفقراء، والجهر بالحق وبيان ما يلحق المؤمنين والكافرين من الجزاء 183
44-32 مثل النموذجين من الناس، الغني والفقير 192
46-45 مثل الحياة الدنيا، وبيان عاقبة الأعمال الصالحة 202
49-47 من مشاهد يوم القيامة 207
53-50 قصة آدم وإبليس عند بدء الخليقة 212
59-54 التنويه بهدي القرآن، وبيان مهمة الرّسل، وحكمة تأخير العذاب عن المعرضين 217
76-60 قصة موسى مع الخضر عليهما السلام 225
82-77 المشهد الثالث من قصة موسى مع الخضر، مع تأويل تلك التصرفات 238
98-83 قصة ذي القرنين 246
106-99 وضعية الخلائق بعد الهدام السّدّ، وعاقبة الكفار يوم القيامة 263
110-107 جزاء المؤمنين، وبيان سعة علم الله تعالى، والدعوة إلى توحيده 271

تفسير سورة مريم

- بين يدي السورة 278
11-01 استجابة الله لدعاء زكرياء، وبشارته بيحيى 280
15-12 بيان فضائل يحيى عليه السلام 289
22-16 قصة مريم العذراء: حملها بعيسى عليه السلام 293
33-23 ولادة عيسى، ونبوءته، ونطقه في المهد 300
40-34 تمييز عيسى بن مريم عن اختلاف اليهود والنصارى فيه .. 309
50-41 مناقشة إبراهيم لأبيه في عبادة الأصنام 314
57-51 في موكب الأنبياء والمرسلين 320
63-58 صفات الأنبياء، وصفات من خَلَفهم، وصفات التائبين وجزاؤهم 326
65-64 لا تتنزل الملائكة إلا بأمر الله تعالى 333
72-66 إبطال شبهة المشركين في إنكار البعث 338
76-73 غرور المشركين بحسن حالهم في الدنيا 345
82-77 من ظواهر الكفر والشرك: الاستخفاف بيوم البعث، والاستنصار بغير الله 350
95-83 عاقبة من اتخذ الشياطين أولياء، والرّدّ على من نسب الولد إلى الله 355
98-96 محبة الله للمؤمنين، وتيسير القرآن للذكر 362

تفسير سورة طه

- بين يدي السورة 367
08-01 في إنزال القرآن سعادة للرسول ﷺ، وتذكرة لمن يخشى الله تعالى 369
16-09 من قصة موسى عليه السلام: إظهار النار له رمز لتلقّيه الوحي . 374
36-17 معجزات موسى، وأمر الله له بالذهاب إلى فرعون 380
41-37 التذكير بمنن الله على موسى قبل النبوءة 389
48-42 الأمر بمرافقة هارون لموسى، وتوجيهات الله لهما في دعوة فرعون 396
55-49 محاورة فرعون لموسى حول الربوبية 401
59-56 اتهام فرعون لموسى بالسحر،وطلبه للمبارزة مع السحرة . 406
64-60 مبادرة فرعون بالاستعداد للموعد المضروب، وتحذير موسى إياهم 410
76-65 إجراء المباراة السحرية، وإعلان السحرة إيمانهم بالله 415
82-77 خروج بني إسرائيل من مصر، وإغراق فرعون وجنوده .. 423
89-83 ميقات الله لموسى، وفتنة السامري بالعجل 428
98-90 تمرد بني إسرائيل على هارون، ومعاتبة موسى له، وإلقاء العجل في البحر 436

104-99 العبرة من قصص القرآن، وجزاء المعرضين عنه..... 443
112-105 من مشاهد يوم القيامة 447
114-113 التّنويه بشأن القرآن، والأمر بعدم التّعجيل بقراءته قبل إتمام الوحي على الرّسول..... 453
127-115 فتنة آدم بالشّيطان، وإخراجه من الجنّة، مع بيان جزاء المطيع للهدى الإلهي، وجزاء المعرض..... 458
132-128 حكمة الله في تأجيل العذاب على الكافرين، ثم أمر الله للرسول بالصّبر، ومداومة التسبيح والصلاة..... 468
135-133 الرّدّ على المشركين في طلبهم الإتيان بآية، وتهديدهم بمآل المستقبل..... 475

فهرس الأحاديث

طرف الحديث	الصّفحة
أبغض الرّجال إلى الله الألدّ الخصِمُ	365
أتى رسول الله ﷺ رجل ومعه شيخ كبير.....	45
اتلوا القرآن وابكوا	330
أخبرني عن السّاعة	78
إذا أحبّ الله عبدا نادى في السّماء	363
إذا سألتم فاسألوا الله الفردوس الأعلى	271
إذًا يرفضكم الله جميعا	48
الذي أمشاهم على رجلهم.....	133
أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله	471
استيقظ الرّسول من نومه	250
أعبد الله على الرّضا	337
أما موسى فرجل آدم طُوال	384
إن أبرّ البرّ أن يصل الرّجل ودّ أبيه.....	45
إن الرّجل من أمتي ليشفع في الفيام من النّاس	359
أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة ليلا.....	221
إن شئتم دعوت الله فأنزلها عليكم	89
إن عبدي كلّ عبدي الذي يذكرني	398
إن الله طيّب، ولا يقبل إلاّ الطّيب	277

إن لله عبادا لو أقسموا على الله لأبرّهم 359
إن للشّيطان لَمّة بابن آدم، وللملك لَمّة 214
إن موسى قام خطيبا في بني إسرائيل 232
أن النّاس يصيرون يوم القيامة جُثًا 113
أن النّبي ﷺ كان يقرأ كل ليلة 5
إنهن من العتاق الأول 5
بدأ الدّين غريبا وسيكون غريبا 169
بعثت والسّاعة كهاتين 261-78
بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ 45
تبلغ الحلية من المؤمن 190
جاء أعرابيّ إلى النّبي ﷺ فقال: علّمني 122
جاء رجل إلى النّبي ﷺ فقال 42
وجعلت قرة عيني في الصّلاة 473
الخير كله بيدك والشّرّ ليس إليك 116
خير ما قلته أنا والنبيون 373
ربّ كلمة لا يأبه بها الإنسان 156
رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف 41
سألت رسول ﷺ أيّ الأعمال أفضل 41
سألت رسول الله ﷺ عن الآية فقلت 358
سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله 206
سبحانك لا نحصي ثناء عليك 150

ستكون فتن كقطع اللّيل المظلم 170
شابّ نشأ في عبادة الله 167
عينان لا تمسّهما النّار 145
فيها ما لا عين رأت 190
كنت رجلا قيّنا -أي حدّادا- 351
الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت 34
لعن الله الذين يتخذون المساجد على القبور 180
لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم..... 24
لا تشدّ الرّحال إلا لثلاثة مساجد 10
لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول 29
لا يدخل الجنة من كان في قلبه 62
لا يزال العاق يدعو لوالديه بعد موتهما..... 46
لا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسّلاح 82
لا يقل أحدكم: أطعم ربك 226
لا يزني الزّاني حين يزني وهو مؤمن 331
اللّهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي 303
اللّهم لا تكلني إلى نفسي 108
لو علم الله تعالى شيئا أدنى من "الأفّ"..... 43
ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة..... 79
ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل 199
ما ظنك باثنين الله ثالثهما 414

ما من ذنب بعد الشّرك بالله أعظم 57
ما يمنعك أن تزورنا 334
المؤمن سمح إذا باع 59
المؤمن القويّ خير وأفضل وأحبّ إلى الله 291
مرّ رسول الله ﷺ بسعد وهو يتوضأ 49
من أراد الله به خيرا 135
من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة 47
مَن حفظ عشر آيات 149
من قال حين يسمع النّداء 113
من قرأ الكهف يوم الجمعة 149
من قرأها ليلة الجمعة 150
من ولي منكم عملا فأراد الله به خيرا 88
المُهل كعَكَر الزّيت 189
وهل يكبّ النّاس في النّار على وجوههم 82
هو تنزيه الله من كل سوء 8-12
وجبت محبتي للمتحابين من أجلي 363
يحشر الله الخلق ثم ينادي 210
يحشر المتكبّرون يوم القيامة مثل الذّرّ 269
يحشر النّاس يوم القيامة حفاة 209
يوشك أن يكون خير مال أحدكم 169
يوضع الصّراط بين ظهرانيّ جهنم 342

فهرس الآثار

طرف الأثر	الصّفحة
إذا قرأتم سجدة "سبحان" فلا تعجلوا (ابن عباس)	330
إن التّوراة كلها في خمس عشرة (ابن عباس)	5
أنّ قريشا لما سألوه عن أصحاب الكهف (ابن عباس)	334
أن اليهود أمروا المشركين (ابن عباس)	149
إنه عليه السلام إذا زال زال تقلعا	63
إني لآخذ بزمام العضباء (أسماء بنت يزيد)	335
إني لأصدّقه بأبعد من ذلك (أبو بكر الصديق)	12
سمع أبو جهل النّبي ﷺ يقول: يا الله يا رحمن	146
عجيب أمر هؤلاء (ابن عباس)	421
فزعت السّماوات والأرض (ابن عباس)	361
لقد رأيته يترل عليه الوحي (عائشة)	335
ليس الإيمان بالتّمنّي (الحسن)	155- 34
المراد تقريب وقت البعث (الحسن)	80
من أضاع الصّلاة فهو لما سواها أضيع (عمر بن الخطاب)	330
نزلت في الوليد بن المغيرة (ابن عباس)	29
هم ناس من أهل الكتاب (مجاهد)	145
هو السّجن (ابن عباس)	16
هو أن يقول له: يا أبتاه يا أمّاه (عمر بن الخطاب)	44

فهرس الأبيات الشّعرية

صدر البيت	الصّفحة
إذا جاء موسى وألقى العصا	420
وإذا العناية لاحظتك عيونها	393-374
إذا ليلة ضاقتك بالسّقم لم أبت	42
أعلمت أشرف أو أجلّ من الذي	393
ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل	202
ألم تر أن الله أوحى لمريم	305
أو بأن يسكنوا الجنان فيحظوا	148
فأوليتني حق الجوار و لم تكن	43
فإن زجروا بالنّحس طيرا تمرّ بي	28
إن النّساء شياطين خلقن لنا	463
أنا البحر في أحشائه الدرّ كامن	455
وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت	21
تخاف الرّدى نفسي عليك وإنها	43
تلك آثارنا تدلّ علينا	470
جعلت جزائي غلظة وفظاظة	43
خفف الوطء ما أظن أديم الأرض	470
رعاية الله أغنت عن مضاعفة	73
سر إن اسطعت في الهواء رويدا	470

صاح، هذي قبورنا تملأ الرّحب 470
العيش نوم والمنية يقظة 80
غذوتك مولودا وعلتك يافعا 42
وفي كل شيء له آية 405
وقبيح بنا وإن قدم العهد 470
وقد تغدر الدّنيا فيمسي غنيّها 200
كأن أنا المطروق دونك بالذي 42
كلهم يعبدونك من خوف نار 147
وكم طامع في حاجة لا ينالها 200
وكم قد رأينا من تكدّر عيشة 200
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة 455
لقد عرفنا كما عرفتم الهيولى 120
ولله في كل تحركة 405
لا تقرب الورد حتى تعرف الصّدرا 113
لا خيل عندك تهديها ولا مال 49
لا يعدم السّائلون الخير من خلقي 50
فلما بلغت السّنّ والغاية التي 43
ولو شاء أدنى الجذع من غير هزه 305
فليتك إذ لم ترع حق أبوّتي 43
ليس لي بالجنان والنار حظ 337-148

وما انتفاع أخي الدّنيا بناظره 106
متى تحمل القلب الزّكيّ وصارما 386
ومن يك ذا فم مرّ مريض 125
وسِعت كتاب الله لفظا وغاية 455
وطني لو شغلت بالخلد عنه 271
يُغمى على المرء في أيام محنته 269

تعريف مختصر بالمؤلف

هو محمد بن ابراهيم سعيد المعروف بـــ(كعباش)، من مواليد بلديـــة العطف ولاية غرداية، من الجمهورية الجزائرية، وآل سعيد فرع أصـــيل مـــن عشيرة أولاد بكّة في بلدة العطف(تاجنينت).

أبصر نور الحياة خلال 1929م في حضن أبوين كريمين:سعيد ابراهيم بن باحمد، وهون شيخة بنت الحاج محمد. تركه والده فقيراً يتيماً لا يزيد عمره عن سنتين، وليس معه إلا أختان، توفّيت إحداهما فأصبح وحيد أمّه وقرّة عين لها، فاعتنت بتربيته على حبّ الله ورسوله وعلى حفظ كتاب الله في سنّ مبكّرة، وقد وهبه الله ذاكرة قويّة وذكاءً لامعاً، ولم يكن كتّاب قريته ليُقْنِع طموحه في التّعلم، فارتحل إلى معهد القرارة عند الإمام الشيخ بيّوض الحاج ابراهيم بن عمر، ثم إلى تونس الخضراء حيث درس العلوم العربية والشرعية في الجامع الزيتوني ودرس العلوم التطبيقية في المعهد الخلدوني.

بدأ العمل في مجال التربية والتعليم أستاذاً ومديراً في القطاع الدّيني الحرّ في فترة الإستعمار، ثم في القطاع العمومي بعد الإستقلال الوطني حتى تقاعده عن العمل سنة 1990م.

انتسب إلى الجامعة الجزائرية في أوائل السبعينيات فحصل على شهادة الليسانس في الأدب العربي، وانخرط عضوا رسميّاً في حلقة العزابة للمسجد الجامع بالعطف في سنة 1958م، ثم عيّنته الحلقة إماماً ومرشداً في سنة 1970م، وهو ما يزال يقوم بمهمّته النّبيلة في الإصلاح الديني والاجتماعي نصحاً وإرشاداً وتجليةً لمعاني كتاب الله وسنّة رسوله على منبر المسجد، بعد أن حدا بصفوف الأجيال على مقاعد الدّراسة لما يقرب من أربعين سنة في مسيرة

مهنية متواصلة لم تنقطع بفترة مرض أوانحراف عن الخط لوجهة أخرى، وذلك بفضل الله تعالى.

وقد أسهم المؤلف بقسط وافر من التّضحية والجهد في صفوف جبهة التحرير الوطني ويتشرّف بعضوية منظمة المجاهدين دون منّ ولا غرور، وهو متزوّج وأب لتسعة أولاد، وفّقه الله تعالى إلى مواصلة مسيرته في نصرة دينه وخدمة كتابه، وجعل عمله خالصاً مخلصاً لوجهه الكريم، آمين.

- **الجزء الأول:** من بداية سورة الفاتحة إلى الآية **203** من سورة البقرة.
- **الجزء الثاني:** من الآية **204** من سورة البقرة إلى الآية **175** من سورة آل عمران.
- **الجزء الثالث:** من الآية **176** من سورة آل عمران إلى الآية **26** من سورة المائدة.
- **الجزء الرابع:** من الآية **27** من سورة المائدة، إلى آخر سورة الأنعام.
- **الجزء الخامس:** من بداية سورة الأعراف إلى الآية 33 من سورة التوبة.
- **الجزء السادس:** من الآية 34 من سورة التوبة، إلى آخر سورة هود عليه السلام.
- **الجزء السابع:** من بداية سورة يوسف عليه السلام إلى آخر سورة النحل.
- **الجزء الثامن:** من بداية سورة الإسراء إلى آخر سورة طه.

أيها الأخ المسلم:

لاشك أنك تتعرض لنفحات الرحمن وأنت تناجيه في صلاتك، أو تهيم في جلاله وأنت في خلواتك، أو تتلو كتابه في تدبر وإمعان، فتزيد إيمانا على إيمان...

لقد من الله علي بتلك النفحات، وأنا أرتع في رياض كتابه، وأستجلي مكنونات أسراره وعجائبه تحقيقا وتسجيلا على صفحات الدفتر ووعظا وإرشادا على خشبات المنبر، فها أنذا أهديكها "أيها الأخ المسلم" خالصة نقية، وأنت الأخ الوفي، فتقبل مني هذه الهدية.

المؤلف

ردمك: I.S.B.N: 978-9947-845-10-3